الدار العربية للعلوم ناشرون
Arab Scientific Publishers, Inc.

TOM ROB SMITH
توم روب سميث

رَجُلُ النِظام البَوليسيّ

CHILD 44

«الرواية الأشد بلاغة وذكاء وتشويقاً حول الوقائع المثيرة للحرب الباردة، منذ أن صدرت رواية حديقة غوركي لمارتن كروز سميث».

– كايت ساوندرز، صحيفة التايمز

مكتبة | 165

رَجُلُ النِظام البوليسيّ

CHILD 44

telegram @ktabpdf

مكتبة الرمحي أحمد

بسم الله الرحمن الرحيم

يتضمن هذا الكتاب ترجمة الأصل الإنكليزي
CHILD 44
حقوق الترجمة العربية مرخّص بها قانونياً من الناشر
Pocket Books an imprint of Simon & Schuster UK Ltd.
بمقتضى الاتفاق الخطي الموقّع بينه وبين الدار العربية للعلوم ناشرون، ش.م.ل.

Copyright © 2008, 2009 by Tom Rob Smith
All rights reserved
Arabic Copyright © 2011 by Arab Scientific Publishers, Inc. S.A.L

الطبعة الأولى
1432 هـ - 2011 م

ردمك 978-614-01-0303-0

telegram @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

رَجُلُ النِظام البوليسيّ

CHILD 44

توم روب سميث

TOM ROB SMITH

ترجمة

مروان سعد الدين

مراجعة وتحرير

مركز التعريب والبرمجة

للمزيد والجديد من الكتب والروايات

زوروا صفحتنا على فيسبوك

مكتبة الرمحي أحمد

telegram @ktabpdf

مكتبة الرمحي أحمد

الإهـــداء

إلى أهلي

telegram @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

الاتحاد السوفييتي
أوكرانيا
قرية شيرفوي

25 كانون الثاني 1933

منذ أن قرّرت ماريا الانتحار، أصبح لزاماً على هرها أن يعتني بنفسه. لقد اهتمّت به كثيراً حتى لم يعد الاحتفاظ بحيوان أليف يبدو منطقياً. كان القرويون قد اصطادوا الجرذان والفئران وأكلوها منذ وقت طويل، واختفت الحيوانات الأليفة كلها بعد ذلك بوقت قصير؛ باستثناء ذلك الهر؛ رفيقها الذي أخفته عن الأنظار. لماذا لم تقتله؟ لقد احتاجت إلى شيء كي تعيش من أجله، وتحميه. كانت قد قطعت وعداً على نفسها أن تستمر في إطعامه حتّى يحلّ اليوم الذي لا تستطيع فيه إطعام نفسها، وقد حلّ ذلك اليوم. كانت قد مزّقت حذاءها الجلدي إلى شرائط صغيرة غلتها مع القرّاص وبذور الشمندر، وحفرت في الأرض بحثاً عن الديدان، ومصّت لحاء الشجر. لقد قضمت هذا الصباح قائمة كرسي المطبخ، ومضغتها حتى تشظت لثتها. عندما رآها هرها على تلك الحال، هرب واختبأ تحت السرير، ورفض أن يخرج بالرغم من أنها جثت على الأرض، ونادت اسمه، وحاولت إخراجه بلطف. كانت تلك هي اللحظة التي قرّرت فيها ماريا الانتحار، إذ لم يعد لديها شيء تأكله أو تحبه.

انتظرت ماريا غروب الشمس قبل أن تفتح باب منزلها الأمامي. فلقد أدركت أن فرصة هرها في الوصول إلى الغابة من دون أن يراه أحد ستكون أفضل تحت جنح الظلام؛ لأنه إذا لمحه شخص من القرية فسيطارده. كانت

telegram @ktabpdf

مكتبة الرمحي أحمد

فكرة قتل هرها تزعجها، حتى وهي على حافة الموت، لكنها واست نفسها بفكرة أن عنصر المفاجأة إلى جانبه. وفي مجتمع يمضغ فيه الأشخاص الراشدون كتلاً من التراب على أمل أن يعثروا فيها على نمل أو بيض حشرات، ويفتش فيه الأطفال في روث الخيول على أمل العثور على قشور حبوب غير مهضومة، وتتشاجر فيه النساء على امتلاك العظام، كانت ماريا واثقة أن أحداً لن يظن أن هناك هراً لا يزال حياً.

* * *

لم يصدّق بافل عينيه. لم يكن رشيقاً بل كان هزيلاً، وعيناه خضراوين، وفراؤه مرقّطة ببقع سوداء: إنه هر بالتأكيد، ولا يمكن أن تخطئه العين. كان يجمع الحطب حين رأى الحيوان يندفع من منزل ماريا أنتونوفا، يعبر الطريق المغطّى بالثلج، ويتجه نحو الغابة، فحبس أنفاسه، ونظر حوله، واكتشف أن لا أحد آخر قد لاحظه. لم يكن هناك شخص آخر في الجوار، أو أضواء تنبعث من النوافذ. كانت خيوط من الدخان - الدليل الوحيد على الحياة - ترتفع من أقل من نصف المداخن، وبدا الأمر وكأن الثلج قد غطّى قريته كلها، وأخمد كل علامات الحياة فيها. بقي معظم الثلج على حاله: لم تكن هناك أي آثار أقدام تقريباً، ولم يُحفر أي درب فيه. كان النهار هادئاً مثل الليل، فلا أحد يذهب إلى العمل، ولا يلعب أصدقاؤه، بل يبقون في منازلهم حيث يستلقون مع أفراد أُسرهم على أسرّتهم، وعيونهم الضخمة الغائرة تحدّق إلى السقف. بدأ الراشدون يبدون مثل الأطفال، والأطفال مثل الراشدين، وقد توقف معظمهم عن البحث عن طعام. كان ظهور هر في مثل تلك الظروف بمثابة ظهور مخلوق اعتبر منقرضاً منذ وقت طويل.

أغمض بافل عينيه، وحاول أن يتذكر آخر مرة أكل فيها لحماً، وعندما فتحهما كان فمه يمتلئ لعاباً أخذ يسيل غزيراً على جانب فمه، فمسحه بظاهر يده. متحمساً، ألقى كومة الحطب من يده وجرى إلى المنزل، فقد كان عليه

أن ينقل الخبر الرائع إلى والدته أوكسانا.

* * *

كانت أوكسانا تتدثر ببطانية صوفية وتحدّق إلى الأرض، وتجلس ساكنة من دون حراك محاولة أن تحتفظ بطاقتها، واستنباط طرائق لإبقاء أفراد أسرتها على قيد الحياة. كان التفكير في ذلك يضايقها في كل ساعات استيقاظها، ويؤرقها في أثناء نومها، فترى أحلاماً مضطربة. كانت واحدة من بين القلائل الذين لم يستسلموا، ولن تفعل ذلك أبداً ما دام ابناها معها. لكن التصميم وحده لم يكن كافياً، ويجب أن تتوخى الحذر: محاولة واحدة غير صحيحة قد تعني إنهاكاً يؤدي بالتأكيد إلى الموت. قبل بضعة شهور كان نيكولاي إيفانوفيتش - وهو جارها وصديقها - قد انطلق في محاولة يائسة للسطو على مخزن قمح حكومي، لكنه لم يعد. وفي صبيحة اليوم التالي، ذهبت زوجة نيكولاي وأوكسانا للبحث عنه، وعثرتا على جثته بجانب الطريق. كان ممدّداً على ظهره، وهو شديد النحول، ومعدته منتفخة ومليئة بحبوب نيئة كان قد ابتلعها في لحظات احتضاره. كانت الزوجة قد انتحبت، في حين أخرجت أوكسانا الحبوب الباقية من جيوبه، وقسمتها بينهما. ولدى عودتهما إلى القرية، أخبرت زوجة نيكولاي الجميع بما جرى، وبدلاً من الرثاء لحالها أضحت موضع حسد، وكل ما فكر فيه الجميع هو حفنة الحبوب التي تمتلكها. حينها، ظنّت أوكسانا أنها حمقاء وساذجة، فقد عرّضت حياتيهما للخطر.

قاطع صوت شخص يجري ذكرياتها. إذ لم يكن أحد يركض إلا إذا كان يحمل أخباراً مهمة؛ فوقفت خائفة. اندفع بافل إلى الغرفة وأعلن لاهثاً:

- أمي، رأيت هراً.

تقدمت خطوة إلى الأمام، وأمسكت يدي ابنها، وأرادت أن تتأكد من أنه لا يتخيل أشياء: فقد تتراءى له أشياء نتيجة الجوع. لكن، لم تكن تظهر على وجهه أيٌّ من علامات الهذيان. فعيناه ثاقبتان، ووجهه تبدو عليه

علامات الرزانة. لم يكن قد بلغ العاشرة بعد، لكنه أصبح رجلاً آنذاك، فقد اقتضت الظروف أن ينسى طفولته. كان والده ميتاً بالتأكيد؛ فحتّى إذا لم يلقَ حتفه، فقد أضحى متوفًى بالنسبة إليهم. كان قد انطلق نحو مدينة كييف على أمل العودة بالطعام، لكنه لم يعد قط، وفهم بافل من دون أن يشرح له أحد أو يواسيه أن والده لن يعود أبداً. ومنذ ذلك الحين، صارت أوكسانا معتمدة على ابنها بالقدر ذاته الذي تعتمد فيه على نفسها، فأصبحا شريكين. وقد أقسم بافل بصوتٍ عالٍ أنه سينجح حيث فشل والده: سيتأكّد من بقاء أفراد أسرته على قيد الحياة.

مسّت أوكسانا وجنة ابنها.

- هل تستطيع الإمساك به؟

ابتسم، فخوراً بنفسه.

- إذا كانت لديّ عظمة.

كانت البركة متجمدة، فبحثت أوكسانا في الثلج عن حجر، ولفّته بشالها مخافة أن يثير الصوت الانتباه. وبذلك، أخفت الضوضاء حين اخترق الحجر الجليد، وظهرت حفرة صغيرة فيه. وضعت الحجر جانباً، واستجمعت قواها وهي تمد يدها داخل المياه السوداء شديدة البرودة التي جعلتها تلهث. لم تكن لديها إلا ثوانٍ قليلة فقط قبل أن تصاب ذراعها بالخدر، ولهذا تحرّكت بسرعة، مسّت يدها القاع ولم تمسك شيئاً باستثناء الطمي. أين هي؟ مذعورة، انحنت إلى الأمام، وغمرت كل ذراعها بالماء، ثم بحثت يميناً ويساراً. فقدت كل إحساس بيدها، لكن أصابعها مسّت شيئاً زجاجيًّا، فشعرت بالراحة وأمسكت القارورة وسحبتها إلى الخارج. كان جلدها قد أصبح أزرق اللون بدرجات مختلفة؛ وكأنها تعرضت للضرب، لكن ذلك لم يقلقها، فقد وجدت ما كانت تبحث عنه: قارورة مختومة بالقطران. مسحت طبقة الطمي عنها، ونظرت إلى محتوياتها التي كانت عبارة عن مجموعة من عظام صغيرة.

telegram @ktabpdf

مكتبة الرمحي أحمد

عندما عادت إلى المنزل، وجدت أن بافل قد أذكى النار، فقامت بإحماء الختم فوق ألسنة اللهب، وسقطت كتل لزجة من القطران على الجمرات. وبينما كانا ينتظران، لاحظ بافل جلدها الأزرق ففرك لها ذراعها حتّى عاد الدم يسري في شرايينها مجدّداً، معتنياً بها كالمعتاد. وبعد أن ذاب القطران، قلبت القارورة رأساً على عقب وهزّتها، فعلقت عدّة عظمات على حافة الفوهة، سحبتها وأعطت ابنها إياها. نظر بافل إليها بإمعان، ثم حكّ سطحها، وشمّ كل واحدة منها. وبعد أن انتقى منها ما يشاء أصبح مستعداً للخروج، لكنها أوقفته.

- خذ شقيقك.

ظن بافل أن اصطحابه شقيقه أمر خاطئ، فقد كان شقيقه الأصغر أخرق وبطيئاً، والهر يخصّه على أيّ حال؛ لأنه هو الذي رآه وسيمسك به، وسيكون ذلك انتصاره، لكن والدته وضعت عظمة أخرى في يده قائلة: "خذ معك أندريه"

* * *

كان عمر أندريه ثماني سنوات تقريباً، وهو يحب شقيقه الأكبر كثيراً. لم يكن يخرج من المنزل إلا نادراً، ويمضي معظم وقته في الغرفة الخلفية حيث ينامون جميعاً. كان يلعب بمجموعة بطاقات كان والده قد صنعها من أوراق قصّها على شكل مربعات، وألصقها معاً لتصبح هدية وداع قبل انطلاقه إلى كييف. كان أندريه لا يزال ينتظر عودة والده إلى المنزل، ولم يخبره أحد أن يتوقع شيئاً مختلفاً. وكان كلما اشتاق إلى والده - ويحدث ذلك كثيراً - يضع البطاقات على الأرض، ويصنّفها وفقاً للنقوش والأرقام، وهو واثق من أنه إذا استطاع فعل ذلك كما ينبغي، فسيعود والده إلى البيت. أليس ذلك ما جعله يمنحه البطاقات قبل أن يغادر؟ طبعاً، كان أندريه يفضّل أن يلعب مع شقيقه، لكن بافل لم يعد لديه وقت للعب، فهو دائماً مشغول بمساعدة والدتهما، ولا يلعب إلا في الليل قبل أنْ يخلدا إلى النوم.

telegram @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

دخل بافل الغرفة، فابتسم أندريه وهو يرجو أن يكون مستعداً للعب معه. لكن شقيقه جثم بجانبه وجمع البطاقات معاً.

- ضع هذه جانباً لأننا سنخرج. أين اللابتيس (حذاء مخصص للثلج) الخاص بك؟

فهم أندريه السؤال على أنه أمر، وزحف تحت السرير لإخراج اللابتيس. كان الحذاء عبارة عن شريطين من عجلة جرار ومجموعة من الخرق التي تكوّن لدى ربطها معاً زوجاً من الأحذية البديلة. ساعده بافل على ربطها بإحكام، وشرح له أن لديهما تلك الليلة فرصة لتناول اللحم إذا فعل أندريه ما يقوله له بالضبط.

- هل سيعود والدي؟

- لن يعود.

- هل هو مفقود؟

- نعم، إنه مفقود.

- من سيحضر لنا اللحم؟

- سنمسك به بأنفسنا.

كان أندريه يعرف أن شقيقه صياد ماهر، فقد أمسك بجرذان أكثر من أي فتى آخر في القرية. وهذه هي المرة الأولى التي يدعو فيها أندريه لمرافقته لدى قيامه بمثل ذلك العمل المهم.

عندما خرجا إلى الثلج، توخّى أندريه الحرص حتى لا يقع، فهو يتعثر وينزلق في أغلب الأحيان؛ لأن العالم يبدو مشوشاً بالنسبة إليه، ولا يستطيع أن يرى بوضوح إلا الأشياء التي يقرّبها من وجهه كثيراً. وإذا استطاع أحدهم تمييز شخص من بعيد - في حين أن كل ما يستطيع أندريه رؤيته هو الغشاوة - فكان يعزو الأمر إلى الذكاء أو الخبرة أو خاصية ما لم يكتسبها بعد. لم يكن يود أن يقع تلك الليلة ويجعل من نفسه أضحوكة، أراد من شقيقه أن يفخر به. كان ذلك أكثر أهمية بالنسبة إليه من احتمال أكل اللحم.

توقف بافل عند طرف الغابة، ثم انحنى إلى الأسفل ليبحث عن آثار الهر فوق الثلج، واعتبر أندريه مهاراته في العثور عليها جديرة بالملاحظة، وجثم مدهوشاً وهو يراقب شقيقه حين مسّ هذا الأخير أحد آثار الكف. لم يكن أندريه يعرف شيئاً عن اقتفاء الأثر أو الصيد.

- هل مشى الهر على هذا الدرب؟

أومأ بافل إيجاباً ونظر إلى الغابة.

- آثار قوائمه لا تبدو واضحة.

مقلّداً شقيقه، مرّر بافل إصبعه حول أثر الكف وسأل:

- ماذا يعني هذا؟

- هذا يعني أن الهر ليس ثقيلاً. وهذا يعني أنّ كمية الطعام أقل بالنسبة إلينا. لكن، إذا كان جائعاً، فسيكون احتمال وقوعه في الشَرَك أكبر.

حاول أندريه أن يفهم تلك المعلومة لكن ذهنه شرد.

- شقيقي، إذا كنت إحدى بطاقات اللعب، فما هي البطاقة التي تفضّلها؟ هل سترغب في أن تصبح أصاً أو ملكاً؟ وهل سترغب في أن يكون رمزك بستونيّاً أو كوبةّ؟

تنهّد بافل، وشعر أندريه بدموعٍ بدأت تتكون في عينيه نتيجة انزعاجه من استهجان شقيقه:

- إذا أجبتك، فهل تعدني بألاّ تتكلم بعد الآن؟

- أعدك.

- لن نمسك هذا الهر إذا تكلمت وجعلته يفرُّ مذعوراً.

- سألتزم الصمت.

- أود أن أكون ولداً، فارساً، ذلك الذي يحمل سيفاً. لقد قطعت وعداً الآن. لا تنبس ببنت شفة.

أومأ أندريه، فنهض بافل ودخلا الغابة.

* * *

telegram @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

مشيا وقتاً طويلاً بدا ساعات عديدة؛ بالرغم من أن إحساس أندريه بالزمن كان مثل بصره؛ أي أنّه لم يكن جيداً. وفي ضوء القمر، وعلى طبقة الثلج التي تعكسه، بدا أن شقيقه الأكبر يواجه بعض الصعوبة في اقتفاء الآثار. توغلا عميقاً في الغابة، إلى أبعد مما وصل إليه أندريه سابقاً، الذي جرى أحياناً للحاق بشقيقه. آلمته ساقاه ومعدته، وشعر بالبرد والجوع. فبالرغم من عدم وجود طعام في المنزل إلا أن قدميه على الأقل لم تكونا تؤلمانه. كان الرباط الذي يربط الخِرق البالية بشريطي العجلة قد ارتخى، فشعر بملمس الثلج البارد الذي دخل تحت أخمصي قدميه، ولم يجرؤ على الطلب من شقيقه أن يتوقّف لربطه بإحكام مجدداً؛ فقد قطع وعداً بأنه لن ينبس بكلمة. سيذوب الثلج قريباً، وستصبح الخِرق مشبعة بالماء، وقدماه خدرتين. ولإبعاد ذهنه عن التعب انتزع غصَيناً من شجيرة ومضغ اللحاء، ثم حوّله إلى عجينة خشنة بدت قاسية على أسنانه ولسانه. كان الناس قد أخبروه أن عجينة اللحاء تطفئ الإحساس بالجوع. وصدّقهم لأن تصديق ذلك بدا أمراً نافعاً.

فجأة، أشار بافل إليه ليبقى ساكناً، فتوقف أندريه تماماً، وأسنانه بنية نتيجة مضغه اللحاء. جثم بافل في مكانه، وقلّده أندريه وهو ينظر في أرجاء الغابة بحثاً عمّا كان شقيقه قد رآه، وركّز بصره محاولاً جعل الأشجار تبدو واضحة.

حدّق بافل إلى الهر، وبدا أن الهر يحدّق إليه بعينيه الخضراوين الصغيرتين. ما الذي كان يفكّر فيه؟ لماذا لم يهرب بعيداً؟ لقد اختبأ في منزل ماريا، وربما لم يكن قد تعلّم الخوف من البشر بعد. أخرج بافل سكينه، وجرح طرف إصبعه، ثمّ دهن بالدم عظمة الدجاج التي كانت والدته قد أعطته إيّاها، وفعل الشيء نفسه مع طُعم أندريه المكوّن من جمجمة جرذ مكسورة؛ لأنه لم يكن واثقاً من أن شقيقه لن يصرخ ويُفزع الهر. ومن دون أن ينبس الشقيقان بكلمة، افترقا وسلكا اتجاهين متعاكسين. وكان بافل قد

telegram @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

زوّد أندريه بتعليمات مفصّلة في المنزل حتى لا يضطرّا إلى الكلام. وكانا قد اتفقا على أنهما عندما يصبحان بعيدين عن بعضهما قليلاً، على جانبي الهر، فسيضعان العظمتين في الثلج. نظر بافل إلى شقيقه ليتأكّد من أنه يحسن القيام بذلك.

فعل أندريه ما طُلب منه بالضبط، فأخرج من جيبه الحبل الذي كان بافل قد ربط طرفه سابقاً على شكل أنشوطة، وكل ما كان عليه القيام به هو وضع الأنشوطة حول جمجمة الجرذ. أنجز ذلك ثم تراجع إلى الخلف، إلى المسافة التي يسمح بها طول الحبل، وانبطح على بطنه فوق الثلج منتظراً. أدرك آنذاك فقط، على الأرض، أنه يرى بصعوبة طُعمه الذي لم يكن واضحاً تماماً بالنسبة إليه. وشعر فجأة بالخوف، وتمنّى أن يذهب الهر نحو شقيقه. فبافل لا يقترف أي خطأ، وسيمسك به، وسيذهبان إلى المنزل ويتناولان الطعام. ونتيجة إحساسه بالقلق والبرد، بدأت يداه ترتعشان، لكنه حاول تثبيتهما، واستطاع رؤية شيء ما؛ شكل أسود يتحرك نحوه.

بدأت أنفاس أندريه تذيب الثلج الموجود قرب وجهه، وسال وَشَل بارد من الماء باتجاهه وصولاً إلى ملابسه. كان يرغب في أن يذهب الهر في الاتجاه الآخر، إلى مصيدة شقيقه. لكن، مع اقتراب الكتلة المشوشة لم يكن هناك شك في أن الهر قد اختاره. وطبعاً، إذا أمسك بالهر، فسيحبه بافل، وسيلعب معه بالبطاقات، ولن يتجاهله مجدداً. أسعده ذلك الاحتمال فتغير مزاجه من الفزع إلى التوقّع. نعم، سيكون الشخص الذي سيمسك بذلك الهر، ويقتله، ويثبت جدارته. ما الذي قاله له شقيقه؟ لقد حذّره من سحب الفخ قبل الأوان؛ لأنه إذا أفزع الهر فسيخسرون كل شيء. ولأجل ذلك السبب، ولأنه لا يستطيع أن يتأكد من المكان الذي يقف فيه الهر بالتحديد، قرّر أندريه الانتظار، فقط ليتوثّق مما سيفعله. استطاع بصعوبة تمييز الفرو الأسود والقوائم الأربع، لكنه قرر الانتظار وقتاً أطول بقليل... سمع شقيقه يهمس:

- الآن!

فزع أندريه، فقد سمع تلك النبرة عدّة مرات من قبل، وهي تعني أنه قد فعل شيئاً غير صحيح. ركّز بصره بقوة، ورأى الهر يقف في منتصف مصيدته فسحب الحبل، لكن بعد فوات الأوان، فقد وثب الهر بعيداً وأخطأته الأنشوطة. وبالرغم من ذلك، سحب أندريه الحبل الأملس نحوه، وهو يتمنّى يائساً أن يكون هناك هر في نهايته، لكن أنشوطة فارغة وصلت إلى يده، وشعر بوجهه يتورد احمراراً من شدّة الخجل. تملّكه الغضب، وجهّز نفسه ليقف ويطارد الهر ويمسك به ويخنقه ويحطم جمجمته، لكنه لم يتحرك؛ فقد رأى أن شقيقه لا يزال مستلقياً على الأرض. وهكذا، فعل أندريه الذي تعلّم أن يحذو حذو شقيقه الشيءَ نفسه. جال ببصره في الأرجاء، وأجهد عينيه ليكتشف أن الشكل الأسود المشوش يتحرك آنذاك نحو مصيدة شقيقه.

كان غضب بافل من عدم كفاءة شقيقه قد تحول إلى إثارة بسبب حماقة الهر، فتوتّرت عضلات ظهره. لم يكن لديه شك في أن الهر قد تذوق الدم، وأن الجوع أقوى من الحذر. راقب الهر وهو يقف فجأة وإحدى قوائمه ترتفع في الهواء، ويحدّق إليه مباشرة، فحبس أنفاسه، واشتدت أصابعه حول الحبل وانتظر، وهو يحثّ الهرّ في سرّه على المضي قدماً.

رجاءً. رجاءً. رجاءً.

اندفع الهر إلى الأمام، وفتح فمه ثم أطبقه على العظمة. وبتوقيت ممتاز شدّ بافل الحبل، فالتفّت الأنشوطة حول كف الهر، وعلقت قائمته الأمامية في المصيدة. قفز بافل من مكانه وهو يشد الحبل، ويضيّق الأنشوطة شيئاً فشيئاً. حاول الهر الهرب لكن الحبل ثبّته في مكانه بسرعة. سحب بافل الهر إلى الأرض، فملأ الصراخ الغابة؛ وكأن مخلوقاً أكبر حجماً بكثير يقاتل من أجل حياته. راح يتخبّط في الثلج، ويقوّس جسده، ويشد الحبل. خاف بافل من انفكاك العقدة، فالحبل كان بالياً. وعندما حاول الاقتراب منه شدّ الهر

الحبل مبتعداً عنه، وبقي خارج متناول يده، فنادى بافل شقيقه.

- اقتله!

كان أندريه قد بقي ساكناً من دون حراك وهو غير راغب في أن يقترف غلطة أخرى. لكنه حين تلقى التعليمات قفز من مكانه، وجرى إلى الأمام، فتعثّر فوراً ووقع على وجهه. وعندما أخرج أنفه من الثلج، رأى الهر أمامه يهس ويبصق ويتلوّى. إذا انقطع الحبل، فسيتحرر الهر، وسيكرهه شقيقه إلى الأبد. صرخ بافل بصوتٍ أجش:

- اقتله! اقتله! اقتله!

وقف أندريه مترنحاً، ومن دون أن تكون لديه أي فكرة واضحة عمّا يجدر به فعله، قفز إلى الأمام، ورمى بنفسه فوق الهر الذي يحاول النجاة بحياته. ربما كان يأمل أن يقتله بتأثير ذلك، لكنه شعر آنذاك، وهو مستلق فوق الحيوان، أن الهر لا يزال حياً ويتلوّى تحت بطنه، ويخدش بمخالبه الأكياس الخضراء التي خيطت معاً لتصبح سترة له. بقي أندريه ممدداً فوق الهر ليمنعه من الهرب، ونظر إلى الخلف بعينين متوسلتين ليتولى بافل زمام الأمور.

- إنّه لا يزال حياً!

جرى بافل إلى الأمام، وجثا على ركبتيه، ثم مدّ يديه تحت جسد شقيقه الأصغر لتصلا إلى فم الهر الذي عضّهما، فأبعدهما بحركة سريعة نحو الخلف. انتقل إلى الطرف الآخر متجاهلاً إصبعه التي تنزف، ومدّ يديه مجدّداً تحت جسد شقيقه فوصلتا هذه المرة إلى الذيل، وبدأت أصابعه تتكوّر على مؤخرة الهر الذي لم يكن لديه أي دفاع من خط الهجوم ذاك.

بقي أندريه ساكناً وهو يشعر بالصراع الذي يجري تحته، وبيدي شقيقه وهما تقتربان من رأس الهر رويداً رويداً. عرف الهر أن ذلك يعني الموت، وبدأ يعض أي شيء يصل إليه، وجنّ من الخوف الذي شعر به أندريه كذبذبات في بطنه. قلّد أندريه شقيقه وصرخ:

- اقتله! اقتله! اقتله!

telegram @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

دقّ بافل عنق الحيوان بسرعة، ولم يفعل أي منهما شيئاً للحظة، إذ بقيا ممدّدين فوق الثلج من دون حراك، وهما يتنفسان بصعوبة. وضع بافل رأسه على ظهر أندريه، ويداه لا تزالان تطبقان بقوة على عنق الهر. أخيراً، سحب يديه من تحت شقيقه ووقف، لكن أندريه بقي مستلقياً فوق الثلج، وهو لا يجرؤ على الحركة.

- يمكنك أن تقف الآن.

يستطيع أن ينهض الآن، ويقف إلى جانب شقيقه. يستطيع أندريه أن يقف فخوراً بنفسه؛ لأنه لم يخيب أمل أخيه أو يفشل. مدّ ذراعه، وأمسك بيد شقيقه، ثم نهض على قدميه. ما كان بإمكان بافل أن يمسك الهر من دونه، فالحبل كان سينقطع، وسيهرب الهر. ابتسم أندريه ثم ضحك، وصفق بيديه ورقص في المكان، وشعر بأنه أكثر سعادة من أي وقت مضى في حياته كلها. كانا فريقاً، وعانقه شقيقه، ونظر كلاهما نحو الأسفل؛ إلى جائزتهما: هر ميت هزيل مغمور بالثلج.

كان نقل صيدهما إلى القرية من دون أن يراهما أحد أمراً ضروريًا؛ لأن الناس سيتشاجرون، ويقتلون من أجل تلك الغنيمة، وربما أثار صراخ الحيوان انتباه أحدهم. رفض بافل أن يترك شيئاً للمصادفة، ولم يكونا قد أحضرا كيساً ليضعا الهر فيه، فقرّرا ارتجالياً إخفاءه تحت كومة من العيدان. وإذا قابلا أحداً في طريقهما إلى المنزل، فسيبدو الأمر وكأنهما كانا يجمعان الحطب، وعندها لن يطرح عليهما أسئلة. رفع بافل الهر عن الثلج قائلاً:

- سأحمله وسأغطيه بكومة من العيدان حتى لا يراه أحد. لكن، إذا أردنا أن نبدو وكأننا كنّا نجمع الحطب حقاً، فعليك أن تحمل بعض العيدان أيضاً.

أُعجب أندريه بمنطق شقيقه؛ فهو ما كان ليفكر في ذلك قطّ. انطلق أندريه ليجمع الحطب، ولأن الأرض كانت مغطاة بالثلج أضحى العثور على أي عيدان صعباً، فاضطر إلى البحث عنها بيديه العاريتين. وبعد كل مرة أزاح فيها الثلج جانباً كان يفرك كفّيه معاً وينفخ عليهما. بدأ المخاط يسيل من أنفه

telegram @ktabpdf مكتبة الرمحي أحمد

ويتجمّع فوق شفته العليا. غير أنّه لم يكن يمانع ذلك، ليس في تلك الليلة، وليس بعد نجاحهما. وبدأ يدندن أغنية كان والده ينشدها، ويدفع أصابعه في الثلج مجدداً.

واجه بافل النقص نفسه في العيدان، فتحرك مبتعداً عن شقيقه الأصغر، إذ كان عليهما أن يتفرّقا. رأى بعيداً عن ذلك المكان بقليل شجرة ساقطة تبرز أغصانها في كل الاتجاهات، أسرع إليها، بعد أن وضع الهر تحت الثلج حتى يستطيع انتزاع كل الحطب اليابس من الجذع، والذي كان وافراً هناك، وأكثر مما يحتاج إليه كلاهما. نظر حوله بحثاً عن أندريه، وكان على وشك أن يناديه، لكنه ابتلع كلماته حين سمع صوتاً، واستدار بسرعة وهو ينظر حوله. كانت الغابة كثيفة ومعتمة، فأغمض عينيه، وركّز على الصوت؛ على وقع الخطوات وهي تسحق الثلج، والصوت الذي يصبح أسرع وأقوى. اندفع الأدرينالين في جسده، وفتح عينيه ليرى حركة في الظلام؛ مصدرها رجل يجري. كان يحمل غصناً ثخيناً وثقيلاً، واندفع مباشرة نحو بافل بخطوات واسعة. لا بد من أنه قد سمعهما حين كانا يقتلان الهر وسيسرق الآن جائزتهما، لكن بافل لن يسمح له بذلك. لن يترك والدته تتضور جوعاً، أو يفشل كما فعل والده. بدأ يركل الثلج فوق الهر محاولاً إخفاءه.

- نحن نجمع...

تلاشى صوت بافل حين اندفع الرجل نحوه من بين الأشجار، وهو يحمل الغصن. وأدرك بافل آنذاك فقط، حين رأى وجه الرجل الكئيب وعينيه المتقدتين، أنه لا يريد الهر، وإنما يريده.

فغر بافل فمه في الوقت نفسه تقريباً الذي هوى فيه الغصن إلى الأسفل وضربه على قمة رأسه. لم يشعر بأي شيء، لكنه أدرك أنه لم يعد يقف، وخرّ على ركبة واحدة. نظر إلى الأعلى، ورأسه مائل، والدم يندفع من إحدى عينيه، وشاهد الرجل وهو يرفع الغصن لضربه مرة أخرى.

* * *

توقف أندريه عن الدندنة. هل ناداه بافل؟ لم يكن قد عثر على عددٍ كبير من العيدان. فما عثر عليه لا يكفي بالتأكيد لتنفيذ خطتهما، ولا يرغب في أن يُوبَّخ، ليس بعد أن أبلى حسناً. نهض، ونفض يديه من الثلج، ثم حدّق إلى الغابة، وركّز بصره، لكنه لم يستطع رؤية حتى أقرب الأشجار؛ لأن كل شيء بدا مشوشاً.

- بافل؟

لم يكن هناك رد، فنادى مجدداً. هل كانت تلك لعبة؟ لا، بافل لا يلعب، ولم يعد يفعل ذلك. مشى أندريه في الاتجاه الذي كان قد شاهد شقيقه يسلكه حين رآه للمرة الأخيرة، لكنه لم يرَ شيئاً. كان ذلك غباءً، ولم يكن يفترض به أن يصبح الشخص الذي يعثر على بافل، وإنما يجب على بافل أن يجده. شعر أن هناك شيئاً خاطئاً يحصل، ونادى مجدداً بصوتٍ أعلى هذه المرة. لماذا لم يُجب شقيقه؟ مسح أندريه أنفه برُدن سترته الخشنة، وتساءل إن كان ذلك اختباراً. ماذا سيفعل شقيقه في هذا الموقف؟ هل سيتبع الآثار الموجودة على الثلج. ألقى أندريه عيدانه أرضاً، وبحث في الثلج، وهو جاثٍ على يديه وركبتيه. وجد آثار خطواته وتبعها إلى الخلف؛ إلى حيث كان قد افترق عن شقيقه، ثم تحوّل إلى آثار قدمي شقيقه فخوراً بنفسه. إذا وقف، فلن يستطيع رؤية آثار الخطوات، ولهذا جثم أرضاً وأنفه بعيد مسافة ذراع فقط عن الثلج، وتابع بحثه مثل كلب يتعقّب رائحة.

وصل إلى شجرة ساقطة، حيث شاهد العديد من العيدان مبعثرة في الأرجاء، وآثار خطوات في كل مكان؛ بعضها عميق وكبير. كان الثلج أحمر، فتناول أندريه حفنة منه، وسحقها بين أصابعه، وعصرها، وشاهدها وهي تتحول إلى دم.

- بافل!

لم يتوقف عن الصراخ حتى آلمته حنجرته واختفى صوته. نشج وأراد إبلاغ شقيقه أن بمقدوره تناول حصته من الهر، وأنه يريد استعادته فقط، لكن

ذلك لم ينفع، فقد تركه شقيقه وأصبح وحيداً.

* * *

كانت أوكسانا قد خبأت كيساً صغيراً من الذرة المسحوقة، وأعشاباً برية، وقشور بطاطا مهروسة خلف آجر موقدها. وفي أثناء حملات التفتيش، كانت تشعل دائماً ناراً صغيرة. ولم يكن الجباة الذين يُرسَلون للتأكد من أنها لا تخزّن حبوباً، ينظرون قط إلى ما يوجد خلف ألسنة اللهب، كما أنهم لم يرتابوا بكونها موفورة الصحة في حين أن الآخرين مرضى؛ وكأن البقاء على قيد الحياة جريمة. لكنهم لم يستطيعوا العثور على طعام في منزلها، أو اعتبروا أنها كو لاك؛ أي من الفلاحين الأثرياء. وبدلاً من إعدامها فوراً، تركوها تحتضر وقد عرفت آنذاك أنها لا تستطيع التغلب عليهم بالقوة. كانت قد نظّمت قبل عدّة سنوات مقاومة القرية بعد أن عرفت أن هناك رجالاً في طريقهم للاستيلاء على جرس دار العبادة، وأنهم يريدون صهره. حينها، حبست نفسها مع أربع نساء أخريات في برج الجرس، وقرعنه باستمرار، ورفضن السماح لهم بأخذه، وصرخت أوكسانا بصوتٍ عالٍ قائلة إن ذلك الجرس ملك لدار العبادة، وله في نفوسهم مكانة عظيمة. كان هناك احتمال بأن تلقى حتفها في ذلك اليوم، لكن الرجل المسؤول عن المجموعة قرّر الصفح عن النساء. وبعد أن كسروا الباب، قال إن أوامره الوحيدة هي أخذ الجرس، وشرح أن المعدن ضروري لثورة بلدهم الصناعية، فردّت بالبصق على الأرض. وعندما بدأت الدولة تأخذ طعام القرويين، وتقول إنه يخص البلد وليس لهم، تعلّمت أوكسانا الدرس. وبدلاً من القوة تظاهرت بالطاعة وأبقت مقاومتها سرية.

ستقيم الأسرة وليمة الليلة. أذابت كتلاً من الثلج، وسخّنتها إلى درجة الغليان، ثم أضافت إليها الذرة المسحوقة، والعظام الباقية من القارورة. وبعد الانتهاء من طهيها، ستسحق العظام وتحوّلها إلى طحين. كانت تستبق الأمور بالطبع؛ لأن بافل لم يكن قد نجح بعد، لكنها شعرت بأنه سيفعل ذلك

telegram @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

بالتأكيد. وإذا كان الله قد جعلها تعاني تلك المشقّة، فقد منحها أيضاً ابناً يساعدها. قطعت وعداً على نفسها أنه إذا لم يمسك بالهر فلن تغضب منه. كانت الغابة كبيرة، والهر صغير. وعلى أيّ حال، إنّ الغضب يبدد الطاقة. وحتى عندما حاولت أن تتقبّل احتمال تعرّضها لخيبة الأمل لم يكن في وسعها إلا أن تشعر بدوار لدى تفكيرها في إمكانية تناول حساء اللحم والبطاطا.

وقف أندريه عند الباب، ووجهه متجهم، والثلج على سترته، والمخاط والدم يسيلان من أنفه. كان حذاؤه قد تمزّق تماماً، وصارت أصابع قدميه ظاهرة للعيان. أسرعت أوكسانا إليه.

- أين شقيقك؟

- تركني.

بدأ أندريه يبكي، فلم يكن يعرف مكان شقيقه، أو يفهم ما حدث، أو يتمكّن من شرحه. كان يعرف أن والدته ستكرهه، وأنها ستكون غلطته بالرغم من أنه فعل كل شيء كما ينبغي، وأن شقيقه هو الذي تركه.

انتُزعت أنفاس أوكسانا منها، ودفعت أندريه جانباً، ثم خرجت مسرعة من المنزل، ونظرت إلى الغابة. لم يكن هناك ما يشير إلى وجود بافل. ربما وقع وجرح نفسه ويحتاج إلى مساعدة. عادت بسرعة إلى الداخل وهي بأمسّ الحاجة إلى أجوبة لترى أندريه وهو يقف بجانب الحساء، وهناك ملعقة في فمه. وبعد ضبطه متلبساً، نظر إلى والدته بارتباك، وخط من الحساء يسيل من بين شفتيه. تملّك والدته الغضب - غضب من زوجها الميت، وغضب بسبب ابنها المفقود - جرت إلى الأمام، وطرحت أندريه أرضاً، ودفعت الملعقة الخشبية في حلقه.

- عندما أسحب هذه الملعقة من فمك ستخبرني بما حدث.

لكن، عندما أخرجت الملعقة كان كل ما استطاع فعله هو السعال. حانقةً، دفعت الملعقة مجدداً في حلقه.

- أيها الفتى الغبي الأحمق عديم الفائدة. أين ابني ؟ أين هو ؟

أخرجت الملعقة مجدداً، لكنه كان يبكي ويغص. لم يستطع الكلام، واستمر في النحيب والسعال، فلطمته وضربته بيديها على صدره الصغير، ولم تتوقف إلا حين أوشك الحساء على الفوران، فنهضت، وأبعدت القدر عن النار.

أنَّ أندريه على الأرض، فنظرت إليه أوكسانا، وتلاشى غضبها. كان صغيراً جداً، ويحب شقيقه الأكبر حباً جماً. انحنت إلى الأسفل، وحملته ثم وضعته على كرسي، ولفّت بطانيتها حوله وسكبت له وعاءً من الحساء، وخصّته بحصة أكبر بكثير مما كان قد حصل عليه سابقاً. حاولت أن تطعمه بالملعقة لكنه لم يفتح فمه؛ لأنه لم يثق بها. أعطته الملعقة، فتوقف عن البكاء وبدأ يأكل، وعندما أنهى الحساء، ملأت الوعاء مجدداً. طلبت منه أن يأكل ببطء، لكنه تجاهلها وأنهى وعاءً ثانياً. سألته بهدوء شديد عمّا حدث، وأصغت السمع حين أخبرها عن الدم على الثلج، والعيدان المتناثرة، والاختفاء، وآثار الخطوات الثقيلة والكبيرة، ثم أغمضت عينيها.

- مات شقيقك. لقد ذُبح ليكون طعاماً. هل تفهم؟ عندما طاردتما ذلك الهر، كان هناك شخص يطاردكما. هل تفهم؟

بقي أندريه صامتاً وهو يحدّق إلى دموع والدته. في الواقع، لم يفهم شيئاً، وراقبها وهي تقف وتغادر الغرفة. وعندما سمع صوت والدته، ركض نحو الباب.

كانت أوكسانا تجثو على ركبتيها فوق الثلج، وتحدّق إلى الأعلى؛ إلى البدر وتتضرّع إلى الله قائلة:

- يا الله، أعد لي ابني.

ظهر بعض الجيران عند بابهم، وحدّقوا إلى أوكسانا، واستمعوا إلى صرخاتها. لكن، لم يكن هناك شيء غير اعتيادي في ذلك النوع من الأسى. لذا، لم يراقب الناس ما يجري لوقت طويل.

telegram @ktabpdf مكتبة الرمحي أحمد

بعد عشرين سنة

telegram @ktabpdf مكتبة الرمحي أحمد

موسكو

11 شباط 1953

ارتطمت كرة الثلج بالجزء الخلفيّ من رأس يورا الذي أُصيب بالدهشة، وتناثر الثلج حول أذنيه، وسمع من مكان ما خلفه شقيقه الأصغر وهو يضحك بصوتٍ عالٍ حقاً؛ فخوراً بنفسه، وبالرمية التي سددها بالرغم من أنها أصابت هدفها عن طريق الحظ، وتلك المرة فقط. أبعد يورا الثلج عن ياقة سترته، لكن نُدفاً منه كانت قد تسللت آنذاك إلى ظهره، وبدأت تذوب وتنزلق على جلده، تاركة نقاطاً من المياه التي راحت تتجمد وتتحرك ببطءٍ بزّاقة. عندها، خلع يورا قميصه من تحت سرواله، ومدّ يده إلى أبعد ما يستطيع الوصول إليه محاولاً مسح الجليد.

لم يستطع أركادي أن يصدّق إعجاب شقيقه الأكبر بنفسه - الذي شُغل بقميصه بدلاً من ملاحقة خصمه - فتمهّل في عمله، وجمَعَ حفنة كبيرة من الثلج ضمّها إلى حفنة أخرى وكوّرها حتى صارت دائرة كبيرة، فتحولت كرة الثلج إلى كتلة عديمة الفائدة: يصعب رميها، وبطيئة في الهواء، ويسهل تفاديها. كانت تلك غلطته لأنه جعلها كبيرة جداً. وبدلاً من إحداثها تأثيراً أكبر، انحرفت عن مسارها في الهواء، وتفتّتت وسقطت قبل أن تصل إلى شقيقه. كان ويورا يلعبان بالثلج كثيراً، وينضم إليهما أحياناً أولاد آخرون. لكن في معظم الوقت يكونان بمفردهما فقط. تبدأ الألعاب مصادفة، وتصبح أكثر تنافسية مع كل ضربة. لم يفز أركادي بأي منها حتى الآن، وقد تغلب عليه شقيقه دائماً برمياته السريعة والقوية. وتنتهي الألعاب بالطريقة نفسها: إحباط، استسلام، انزعاج، أو أسوأ من ذلك، بكاء وهروب. كان يكره أن

telegram @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

يكون الخاسر دائماً، والأسوأ من ذلك أنه يبغض انزعاجه من الأمر؛ والسبب الوحيد الذي يدفعه إلى اللعب مجدّداً هو ثقته بأن الوضع سيكون مختلفاً يوماً ما، وأنه سيفوز. وقد حان الموعد ذلك اليوم، فقد سنحت له الفرصة، واقترب من تحقيق هدفه، لكن ليس كثيراً: أراد للرمية أن تُحتَسب، لكن مثل تلك التسديدة من مسافة قريبة لا تؤخذ في الحسبان.

شاهد يورا كرة الثلج حين كانت متجهة نحوه: كتلة بيضاء تطير على مسار قوسي في الهواء. ليست كبيرة ولا صغيرة جداً، وإنما من النوع الذي يرميه عادة. لم يكن في وسعه فعل شيء، فيداه خلف ظهره، وكان عليه أن يقر أن شقيقه الأصغر يتعلم بسرعة.

أصابت كرة ثلج أخرى أرنبة أنفه، ودخل فُتاتها عينيه، واندفع في أنفه، وملأ فمه، فتراجع خطوة إلى الخلف، وعلى وجهه قشرة بيضاء. كانت رمية ممتازة. تلك نهاية اللعبة. سيهزمه شقيقه الأصغر، وهو فتى لم يبلغ الخامسة من عمره بعد. وآنذاك فقط، حين كان على وشك الخسارة للمرّة الأولى أدرك أهمية الفوز. كان شقيقه يضحك مجدداً - إنّه يستمتع حقاً بذلك - وكأن كرة ثلج تُصيب الوجه أطرف شيء يراه. حسناً، على الأقل هو لم يغتبط قط كما كان أركادي يفعل آنذاك، ولم يضحك قط على ذلك النحو أو يشعر بالرضا نتيجة انتصاراته. كان شقيقه الأصغر خاسراً سيئاً وفائزاً أسوأ، ويجب تلقين الفتى درساً، وتعليمه التواضع. لم يكن قد فاز إلا بلعبة واحدة فقط: لعبة واحدة غير ذات أهمية تدخّل فيها الحظ لمصلحته، لعبة واحدة من بين مئة. لا، واحدة من بين ألف. وبدأ يدّعي آنذاك أنهما متساويان بطريقة ما، أو أسوأ: أنه أفضل منه. جلس يورا القرفصاء، وحفر في الثلج حتى وصل إلى الأرض الجليدية في الأسفل، وأمسك بقبضة من الطين والرمل والحجارة المتجمدة.

رأى أركادي شقيقه الأكبر وهو يصنع كرة ثلجية أخرى، فاستدار وهرب؛ ستكون تلك رمية انتقامية: تُصنع بعناية، وتُسدّد بأقوى ما يستطيع

شقيقه فعله. لذا، يجب ألاّ يتواجد في الطرف الذي سيتلقى فيه إحدى تلك الرميات. إذا هرب فسيكون بأمان، ويمكن للكتلة، بغض النظر عن صناعتها المتقنة ودقتها، أن تجتاز مسافة معينة في الهواء قبل أن يتغير شكلها، وتسقط على الأرض. وحتى إذا أصابت هدفها، فستصبح غير مؤذية بعد مسافة محددة، ولا تستحق أن تُرمى أصلاً. إذا فرَّ، يمكن أن يبقى فائزاً، ولم يكن يرغب في فقدان انتصاره، وفي انهمار سلسلة ضربات سريعة من شقيقه عليه. لا، اهرب وادّعِ النجاح، وأنهِ اللعبة الآن. سيتمكن من الاستمتاع بذلك الشعور حتى الغد علَى الأقل حين سيخسر على الأرجح مجدداً. لكن ذلك سيكون غداً، واليوم هو يوم النصر.

سمع شقيقه يصرخ باسمه، فنظر إلى الخلف، وهو لا يزال يجري مبتسماً، وواثقاً من أنه أصبح خارج أي مدى مؤثر.

كان التأثير مثل تلقيه لكمة على وجهه. فقد ارتد رأسه إلى الخلف، وتركت قدماه الأرض، وحلّق مجدّداً في الهواء. وعندما مسّت قدماه الأرض مجدداً انهارت ساقاه تحته، فوقع وتكوّر على نفسه، وهو يشعر بدوار شديد لم يستطع معه أن يمد يديه، ثم استلقى على الثلج. تمدّد هناك لحظة، غير قادر على فهم ما حدث، وشعر برمل، وطين، وبصاق، ودم في فمه. دفع طرف إصبعه المغطّاة بقفاز بتردد بين شفتيه، وأحس بأن أسنانه خشنة وكأن أحداً قد أطعمه رملاً بالقوة. كانت هناك ثغرة في فمه، وتبين له أن إحدى أسنانه قد اقتُلعت من مكانها. بدأ يبكي، وبصق على الثلج، ونقّب في تلك الفوضى بحثاً عن سنه المفقودة. ولسبب ما، كان ذلك كل ما استطاع التفكير فيه آنذاك، وكل ما اهتم بشأنه: ينبغي له أن يعثر على سنه. أين كانت؟ لكنه لم يجدها على الثلج الأبيض، فقد اختفت. لم يشعر بالألم، وإنما بالغضب والحنق من الظلم الذي لحق به. ألم يكن بمقدوره الفوز بلعبة واحدة؟ كان سيفوز بها بطريقة ملائمة. ألم يكن بمقدور شقيقه منحه ذلك؟

جرى يورا نحو شقيقه، وكان قد ندم على قراره حين أفلت كتلة الطين،

telegram @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

والرمل، والحجارة والثلج من يده، ولهذا صرخ باسم شقيقه لأنه يريد منه أن يخفض رأسه، ويتفادى الرمية. وبدلاً من ذلك، استدار أركادي ليواجه الضربة مباشرة. وعوضاً من مساعدته، بدا أنه يتباهى بما حققه بخبث. وعندما اقترب منه، ورأى الدم على الثلج شعر بالغثيان. كان قد فعل ذلك، وحوّل لعبتهما التي يستمتع بها أكثر من أي شيء آخر إلى حادثة فظيعة. لماذا لم يترك شقيقه يفوز؟ كان بمقدوره أن يفوز غداً، وفي اليوم الذي يليه. وهكذا، شعر بالخجل من نفسه.

جثم يورا على الثلج، ووضع يده على كتف شقيقه الأصغر، لكن أركادي أبعدها عنه، وحدّق إلى الأعلى بعينين حمراوين تملأهما الدموع، وفم ملطخ بالدم، وبدا مثل حيوان متوحش. لم ينبس بكلمة، وكان وجهه كله يتّقد غضباً. ثم نهض على قدميه وهو يترنح قليلاً.

- أركادي؟

رداً عليه، فتح شقيقه الأصغر فمه وصرخ بصوتٍ بهيمي، وكل ما استطاع يورا رؤيته هو مجموعة من الأسنان المتسخة. استدار أركادي، وجرى مبتعداً.

- أركادي، انتظر!

لكن أركادي لم ينتظر، ولم يتوقف لأنّه لم يكن يرغب في سماع اعتذار شقيقه. جرى بأقصى سرعته، ولسانه يبحث عن الثغرة التي تكوّنت حديثاً في أسنانه الأمامية. وعندما وجدها وشعر باللثة بطرف لسانه، تمنّى ألاّ يرى شقيقه مجدداً أبداً.

14 شباط

حدّق ليو إلى الأعلى، إلى المبنى السكني 18. وهو بناء مؤلف من طابقين، ومشيّد من ألواحٍ إسمنتية رمادية. كان الوقت بعد العصر، والظلام مخيّماً آنذاك، وقد ضاع يَوم عمله كلّه في مهمة غير سارة، وسخيفة. ووفقاً لتقرير المليشيا (جزء من القوات المسلحة يستدعى عند الطوارئ) عن الحادثة، عُثر على فتى يبلغ من العمر أربعة أعوام وعشرة شهور ميتاً على خط السكة الحديدية. كان الصبي يلعب على المسلك ليلاً، في الليلة الماضية، وصدمه قطار ركاب، ومزّقت العجلات جثّته. كان سائق قطار الساعة 21:00 إلى خاباروفسك قد أبلغ في أول محطةٍ توقّف فيها أنه لمح شخصاً أو شيئاً على السكة بعد وقت قصير من مغادرة القطار محطة ياروسلافسكي فوكزال. ولم يكن مؤكَّداً بعدُ إن كان القطار قد دهس الفتى حقاً. ربما لم يكن السائق يرغب في أن يُقرَّ بأنه صدم الصبي، لكن، لم يكن هناك داعٍ لمتابعة المسألة، فقد كانت حادثة مأساوية لا يقع اللوم على أحد بسببها، ويجب أن تُغلق القضية.

عادة، لم يكن هناك سبب يجعل ليو ستيفانوفيتش دميدوف - عميل يتوقع له مستقبل باهر في إ.أ.د.، إدارة أمن الدولة - يعمل على مثل هذا النوع من الحوادث. ماذا سيفعل بها؟ كان فقدان ابن أمراً يفطر أفئدة أفراد الأسرة والأقارب، لكنه بصراحة شيء غير ذي معنى على المستوى الوطني. ولم يكن الأطفال الطائشون من اختصاص أمن الدولة، إلا إن كانت ألسنتهم طائشة. على أيّ حال، كان هذا الوضع الخاص قد أصبح معقداً على نحو

غير متوقع، وقد اتخذ حزن الوالدين شكلاً غريباً، وبدا أنهما لا يتقبلان أن ابنهما (توثّق ليو من التقرير، وحفظ اسم أركادي فيودورفيتش أندريف عن ظهر قلب) كان مسؤولاً عن موته بسبب طيشه، وكانا يخبران الناس أنه لقي حتفه غيلة. من فعل ذلك؟ لم تكن لديهما أي فكرة. ما السبب؟ لم تكن لديهما أي فكرة أيضاً. كيف يكون مثل ذلك الشيء ممكناً؟ مرة أخرى، لم تكن لديهما أي فكرة. وبالرغم من عدم وجود حجة منطقية معقولة لديهما، إلاّ أنّ قوة عاطفية كانت إلى جانبهما، وبدا من المحتمل أن يُقنعا أشخاصاً سذّجاً آخرين بذلك؛ الجيران والأصدقاء والغرباء؛ كل من يصغي السمع إليهما.

لزيادة الطين بلة، كان والد الطفل فيودور أندريف نفسه عضواً يحمل رتبة منخفضة في إ.أ.د، وتبين أنه أحد مرؤوسي ليو. وبالإضافة إلى حقيقة أنه اطلع على معلومات غير متاحة لغيره، فقد لطخ سمعة إ.أ.د. بالاستفادة من سلطته لمنح ذلك الإصرار غير المعقول مصداقيةً. كان قد تجاوز الحد، وسمح لمشاعره بأن تؤثر في حكمه. ولو أن الظروف لم تكن لمصلحته، فلربّما كانت مهمة ليو اعتقال ذلك الرجل. كان الوضع كله فوضوياً، وقد اضطر ليو إلى أن يترك مؤقتاً مهمة حسّاسة من أجل تصويب ذلك الأمر.

لم يكن ليو يتطلع قدماً إلى مواجهة مع فيودور، ولهذا صعد السلالم بهدوء، وهو يمعن التفكير في الطريقة التي انتهى بها في ذلك المكان؛ وهو يضبط ردود أفعال الناس. لم يكن ينوي قط الانضمام إلى إدارة أمن الدولة. وقد بدأ مهنته تلك في خدمته العسكرية في أثناء الحرب الوطنية العظمى حين كان مجنداً في وحدة القوات الخاصة أومسبون، لواء البنادق الآلية المستقل في فرقة المهامّ الخاصة. وقد جرى انتقاء الكتيبتين الثالثة والرابعة لهذه الوحدة من المعهد المركزي للتربية البدنية، حيث كان طالباً. اختير الأفراد بعناية بفضل قدراتهم الرياضية ومهاراتهم الجسدية، ونُقلوا إلى معسكر تدريب في ميتشي، شمال موسكو، حيث تدربوا على القتال

القريب، واستخدام الأسلحة، والقفز بالمظلات من ارتفاع منخفض، واستعمال المتفجرات. كان المعسكر عائداً للشرطة السرية قبل أن تصبح أمن الدولة. أصبحت الكتيبتان تحت سلطة الشرطة السرية المباشرة، وليس تحت سلطة الجيش. وعكست طبيعةُ مهامها ذلك. كان أفرادها يُرسَلون إلى خلف خطوط العدو؛ فيدمّرون بناه التحتية، ويجمعون المعلومات، وينفذون عمليات اغتيال؛ كانوا غزاة سريين.

كان ليو قد استمتع باستقلالية عملياته، وحرص على إبقاء تلك الملاحظة لنفسه، وأحب حقيقة أو ربما الانطباع الذي تكوّن لديه بأن مصيره بين يديه. حقق نجاحاً في عمله، ونتيجة لذلك كوفئ بوسام سوفوروف من الدرجة الثانية. وقد جعلته حصافته، ونجاحه العسكري، ووسامته، وفوق كل ذلك ثقته المطلقة والصادقة بوطنه أيقونة - بكل ما تحمله الكلمة من معنى - لتحرير الأراضي السوفييتية التي احتلها الألمان. التُقطت له ولمجموعة من الجنود من فرق مختلفة صورة حول حطام دبابة ألمانية محترقة، وهم يرفعون بنادقهم في الهواء، وبشائر النصر تبدو على وجوههم، فيما الجنود القتلى عند أقدامهم. وفي الخلفية، ارتفع دخان من قرى محترقة، وظهر الدمار والموت وابتسامات الانتصار، وظهر ليو، بصف أسنانه القوية وكتفيه العريضتين في مقدمة الصورة. وبعد أسبوع، ظهرت الصورة على الصفحة الأولى لصحيفة برافدا، وتلقى ليو التهاني من غرباء، وجنود، ومدنيين، وأشخاص أرادوا مصافحته، ومعانقة رمز النصر ذاك.

بعد الحرب، انتقل ليو من أومسبون إلى الشرطة السرية نفسها، وبدت تلك الترقية منطقية. لم يكن قد طرح أي أسئلة؛ فقد كان ذلك درباً رسمه المسؤولون عنه وقد مشى عليه، وهو شامخ الرأس. كان بمقدور بلده طلب أي شيء منه، وسيوافق على تنفيذه عن طيب خاطر؛ حتى لو طلبوا منه الجري إلى غولاغ في تندرة (سهل ثلجي أجرد) القطب الشمالي في إقليم كوليما. كان طموحه الوحيد عامّاً؛ أي أن يخدم وطنه، البلد الذي هزم الفاشية، ويوفر

telegram @ktabpdf

مكتبة الرمحي أحمد

التعليم والرعاية الصحية مجاناً، ويعلن بصوتٍ عالٍ حقوق العمال في كل أنحاء العالم، ويدفع لوالده - عامل على خط تجميع ذخيرة - راتباً يوازي ما يحصل عليه طبيب مختص. وبالرغم من أن عمله في إدارة أمن الدولة لم يكن ساراً دائماً، إلا أنه فهم ضرورته: ضرورة حماية ثورتهم من الأعداء الخارجيين والداخليين، من أولئك الذين يسعون لتقويضها والمصممين على رؤيتها تفشل. كان ليو سيضحي بحياته من أجل ذلك، وسيضحّي بحياة آخرين لتحقيق تلك الغاية.

لم تكن لبطولته تلك أو تدريبه العسكري أي علاقة بما يجري في ذلك اليوم. فالرجل زميل، وصديق، ووالد أضناه الحزن. وبالرغم من ذلك، كانت تلك تقاليد إدارة أمن الدولة، والموضوع هو ذلك الوالد الذي يشعر بالحزن، ولهذا يجب على ليو أن يتعامل مع الأمر بحرص. لم يكن بمقدوره أن يسمح لنفسه بأن يتأثر بالمشاعر نفسها التي تعمي بصيرة فيودور، فقد كانت تلك الهستيريا تعرض أسرة صالحة للخطر. وإذا تركوا الحبل على الغارب فستزداد الثرثرة التي لا أساس لها عن الجريمة مثل عشبة ضارة، وتنتشر في المجتمع، وتزعج الناس، وتجعلهم يشككون في إحدى الركائز الأساسية لمجتمعهم الجديد:

ليست هناك جريمة.

قلّة من الناس صدّقت ذلك تماماً. فالأمر تتخلله شوائب: فقد كان ذلك المجتمع لا يزال في طور التحوّل، ولم يصبح مثالياً بعد. وبوصفه ضابطاً في إ.أ.د، أضحى من واجب ليو أن يدرس أعمال لينين، وفي الواقع، كان ذلك واجب كل مواطن. وعرف أن الآفات الاجتماعية - الجرائم - ستتلاشى مع اختفاء الفقر والحاجة، لكنهم لم يصلوا إلى تلك المرحلة بعد. وقعت سرقات، وتحولت نزاعات بين سكارى إلى أعمال عنف، فقد كان هؤلاء يوركي أي عصابات إجرامية. لكن، كان على الناس أن يثقوا بأنهم

يتحركون نحو كينونة أفضل، وإذا سمّوا ما وقع جريمة، فستكون تلك خطوة عملاقة إلى الوراء. كان ليو قد علم من قائده ومرشده الرائد يانوس كوزمن عن محاكمات عام 1937 التي حكم فيها ستالين على المتهمين بأنهم:

فقدوا الثقة.

لم يكن المخربون والجواسيس المتقاعسون في الصناعة أعداء الحزب فقط، وإنما المشككون في نهج الحزب والمجتمع الذي ينتظرهم أيضاً. وبتطبيق تلك القاعدة، كان فيودور، صديق ليو وزميله، قد أصبح عدواً فعلاً.

كانت مهمة ليو قمع أي أفكار لا أساس لها من الصحة، وإرشادهم ليبتعدوا عن حافة الهاوية. فالحديث عن الجريمة يحمل بين طياته دراما طبيعية مغرية من دون شك لأنواع معينة من البشر الخياليين. وفي ما يتعلق بذلك، سيكون الأمر قاسياً. لقد اقترف الفتى غلطة دفع حياته ثمناً لها، ولا داعي لأن يعاني أحد آخر نتيجة إهماله. ربما كان المصاب الذي حلّ بالعائلة جللاً، لكن لا داعي للشطط فيه، ويمكن حلّه بلباقة. إنهم منزعجون. ذلك كل ما في الأمر، ويجب أن يكون صبوراً معهم، لأن تفكيرهم ليس سليماً. سيعرض الحقائق، فهو لم يأتِ لتهديدهم، على الأقل ليس على نحو مباشر: جاء لمساعدتهم، وإعادة الثقة إليهم.

طرق ليو الباب ففتحه له فيودور، فأحنى ليو رأسه.

- آسف جداً على خسارتك.

تراجع فيودور إلى الخلف، وسمح لليو بدخول الغرفة.

كانت كل المقاعد مشغولة، والغرفة مكتظّة؛ وكأنها تحتضن اجتماعاً للقرية. رأى أشخاصاً مسنّين، وأطفالاً. كان واضحاً أن الأسرة كلها قد اجتمعت. وفي ذلك النوع من الأجواء، يصبح من السهل تخيل كيف تجيش المشاعر. بدا واضحاً أنهم قد شجعوا بعضهم على التفكير في أن هناك قوة

telegram @ktabpdf مكتبة الرمحي أحمد

غامضة يمكن إلقاء اللوم عليها في موت ابنهم الصغير. وربما جعل ذلك الأمر تقبّلهم تلك الخسارة أسهل، أو ربما شعروا بالذنب؛ لأنهم لم يعلّموا الفتى الابتعاد عن خطوط السكك الحديدية. عرف ليو بعض الوجوه حوله، فهم أصدقاء فيودور في العمل. وقد شعروا بالإحراج فجأة لأنه رآهم هناك، ولم يعرفوا ماذا يجب أن يفعلوا. تفادوا النظر إلى عينيه، وأرادوا أن يغادروا المكان لكنهم لم يستطيعوا فعل ذلك. استدار ليو إلى فيودور قائلاً:

- سيكون الحديث أسهل إذا كنا نحن الاثنان بمفردنا؟

- أرجوك، هؤلاء أفراد أسرتي. وهم يريدون سماع ما ستقوله.

نظر ليو حوله. كان عشرون زوجاً من العيون أو نحو ذلك تحدّق إليه، وقد عرفوا سلفاً ما سيقوله، ولم يحبّوه بسبب ذلك. كانوا غاضبين لأن ابنهم قد توفي، وتلك هي طريقتهم في التعبير عن ذلك الألم. وكان على ليو ببساطة أن يقبل أنهم يصبّون جام غضبهم عليه.

- لا يمكنني التفكير في شيء أسوأ من فقدان طفل. كنت زميلك وصديقك حين احتفلت وزوجتك بذكرى ميلاد ابنك. أتذكر أنني هنأتك. وللأسف الشديد أجد نفسي الآن أعزّيك.

بدا ذلك صارماً قليلاً، لكن ليو عنى ذلك بصدق، وقد قوبل كلامه بالصمت. فكّر ليو في كلماته التالية بعناية.

- لم أختبر قط الحزن الذي ينجم عن خسارة طفل، ولا أعرف كيف سيجعلني أتصرف. ربما سأشعر بحاجة إلى إلقاء اللوم على أحدهم، على شخص ما أكرهه. لكن، بذهنٍ صافٍ يمكن أن أؤكد لكم أن موت أركادي ليس موضع نقاش. لقد أحضرت التقرير معي، ويمكن أن أتركه معك إذا أردت. إضافة إلى هذا، لقد أُرسلت للإجابة عن أي أسئلة قد تطرحونها.

- لقد قُتل أركادي، ونحن نريد أن تساعدنا في التحقيق. وإذا لم تتولَّ الأمر أنت شخصياً، فنحن نود أن تضغط إ.أ.د. على المدّعي العام لفتح قضية جنائية.

telegram @ktabpdf

مكتبة الرمحي أحمد

أومأ ليو، محاولاً إشاعة جوٍّ من الثقة، فتلك أسوأ بداية محتملة لحديثهم. كان الوالد عنيداً. ولقد ازداد موقفهم رسوخاً. طلب فتح قضية جنائية (أوغولوفنوي ديلو) التي لن تقوم المليشيا من دونها بالتحقيق في الأمر، وذلك هو المستحيل بعينه. حدّق ليو إلى الرجال الذين كانوا رفاق فيودور في العمل، والذين أدركوا بخلاف الآخرين أن تلك الكلمة جريمة، وتشوه سمعة كل من في الغرفة.

– لقد صدم قطار أركادي، وكان موته حادثاً؛ حادثة فظيعة.

– إذاً، لماذا كان عارياً؟ ولماذا كان فمه ممتلئاً بالتراب؟

حاول ليو أن يفهم ما قيل آنذاك. كان الفتى عارياً؟ لم تكن تلك أول مرة يسمع فيها ذلك. فتح التقرير.

وُجِد الفتى مرتدياً ثيابه.

بعد أن قرأ السطر مجدداً، خطر له مثل ذكرى قديمة، لكنه يراه الآن أمامه: كان الفتى يرتدي ثيابه. تابع النظر إلى الوثيقة:

جُرَّ على الأرض فامتلأ فمه تراباً.

– لقد عُثر على ابنك مرتدياً ثيابه. نعم، كان هناك تراب في فمه، لكن القطار سحب جثته، ولهذا من الطبيعي وجود بعض التراب في فمه.

وقفت امرأة عجوز. وبالرغم من انحناء ظهرها نتيجة التقدم في العمر، إلا أن عينيها كانتا ثاقبتين.

– ليس ذلك ما قيل لنا.

– هذا مؤسف جداً. لكنكم حصلتم على معلومات غير صحيحة.

مضت المرأة قدماً، وكان من الواضح أنّ هناك حجة مقنعة خلف تلك الفكرة.

– كان الرجل الذي وجد الجثة - تاراس كوبرين - يكنس المكان، ويعيش على بعد شارعين من هنا. أخبرنا أن أركادي وجد عارياً، هل تسمع؟

telegram @ktabpdf

مكتبة الرمحي أحمد

لم يكن يرتدي قطعة واحدة من الملابس. والاصطدام بالقطار لا يجرّد فتى من ثيابه.

- هذا الرجل، كوبرين، عثر فعلاً على الجثة، وإفادته مذكورة في التقرير. وهو يدّعي أن الجثة وجدت على السكة، بملابسها كاملة. إنه واثق تماماً بذلك، وكلماته هنا واضحة جداً.

- إذاً، لماذا أخبرنا شيئاً مختلفاً؟

- ربما أُصيب بارتباك، لا أعرف. لكن، لدي توقيع هذا الرجل على إفادته الموجودة في التقرير. وأشك في أنه سيقول شيئاً مختلفاً إذا سألته الآن.

- هل رأيت جثة الفتى ؟

أصاب سؤالها ليو بالدهشة.

- أنا لا أحقق في هذه الحادثة. تلك ليست مهمتي. لكن، حتى إذا كانت كذلك، فليس هناك ما أحقق فيه. هذه حادثة فظيعة. أنا هنا لأتكلم معكم، وأوضح أموراً تبدو مشوشة على نحو غير ضروري. يمكن أن أقرأ لكم التقرير كله بصوتٍ عالٍ إذا أردتم.

تكلمت المرأة العجوز مجدداً.

- التقرير كاذب.

توتر الجميع، والتزم ليو الصمت، وهو يكافح ليبقى هادئاً. كان عليهم أن يدركوا أنه ليس هناك من حلّ وسط، وأن عليهم أن يذعنوا ويقبلوا حقيقة أن ابنهم الصغير قد توفي في حادثة مؤسفة، وأن ليو متواجد معهم لمصلحتهم. استدار ليو نحو فيودور، وانتظر منه أن يصحح معلومات تلك المرأة.

تقدم فيودور خطوة إلى الأمام.

- ليو، لدينا دليل جديد، دليل ظهر اليوم. رأت امرأة تعيش في شقة تطل على السكك الحديدية أركادي برفقة رجل. لا نعرف شيئاً أكثر من

telegram @ktabpdf مكتبة الرمحي أحمد

ذلك. تلك المرأة ليست صديقتنا، ولم نلتقِ بها قط من قبل. سمعت عن الجريمة...

- فيودور...

- سمعت عن موت ابني. وإذا كان ما قيل لنا صحيحاً، فبإمكانها أن تصف هذا الرجل. تستطيع أن تتعرّف إليه.

- أين هي هذه المرأة؟

- نحن ننتظرها الآن.مكتبة الرمحي أحمد

- هل ستأتي إلى هنا؟ أنا مهتم بسماع ما ستقوله.

عُرض على ليو كرسي ليجلس عليه، لكنه أبعده وآثر أن يقف.

لم يتكلم أحد، وانتظر الجميع الطرق على الباب، وندم ليو على عدم الجلوس على ذلك الكرسي. انقضت ساعة تقريباً، بصمت، قبل أن يُسمع قرع خافت. فتح فيودور الباب، وعرّف عن نفسه، واصطحب المرأة إلى الداخل. كان عمرها ثلاثين سنة تقريباً، وبدا وجهها لطيفاً، وعيناها واسعتين متوتّرتين. فزعت المرأة من وجود كل هؤلاء الأشخاص، وحاول فيودور تهدئتها.

- هؤلاء أصدقائي وأفراد أسرتي، ولا سبب يدعو إلى الخوف.

لكنها لم تكن تصغي إليه، وإنما تحدّق إلى ليو.

- اسمي ليو ستيفانوفيتش، وأنا ضابط في إ.أ.د. والمسؤول هنا. ما اسمك؟

أخرج ليو دفتر ملاحظاته، وقلب إلى صفحة جديدة. لم تجب المرأة، ونظرت إلى الأعلى. لم تقل شيئاً، وكان ليو على وشك أن يكرّر السؤال حين تكلمت أخيراً.

- غالينا شابورينا.

كان صوتها همساً.

- وماذا رأيت؟

- رأيت...

نظرت في أرجاء الغرفة، ثم إلى الأرض، ثم عاودت النظر إلى ليو وهي تلتزم الصمت. حثّها فيودور، والتوتر بادٍ في صوته:

- هل رأيت رجلاً؟

- نعم، رجلاً.

تنهّد فيودور الذي كان يقف بجانبها، وعيناه تراقبانها بعناية ارتياحاً. تابعت:

- رأيت رجلاً، وربما كان عاملاً على السكة الحديدية. رأيته عبر نافذتي. كان الظلام حالكاً.

نقر ليو بقلم رصاص على دفتر ملاحظاته.

- أرأيته مع فتى صغير؟

- لا، لم يكن معه فتى.

فغر فيودور فمه، وخرجت منه الكلمات بسرعة:

- لكن، قيل لنا إنك رأيت رجلاً يمسك يد فتى صغير.

- لا، لا، لا. لم يكن معه فتى. كان يحمل كيساً، وأظن أنه كيس مملوء بالأدوات. نعم، ذلك صحيح. كان يعمل على السكة الحديدية، وربما يصلحها. لم أرَ الكثير، مجرد لمحة، وذلك كل شيء. ما كان يجب أن آتي إلى هنا. أنا آسفة جداً على وفاة ابنك.

أغلق ليو دفتر ملاحظاته.

- شكراً لك.

- هل ستكون هناك أي أسئلة أخرى؟

قبل أن يتمكن ليو من الرد، أمسك فيودور ذراع المرأة قائلاً:

- رأيتِ رجلاً.

حرّرت المرأة ذراعها من قبضته، وجالت ببصرها في أرجاء الغرفة، ونظرت إلى كل العيون التي كانت تحدق إليها، ثم استدارت إلى ليو.

telegram @ktabpdf

مكتبة الرمحي أحمد

- هل ستزورني في موعد لاحق؟

- لا، يمكن أن تذهبي.

نظرت غالينا إلى الأرض، وأسرعت إلى الباب الأمامي. لكن، قبل أن تصل إليه صرخت المرأة العجوز:

- هل تفقد أعصابك بسهولة كبيرة؟

اقترب فيودور من المرأة الطاعنة في السن قائلاً:

- اجلسي من فضلك.

أومأت، من دون اشمئزاز أو موافقة.

- كان أركادي ابنك.

- نعم.

لم يستطع ليو رؤية عيني فيودور، وتساءل عن التواصل الصامت القائم بين ذينك الشخصين. لكن، بغض النظر عن ماهيته، فقد جلست المرأة على كرسيها. وفي أثناء كل ذلك كانت غالينا قد خرجت خلسة من المنزل.

شعر ليو بالسعادة لأن فيودور قد تدخل، وتمنّى أن يكونوا قد وصلوا إلى نقطة الرجوع. لم يكن تناقل الأقاويل والإشاعات يخدم أحداً، وقد عاد فيودور إلى صوابه وصار إلى جانب ليو.

- اعذريني يا أمي. إنها قلقة جداً.

- لهذا السبب أنا هنا؛ حتى نستطيع التكلم في هذا الموضوع ضمن حدود هذه الغرفة. ما لا يمكن أن يحدث هو أن يستمر الحديث حين أغادر هذه الغرفة. وإذا سألك أي شخص عن ابنك، فلا يمكن أن تقول إنه قُتل، ليس لأنني آمرك بذلك، ولكن لأن ذلك ليس صحيحاً.

- نفهم ذلك.

- فيودور، أريدك أن تأخذ إجازة غداً. لقد أُقرّ ذلك. إذا كان هناك شيء آخر يمكن أن أفعله لك...

- شكراً.

telegram @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

صافح فيودور ليو عند باب الشقة.

- نحن جميعاً منزعجون، فاعذرنا عن أي ثورة غضب.

- سأغض الطرف عن ذلك. لكن، كما قلت، الأمر ينتهي هنا.

تجهم وجه فيودور وأومأ، وأخرج الكلمات من فمه بصعوبة وكأنها مريرة:

- كان موت ابني حادثة فظيعة.

نزل ليو السلالم وهو يتنفس بعمق، فقد كان الجو في تلك الغرفة خانقاً، وشعر بالسعادة لانتهاء ذلك الأمر، ولأنّ القضية قد حُلّت. كان فيودور رجلاً صالحاً، وعندما يتأقلم مع وفاة ابنه سيصبح قبول الحقيقة أسهل بالنسبة إليه.

توقف حين سمع صوتاً خلفه. فاستدار ورأى فتى، لا يتجاوز عمره السبعة أعوام أو الثمانية.

- سيدي، أنا يورا، شقيق أركادي الأكبر. هل يمكن أن أتحدث إليك؟

- طبعاً.

- إنها غلطتي.

- ما هي غلطتك؟

- موت شقيقي. فقد رميت كرة ثلج عليه بعد أن حشوتها بحجارة وطين ورمل. تألم أركادي لأنها أصابته على وجهه، وانطلق يجري مبتعداً عني. ربما جعلته يشعر بالدوار، ولهذا السبب لم يرَ القطار. التراب الذي وجدوه في فمه؛ كان غلطتي. أنا رميته عليه.

- كان موت شقيقك حادثة. ليس هناك سبب يدعوك إلى الشعور بالذنب، لكنك فعلت خيراً بإخباري الحقيقة. عد الآن إلى والديك.

- لم أخبرهما عن كرة الثلج التي حشوتها بالرمل والطين والحجارة.

- ربما لا حاجة إلى أن يعرفا ذلك.

- سيغضبان كثيراً مني؛ لأنها كانت آخر مرة أراه فيها. سيدي، نحن نلعب معاً بلطف معظم الأوقات، وكنا سنلعب بلطف مجدداً، ونتصالح

ونصبح صديقين مرة أخرى، أنا واثق من ذلك. لكن، لا يمكنني الآن التصالح معه، أو الاعتذار منه.

كان ليو يسمع اعتراف ذلك الفتى الذي أراد الصفح وبدأ البكاء. مرتبكاً، ربت ليو على رأسه، وتمتم؛ وكأنها كلمات تهويدة:

- لم تكن تلك غلطة أحد.

telegram @ktabpdf مكتبة الرمحي أحمد

قرية كيموف
مئة وستون كيلومتراً شمال موسكو

اليوم نفسه

لم يكن أناتولي برودسكي قد ذاق طعم النوم خلال ثلاثة أيام، وكان يشعر بتعب شديد أضحت معه أبسط المهام تتطلب تركيزاً كبيراً. كان باب مخزن الحبوب أمامه موصداً، وعرف أن عليه فتحه بالقوة، لكن الفكرة بدت بعيدة المنال؛ لأنه ببساطة يفتقر إلى الطاقة. كان الثلج قد بدأ يتساقط. نظر إلى سماء الليل، وشرد ذهنه، وعندما تذكر أخيراً المكان الذي يتواجد فيه، والمهمة التي يفترض به أن ينجزها، شعر بالثلج يستقر على وجهه. لعق النُّدف العالقة فوق شفتيه، وأدرك أنه إذا لم يدخل فسيلقى حتفه. ركّز، وركل الباب فاهتزت المفصلات لكن الباب بقي مغلقاً. ركله مجدداً فتحطمت ألواح خشبية. وشجّعه الصوت فاستجمع آخر شرارات الطاقة لديه، وسدد الركلة الثالثة على القفل. طقطق الخشب، واهتز الباب إلى الخلف. وقف عند المدخل قليلاً ليتأقلم مع العتمة. ورأى في أحد طرفي المخزن بقرتين في حظيرة، وفي الطرف الآخر رأى أدوات وقشًّا. وضع بعض أكياس الخيش على الأرض المتجمدة، وأغلق أزرار معطفه، ثم استلقى فوق الأكياس وقد وضع ذراعاً فوق أخرى وأغمض عينيه.

* * *

من نافذة غرفة نومه، رأى ميخائيل زينوفيف باب مخزن الحبوب مفتوحاً، ويتأرجح إلى الأمام والخلف، والريح تعصف بمستودعه. استدار إلى الخلف، وشاهد زوجته نائمة على السرير، فقرّر ألاّ يزعجها. ارتدى

telegram @ktabpdf مكتبة الرمحي أحمد

معطفه بهدوء، وانتعل حذاءه المصنوع من اللباد، وخرج من المنزل.

كانت الريح قد اشتدت، وتعصف بالثلج المتجمع على الأرض، وتقذف به على وجه ميخائيل الذي رفع يده ليحمي عينيه. ومع اقترابه من المخزن، نظر من بين أصابعه، ورأى أن القفل قد حُطّم، والباب مفتوح. حدّق إلى الداخل، وبعد أن اعتاد على غياب ضوء القمر رأى شكل رجل يستلقي على الأرض بجانب القش. ومن دون أي فكرة واضحة عمّا يوشك على فعله، دخل المخزن، وأمسك المذراة، ثم تقدم من الشخص النائم، ووضع الأشواك فوق بطنه مستعداً لطعنه.

فتح أناتولي عينيه، ورأى الحذاء المغطّى بالثلج على بعد سنتيمترات عن وجهه، فاستلقى على ظهره، ونظر إلى الأعلى إلى الرجل الذي يقف قربه. كانت أشواك المذراة تهتزّ فوق بطنه مباشرة. لم يتحرك أي من الرجلين، وكوّنت أنفاسهما غشاء ضبابيًّا رقيقاً أمام وجهيهما اللذين ظهرا واختفيا. لم يحاول أناتولي الإمساك بالمذراة، أو الابتعاد عنها.

بقيا على تلك الحال، متجمدين في مكانيهما، حتى تغلب شعور بالخجل على ميخائيل الذي لهث وكأن قوة خفية قد ضربته على بطنه، وألقى المذراة على الأرض، وخرّ على ركبتيه.

سامحني أرجوك.

جلس أناتولي، وكان الأدرينالين قد أيقظه، لكن جسده يؤلمه. كم من الوقت بقي نائماً؟ ليس طويلاً بما فيه الكفاية. كان صوته أجش، وحلقه جافاً.

- أفهم. ما كان عليّ أن آتي إلى هنا، أو أطلب مساعدتك. لديك أسرتك تفكر فيها. لقد عرّضتك للخطر. أنا من يجب أن يطلب الصفح.

هز ميخائيل رأسه.

- كنت خائفاً، وذعرت. سامحني.

نظر أناتولي إلى الثلج، وإلى الظلام في الخارج، وعرف أنه لا يستطيع المغادرة آنذاك؛ لأنه لن ينجو. ولا يمكن بالطبع أن يسمح لنفسه بالنوم، لكنه

لا يزال بحاجة إلى ملتجأ. كان ميخائيل ينتظر جواباً، وينتظر الصفح.

- لا شيء أسامحك عليه، فاللوم لا يقع عليك. ربما كنت سأفعل الشيء نفسه.

- لكنك كنت صديقي.

- ولا أزال صديقك، وسأبقى هكذا دائماً. أصغ إلي: أريدك أن تنسى هذه الليلة تماماً. انسَ أنني جئت إلى هنا، وأنني طلَبت مساعدتك. وتذكر ما كنا عليه؛ أفضل صديقين. افعل هذا من أجلي وسأفعل الشيء نفسه من أجلك. سأغادر مع بزوغ أول ضوء، أعدك. ستستيقظ وتتابع حياتك كالمعتاد. أؤكد لك أن لا أحد سيعرف أنني كنت هنا.

طأطأ ميخائيل رأسه وانتحب. لم يكن يظن حتى تلك الليلة أنه قد فعل شيئاً لصديقه، لكن ذلك كذب. لقد تبين أن إخلاصه وشجاعته وصداقته ضعيفة جداً؛ فهي تتمزق عند أول امتحان جدّي.

عندما وصل أناتولي فجأة في ذلك المساء، أصيب ميخائيل بالدهشة على نحو مفهوم. كان أناتولي قد جاء إلى القرية من دون سابق إنذار. وبالرغم من ذلك، لقي ترحيباً حاراً، ومنُح طعاماً وشراباً ومكاناً ينام فيه. وعندما سمع مستضيفوه أنه يمضي في طريقه شمالاً إلى الحدود الفنلندية فهموا أخيراً سبب الزيارة المفاجئة. لم يكن قد ذكر إطلاقاً أنه مطلوب من إدارة أمن الدولة. لم يكن بحاجة إلى ذلك، فقد فهموا من تلقاء أنفسهم أنه هارب. وعندما اتضحت الحقيقة، تلاشى الترحيب به، فقد كانت عقوبة مساعدة طريدٍ وإيوائه الإعدامَ. وبالرغم من معرفته ذلك، إلا أنه كان يرجو أن يكون صديقه مستعداً لقبول المخاطرة، وحتى أن يسافر معه شمالاً. لم تكن إ.أ.د. تبحث عن شخصين، ولدى ميخائيل معارف في البلدات على الطريق إلى لينينغراد، خصوصاً في تفير وغوركي. صحيح أن ذلك كان معروفاً كبيراً، لكن أناتولي كان قد أنقذ حياة ميخائيل مرةً، ولم يعتبر ذلك ديناً يجب ردّه في وقت ما، وذلك بسبب اعتقاده أنه لن يحتاج إلى ذلك.

telegram @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

كان قد اتضح، في أثناء مناقشتهما، أن ميخائيل لم يكن مستعداً لقبول ذلك النوع من المخاطرة. وفي الواقع، لم يكن جاهزاً للإقدام على أي نوع من المخاطر. قاطعت زوجته مراراً كلامهما لتطلب الحديث إلى زوجها على انفراد، وفي كل مرة نظرت إلى أناتولي شزراً. كانت الظروف تتطلب أن يصبح الاحتراس والحذر جزءاً من الحياة اليومية. ولم يكن هناك شك في أن الرجل يمثّل خطراً على أسرة صديقه؛ الأسرة التي يحبها. وبعد أن قلّل من توقعاته كثيراً أخبر ميخائيل أنه لا يريد شيئاً أكثر من النوم ليلة في المخزن، وسيرحل بحلول صباح اليوم التالي، ويمشي إلى أقرب محطة سكك حديدية، ويغادر بالطريقة نفسها التي وصل بها. إضافة إلى ذلك، كانت فكرته أن يحطّم قفل مخزن الحبوب، وفي حال اعتقاله يمكن للأسرة أن تدّعي عدم معرفتها بوجوده وتتظاهر بأنه متطفل. كان يظن أن تلك الإجراءات ستطمئن مضيفيه.

مال أناتولي مقترباً من صديقه، وهو غير قادرٍ على رؤيته باكياً.

- لا داعي للشعور بالذنب، فنحن جميعاً نحاول إنقاذ أنفسنا.

توقف ميخائيل عن البكاء، ونظر إلى الأعلى، ومسح دموعه. أدركا أن تلك ستكون آخر مرة يشاهدان فيها بعضهما، فتعانق الصديقان.

تراجع ميخائيل إلى الخلف قائلاً:

- أنت أفضل مني.

وقف، ثم غادر المخزن وحرص على أن يغلق الباب خلفه، وجمّع بعض الثلج أمامه ليثبّته في موقعه. أدار ظهره للريح، ومشى مجهداً نحو المنزل. كان قتل أناتولي والإبلاغ عنه بوصفه متطفلاً سيضمن الأمان لأسرته. لكن، أصبح لزاماً عليه أن يجرب حظه آنذاك، وسيتوجّب عليه أن يتضرّع. لم يكن قد فكّر من قبل في أنه رجل جبان. ففي أثناء الحرب، حين كانت حياته على المحك، لم يتصرف قط كرعديد، مما جعل بعض الرجال يصفونه بالشجاع، لكن مسؤوليته عن أسرته جعلته يشعر بالخوف، وأضحى

قادراً على تخيل أشياء أسوأ بكثير من موته.

وصل إلى المنزل، وخلع حذاءه ومعطفه، وذهب إلى غرفة النوم. وعندما فتح الباب فزع حين رأى شكل شخص يقف إلى جانب النافذة. كانت زوجته مستيقظة، وتحدّق إلى المخزن. وعندما سمعته يدخل استدارت نحوه. لم يكن جسدها الصغير يدل على قدرتها على الرفع والحمل والتقطيع، والعمل اثنتي عشرة ساعة يومياً، والعناية بأسرتها. ولم تكن تهتم بإنقاذ أناتولي حياة زوجها مرة، أو بشأن تاريخهما وصداقتهما، فالإخلاص والوفاء صفتان مجرّدتان. كان أناتولي يمثّل تهديداً لسلامتهم، وتلك حقيقة، ولهذا أرادته أن يرحل، ويبتعد عن أسرتها قدر المستطاع، وكرهته في تلك اللحظة تحديداً - هذا الصديق المحترم اللطيف الذي أحبته سابقاً وعاملته كضيف عزيز - أكثر من أي شخص آخر حيّاً.

قبّل ميخائيل زوجته، وشعر بأن وجنتها باردة، فأمسك يدها. نظرت إليه، ولاحظت أنه يبكي.

- ماذا كنت تفعل في الخارج؟

فهم ميخائيل سبب لهفتها. فقد كانت تتمنى أن يكون قد فعل ما هو ضروري، ووضع مصلحة أسرته نصب عينيه وقتل الرجل؛ لأن ذلك سيكون عين الصواب.

- لقد ترك باب المخزن مفتوحاً. كان بمقدور أي شخص أن يراه، ولهذا أغلقته.

أحس بأن قبضة زوجته تتراخى، وشعر بخيبة أملها، فقد ظنّت أنه ضعيف، وكانت محقّة في ذلك. لم تكن لديه القوة لقتل صديقه أو القدرة على مساعدته، وحاول العثور على بعض كلمات المواساة.

- لا داعي للقلق، فلا أحد يعرف أنه هنا.

telegram @ktabpdf مكتبة الرمحي أحمد

موسكو

اليوم نفسه

كانت الطاولة محطّمة، والسرير مقلوباً رأساً على عقب، والفراش مشقوقاً، والوسائد ممزقة، وألواح الأرضية منتزعة من مكانها. لكن، بالرغم من ذلك، لم يكن البحث في شقة أناتولي برودسكي قد أسفر عن العثور على أي دليل يشير إلى مكانه. جلس ليو القرفصاء ليفحص الموقد، واكتشف أن أكواماً من الورق قد أُحرقت فيه، ورأى طبقات من رماد ناعم حيث كُوّمت الرسائل وأشعلت النار فيها. وباستخدام فوهة مسدسه حرّك البقايا وهو يأمل أن يعثر على بعض القصاصات التي لم تمسّها النار. كان الخائن قد ولّى الأدبار، واللوم يقع على ليو، فقد منح ذلك الرجل الغريب قرينة الشك، وافترض أنه بريء، وهي غلطة من النوع الذي لا يقترفه إلا مبتدئ.

جعلُ عشرة أشخاص أبرياء يعانون أفضل
من هروب جاسوس واحد.

كان قد أهمل مبدأ رئيساً في عملهم: افتراض الذنب.

بالرغم من تحمّل ليو المسؤولية، إلا أنه لم يستطع إلا أن يتساءل إن كان برودسكي سيتمكن من الهرب لو لم يكن مرغماً على تمضية اليوم كله في التعامل مع وفاة فتى صغير في ظروف طبيعية. لقاء أقارب، تبديد إشاعات مغرضة؛ لم يكن ذلك عمل ضابط إ.أ.د. رفيع المستوى. وبدلاً من الإشراف شخصياً على عملية مراقبة مهمة، كان قد وافق على القيام بمهمة ثانوية، وحلّ ما تبين أنها مجرد قضية شخصية. لم يكن يجب أن يقول نعم أبداً، فقد جعلته الموافقة يغفل عن الخطر الذي يمثّله هذا الرجل برودسكي،

telegram @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

وهذا أول سوء تقدير يقترفه منذ انضمامه إلى أمن الدولة. كان يدرك أن قلّة من الضباط يحظون بفرصة اقتراف خطأ ثانٍ.

لم يكن قد فكّر كثيراً في القضية. كان برودسكي مثقفاً، ويجيد اللغة الإنكليزية، ويتعامل مع الأجانب بانتظام وكان يجدر بذلك كلّه أن يكون أرضية للحيطة والحذر، لكن الرجل، كما أشار ليو، عمل طبيباً بيطرياً مرموقاً في مدينة لا تحتضن الكثيرين منهم. كان الدبلوماسيون الأجانب مضطرين إلى أن يأخذوا قططهم وكلابهم إلى شخص ما. وإضافة إلى ذلك، خدم ذلك الرجل في الجيش الأحمر بصفته طبيباً ميدانياً، وخلفيته لا تشوبها شائبة. ووفقاً لسجلاته العسكرية كان قد تطوّع، وبالرغم من أنه لم يكن مؤهلاً فنياً كطبيب بشري، وبالرغم من أن خبرته تنحصر في الحيوانات الجريحة، إلا أنه عمل في عدّة مستشفيات ميدانية وتلقى لاحقاً تقديرين على جهوده. لا بد من أن المشتبه فيه قد أنقذ حياة مئات الأشخاص.

كان الرائد كوزمن قد خمّن بسرعة سبب تحفّظات تلميذه، فقد عالج أطباء ميدانيون ليو في أثناء حياته العسكرية من جراح كثيرة، ولا بد من أن نوعاً من رفقة الحرب كان يثبط عزيمته. لكن كوزمن ذكّر ليو بأن العاطفة ربما تحجب الحقيقة عن إنسان، وأن أولئك الذين يبدون الأكثر جدارة بالثقة يجب أن يكونوا موضع شبهة. وأدرك ليو أن تلك تورية لحكمة ستالين الشهيرة:

ثق لكن توثّق.

كانت كلمات ستالين قد فُسّرت على النحو الآتي:

توثّق من أولئك الذين تثق بهم.

ونظراً إلى أن التوثّق من الذين ليسوا موضع ثقة يتم بالقوة نفسها، فهذا يعني أن هناك نوعاً من المساواة على الأقل.

كان من واجب المحقق أن يبحث بين الأبرياء حتى يعثر على المذنب. وإذا لم يجده، فإن ذلك يعني أنه لم ينقّب عميقاً بما فيه الكفاية. وفي حالة

بروديسكي، لم يكن السؤال: هل كان الدبلوماسيون الأجانب يقصدونه لأنه طبيب بيطري؟ وإنما: هل أصبح هذا المشتبه فيه طبيباً بيطرياً كي يلتقي دبلوماسيين أجانب علانية؟ لماذا أنشأ عيادته على بعد خطوات من السفارة الأميركية؟ ولماذا - بعد وقت قصير من افتتاحه عيادته - اقتنى عدّة دبلوماسيين من السفارة الأميركية حيواناتٍ أليفة؟ أخيراً، لماذا كانت الحيوانات الأليفة الخاصة بدبلوماسيين أجانب تتطلب اهتماماً أكثر تواتراً من حيوانات تخص مواطناً عادياً؟ كان كوزمن أول من وافق على وجود شيء مثير للشبهة في هذا. وكانت تلك السمة غير الطبيعية هي ما جعلته يقلق، وبدت الظروف العادية تمويهاً متقناً، كما بدت إ.أ.د. موضع سخرية، ولم تكن هناك جرائم كثيرة أخطر من ذلك.

بعد التفكير في القضية، والأخذ في الحسبان ملاحظات رئيسه، اتخذ ليو قراراً بملاحقة المشتبه فيه بدلاً من اعتقاله فوراً؛ لأنه إذا كان ذلك المواطن جاسوساً فستسنح لهم الفرصة لاكتشاف الأشخاص الذين يعمل معهم واعتقالهم جميعاً بضربة واحدة. وبالرغم من أنه لم يقل ذلك صراحة، إلا أنه لم يكن مرتاحاً للقيام بعملية اعتقال من دون توافر المزيد من الأدلّة، مما يجعله يشعر بتأنيب ضمير يرافقه طوال حياته المهنية. كان قد نفذ عدة عمليات اعتقال من دون أن يعرف إلا اسم المواطن وعنوانه وحقيقة أن أحداً لا يثق به، فذنب المشتبه فيه يصبح حقيقة عندما يصبح الشخص مشتبهاً فيه. وفي ما يتعلق بالدليل، يمكن الحصول عليه في أثناء استجوابه. لكن ليو لم يكن مجرد تابع آنذاك يلتزم الأوامر، وقد قرّر استغلال سلطته، وإنجاز الأشياء بطريقة مختلفة قليلاً. كان متحرّياً، ويرغب في إجراء تحقيق، وليس لديه شك في أنه سيلقي القبض على بروديسكي في نهاية المطاف. لكنه أراد دليلاً، أو بيّنة تثبت ذنبه وليس مجرد حدس. باختصار، أراد أن يشعر بالرضا عن اعتقاله.

كجزء من عملية المراقبة، كان ليو قد تولّى العمل في النهار، ولاحق

telegram @ktabpdf

مكتبة الرمحي أحمد

المشتبه فيه من الثامنة صباحاً وحتى الثامنة مساءً. وطوال ثلاثة أيام لم يلحظ شيئاً غير معتاد. فقد عمل المشتبه فيه، وتناول الغداء في الخارج وعاد إلى المنزل. باختصار، بدا مواطناً صالحاً، وربما كان مظهره الحميد هو الذي جعل ليو يشعر بفتور تجاه ما يفعله. وعندما سحبه كوزمن سريع الغضب جانباً في صباح ذلك اليوم، وأخبره عن قضية فيودور أندريف - الفتى الميت، وردّ الفعل الهستيري - وأمره بإصلاح الوضع حالاً، لم يحتجَّ. وبدلاً من الثبات على موقفه، وإيضاح أن لديه أشياء أكثر أهمية ليفعلها، أذعن للأمر. وأدرك متأخراً كيف بدا الأمر كله سخيفاً، وأن حديثه مع الأقارب، وملاطفته ذلك الطفل كانا محبطين، في حين كان ذلك المشتبه فيه، ذلك الخائن، يهرب ويسخر من ليو. لم يكن العميل الذي كُلّف بالمراقبة قد فكّر في حقيقة أن زبوناً واحداً لم يأتِ إلى عيادة الطبيب البيطري طوال النهار ربما تعني أنه غير موجود. لكن، بحلول الغسق ساوره الشك ودخل المكان، وهو ينوي أن يقدّم نفسه كزبون فوجد العيادة خالية، والنافذة الخلفية مفتوحة عنوة. كان بمقدور المشتبه فيه الهرب في أي وقت، وقد فعل ذلك على الأرجح عند الصباح، بعد وقت قصير من وصوله.

هرب برودسكي.

عندما سمع ليو هاتين الكلمتين شعر بالغثيان، وطلب اجتماعاً طارئاً مع الرائد كوزمن في منزله، فقد أصبح لديه آنذاك الدليل الذي يثبت أن برودسكي مذنب، لكن من دون المشتبه فيه. ولدهشته، بدا رئيسه مرتاحاً، فقد أثبت سلوك الخائن نظريته: كان الارتياب هو عملهم. إذا كان ادّعاءٌ ما يحمل نسبة واحد بالمئة باحتمال كونه حقيقيًا، فسيكون اعتبار الادعاء كله صحيحاً أفضل من إهماله. وتلقى ليو تعليمات بالقبض على ذلك الخائن مهما كلّف الأمر. لم يكن يُفترض به أن ينام، أو يأكل، أو يرتاح، أو يفعل أي شيء آخر حتى يصبح ذلك الرجل في قبضتهم، حيث - أشار كوزمن باعتداد بالنفس - كان يجب أن يكون لديهم قبل ثلاثة أيام.

فرك ليو عينيه، وشعر بغصّة في معدته. لقد بدا على أحسن تقدير ساذجاً، وفي أسوأ حال، مفتقراً إلى الكفاءة. كان قد استخف بخصم، وأحس بنوبة غضب مفاجئة وعارمة إلى درجة أنه فكّر في ركل الطاولة المقلوبة رأساً على عقب، لكنه قرّر ألاّ يفعل ذلك، فقد درّب نفسه على إبقاء مشاعره حبيسة داخله وبعيدة عن الأنظار. دخل ضابط يافع الغرفة مسرعاً، ومتشوّقاً على الأرجح إلى تقديم يد العون، وإثبات تفانيه في العمل، لكن ليو لوّح له أن يبتعد، فقد أراد البقاء وحيداً. استغرق دقيقة كي يهدأ، وحدّق عبر النافذة إلى الثلج الذي كان قد بدأ يتساقط فوق المدينة. أشعل لفافة تبغ، ونفخ الدخان على الزجاج. ما الخطأ الذي ارتُكِب؟ لا بد من أن المشتبه فيه قد رأى العميلين وهما يتعقبانه وخطط لفراره. وإذا أحرق مستندات، فذلك يعني أنه كان مهتماً بإخفاء موادّ تتعلق بتجسسه أو الجهة التي يقصدها آنذاك. كان ليو واثقاً أن لدى برودسكي خطة هروب، وطريقة للخروج من البلاد. ويجدر به العثور على بعض أجزاء تلك الخطة.

كان الجاران زوجين متقاعدين في العقد السابع من عمرهما، ويقطنان مع ابنهما المتزوج، وزوجته، وولديهما. لم يكن عيش أسرة مؤلفة من ستة أفراد في غرفتين أمراً غير اعتيادي. كان الستة يجلسون في مطبخهم جنباً إلى جنب، فيما يقف خلفهم ضابط يافع بهدف إخافتهم. ولاحظ ليو أنهم يفهمون أنهم جميعاً متورطون في ذنب رجل آخر، واستطاع رؤية خوفهم، لكنه غض الطرف عن ذلك بوصفه أمراً غير ذي صلة بالموضوع - لقد اعتُبر مذنباً بسبب رقّته سابقاً - ومشى نحو الطاولة.

- أناتولي برودسكي خائن. وإذا ساعدتموه بأي طريقة، وإن تكن بالتزام الصمت، فستُعاملون على أنكم شركاء له. الأمر منوط بكم لإثبات ولائكم للدولة، ولا حاجة بنا إلى إثبات ذنبكم، فذلك الآن شيء مسلّم به.

أسرع الرجل العجوز، الجد الذكي من دون شك، بالإدلاء بكل المعلومات التي لديه، واختار كلمات ليو نفسها، وادّعى أن الخائن قد

telegram @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

ذهب إلى العمل في ذلك الصباح في وقت باكر وهو يحمل الحقيبة نفسها كالمعتاد، ويرتدي المعطف عينه، ويعتمر القبعة ذاتها. ونظراً إلى أنه لم يرغب في أن يبدو غير متعاونٍ، عرض الجد آراء واقتراحات عن مكان وجود ذلك الخائن، وشعر ليو أنها ليست أكثر من مجرد تخمينات يائسة. أنهى الجد كلامه بالقول إن كل أفراد أسرته لم يحبوا برودسكي، أو يثقوا به كجار، وأن الإنسانة الوحيدة التي أحبّته هي زينا موروسوفنا، السيدة التي تعيش في الطابق السفلي.

كانت زينا موروسوفنا في العقد الخامس من عمرها، وترتعش مثل طفلة؛ وهي حقيقة حاولت إخفاءها بالتدخين من دون أن تنجح في ذلك. وجدها ليو واقفة بجانب لوحةٍ مقلّدة رخيصة لإحدى لوحات ستالين الشهيرة - جلد ناعم، عينان واسعتان - معلّقة على نحو بارز فوق موقدها، والتي ربما ظنّت أنها قد تحميها. لم يزعج ليو نفسه بالتعريف عن نفسه، أو إظهار بطاقته، ودخل مباشرة صلب الموضوع في محاولة لإرباكها.

- لماذا كنتِ وأناتولي برودسكي صديقين حميمين، في حين أن كل شخص آخر في المبنى لم يكن يحبه أو يثق به؟

كانت زينا قد أُخذت على حين غرة، وتلاشى شعورها بالتحفّظ نتيجة سخطها من تلك الكذبة:

- أحبَّ كل شخص في هذا المبنى أناتولي، فقد كان رجلاً طيباً.

- برودسكي جاسوس، وبالرغم من ذلك تقولين إنه طيب!! هل الخيانة فضيلة؟

أدركت زينا خطأها بعد فوات الأوان، وشرعت تصحح قولها:

- كل ما عنيته هو أنه لم يكن يصدر أي ضوضاء. كان مهذباً.

نطقت تلك الصفات غير ذات الصلة بالموضوع متأنّية، ولهذا تجاهلها ليو الذي أخرج دفتر ملاحظاته، وكتب كلماتها التي لم تخترها بعناية بحروف كبيرة ظاهرة للعيان.

كان رجلاً طيباً.

كتب بوضوح حتى يُريها بالضبط ما يخطّه. كان يشطب السنوات الخمس عشرة التالية من حياتها، فتلك الكلمات أكثر من كافية لإدانتها بالتواطؤ معه، وسيُحكم عليها بالسجن لمدة طويلة كسجينة سياسية، وفي مثل سنها ستكون فرصتها في النجاة في غولاغ ضئيلة. لم يكن بحاجة إلى قول أي من تلك التهديدات بصوتٍ عالٍ، فقد كانت معروفة للجميع.

تراجعت زينا إلى زاوية الغرفة، وأطفأت لفافة تبغها، وندمت على ذلك فوراً، فبحثت عن أخرى.

- لا أعرف المكان الذي ذهب أناتولي إليه، لكنني أعلم أن لا أسرة لديه. لقيت زوجته حتفها في الحرب، وتوفي ابنه نتيجة مرض السل، ونادراً ما كان يزوره أحد. ووفقاً لما أعرفه لم يكن أصدقاؤه كثيرين...

توقفت عن الكلام، فقد كان أناتولي صديقها، وأمضيا عدّة ليالٍ معاً، وهما يأكلان ويشربان، ومرّ وقت تمنّت فيه أن يقع في حبها لكنه لم يظهر أي اهتمام بها، فهو لم يتجاوز قط خسارة زوجته. بقيت عالقةً في ذكرياتها، ونظرت إلى ليو الذي لم يظهر عليه أي تأثر.

- أريد أن أعرف أين هو. لا أكترث بزوجته الميتة أو ابنه المتوفى. وقصة حياته لا تثير اهتمامي إلا إن كانت لها علاقة بمكان وجوده الآن.

كانت حياتها على المحك. ولم تكن هناك إلا طريقة واحدة للنجاة. لكن، هل يمكنها خيانة رجل أحبته؟ لدهشتها، استغرق منها اتخاذ القرار وقتاً أقل مما توقعت.

- كان أناتولي منغلقاً على نفسه. على أيّ حال، تلقى رسائل وبعث أخرى، وكان يتركها معي عادة لأرسلها عبر البريد. المراسلات المنتظمة الوحيدة ذهبت إلى شخص في قرية كيموف. إنها في مكان ما إلى الشمال من هنا، حسبما أظن. ذكر أن لديه صديقاً هناك، لكنني لا أتذكر اسمه. تلك هي الحقيقة، وهذا كل ما أعرفه.

telegram @ktabpdf

مكتبة الرمحي أحمد

كان صوتها يغص بالذنب. وبالرغم من أن أي عرض للمشاعر لم يكن يؤخذ في الحسبان، إلا أن ليو أدرك أنها تخون شخصاً ائتمنها، ومنحها ثقته. مزّق الورقة التي تُجرِّمها من دفتر ملاحظاته، وأعطاها إياها، وقبلت الورقة على أنها ثمن الخيانة. رأى ازدراءً في عينيها، لكنه لم يدع ذلك يزعجه.

كان حصوله على اسم قرية في الريف شمال موسكو دليلاً ضعيفاً. وإذا كان برودسكي يعمل جاسوساً، فسيقوم الأشخاص الذين يعمل لمصلحتهم بتوفير الحماية له على الأرجح. ومنذ وقت طويل ساد إ.أ.د. اقتناع بوجود شبكة من المنازل الآمنة تحت سيطرة أجنبية. كانت فكرة وجود خائن يتلقى تمويلاً أجنبياً، ويعتمد على علاقات شخصية - فرد في مزرعة جماعية - تتناقض مع نظرية أنه جاسوس محترف. وبالرغم من ذلك، شعر ليو واثقاً أن ذلك دليل يجب أن يلاحقه، فتجاهل التناقضات. كانت مهمته هي إلقاء القبض على ذلك الرجل، وليس لديه إلا ذلك الدليل، وقد كلّفته المراوغة الكثير سلفاً.

أسرع إلى الشاحنة المتوقفة في الخارج، وبدأ يقرأ مجدداً ملف القضية، ويبحث عن شيء قد يكون على علاقة بقرية كيموف. قاطعته عودة نائبه فاسيلي إيليش نيكتين، وهو رجل في الخامسة والثلاثين من عمره، وأكبر من ليو بخمس سنوات، وأحد ضباط إ.أ.د. الواعدين سابقاً. كان فاسيلي قاسياً، ومثابراً، ولا يدين بالولاء لأحد باستثناء إ.أ.د. لكن ليو لم يكن يعتبر أن ذلك الولاء نتيجة حب للوطن، وإنما نتيجة اهتمام بمصلحة شخصية. وفي أيامه الأولى بصفته محققاً، كان فاسيلي قد أثبت ولاءه بالإبلاغ عن شقيقه الوحيد الذي أدلى بملاحظات معادية لستالين، واتضح أن الشقيق قد ألقى دعابة على حساب ستالين حين كان ثملاً ويحتفل بذكرى مولده. كما اتضح أن فاسيلي هو الشخص الذي كتب التقرير. وحُكم على الشقيق بالسجن عشرين سنة مع الأشغال الشاقة. صبّ ذلك الاعتقال في مصلحة فاسيلي حتى هرب الشقيق بعد ثلاث سنوات؛ بعد أن قتل عدّة حراس وطبيب المعسكر في أثناء

telegram @ktabpdf مكتبة الرمحي أحمد

ذلك. لم يُقبض عليه قط مجدداً، وشعر فاسيلي بالإحراج بسبب ذلك، ولو لم يساعد بفعالية على البحث عن الهارب، ربما ما كان ليحافظ على وظيفته التي أضحت أضعف حالاً بعد ذلك. لم يكن لدى ليو أشقاء يقبض عليهم، وعرف أن نائبه يبحث عن طريقة أخرى يعود فيها إلى سابق عهده.

بعد الانتهاء آنذاك من تفتيش عيادة الطبيب البيطري، بدا واضحاً أن فاسيلي سعيد بنفسه، وأعطى ليو رسالة مجعدة وجدها - كما شرح - مرمية خلف الطاولة التي يكتب عليها الخائن. كانت كل الرسائل الأخرى قد أُحرقت - كما حدث في الشقة - لكن المشتبه فيه ترك تلك الرسالة حين غادر على عجلة من أمره. قرأها ليو، واكتشف أنها من صديق يخبر فيها أناتولي بأنه يرحب به للبقاء معه في أي وقت. وبالرغم من أن العنوان لم يكن واضحاً، إلا أن اسم المدينة بدا جلياً: كييف. طوى ليو الرسالة وأعادها إلى نائبه.

- لم يكتب أيّ صديق لبرودسكي هذه الرسالة. بل إنّه هو الفاعل، وقد أرادنا أن نعثر عليها. إنه لا يتجه إلى كييف.

كانت الرسالة قد كُتبت على عجل، فالخطّ غير متناسق. بدا المحتوى مضحكاً، وغايته الوحيدة إقناع القارئ بأن المرسل إليه صديقٌ يمكن لبرودسكي أن يلجأ إليه وقت الحاجة. كان العنوان مموهاً عمداً؛ لمنع تحديد هوية الصديق بسرعة وإثبات زيف الرسالة. وبدا أن المكان الذي وجدت فيه الرسالة - ملقية خلف الطاولة - مُختاراً بطريقة متعمّدة.

احتج فاسيلي قائلاً إنّ الرسالة أصلية.

- سيكون عدم التحقيق الكامل في دليل كييف إهمالاً.

بالرغم من أن ليو لم تكن لديه شكوك في أن الرسالة مزيفة، إلا أنه تساءل إن كان إرسال فاسيلي إلى كييف بوصفه إجراءً احترازياً مناسباً، وذلك بغرض حمايته نفسه من أي ادّعاء محتمل بأنه قد تجاهل دليلاً، لكنه نبذ الفكرة من ذهنه: لم تكن طريقة إدارته التحقيقَ مهمة. وإذا فشل في العثور

على المشتبه فيه، فستنتهي حياته المهنية.

أعاد تركيزه على الملف. ووفقاً للسجلات، كان برودسكي صديقاً لرجل يدعى ميخائيل سفياتوسلافيتش زينوفيف، الذي سُرّح من الجيش الأحمر بعد إصابته بقضمة صقيع مزمنة. شارف الرجل على الموت، وبُترت عدّة أصابع من قدميه. لقد خضع لعناية طبية حتى استعاد عافيته، وسُرّح من الخدمة العسكرية، وقد أجرى برودسكي العملية. مرّر ليو إصبعه على الوثيقة باحثاً عن عنوان برودسكي الحالي.

كيموف.

استدار ليو إلى رجاله، ولاحظ تعبير وجه فاسيلي المتجهم.

- سنغادر هذا المكان.

ثلاثون كيلومتراً شمال موسكو

15 شباط

كانت الطرقات خارج موسكو مغطاة بطبقة من الجليد. وبالرغم من تزويد عجلات الشاحنة بسلاسل خاصة، إلا أن سرعتهم لم تتجاوز الخمسة والعشرين كيلومتراً في الساعة. عصفت الريح حولهم بقوة، حيث بدت وكأن لديها مصلحة شخصية في عدم وصول ليو إلى مقصده. وكافحت ماسحتا الزجاج الأمامي المتصلتان بسقف القمرة الأمامية لإبقاء رقعة صغيرة فقط من النافذة واضحة، وتقدمت الشاحنة إلى الأمام في مدى رؤية يقل عن عشرة أمتار. كان اليأس قد دفع ليو إلى القيام بالرحلة في تلك الظروف المناخية القاسية.

جلس ليو بجانب فاسيلي وسائقهما، مندفعاً إلى الأمام، وهناك خرائط مفتوحة على حجره. وكانت ثيابهم تصلح لنزهة في الهواء الطلق. ولم تكن هناك معاطف، وقفازات، وقبعات داخل الشاحنة. لم تكن هناك تدفئة في القمرة الفولاذية بسقفها وأرضيتها الفولاذيّين، باستثناء تلك الصادرة عن المحرك الذي يقعقع، لكنها توفر على الأقل بعض الحماية من الطقس. في الخلف، لم يكن عملاؤه التسعة المدججون بالأسلحة يسافرون متمتعين بمثل تلك الرفاهية. كان لشاحنات زيس - 151 سقوف قماشية ينفذ الهواء البارد منها، وكذلك الثلج. ونظراً إلى أن درجات الحرارة قد تهبط إلى ثلاثين درجة تحت الصفر، فقد زُوّدت كل المقصورات الخلفية في شاحنات زيس - 151 بمواقد تحرق الحطب ومثبّتة بالأرضية، ولم يكن بمقدور تلك الأدوات مستديرة الشكل تدفئة إلا أولئك الذين يكادون أن يمسّوها

telegram @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

فقط، مما يرغم الرجال على التجمّع حولها وتبديل مواقعهم بانتظام. كان ليو نفسه قد جلس هناك عدّة مرات. كل عشر دقائق يتحرك أقرب شخصين إلى الموقد بتردد بعيداً عن الحرارة، وينتقلان إلى أبرد موقعين على الطرفين البعيدين من المقاعد الخشبية، في حين يقترب باقي أفراد الفريق من الموقد.

شعر ليو للمرة الأولى في حياته المهنية بانشقاقٍ في فريقه. ولم يكن السبب التعب أو عدم النوم، فقد كان رجاله معتادين على الظروف القاسية. لا، كان هناك شيء آخر، ربما يتعلق بحقيقة إمكانية تفادي المهمة، أو عدم ثقتهم بدليل كيموف. كان قد طلب من رجاله أن يثقوا به سلفاً؛ ومنحوه ذلك. لكنه شعر في تلك الليلة بعدائيتهم ومقاومتهم. وباستثناء فاسيلي، لم يكن معتاداً على ذلك. وضع تلك الأفكار جانباً، فقد كانت شعبيته آنذاك آخر أسباب قلقه.

إذا تبين أن نظريته صحيحة والمشتبه فيه موجود في كيموف، فسيتحرك على الأرجح مع بزوغ أول ضوء كما فكّر ليو، سواء أكان وحده أو برفقة صديقه. كان ليو يغامر بالرهان على الوصول إلى القرية في الوقت المناسب، وقرّر ألاّ يستخدم المليشيا الموجودة في زاغورسك، وهي أقرب بلدة كبيرة؛ لأنّ أفرادها هواة حسب رأيه، ويفتقرون إلى الانضباط والتدريب الجيد. ولم تكن حتى فرق إ.أ.د. المحلية موضع ثقة في مثل تلك العملية. ونظراً إلى معرفته حقيقة أنه رجل مطلوب، لم يكن برودسكي سيستسلم على الأرجح، وقد يقاتل حتى الموت. كان ينبغي إلقاء القبض عليه حياً، فاعترافه ذو أهمية عظيمة. وفضلاً على ذلك، كان هروبه قد أحرج ليو شخصياً، فعقد العزم على إصلاح الأمر، وصمم على أن يكون الشخص الذي يقوم باعتقاله. لم تكن تلك مسألة كبرياء فقط، أو أن حياته المهنية تعتمد على نجاحه، فالعواقب تصل إلى أبعد من ذلك. فربما ينجم عن فشله في قضية تجسس مهمة مثل تلك ادّعاءاتٌ بأن ليو قد خرّب التحقيق متعمداً. والفشلُ في إلقاء القبض على المشتبه فيه سيورّطه أكثر، وسيصبح ولاؤه موضع تساؤل.

telegram @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

توثق من أولئك الذين تثق بهم.

لا أحد مستثنى من تلك القاعدة، ولا حتى أولئك الذين يطبقونها.

إذا لم يكن برودسكي في كيموف، وتبين أن ليو مخطئ، فعندها سيكون فاسيلي أول من يتقدم للإدلاء بشهادة تفصيلية عن إهمال قائده دليل كييف الواضح. شعر ليو بضعفه، وأدرك أن الآخرين في الإدارة سيكونون مثل حيوانات تحوم حول فريسة جريحة، وسيسارعون بكل تأكيد إلى انتقاده بوصفه قائداً يفتقر إلى الكفاءة، في حين يقدم فاسيلي نفسه بصفته خلَفاً منطقياً له. في التسلسل الهرمي لأمن الدولة، يمكن للحظ أن يتغير بين ليلة وضحاها. وكان الكثير من الأمور يعتمد على مكان وجود ذلك الخائن.

ألقى ليو نظرة جانبية على نائبه، وهو رجل وسيم وبغيض على حدٍّ سواء؛ وكأن مظهره الجيد مُلصق على مركز نتن ذي وجه بطل وقلب تابع أمين. كانت تجاعيده تكاد لا تبدو للعيان لدى النظر إلى شكله الجذّاب، غير أنها تظهر حول طرفي فمه. وإذا عرفت كيف تفسّر صوته الساخر، فستدرك الأفكار المظلمة التي تختبئ خلف حُسنه. ربما شعر فاسيلي بأنه موضع اهتمام، فاستدار وابتسم ابتسامة رقيقة غامضة. لا بد من أن شيئاً ما جعله يشعر بالسعادة، وعرف ليو فوراً أن هناك خطباً ما.

توثّق من الخريطة. وبعدد سكان أقل من ألف نسمة، لم تكن كيموف أكثر من ذرة غبار على القماش السوفييتي. كان قد حذّر السائق ألاّ يتوقع أي إشارات طرقية، حتى بسرعة خمسة عشر كيلومتراً في الساعة. فقد كانت تلك القرية ستظهر وتختفي في الوقت الذي يستغرقه تغيير التروس. مرّر ليو إصبعه على علامات الطرقات، وبدأ يشك في أنهم قد تجاوزوا المنعطف. كانوا لا يزالون يسافرون شمالاً ويجب أن يتجهوا غرباً. ونظراً إلى استحالة تحديد أي اتجاه بناءً على البيئة المحيطة بهم، فقد خمّن المكان الذي وصلوا إليه وفقاً للكيلومترات التي قطعوها، ووجد أنهم أصبحوا شمال مقصدهم، وأن السائق قد غفل من دون شك عن العلامة المطلوبة.

- استدر عائداً!

لاحظ ليو أن السائق وفاسيلي لم يستغربا من طلبه ذاك. تمتم السائق:

- لكننا لم نرَ المنعطف.

- لا بد من أننا قد تجاوزناه. أوقف الشاحنة.

خفف السائق السرعة بهدوء، وضغط على المكابح رويداً رويداً حتى يتفادى الانزلاق على الجليد، وتهادت الشاحنة حتى توقفت تماماً، فقفز ليو منها، وشرع يوجه السائق وسط العاصفة الثلجية عبر منعطف ضيق، فقد كانت زيس - 151 بعرض الطريق تقريباً. وصلت الشاحنة إلى منتصف المنعطف، وغادرت الطريقَ بزاوية صحيحة، حين بدا أن السائق قد تجاهل تعليمات ليو، وقادها إلى الخلف بسرعة كبيرة وأبعد مما ينبغي. جرى ليو إلى الأمام وطرق على الباب بعنف لكن بعد فوات الأوان. خرجت إحدى العجلات الخلفية عن الطريق، وأخذت تدور من دون جدوى في الثلج. ترافق غضب ليو مع شكوكه المتزايدة تجاه سائقه الذي بدا أنه يفتقر إلى أي نوعٍ من الكفاءة. كان فاسيلي هو من تدبّر أمر إحضار الشاحنة، وجلب السائقَ. فتح ليو باب القمرة، وصرخ بصوتٍ يعلو على صفير الريح:

- اخرج!

خرج السائق. وبحلول ذلك الوقت، كان الجنود في الخلف قد نزلوا أيضاً إلى الأرض لاستطلاع الوضع، وحدّقوا إلى ليو مستنكرين ما يفعله. هل كان ذلك الانزعاج من التأخر، أم من المهمة نفسها، أم الحنق من قيادته؟ لم يفهم ذلك. أمر أحد الرجال بأن يمسك المقود، في حين حاول الفريق كله، بمن فيهم فاسيلي، دفع الشاحنة إلى خارج الثلج. دارت العجلة، ونثرت وحلاً على بذلاتهم. أخيراً، تعشقت سلاسل الثلج بالطريق، وتمايلت الشاحنة إلى الأمام. أرسل ليو السائق الفاشل ليجلس في الخلف، فقد كان ذلك النوع من الأخطاء أكثر من كافٍ لتقديم تقرير مكتوب ضده، والحكم عليه بالسجن في غولاغ. كان واضحاً أن فاسيلي قد ضمن حصانة السائق،

وهي ضمانة لن تصمد إلا إذا فشل ليو، الذي تساءل عن عدد الأعضاء في فريقه الذين راهنوا على فشله أكثر من مراهنتهم على نجاحه. شعر بالوحدة والعزلة في وحدته فأمسك المقود. سيتولى القيادة، والملاحة، وسيوصلهم إلى هناك، فلم يعد بمقدوره أن يثق بأحد. جلس فاسيلي بجانبه، وقرّر بحكمة أن لا ينبس بكلمة. عشّق ليو ناقل حركة الشاحنة.

بحلول الوقت الذي أصبحوا فيه على الطريق الصحيح، متّجهين غرباً، ومقتربين من كيموف، كانت العاصفة قد انتهت، وبدأت شمس شتاء باهتة تظهر. شعر ليو بالإرهاق، فالقيادة في الثلج استنزفت قواه، وجعلت ذراعيه وكتفيه متيبسةً، وجفنيه ثقيلين. كانوا يمرّون عبر أراضٍ ريفية؛ عبر حقول، وغابات. وعندما انعطف نحو وادٍ صغير رأى القرية: مجموعة من البيوت الخشبية، بعضها على الطريق، وبعضها الآخر بعيدة عنه، وكلها مبنية على أساسات مربّعة، وترتفع سقوفها مثلّثة الشكل عالياً، وهو منظر لم يكن قد تغير منذ مئة سنة. كانت تلك روسيا القديمة: مجتمعات قائمة حول آبار تُرفع المياه منها بوساطة دلاء، وتحكم الحياة اليومية للسكان مجموعة من الأساطير القديمة، حيث صحة الأنعام مرتبطة بنعمة دفوروفوي. وحيث كان الآباء يخبرون أبناءهم أنهم إذا أساءوا التصرف فإن قوة ما ستسرقهم وتحولهم إلى لحاء أشجار. كان الآباء قد سمعوا تلك القصص حين كانوا أطفالاً ولم يتخلصوا منها قط، وأمضوا شهوراً وهم يخيطون ثياباً لتقديمها كقرابين إلى حوريات الغابة، روسالكي، اللواتي يُظَنُّ أنهن يتدلين من الأشجار، ويستطعن إذا رغبن دغدغة إنسان حتى الموت. كان ليو قد ترعرع في المدينة، ولم تكن تلك الأساطير الخرافية تعني له شيئاً، وأُصيب بالحيرة؛ لأن ثورة بلادهم الأيديولوجية لم تفعل الكثير لطمس هذه الأساطير الفلكلورية البدائية.

أوقف ليو الشاحنة عند أول بيت مزرعة، وأخرج من جيب معطفه قارورة زجاجية مملوءة بقطع كريستالية بيضاء متسخة صغيرة وغير متماثلة

الأشكال - ميثامفيتامين صافٍ - العقار المفضّل لدى النازيين. كان قد عرف هذه المادة وهو يقاتل على الجبهة الشرقية، حين أجبر جيش بلاده الغزاة على التقهقر، حيث أسروا من أسروه من الجنود، واكتسبوا ما يكفي من عاداتهم. كانت هناك عمليات لا يستطيع ليو أخذ قسط من الراحة فيها، وهذه إحداها، لكن أطباء إ.أ.د. وصفوا له هذا العقار آنذاك، وقد استخدمه على نحو متكرّر منذ الحرب، وكلما شارك في مهمة تحتاج إلى أن يبقى مستيقظاً طوال الليل. ولم تكن فائدته موضع شك، لكن أثره يصبح فادحاً جداً بعد أربع وعشرين ساعة. إذ يشعر بإرهاق لا يمكن التخلص منه إلا بتناول المزيد منه أو النوم اثنتي عشرة ساعة. كانت التأثيرات الجانبية قد بدأت تظهر واضحة، فقد نقص وزنه، واشتدت قسمات وجهه، وتلاشت قدرته على التذكر، وغابت عنه التفاصيل والأسماء الدقيقة، وتداخلت قضايا وحالات اعتقال سابقة في ذاكرته، وأصبح لزاماً عليه أن يكتب ملاحظات لنفسه. أضحى مستحيلاً بالنسبة إليه أن يحكم إن كان قد أصبح أكثر تشككاً نتيجة العقاقير لأن الارتياب مصدر قوة أساسي، وفضيلة يجب التدرب عليها وتنميتها، وإذا تضخّم بعد تناول الميثامفيتامين، فسيكون ذلك جيداً.

وضع كمية صغيرة في راحة كفه، ثم زادها قليلاً، وهو يكافح ليتذكر الجرعة المناسبة؛ فكمية أكبر من اللازم أفضل من كمية أقل من المعتاد. ابتلعها راضياً مع محتويات قارورة شراب. لسع الشراب حلقه، وفشل في إخفاء الطعم الكيميائي اللاذع الذي جعله يرغب في التقيّؤ. انتظر زوال ذلك الشعور، ونظر حوله، فرأى أن ثلجاً جديداً قد غطى كل شيء، وغمره إحساس بالسعادة. خارج كيموف نفسها، لم تكن هناك أماكن كثيرة للاختباء فيها، ويمكن رؤية شخص من مسافة كيلومترات، ويسهل تعقّب آثاره على الثلج.

لم تكن لديه أيّ فكرة عن المزرعة التي تخص ميخائيل زينوفيف. ونظراً إلى أن وجود شاحنة عسكرية متوقفة على الطريق يلغي أي عنصر

telegram @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

مفاجأة، قفز ليو منها، وشهر مسدسه، وتحرك نحو أقرب منزل. وبالرغم من أن الميثامفيتامين لم يكن قد أخذ مفعوله بعد، إلا أنه أحس بأنه أكثر نشاطاً ويقظة آنذاك بعد أن استعد عقله لتدفق المخدّر المحتّم. اقترب من الشرفة وتفقّد سلاحه.

قبل أن يقرع الباب، ظهرت امرأة مسنّة جلدُها متغضن، ترتدي فستاناً أزرق مزركشاً ذا رُدنين أبيضين، ويلفُّ شال مطرّز رأسها. لم تهتم بليو، أو بمسدسه، أو بذلته، أو شاحنته العسكرية، وبدت شجاعة، ولم تحاول إخفاء الازدراء الذي ظهر على وجهها.

- أبحث عن ميخائيل سفياتوسلافيتش زينوفيف. هل هذا بيت مزرعته؟ أين هو؟

أمالت رأسها إلى الجانب ولم تجب؛ وكأن ليو يتحدث لغة أجنبية. كانت تلك هي المرة الثانية خلال يومين التي تنظر فيها امرأة عجوز إليه شزراً، وتزدريه علانية، وأدرك أن هناك صفة في تينك المرأتين تجعلهما منيعتين، ولا تعني سلطته لهما شيئاً. لحسن الحظ، انفرج الموقف حين خرج ابن المرأة، وهو رجل قوي البنية يتمتم في كلامه، مسرعاً من المنزل:

- اعذرها، فهي عجوز. كيف يمكنني أن أساعدك؟

مرة أخرى يقدم الأبناء أعذاراً تبرّر تصرّفات أمّهاتهم.

- ميخائيل سفياتوسلافيتش، أين هو؟ أين مزرعته؟

أدرك الابن أن ليو ليس مهتماً باعتقالهما، وأنه وأفراد أسرته آمنون حتى إشعار آخر، فانفرجت أساريره، وأشار بسرور إلى مزرعة صديقه.

عاد ليو إلى الشاحنة، ووجد أن رجاله قد تجمّعوا، فوزّع الفريق إلى ثلاث مجموعات، وكانوا سيتقدمون إلى المنزل من اتجاهات مختلفة: فريق من أمامه، وآخر من خلفه، فيما سيقترب الفريق الثالث من المكان ويطوّق مخزن الحبوب. كان كل رجل مسلحاً بمسدس آلي ستشكن أيه. بي. أس. 9 ملم مخصص لاستخدام أفراد إ.أ.د. وبالإضافة إلى ذلك يوجد رجل في كل

telegram @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

مجموعة يحمل أيه. ك. 47. كانوا على أهبة الاستعداد لخوض معركة عنيفة إذا تطلب الأمر ذلك.

- يجب أن نلقي القبض على الخائن حياً، فنحن بحاجة إلى اعترافه. إذا ساوركم أي شك على الإطلاق، فلا تطلقوا النار.

كرّر ليو أمره، وأكّده على نحو خاص على مسامع أفراد المجموعة التي يقودها فاسيلي، وقال إن قتل أناتولي برودسكي سيكون جريمة يُعاقب مرتكبها، وإن سلامتهم تأتي بعد حياة المشتبه فيه. ورداً على ذلك، حمل فاسيلي أيه. ك. 47 الخاص بالمجموعة:

- كي أكون واثقاً فقط.

في محاولة للحد من إمكانية قيام فاسيلي بتخريب تلك العملية، أمره ليو بتأمين المنطقة الأقل أهمية:

- ستفتش مجموعتك مخزن الحبوب.

بدأ فاسيلي يتحرك، لكن ليو أمسك ذراعه:

- سنقبض عليه حياً.

في منتصف الطريق إلى المنزل انقسم الرجال إلى ثلاث مجموعات، وانطلقت كل منها في اتجاه مختلف. ألقى الجيران نظرات خاطفة من نوافذهم، ثم اختفوا في الداخل. توقف ليو على بعد ثلاثين خطوة من الباب، مما سمح لأفراد المجموعتين الأخريين بالتمركز في مواقعهم. طوّق فريق فاسيلي مخزن الحبوب، في حين وصلت المجموعة الثالثة إلى خلف المنزل، وانتظروا جميعاً إشارة ليو. لم تكن هناك علامة على الحياة في الخارج، وكان أثر ضئيل من الدخان يصعد من المدخنة، وملابس رثّة معلّقة أمام النافذة الصغيرة. استحال عليهم رؤية ما يوجد داخل الغرف، وأطبق الصمت على المكان، باستثناء طقطقة أقفال أمان أيه. ك. 47. فجأة، خرجت فتاة يافعة من مبنى صغير مستطيل الشكل، عبارة عن مرحاض خارجي منفصل عن البيت الرئيس. كانت تدندن، وانتقل إليهم الصوت عبر الهواء

فاستدار الجنود الثلاثة الأقرب إلى ليو نحوها، وصوّبوا مسدساتهم عليها، فتجمدت الفتاة الصغيرة في مكانها مذعورةً. رفع ليو يديه قائلاً:

- لا تطلقوا النار!

حبس أنفاسه، متمنياً ألاّ يسمع قعقعة نيران البنادق الآلية. لم يتحرك أحد، ثم اندفعت الفتاة تجري نحو المنزل بأقصى سرعتها، وهي تصرخ منادية والدتها.

شعر ليو أن أول حبّة ميثامفيتامين قد بدأت تعطي مفعولاً فتبخّر تعبه. وثب إلى الأمام، فتبعه رجاله، وتقدموا إلى المنزل مثل أُنْشُوطة تشتد حول عنق. فتحت الفتاة الصغيرة الباب الأمامي بعنف، واندفعت إلى الداخل مسرعة. لم يكن ليو بعيداً عنها غير ثوانٍ، فدفع الباب بكتفه، ورفع مسدسه، واقتحم المنزل ليجد نفسه داخل مطبخ صغير دافئ تفوح منه رائحة طعام الفطور. رأى فتاتين يافعتين - عمر الكبرى نحو عشر سنوات، والصغرى أربع سنوات - تقفان بجانب نار صغيرة، وكانت والدتهما، وهي امرأة قوية البنية، وقاسية الملامح، ويبدو أنها تستطيع ابتلاع رصاصات وبصقها مجدداً، تقف أمامهما وتحميهما بوضع إحدى يديها على صدر كل منهما. دخل رجل في العقد الرابع من عمره من الغرفة الخلفية، فاستدار ليو إليه:

- ميخائيل سفياتوسلافيتش؟

- نعم؟

- اسمي ليو ستيفانوفيتش دميدوف. وأنا ضابط في إ.أ.د. أناتولي تاراسوفيتش برودسكي جاسوس، ومطلوب للاستجواب. أخبرني أين هو.

- أناتولي؟

- صديقك. أين هو؟ ولا تكذب.

- يعيش أناتولي في موسكو، ويعمل طبيباً بيطرياً. لم أره منذ سنوات.

- إذا أخبرتني عن مكانه، فسأنسى أنه قد جاء إلى هنا، وستكون وأسرتك بأمان.

رمقت زوجة ميخائيل زوجها بنظرة من أغراها العرض، فانتاب ليو إحساس غامر بالراحة، فقد كان محقاً، والخائن هناك. ومن دون أن ينتظر جواباً، أشار ليو إلى رجاله أن يبدأوا بتفتيش المنزل.

* * *

دخل فاسيلي مخزن الحبوب شاهراً بندقيته، وهو يضع إصبعه على الزناد، وتقدم نحو كومة من القش؛ المكان الوحيد الذي يمكن الاختباء خلفه، والعالي بما فيه الكفاية لإخفاء رجل. أطلق عدّة رشقات من الرصاص، فطارت حفنات من القش، وتصاعد دخان من فوهة بندقيته، وخارت البقرتان خلفه، ثم تحرّكتا مبتعدتين وهما تركلان الأرض. لكن، لم يظهر أي دم؛ لأن أحداً لم يكن هناك، وهم يضيعون وقتهم سدى. خرج من المكان، وعلّق الرشاش على كتفه، وأشعل لفافة تبغ.

فزع ليو من صوت الرصاص، وخرج من المنزل جارياً، فقال له فاسيلي:

- لا أحد هنا.

منتشياً بطاقة المخدّر، أسرع ليو إلى المخزن وفكّاه مشدودان بإحكام.

ألقى فاسيلي لفافة التبغ على الثلج منزعجاً من تجاهله، وشاهدها وهي تذيبه فوق الأرض.

- ليس هناك، إلا إن كان يستطيع تمويه نفسه ليبدو كبقرة. ربما يجب أن تطلق النار عليهما تحسباً.

نظر فاسيلي حوله كي يسمع ضحكاً، واستجاب الرجال لرغبته. لم يكن ذلك ليخدعه، فقد أدرك أن لا أحد منهم يظن أنه مضحك. كان الأمر أفضل من ذلك، فضحكاتهم إشارة إلى أن ميزان القوى قد بدأ يتغير. كان ولاؤهم لليو يضعف، ربما بسبب الرحلة المرهقة، أو قرار ليو ترك برودسكي حراً حين كان ينبغي اعتقاله. لكن فاسيلي تساءل إن كان لذلك علاقة بفيودور وموت ابنه الصغير. كان ليو قد أُرسل لتوضيح تلك المسألة،

والعديد من الرجال الموجودين هنا أصدقاء لفيودور. وإذا أبدى هؤلاء امتعاضاً، فبإمكانه الاستفادة منه والتلاعب به.

انحنى ليو إلى الأسفل وهو يفحص الآثار على الثلج. كانت هناك طبعات خطوات جديدة، بعضها يعود لجنوده، لكن تحتها مجموعة تخرج من المخزن وتتجه إلى الحقول. نهض ودخل المخزن، فصرخ فاسيلي خلفه:

- لقد فتشت ذلك المكان سلفاً!

تجاهله ليو، ومسّ القفل المحطّم على الباب، ورأى أكياس الحبوب ممددة على الأرض فعاد إلى الخارج، وحدّق باتجاه الحقول:

- أريد أن يتبعني ثلاثة رجال، أسرعُ ثلاثة. فاسيلي، ستبقى هنا وستواصل تفتيش المنزل.

خلع معطفه الشتوي الثقيل، ومن دون أن يعني ذلك ازدراءً متعمداً أعطاه لنائبه. وبدأ يتبع الآثار نحو الحقول؛ متحرراً من الثقل، وقادراً على الجري.

لم يزعج العملاء الثلاثة الذين أُمروا باللحاق به أنفسهم بخلع معاطفهم، فقد كان رئيسهم يطلب منهم الجري فوق الثلج من دون سُترهم، بينما لم يزعج نفسه حتى بفحص جثة ابن زميلهم المتوفى. كان موت الفتى قد نُبذ وكأنه شيء تافه لا قيمة له، ولم يكن الرجال يحبون أن يصابوا بذات الرئة، ليس بسبب طاعتهم العمياء لرجل قد تنتهي سلطته بالتأكيد؛ رجل لا يهتم بالعناية بهم. وبالرغم من ذلك، كان ليو لا يزال رئيسهم، في تلك اللحظة على الأقل، وبعد تبادل النظرات مع فاسيلي بدأ الرجال الثلاثة يركضون ببطء في محاكاة للطاعة، ويلاحقون رجلاً أصبح آنذاك بعيداً عنهم مئات الأمتار.

كان ليو يزيد سرعته، وجعله الميثامفيتامين يركّز تفكيره: لم يكن هناك شيء إلا الآثار على الثلج، وإيقاع خطواته. لم يكن يستطيع أن يتوقف أو

telegram @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

يبطِّئ، ولا يمكنه أن يفشل أو يشعر بالبرد. وبالرغم من أنه خمّن أن المشتبه فيه قد انطلق قبله بساعة على الأقل، إلا أن تلك الحقيقة لم تجعله يقلق. لم تكن لدى الرجل أيّ فكرة عن أنه ملاحق، وسيتابع طريقه مشياً بالتأكيد.

ظهرت أمام ليو ذروة تلة فانتابه أمل أن يستطيع رؤية المشتبه فيه من قمتها. وعندما وصل إلى هناك توقف، وجال بنظره في البيئة المحيطة به. رأى حقولاً يغطيها الثلج في كل اتجاه، وبعيداً أمامه شاهد طرف غابة كثيفة. لكن قبل ذلك، بعيداً عنه كيلومتراً على سفح التلة، كان هناك رجل يمشي مجهداً فوق الثلج، ولم يكن مزارعاً أو عاملاً، وإنما الخائن. كان ليو واثقاً من ذلك، ورآه يشق طريقه شمالاً على الدرب نحو الغابة. إذا استطاع الوصول إلى الأشجار، فسيتمكن من الاختباء. لم يكن ليو قد أحضر معه كلاباً لتتعقّب الخائن، ونظر من فوق كتفه، فرأى عملاءه الثلاثة يتلكأون خلفه. لقد تحطمت العروة بينه وبينهم، ولا يمكنه الاعتماد عليهم، ويجب أن يقبض على الخائن بنفسه.

توقف أناتولي عن السير، ونظر حوله؛ وكأن حاسة سادسة من نوع ما قد حذّرته، فرأى رجلاً يجري هناك على التلة الصغيرة نحوه، ولم يشك إطلاقاً في أنه ضابط أمن دولة. كان أناتولي واثقاً من أن كل الأدلة التي تربطه بتلك القرية قد دُمّرت، ولذلك السبب توقف لحظة من دون أن يفعل شيئاً على الإطلاق، مشدوهاً بمنظر مطارده. لقد عثروا عليه، وشعر بمعدته تجيش، ووجهه يحمرّ، ثم أدرك أن ذلك الرجل يعني الموت، فاستدار وبدأ يجري نحو الغابة. كانت خطواته الأولى متعثرة ومسعورة، وترنح جانبياً نحو كتل الثلج الأعمق، لكنه فهم بسرعة أن معطفه يعيقه عن الحركة، فخلعه ورماه على الأرض، وركض للنجاة بحياته.

لم يقترف أناتولي خطأً بالنظر خلفه مرة أخرى، وركّز على الغابة أمامه، فبمعدل سرعته تلك سيصل إليها قبل أن يستطيع مطارده اللحاق به. كانت الغابة تمثّل فرصة للاختفاء والاختباء، وإذا وصل الأمر إلى حدّ

telegram @ktabpdf

مكتبة الرمحي أحمد

القتال، فستكون فرصته هناك، حيث هناك أغصان وحجارة؛ وذلك أفضل من كونه أعزل في مكان مكشوف.

زاد ليو سرعته، ودفع نفسه إلى أقصى حدود طاقتها، وركض وكأنه على مضمار سباق. تذكر جزء من ذهنه أن التضاريس شائكة، والجري بتلك السرعة محفوف بالمخاطر، لكن الميثامفيتامين جعله يظن أن أي شيء ممكن؛ فبإمكانه أن يقفز تلك المسافة بينهما.

تعثر ليو فجأة، وانزلق قبل أن يقع ووجهه إلى الأسفل فوق كتلة ثلجية. قلب نفسه ليستلقي على ظهره مصاباً بدوار، ومطموراً في الثلج، ومتسائلاً إن كان قد أُصيب بأذى وهو يحدّق إلى الأعلى، إلى السماء الزرقاء الفاتحة. لم يشعر بأي ألم، فنهض، ونفض الثلج عن وجهه ويديه، ونظر من دون اكتراث إلى الجروح في يديه. حدّق إلى شكل برودسكي، متوقعاً اختفاءه عند طرف الغابة. لكن، لدهشته كان المشتبه فيه قد توقف عن الجري أيضاً، ويقف ساكناً من دون حراك، فأصابت ليو الحيرة وأسرع يجري إلى الأمام. لم يفهم ما حدث؛ فعندما بدا الهروب ممكناً لم يكن ذلك الرجل يفعل شيئاً على الإطلاق. كان يحدّق إلى الأرض أمامه، ولم تعد تفصلهما آنذاك إلا مئة متر، فشهر ليو مسدسه، وأبطأ سرعته حتى صار يمشي. سدّد، لكنه كان يعرف تماماً أنه لا يستطيع أن يخاطر بإطلاق رصاصة من تلك المسافة. كان قلبه يخفق بقوة، ويسمع صوتين مكتومين مع كل خطوة يمشيها. اندفاعة أخرى من طاقة الميثامفيتامين. أضحى سقف فمه جافاً، وارتعشت أصابعه من فرط النشاط، وتصبّب العرق على ظهره. لم يعد بينهما إلا خمسون خطوة، فاستدار برودسكي الذي لم يكن مسلحاً، أو يحمل شيئاً بيديه؛ وكأنه استسلم فجأة على نحو لا يمكن تفسيره. تابع ليو التقدم إلى الأمام، واقترب منه شيئاً فشيئاً. أخيراً، استطاع رؤية ما أوقف برودسكي. كان نهر يغطيه الجليد، عرضه نحو عشرين متراً يقف حائلاً بينه وبين الغابة. لم يكن من الممكن رؤيته من التلة. وكانت طبقة كثيفة من الثلج تغطيه مستقرة فوق

السطح المتجمد. صرخ ليو:

- انتهى الأمر!

فكّر أناتولي في تلك الملاحظة، واستدار ليواجه الغابة وقفز إلى الجليد. لم تكن خطواته ثابتة، فانزلق على السطح الأملس، وطقطقت طبقة الجليد تحت ثقله. لم يخفف من سرعته، وخطوة بعد أخرى بدأ الجليد يتشقق، وتكوّنت خطوط سوداء متعرّجة على السطح، تشابكت مع بعضها وانتشرت تحت قدميه. وكلما تحرك بسرعة أكبر، ظهرت الخطوط بشكل أسرع، وتضاعفت، وانتشرت في كل الاتجاهات. نزّ الماء المتجمد عبر الشقوق، لكنه تابع تقدمه إلى الأمام. أصبح في وسط النهر، ولم يبق إلا عشرة أمتار للوصول إلى الطرف الآخر. نظر نحو الأسفل، إلى الماء الأسود المتجمد الذي يتدفق من تحته.

وصل ليو إلى حافة ضفة النهر، ووضع مسدسه في قرابه، ومدّ يده:

- لن يصمد الجليد، ولن تصل إلى الغابة.

توقف برودسكي واستدار:

- لا أحاول الوصول إلى الغابة.

رفع ساقه اليمنى، وبحركة مفاجئة ضرب الجليد بقوّة بحذائه، فكسر السطحَ الجليديّ، واندفع الماء إلى الأعلى. وحين تحطم الجليد، رمى بنفسه عبر الفتحة.

مخدّراً تماماً، وفي حالة صدمة، سمح لنفسه بأن يغطس وهو ينظر إلى ضوء الشمس، ثم شعر بأنه يرتفع إلى الأعلى، فركل بقدميه مبتعداً عن الفتحة في الجليد. لم تكن لديه النيّة بالصعود إلى السطح، وإنما كان يريد الاختفاء في ذلك الماء الداكن. بدأت رئتاه تؤلمانه، وشعر آنذاك بأن جسده يكافح قراره بالموت. دفع نفسه أكثر في اتجاه مجرى النهر، وهو يسبح مبتعداً عن الضوء قدر المستطاع، بعيداً عن أي فرصة للنجاة. أخيراً، رفعته قابلية الطفو الطبيعية إلى السطح؛ وبدلاً من الهواء، وجد وجهُه قطعة صلبة من الجليد.

telegram @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

كان التيار البطيء قد حمله بعيداً في اتجاه مجرى النهر.

* * *

لم يكن الخائن سيصعد إلى سطح الماء، ولا شك في أنه كان يسبح بعيداً عن فتحة الهواء في محاولة للانتحار وحماية شركائه. أسرع ليو إلى ضفة النهر، مقدّراً المكان تحت الجليد الذي ربما يكون فيه. حلّ حزامه الجلدي الثقيل ومسدسه، ألقاهما على الأرض وتقدم إلى النهر المتجمد. كان حذاؤه ينزلق فوق السطح الجليدي، وبدأ الجليد يتشقق فوراً تقريباً. تابع السير محاولاً جعل خطواته خفيفة، لكن الجليد بدأ يتحطم، وشعر بأنه يتداعى تحت قدميه. عندما وصل إلى وسط النهر، جثم أرضاً، وأبعد الثلج على نحو مسعور، لكنه لم يرَ المشتبه فيه في أي مكان. لم يرَ إلاّ ماءً داكناً في كل مكان حوله. تحرك ليو في اتجاه مجرى النهر، لكن خطوط التشقق بقيت تلاحق كل خطوة يقدم عليها، وتحيط به من كل الاتجاهات. بدأ الماء ينبثق، وبدأت الشقوق تتصل ببعضها. نظر إلى السماء، وملأ رئتيه بالهواء، واستجمع قواه حين سمع طقطقة.

انهار الجليد.

بالرغم من أنه لم يشعر ببرد قارس نتيجة تأثير الميثامفيتامين، إلا أنه عرف أنه يجب أن يتحرك بسرعة، فلم تكن لديه إلا ثوانٍ فقط في تلك الحرارة. أدار نفسه، ورأى شعاعَي ضوء حيث كان الجليد قد انكسر في مكانين، لكن، باستثناء ذلك، ظهرت المياه داكنة، ومحجوبة عن الشمس بغطاء كثيف من الثلج. دفع نفسه بعيداً عن القاع، وتحرك في اتجاه مجرى النهر. لم يستطع رؤية أي شيء، وتابع السباحة وهو يتلمّس طريقه يميناً ويساراً. كان جسده يصيح طلباً للهواء، ورداً عليه زاد من سرعته، وركل بقوة أكبر، ودفع نفسه بسرعة أكبر في الماء. عرف أنه لن يحظى بأي فرصة قريباً؛ إمّا العودة أو الموت. وأدرك أنه لن يحصل على فرصة ثانية، وأن عودته خالي الوفاض قد تعني الإعدام، فتقدم مرة أخرى في اتجاه مجرى النهر.

telegram @ktabpdf

مكتبة الرمحي أحمد

مسّت يده شيئاً؛ قماشاً، ثياباً، ساق سروال. كان ذلك برودسكي طافياً تحت الجليد. لكن، بدا أن اللمسة قد أعادت إليه الحياة فبدأ يكافح. سبح ليو تحته، وأمسك به من عنقه، وشعر بألم حادٍّ في صدره. كان عليه أن يعود إلى السطح، فحاول ممسكاً بذراع واحدة عنق المشتبه فيه ثقب الجليد فوقه، لكن الضربات انزلقت على السطح الأملس القاسي.

توقف برودسكي عن الحركة، وركّز تفكيره على ما يجري، وتجاهل كل نبض في جسده، ثم فتح فمه وملأ رئتيه ماءً متجمداً؛ مرحباً بالموت.

ركز ليو على أشعة الشمس خلفه، وركل بقوة، وتوجّه ساحباً برودسكي معه نحو الضوء. كان سجينه ساكناً لا يتحرك، وفاقداً الوعي، لكن ليو المصاب بدوار لم يستطع حبس أنفاسه أكثر من ذلك. ركل بقدميه مرة أخرى، وأحس بضوء الشمس على وجهه، ودفع نفسه إلى الأعلى، وخرج الرجلان إلى سطح الماء.

لهث ليو وشهق مجدداً، لكن برودسكي لم يكن يتنفس، فسحبه ليو نحو ضفة النهر، وهو يشق طريقه عبر قطع الجليد المحطمة. مسّت قدماه قاع النهر، فسحب نفسه إلى الضفة، وجرّ طريده معه. كان جلد كليهما أزرقَ شاحباً، ولم يستطع ليو إيقاف ارتعاشه، بخلاف المشتبه فيه الذي بقي ساكناً تماماً. فتح ليو فم الرجل، وأخرج منه الماء، ثم نفخ هواءً في رئتيه، وضغط على صدره، ثم نفخ في رئتيه مجدداً، وضغط على صدره، ثم نفخ الهواء في رئتيه:

- هيا!

غمغم برودسكي واستعاد وعيه، ثم انحنى وتقيأ الماء الذي ملأ معدته. لم يحظ ليو بوقت للراحة؛ لأنه لم تكن لديهما إلا دقائق فقط قبل أن يموتا نتيجة انخفاض حرارة جسديهما. وقف، واستطاع رؤية جنوده الثلاثة على مسافة قريبة.

كان الرجال قد رأوا ليو يختفي في النهر، وأدركوا أن قائدهم كان محقاً

طوال الوقت. وفي جزءٍ من الثانية تحول ميزان القوى بعيداً عن فاسيلي ومال لمصلحة ليو، ولم تعد مشاعر السخط تجاه طريقة معالجته قضية فيودور تعني شيئاً الآن. كان السبب الوحيد الذي جعلهم يشعرون بالأمان بشكل كافٍ لإظهار مشاعرهم هو توقعهم أن تلك العملية ستفشل، وسيجري تسريح ليو من موقعه. لكنّ الأمر لم يكن على تلك الحال: سيصبح مركزه أقوى من ذي قبل. أخذوا يجرون بأسرع ما يستطيعون، فحياتهم تعتمد على ذلك.

جلس ليو بجانب برودسكي، وبقيت عينا برودسكي مغمضتين. كان يفقد الوعي، لذا، صفعه ليو على وجهه، إذ كان ذلك ضرورياً لإبقائه مستيقظاً، ثم صفعه مجدداً. فتح المشتبه فيه عينيه، لكنه بدأ فوراً تقريباً بإغماضهما مجدداً. صفعه ليو مراراً وتكراراً، وعندما شعر بأن الوقت ينفد منهم، وقف وصرخ قائلاً لرجاله:

- أسرعوا!

أصبح صوته أرق، وتبدّدت طاقته حين غلبه البرد أخيراً، وبدأت مناعته الكيميائية تتلاشى؛ لقد انتهى مفعول العقاقير. شعر بإرهاق غير معتاد يستحوذ على جسده، لكن جنوده وصلوا إليه.

- اخلعوا سُتركم، وأشعلوا ناراً.

خلع الجنود الثلاثة سُترهم، ولفوا إحداها حول ليو والاثنتين الأخريين حول برودسكي، لكن ذلك لم يكن كافياً، وسيحتاجون إلى نار. بحث الجنود الثلاثة عن حطب، وكان هناك سياج بعيد قليلاً عنهم فركض عميلان نحوه، في حين بدأ العميل الثالث بتمزيق ردن قميصه القطني الخشن إلى قطع طويلة. بقي ليو مركزاً على طريده، يصفعه لإبقائه مستيقظاً، لكنه كان يشعر بالنعاس أيضاً. أراد أن يرتاح، ويغمض عينيه.

- أسرعوا!

بالرغم من أنه حاول الصراخ، إلا أن صوته سُمع بصعوبة.

عاد الجنديان بألواح خشبية نزعاها من السياج، ومهّدا فسحة من الأرض، ثم أبعدا الثلج عنها، ووضعا الأخشاب على التربة المتجمدة، وفوقها القطع القطنية، ثم وضعا عيداناً خشبية رفيعة على شكل هرم. أخرج أحد الجنود ولاعته، وأراق السائل فوق القطع القطنية. تطاير الشرر من حجر الصوّان، واشتعلت النار بالقطع القطنية التي بدأت تحترق، وخرج دخان من دون لهب من الخشب، إذ كان رطباً ولم يشتعل. تصاعد الدخان إلى الأعلى، لكن ليو لم يشعر بأي حرارة، فقد كان الخشب يستغرق وقتاً طويلاً كي يجف. مزّق ليو البطانة من داخل سترته، وأضافها إلى النار، فإذا انطفأت، فسيموت كلاهما.

لم يبقَ لديهم إلا ولاعة واحدة فقط، وفكك الجندي أجزاءها، وأراق آخر كمية وقود لديهم فوق النار الخافتة، فارتفعت ألسنة اللهب بمساعدة علبة لفائف التبغ المجعدة وأوراق اللفائف الممزقة. كان الجنود يجثون على ركبهم، ويذكون النار، فبدأت ألواح الخشب تحترق.

فتح أناتولي عينيه، وحدّق إلى ألسنة اللهب أمامه. كان الخشب يطقطق في الحرارة. وبالرغم من رغبته في الموت إلا أن الدفء بدا رائعاً على جلده. ومع اشتداد ألسنة اللهب، وتوهج الجمرات باللون الأحمر، أدرك بمشاعر مختلطة أنه سينجو.

جلس ليو، ونظره مثبّت على مركز النار، والبخار يتصاعد من ملابسه. فيما تابع اثنان من الجنود جمع الحطب، وهما متحمسان لاستعادة استحسانه. أما الجندي الثالث فقد وقف ليحرس المكان. وعندما زال خطر انطفاء النار، أمر ليو أحد الرجال بالعودة إلى المنزل، وإجراء التحضيرات لعودتهم إلى موسكو، وسأل مخاطباً سجينه:

- هل يمكنك أن تمشي ؟

- كنت أذهب إلى صيد الأسماك مع ابني. في الليل، كنا نشعل ناراً مثل هذه تماماً، ونجلس قربها. لم يكن يحب صيد الأسماك كثيراً، لكنني أظن أنه

كان يستمتع بالنيران. لو أنه لم يمت لكان في مثل عمرك تقريباً الآن.

لم يقل ليو شيئاً، وأضاف أناتولي:

- إذا لم يكن لديك مانع، أود البقاء وقتاً أطول قليلاً.

أضاف ليو المزيد من الحطب إلى النار. كانوا سينتظرون لبعض الوقت.

* * *

لم يتكلم أي من الرجال في طريق عودتهم سيراً على الأقدام، واستغرق اجتياز المسافة التي كان ليو قد تجاوزها في أقل من ثلاثين دقيقة، ساعتين تقريباً. بدت كل خطوة أثقل وأكثر صعوبة مع اختفاء الميثامفيتامين من جسده. ووحدها حقيقة نجاحه جعلته يتابع المشي آنذاك. سيعود إلى موسكو بعد إثباته جدارته، واستعادته مركزه. كان قد وقف على حافة الفشل، ثم ابتعد عنها.

قرب بيت المزرعة بدأ أناتولي يتساءل عن كيفيّة عثورهم عليه، وأدرك أنه قد ذكر لزينا من دون شك صداقته مع ميخائيل، وأنها قد خانته، لكنه لم يشعر بالغضب منها. كانت تحاول أن تنجو بحياتها فحسب، ولا أحد يمكن أن يلومها على ذلك. على أيّ حال، لم يكن لذلك صلة بالموضوع، وكل ما يهم الآن هو إقناع آسريه أن ميخائيل بريء من أي تعاون. استدار إلى آسره:

- عندما وصلتُ في الليلة الماضية طلبت مني الأسرة أن أغادر، ولم يرغبوا في أن تكون لهم أي علاقة بي. هدّدوا بالاتصال بالسلطات، ولهذا السبب كنت مرغماً على اقتحام مخزنهم. ظنّوا أنني غادرت، ولم تفعل الأسرة شيئاً خاطئاً. إنهم أشخاص طيبون ومجدّون في عملهم.

حاول ليو أن يتخيل ما حدث حقاً في الليلة الماضية. كان الخائن قد طلب مساعدة صديقه، لكن ذلك العون لم يكن في متناول اليد. لم تكن خطة الهروب محكمة، وبالتأكيد ليست خطة فرار جاسوس ماهر.

- لست مهتماً بأصدقائك.

telegram @ktabpdf

مكتبة الرمحي أحمد

وصلوا إلى مشارف المزرعة، ورأوا أمامهم مباشرة ميخائيل زينوفيف وزوجته وابنتيهما اليافعتين، وقد جثَوا جميعاً على ركبهم خارج باب المخزن، وأيديهم مربوطة خلف ظهورهم. كانوا يرتعشون، ويتجمدون من البرد، وبدا واضحاً أنهم بقوا على تلك الحال منذ بعض الوقت. ظهرت آثار ضرب مبرّح على وجه ميخائيل الذي كانت الدماء تسيل من أنفه المهشّم، وفكّه يتدلّى بزاوية غريبة؛ كان يبدو مكسوراً. كان الجنود يشكّلون حلقة فضفاضة غير محكمة حولهم، وفاسيلي يقف مباشرة خلف الأسرة. توقف ليو عن المشي، وكاد أن يقول شيئاً حين أبعد فاسيلي يديه عن بعضهما، وكشف عن بندقيته، وسدّد فوهتها على رأس زينوفيف وأطلق منها رصاصة. دوى الصوت عالياً، ووقعت جثة الرجل إلى الأمام على الثلج، وبقيت زوجته وابنتاه ساكنات من دون حراك، وهن يحدّقن إلى الجثّة الهامدة أمامهن.

لم يفعل أحد شيئاً باستثناء برودسكي الذي أصدر صوتاً بدا غير بشري. لم تخرج من فمه كلمات، وإنما أسى وغضب ممزوجان معاً. مشى فاسيلي خطوة إلى الجانب، ووضع فوهة بندقيته خلف رأس الزوجة، فرفع ليو يده:

- أبعد بندقيتك! هذا أمر.

- هؤلاء الأشخاص خونة. ويجب أن يكونوا عبرة لغيرهم.

سحب فاسيلي الزناد، وارتدت يده إلى الخلف، ودوّى صوت إطلاق الرصاصة الثانية عالياً، وسقطت جثة المرأة على الثلج بجانب زوجها. حاول برودسكي أن يتحرر لكن الجنديين اللذين يرافقانه ضرباه حتى خرّ على ركبتيه. مشى فاسيلي خطوة أخرى إلى الجانب، ووضع فوهة البندقية خلف رأس الفتاة الأكبر سناً، التي كان أنفها أحمر من شدّة البرد، وجسدها يرتعش قليلاً. كانت تحدّق إلى جثة والدتها، وعرفت أنها ستموت، وستقع على الثلج بجانب والديها. شهر ليو مسدسه، وسدّده إلى نائبه:

- ألقِ سلاحك.

اختفى كل التعب فجأة. ليس نتيجة تناول بعض العقاقير، بل نتيجة

شعوره بالغضب، واندفاع الأدرينالين في جسده، لكن يده بقيت ثابتة. أغمض إحدى عينيه، وسدّد سلاحه بحرص، ولم يكن ليخطئ من تلك المسافة. إذا أطلق النار آنذاك، فستنجو الفتاة، ستعيش كلتا الفتاتين، ولن يُقتل أحد. ومن دون أن يفكر فيها اندفعت الكلمة إلى رأسه:

قتل.

هزّ مسدسه.

كان فاسيلي مخطئاً بشأن كييف، فقد خدعته رسالة برودسكي، ولا بد من أنه أكد للرجال الآخرين أنهم يضيعون وقتهم سدى في الذهاب إلى كيموف، وألمح إلى أن الفشل في تلك الليلة سيجعله القائد الجديد، وأن تلك الأخطاء المحرجة ستُوثق كلها في سجل ليو. شعر فاسيلي آنذاك أن الجنود الآخرين يراقبونه، فقد تلقت منزلته ضربة مذلّة، وأراد جزء منه التوثق إن كان ليو يتمتع بقوة أعصاب تسمح له بقتله. كان من الممكن عكس ذلك لكنه لم يكن أحمق. وكان يعرف في قرارة نفسه أنه جبان، كما يعرف أن ليو ليس كذلك. أخفض فاسيلي سلاحه، وتظاهر بأنه راضٍ عن ذلك، وأشار إلى الفتاتين:

- لقد تعلّمت الفتاتان درساً قيّماً، وربما ستكبران لتصبحا مواطنتين أفضل من والديهما.

تحرك ليو نحو نائبه، وتجاوز الجثتين، وترك حذاؤه خلفه آثاراً ملطخة بالدماء فوق الثلج. وبحركة سريعة أدار سلاحه، وضرب بأخمص مسدسه جانب رأس فاسيلي الذي سقط إلى الخلف ممسكاً صدغه. سال وَشَلٌ من الدم حيث جُرح الجلد، لكن قبل أن يستطيع فاسيلي الوقوف شعر بفوهة مسدس ليو تضغط على صدغه. وباستثناء الفتاتين اللتين كانتا تحدّقان إلى الأسفل وهما تنتظران الموت، وقف الجميع مراقبين ما يجري.

ببطء شديد، أمال فاسيلي رأسه، ونظر إلى الأعلى، وهو مرتعش الفكّ.

شعر بالخوف من الموت، وهو الرجل الذي كان موت الآخرين شيئاً عادياً جداً بالنسبة إليه. مسّت إصبعُ ليو الزناد، لكنه لم يستطع فعل ذلك، ليس بدم بارد. لن يكون جلاد هذا الرجل، وإنما سيدع الدولة تعاقبه. واثقاً بالدولة، وضع مسدسه في قرابه.

- ستبقى هنا وتنتظر المليشيا. ستشرح لهم ما حدث، وستساعدهم. يمكنك أن تعود وحدك إلى موسكو.

ساعد ليو الفتاتين على الوقوف، ومشى معهما إلى المنزل.

احتاج الأمر إلى ثلاثة عملاء لحمل أناتولي برودسكي إلى الجزء الخلفي من الشاحنة، فجسده أضحى رخواً وكأن الحياة قد سُحبت منه. كان يتمتم كلمات غير مفهومة، وقد جُنّ من الأسى، ثم فقد وعيه حين طلب منه الجنود الآخرون أن يصمت. لم يكونوا راغبين في سماع بكائه.

* * *

داخل المنزل، لم تقل الفتاتان اليافعتان شيئاً، وكأنهما لم تدركا حتى ذلك الوقت أن الجثتين الممددتين في الخارج على الثلج هما جثتا والديهما، وكأنهما تتوقعان في أي لحظة أن يحضّر والدهما طعام الفطور، أو تعود والدتهما من الحقول. لم يكن أي شيء يبدو حقيقياً، فقد كان والداهما يكوّنان عالمهما كله؛ كيف يمكن أن يكون هناك عالم من دونهما؟

سألهما ليو إن كان لديهما أفراد آخرون في الأسرة، لكن أياً من الفتاتين لم تنبس بكلمة. طلب من الفتاة الأكبر سناً أن تحزم أمتعتهما، فقد كانتا ستذهبان إلى موسكو. لم تتحرك أي منهما. ذهب إلى غرفة النوم، وبدأ يحزم أمتعتهما ويبحث عن أشيائهما وملابسهما. بدأت يداه ترتعشان، فتوقف وجلس على السرير، ونظر إلى الأسفل إلى حذائه. جمع عقبيه معاً ونظر إلى الكتلة الرقيقة من الثلج الملطخ بالدماء التي سقطت على الأرض.

* * *

راقب فاسيلي الشاحنة المغادرة من جانب الطريق، وهو يدخن آخر

telegram @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

لفافة تبغ لديه. كانت الشاحنة تبتعد، ولمح الفتاتين اللتين تجلسان في المقدمة بجانب ليو حيث يجب أن يكون. استدارت الشاحنة، واختفت في نهاية الطريق. نظر فاسيلي حوله، ورأى وجوهاً خلف النوافذ في المزارع القريبة، لكنها لم تتوارَ بعيداً هذه المرة. شعر بالسعادة لأنه لا يزال يحتفظ ببندقيته ومشى عائداً إلى المنزل، ملقياً نظرة على الجثتين الممددتين على الثلج. دخل المطبخ، وسخّن بعض الماء، وأعدَّ الشاي الذي كان مذاقه لاذعاً فحلاه بالسكر. كان لدى الأسرة مقدار صغير من السكر، قد يكفيها على الأرجح شهراً، وسكبه كله تقريباً في كوبه؛ مما جعل السائل كثيفاً، ارتشفه وشعر فجأة بالتعب. خلع حذاءه وسترته، ثم ذهب إلى غرفة النوم، وأزاح الأغطية، واستلقى على السرير، وتمنّى لو كان بمقدوره اختيار أحلامه؛ لأنه كان سيختار أن يحلم بالانتقام.

telegram @ktabpdf مكتبة الرمحي أحمد

موسكو

16 شباط

بالرغم من أنه كان مقرّ عمله في السنوات الخمس الماضية، إلا أن ليو لم يشعر بالراحة مطلقاً في لوبيانكا، مقر قيادة إ.أ.د. كانت الأحاديث العادية نادرة، وردود الأفعال تتسم بالحذر، ولم يكن كل ذلك مفاجئاً إذا أُخِذَت في الحسبان طبيعة عملهم. لكن، في ذهنه، كان هناك شيء في المبنى نفسه يجعل الناس قلقين؛ وكأن الخوف جزء من التصميم. عرف ليو أن نظريته هراء، فهو لم يكن يعرف شيئاً عن نية المهندس المعماري. ويعود تاريخ البناء إلى ما قبل الثورة، وشغله مكتب تأمين قبل أن تستولي عليه قوات الأمن السري البلشفية، لكنه وجد صعوبة في تصديق أنهم قد اختاروا مصادفة مبنًى أبعادُه غير متناسقة: ليس عالياً أو منخفضاً، وليس عريضاً أو ضيقاً، وإنما هو شيء بين ذلك. كانت واجهته تعطي انطباعاً باليقظة: صفوف وصفوف من النوافذ المتراصة معاً، المكدّسة من الأسفل إلى الأعلى، والتي ترتفع إلى ساعة على السطح تحدّق إلى المدينة؛ وكأنها عين واحدة من الخرز. ويوجد حدٌّ فاصل حول المبنى، ويتفادى المارة ذلك النطاق الخيالي؛ وكأنهم يخافون من أن يسحبهم إلى الداخل، فتجاوز ذلك الخط يعني أنك موظف هناك أو مدان. ولم تكن لدى أحد أي فرصة لإثبات أنه بريء داخل تلك الجدران؛ لأن المكان خط تجميع للذنوب. وربما لم يُشيّد مبنى لوبيانكا والخوف في الأذهان، لكن الرعب سيطر عليه، وجعل مكتب التأمين السابق ذاك خاصاً به ومقراً له.

سلّم ليو بطاقته، وهي بطاقة لا تعني أن بمقدوره دخول المبنى وإنما

telegram @ktabpdf مكتبة الرمحي أحمد

الخروج منه أيضاً. لم يكن الرجال والنساء الذين لا يحملون بطاقات ويدخلون عبر تلك الأبواب يُشاهَدون مجدداً في أغلب الأحيان. كان النظام ينقلهم إلى غولاغ أو إلى مبنى خلف ذلك البناء، في زقاق فارسونوفيفسكي، وهو أحد مباني أمن الدولة الأخرى، وفيه أرضيات مائلة، وجدران مغطاة بألواح خشبية سميكة لا تخترقها الرصاصات، وخراطيم مياه لشطف بقع الدم. لم يكن ليو يعرف طاقة الإعدام بدقة، لكن الأعداد كانت مرتفعة، وتصل إلى عدّة مئات في اليوم. وعلى تلك المستويات، تصبح الإجراءات العملية، مثل سهولة التخلص من الرفات البشرية وسرعة ذلك، قضيةً ذات شأن.

تساءل ليو، حين دخل الرواق الرئيس عن كيفيّة شعور من يُقاد إلى الأقبية من دون أن يرجو خروجاً، أو الاتصال بأحد طلباً للمساعدة. كان تجاوز النظام القضائي برمّته ممكناً، وقد سمع ليو عن سجناء لم يسأل أحد عنهم طوال أسابيع، وأطباء لا يفعلون شيئاً إلا دراسة الألم، ودرّب نفسه على قبول أن تلك الأشياء لم تتواجد مصادفة، وإنما لسبب؛ فالرعب يحمي الثورة؛ ومن دونه، كان لينين سيسقط، وستالين كذلك. إذاً، لماذا كان مخبرو إ.أ.د. ينشرون عمداً إشاعات تخص ذلك المبنى، ويتمتمون بها في المترو أو عربات الترام على نحو استراتيجي وكأنهم يطلقون فيروساً بين السكان؟ كانت تلك تهدف إلى تنمية الخوف، الذي أضحى جزءاً من عمله. ومن أجل الحفاظ على ذلك المستوى من الخوف برزت الحاجةُ إلى قيام عدد ثابت من الناس بتغذيته.

بالطبع لم يكن لوبيانكا المبنى الوحيد الذي يثير الخوف، فهناك سجن بوتيركا بأبراجه العالية، وأجنحته البائسة المملوءة بالزنزانات المكتظة، حيث يلعب النزلاء بعيدان الثقاب في حين ينتظرون ترحيلهم إلى معسكرات العمل. كما أن هناك سجن لفيورتوفو حيث يُنقل المجرمون الخاضعون للتحقيق من أجل استجوابهم، ويمكن سماع صرخاتٍ تخرج

منه من الشوارع المجاورة. لكن ليو كان يفهم أن لوبيانكا يتميز بمكانة خاصة في نفوس الناس، ويمثّل المكان الذي ينتهي إليه أولئك المذنبون بمعاداة السوفييتية، والقيام بنشاطات مضادة للثورة، والتجسس. لماذا تثير هذه الفئة من السجناء فزعاً كبيراً في قلوب الجميع؟ وبالرغم من سهولة إقناع المرء نفسه بألاّ يسرق أو يغتصب أو يقتل، إلا أن أحداً لا يمكن أن يثق تماماً بأنّه ليس مذنباً بمعاداة النظام السوفييتي، أو القيام بنشاط مضاد للثورة، أو التجسس؛ لأن لا أحد، بمن فيهم ليو، يمكن أن يتوثق بالضبط من طبيعة تلك الجرائم. وفي البنود المئة والأربعين من قانون العقوبات، لم تكن لدى ليو إلا مادة واحدة يهتدي بها، وهي فقرة تعرِّفُ السجينَ السياسي على أنه شخص يتورط في نشاطِ القصدُ منه:

قلب القوة السوفييتية أو هدمها أو إضعافها.

كان ذلك كل شيء. مجموعة مرنة من الكلمات التي يمكن قولبتها لتناسب أي شخص من مسؤولي الحزب البارزين، إلى راقصي الباليه، إلى الموسيقيين والعمال المتقاعدين. لم يكن بمقدور حتى أولئك الذين يعملون ضمن جدران لوبيانكا، أو أولئك الذين يجعلون آلة الخوف تلك تعمل، أن يثقوا بأنّ النظام الذي يؤازرونه لن يبتلعهم يوماً ما.

وبالرغم من حقيقة وجود ليو داخل المبنى، إلا أنه بقي مرتدياً ثيابه كاملة، ومن بينها القفاز الجلدي والمعطف الصوفي الطويل. كان يرتعش، وعندما وقف ساكناً بدا أن الأرضية تتحرك من جانب إلى آخر. أحس بنوبات دوار تدوم بضع ثوانٍ؛ وأنه على وشك الانهيار. لم يكن قد أكل منذ يومين، لكن فكرة الطعام نفسها جعلته يشعر بالغثيان، ومع ذلك رفض بعناد التفكير في احتمال أن يكون مريضاً. كان يشعر بالبرد قليلاً بالتأكيد، وبالتعب ربما، لكن ذلك سيزول. وفي الانهيار الذي يعقب تناول الميثامفيتامين، لم يكن بحاجة إلا إلى النوم. ولم يكن بمقدوره أخذ يوم إجازة، ليس في ذلك اليوم

الذي سيجري فيه التحقيق مع أناتولي برودسكي.

لم يكن الاستجواب تقنياً جزءاً من مهامّه، فقد كان لدى إ.أ.د. مختصون لا يفعلون شيئاً باستثناء استنطاق المشتبه فيهم، أو الانتقال من زنزانة إلى أخرى، أو انتزاع اعترافات على نحو مهني، ومن غير مبالاة أو زهو شخصي. كانت تحفّزهم - مثل معظم الموظفين - أشياء بسيطة مثل إمكانية الحصول على مكافأة مرتبطة بالأداء، تُقدّم إذا وقّع المشتبه فيه فوراً ومن دون شروط أو تعديلات على اعترافه. لم يكن ليو يعرف الكثير عن أساليبهم، أو أياً منهم شخصياً. وكوّن المحققون نوعاً من العُصبة التي يعمل أفرادها كفريق، ويستجوبون غالباً المشتبه فيهم نفسهم، ويوحدون مواهبهم الخاصة لشن هجوم من زوايا مختلفة، حيث يكون هجومهم قاسياً، وفصيحاً، وفاتناً. كل تلك الصفات ذات شأن. يأكل هؤلاء الرجال والنساء معاً خارج العمل، ويمشون معاً، ويتشاركون القصص ويقارنون الأساليب. وبالرغم من أنهم يبدون تقريباً مثل أي شخص آخر، إلا أن ليو، لسبب ما، كان يميزهم بسهولة. كان العديد من عملياتهم الأكثر تطرفاً يجري في القبو، حيث يمكنهم التحكم بالعناصر البيئية مثل الحرارة والضوء. بالمقابل، كان دور ليو بصفته محققاً يعني تمضية معظم وقته إما في الطوابق العليا أو الخارج، فالقبو عالمٌ نادراً ما ينزل إليه، عالمٌ يغمض عينيه عنه، ويفضل إبقاءه تحت قدميه.

استُدعي ليو بعد أن انتظر قليلاً، فدخل مكتب الرائد كوزمن الذي لم يكن شيء متواجداً في غرفته مصادفة. فكلّ شيء مصمم بعناية، ويحتل مكاناً مناسباً. فقد عُلّقت على الجدران لوحات بالأبيض والأسود مؤطرة، يظهر في إحداها ستالين وهو يصافح كوزمن؛ وهي صورة التُقطت في ذكرى ميلاد الزعيم السبعين، وتحيط بها مجموعة من الملصقات الإعلانية المؤطرة التي تعود إلى عقود مختلفة. افترض ليو أن القصد من المدى الزمني هو الإشارة إلى أن كوزمن قد شغل دائماً ذلك المكتب حتى في أثناء حملة التطهير الكبرى في الثلاثينيات. لكن، لم يكن ذلك صحيحاً؛ لأنه كان آنذاك في

telegram @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

استخبارات الجيش. شاهد ليو ملصقاً لأرنب أبيض بدين في قفص: تناول مزيداً من لحم الأرنب! وثلاثة أشخاص أقوياء البنية باللون الأحمر يضربون بمطارقهم الحمراء على رؤوس رجال غير حليقين ومتجهمين: كافح العمّال الكسالى! وثلاث نساء مبتسمات يتجهن إلى مصنع: ضع مدخراتك لدينا! ولم تكن كلمة لدينا في الملصق الأخير تشير إلى النساء الثلاث المبتسمات وإنما إلى حساب التوفير الوطني. كان هناك ملصق لرجل منتفخ يرتدي بذلة، ويعتمر قبعة، ويحمل حقيبتين مملوءتين مالاً: حمقى الرأسمالية! ولوحات لأحواض سفن، ومسافن، وسكك حديدية، وعمال يبتسمون، وعمال غاضبين، وأسطول من القاطرات، كلها تكريماً للينين: ابنِ! كان يجري تبديل أماكن تلك الملصقات بانتظام، ويُعرف عن كوزمن شغفه الشديد بإظهار مجموعته الشاملة، وأنه يولي اهتماماً مماثلاً بمجموعته من الكتب أيضاً، التي تتكدّس على رفوفه، وتتضمن العناوين المناسبة، في حين أن نسخته من تاريخ الحزب الشيوعي: دورة قصيرة - النص الذي أملاه ستالين نفسه - كانت لا تفارق مكتبه إلا نادراً. حتى سلة المهملات لم تكن تحوي إلا موادَّ منتقاة بعناية. وكان كل شخص؛ بدءاً من العامل الأدنى مرتبة إلى الضابط الأعلى شأناً يفهم أنه إذا أراد التخلص نهائياً من شيء ما، ينبغي له أن يُخرجه خلسة من المبنى ويتلفه في طريقه إلى المنزل.

وقف كوزمن بجانب النافذة التي تطل على ساحة لوبيانكا. كان مربوع القامة، ويرتدي - كما يفعل دائماً - بذلة أصغر بقياس واحد من جسده، ويضع نظارته السميكة التي تنزلق غالباً على أنفه. باختصار، كان مظهر الرجل مثيراً للسخرية، ولم تُسبِغ عليه قدرته على تقرير حياة أحدهم أو موته أي جاذبية. وبالرغم من أن كوزمن، بحسب علم ليو، لم يكن يشارك في عمليات الاستجواب آنذاك، إلا أن إشاعة سرت بأنه سيعمل في ذلك اليوم خبيراً من نوعٍ ما، مفضلاً استخدام يديه الصغيرتين البدينتين. كان صعباً على ليو تصديق ذلك وهو ينظر إليه آنذاك.

telegram @ktabpdf

مكتبة الرمحي أحمد

جلس ليو، وبقي كوزمن واقفاً بجانب النافذة، فهو يفضّل طرح الأسئلة وهو ينظر إلى الخارج؛ لأنه يظن أنه يجب التعامل مع إظهار المشاعر - كما كان يذكّر ليو غالباً - بتشكك كبير، إلا إن لم يكن الشخص يدرك أنه - أو أنها - خاضع للمراقبة. أضحى كوزمن ماهراً في الظهور بمظهر من ينظر إلى الخارج في حين إنه في الواقع يراقب صور الناس التي تنعكس على الزجاج. كانت فائدة تلك الخدعة قد تراجعت كثيراً؛ لأن الجميع تقريباً، بمن فيهم ليو، أصبحوا يدركون أنهم يخضعون للمراقبة. وعلى أيّ حال، لا يخفف إلا عددٌ قليلٌ جداً من الناس حذرهم داخل لوبيانكا.

- تهانينا يا ليو. أعرف أنك قد نلت منه. كانت التجربة درساً قيّماً لك.

أومأ ليو.

- هل أنت مريض؟

توقف ليو، وكان واضحاً أنه يبدو أسوأ مما تخيّل.

- لا شيء يذكر. ربما أنا مصاب بالبرد؛ لكنه سيزول.

- أخمّن أنك منزعج مني لأنني أبعدتك عن قضية برودسكي وجعلتك تتولى قضية فيودور أندريف. هل أنا محق؟ كنت تظن أن قضية فيودور غير ذات شأن، وأنه يجب أن أتركك تتابع العملية ضد برودسكي.

كان يبتسم وكأن شيئاً ما يسلّيه. ركّز ليو، مستشعراً الخطر:

- لا أيها الرائد. لستُ منزعجاً. كان يجب أن أعتقل برودسكي فوراً. تلك غلطتي.

- نعم، لكنك لم تعتقله فوراً. لهذا، في تلك الظروف، هل كنت أنا مخطئاً في إبعادك عن قضية الجاسوس وجعلك تتكلم مع والدٍ مفجوع؟ ذلك سؤالي.

- لم أفكر إلا في فشلي في اعتقال برودسكي فوراً.

- هذه مراوغة منك. وببساطة قصدي هو الآتي: لم تكن أسرة فيودور قضيةً غير ذات شأن، وإنما فساداً داخل إ.أ.د. نفسها. كان أحد رجالنا قد

أضناه الحزن وجعل نفسه وأسرته من غير قصدٍ أعداء للدولة. وبالرغم من أنني سعيد لأنك اعتقلت برودسكي، إلا أنني أظن أن ما فعلته مع فيودور أهم بكثير.

- أفهم.

- نصل الآن إلى قضية فاسيلي نيكتين.

كان مؤكداً أن أفعاله ستثير أصداءً، ولم يكن فاسيلي سيتردد في محاولة استخدامها ضده. لم يستطع ليو أن يفترض أن كوزمن يدعمه، أو يخمّن أيّ جانب من الحادثة يهمه أكثر.

- سدّدت سلاحاً عليه؟ ثم ضربته؟ يقول إنك لم تتمالك نفسك، وإنك كنت تتناول مسكّنات، وإنها جعلتك غير عقلاني. إنه يضغط من أجل إيقافك عن العمل، فهو منزعج كما تعرف.

كان ليو يعرف ذلك تماماً. لم يكن الإعدام القضية المهمة هناك.

- كنتُ الضابط المسؤول وأصدرتُ أمراً، لكن فاسيلي عصاه. كيف يمكنني الحفاظ على تسلسل القيادة، وكيف يمكن لأي منا الحفاظ على قيادته، إذا عُصيت الأوامر؟ النظام ينهار، وربما كان السبب خلفيتي العسكرية. في العملية العسكرية يُعاقَب العصيان والتمرد بالإعدام.

أومأ كوزمن موافقاً. كان ليو قد اختار دفاعه بحكمة؛ مبدأ اللياقة العسكرية.

- أنت محق بالطبع. فاسيلي حادّ الطباع، وهو يعترف بذلك. لقد عصى أمراً، هذا صحيح، لكنه ثار غضباً من تعاون الأسرة مع الخائن. لا أتغاضى عمّا فعله، كما تعرف. لدينا نظام قائم لمثل تلك الانتهاكات. لم يكن ينبغي إحضارهما إلى هنا، وقد جرى توبيخ فاسيلي على نحو ملائم. وفي ما يتعلق بالعقاقير...

- لم أكن قد نمتُ خلال الساعات الأربع والعشرين الماضية، وقد حصلتُ عليها من الأطباء هنا.

- إنها لا تهمني على الإطلاق. طلبت منك فعل كل ما يتطلبه الأمر، الذي أظن أنه يمتد ليشمل تناول أي شيء، لكنني أود أن أحذّرك: إن ضرب ضابط زميل لك يجعلك موضع اهتمام. سينسى الناس بسرعة أن أسبابك كانت وجيهة. فقد كان يجب أن ينتهي الأمر حين أخفض فاسيلي سلاحه. وإذا كنت ترغب في إنزال عقوبة أكبر بحقه، كان يجدر بك أن تبلغني بتمرده. لقد طبقت العدل بيديك، وهذا ليس مقبولاً، ولن يكون مقبولاً أبداً.

- أعتذر.

ابتعد كوزمن عن النافذة، ووقف بجانب ليو، ثم وضع يده على كتفه:

- كفانا من كل ذلك. اعتبر القضية منتهية. لدي تحدٍّ مختلف لك: استجواب برودسكي. أريد منك أن تتولاه شخصياً. يمكنك استدعاء من تشاء لمساعدتك - محقق مختص - لكنني أريدك أن تكون متواجداً حين يتكلم؛ لأنه من المهم أن ترى هذا الرجل على حقيقته، خاصة وأنك قد خُدعت بمظهره البريء.

لم يكن ذلك طلباً اعتيادياً، ولاحظ كوزمن دهشة ليو.

- سيكون ذلك مفيداً لك. يجب أن نقوّم الإنسان بما يستطيع أن يفعله بنفسه، وليس بما يجعل الآخرين يفعلونه من أجله. هل لديك أي اعتراض؟

- لا.

وقف ليو، وشدّ سترته:

- سأبدأ فوراً.

- شيء واحد أخير، أريدك أن تعمل مع فاسيلي على هذا.

* * *

كانت هناك ثلاثة أنواع من الزنزانات؛ منها تلك الخاصة بالاحتجاز: غرف مربعة، وأرضية مغطّاة بالقش، ومساحة تكفي ثلاثة رجال راشدين للاستلقاء جنباً إلى جنب. كان هناك دائماً خمسة رجال في أي زنزانة، محشورين على نحو محكم، حيث يمكن لرجل أن يحكّ نفسه من دون

telegram @ktabpdf مكتبة الرمحي أحمد

أن يتحرك الآخرون أيضاً، الذين يكوّنون شبكة بشرية من الأوصال. ونظراً إلى عدم وجود مرحاض، كان يجب تفريغ مساحة أيضاً للدلو الذي يُرغم الرجال على استخدامه بالرغم من وجود الجميع، وحين يمتلئ يحمله السجناء إلى أقرب مصرِف للمياه. ويُقال لهم إنهم إذا أراقوا منه ولو قطرة صغيرة فسيُردَون قتلى. كان ليو قد استمع إلى الحراس وهم يناقشون التعابير المضحكة التي تبدو على وجوه السجناء حين يحدّقون بتركيز إلى المستوى المتأرجح من الغائط والبول، الذي يحدد إن كانوا سيعيشون أم يموتون. هذا الأمر وحشي بالتأكيد، لكن ذلك لسبب وجيه؛ وهو تحقيق مصلحة أسمى.

الغاية الأسمى... الغاية الأسمى

كان من الضروري تكرار ذلك، وتثبيت الفكرة، حتى تتحرك مثل شريط التلغراف في قاع ذهنك.

بعد زنزانات الاحتجاز هناك زنزانات العقاب ذات التصاميم المختلفة. بعضها تغمرها مياه مثلجة تصل حتى الكاحل، ويغطي العفن والوحل جدرانها، والبقاء فيها لمدة خمسة أيام فقط كافٍ لعدم استرداد المرء عافيته أبداً، واستفحال مرض على نحو دائم في رئتي السجين. توجد خزائن ضيقة مثل توابيت خشبية، يُترك فيها البق ليتكاثر، ويبقى فيها السجين عارياً ليكون وليمةً للحشرات، حتى يصبح مستعداً لتوقيع اعتراف. وهناك غرف معزولة بالفلين حيث يتعرض السجناء للحرارة، ويُسخَّنون في نظام تهوئة المبنى، حتى يخرج الدم من مسامهم. وهناك غرف فيها خطّافات وسلاسل وأسلاك كهربائية. كانت هناك كل أنواع التعذيب لكل أصناف البشر، وليس هناك عائق إلا الخيال وحده. بدت كل تلك الفظائع صغيرة لدى مقارنتها بحجم الغاية الأسمى وأهميتها.

الغاية الأسمى... الغاية الأسمى... الغاية الأسمى

كان تبرير مثل تلك الأساليب بسيطاً ومقنعاً ويحتاج إلى تكرار مستمر:

telegram @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

هؤلاء الأشخاص أعداء. ألم يرَ ليو إجراءات متطرفة مماثلة في أثناء الحرب؟ نعم، بل رأى ما هو أسوأ منها. ألم تمنحهم الحرب الحرية؟ ألم يكن الأمر نفسه: حربٌ ضد نوع مختلف من الأعداء، عدو من الداخل؛ لكنه يبقى عدواً مع ذلك؟ هل كان ذلك ضرورياً؟ نعم، بالتأكيد. كان بقاء نظامهم السياسي يبرّر أي شيء. والوعدُ بعصر ذهبي لا وحشية فيه، يكون كل شيء فيه وفيراً، ويبتعد شبح الفقر فيه ويصبح ذكرى يسوّغ كل شيء. لم تكن تلك الأساليب مرغوبة، وينبغي عدم تمجيدها، ولا يكون الضباط الذين يشعرون بالسعادة في عملهم موضع تقدير. لم يكن ليو أحمق، وكان يشعر بأن مقداراً صغيراً من الإنكار متواجد ضمن تلك السلسلة المصقولة والمتكلّفة من التبرير الذاتي وأنه يرقد ساكناً في قاع معدته مثل قرن بذور غير مهضوم.

أخيراً، إن النوع الأخير من الزنزانات هو تلك الخاصة بالاستجواب. كان ليو قد وصل إلى باب إحدى تلك الزنزانات التي يحتجزون فيها الخائن. باب من صفائح فولاذية، وفيه نافذة صغيرة. قرع، متسائلاً عمّا سيجده في الداخل، وفتح الباب فتى لا يتجاوز عمره السبعة عشر عاماً. كانت الزنزانة نفسها صغيرة ومستطيلة الشكل، جدرانها وأرضيتها من الإسمنت الصلد، ويغمرها ضوء ساطع جعل ليو يغمض عينيه قليلاً حين دخل. شاهد خمسة مصابيح قوية تتدلى من السقف، وأريكة عند الجدار الخلفي، غير متناسقة مع المحيط الموحش، يجلس عليها أناتولي برودسكي، ومعصماه وكاحلاه مربوطة بحبل. شرح الضابط اليافع بفخر:

- يُبقي عينيه مغلقتين، ويحاول النوم باستمرار، لكنني أواظب على ضربه. لن يحظى بلحظة راحة، أعدك بذلك. تلك الأريكة هي الجزء الأفضل. كل ما يريده هو الاسترخاء إلى الخلف والاستغراق في النوم. إنها مريحة، وطرية حقاً، لقد جلست عليها، لكنني لم أسمح له بالنوم. الأمر يشبه وضع طعام خارج متناول يد رجل يتضوّر جوعاً.

أومأ ليو، ولاحظ أن الضابط الشاب قد شعر بخيبة أمل بسبب عدم

حصوله على المزيد من الإطراء لتفانيه في عمله. اتخذ الضابط موقعاً في زاوية الغرفة، مسلحاً بهراوة خشبية سوداء. كان رجلاً صلباً، وجاداً، ووجنتاه كانتا حمراوين حيث بدا مثل دمية على شكل جنديّ.

كان برودسكي جالساً على حافة الأريكة، منحنياً إلى الأمام، وعيناه نصف مغمضتين. لم تكن هناك كراسٍ أخرى فجلس ليو على الأريكة بجانبه، في ترتيبٍ مخالفٍ للصواب. كانت الأريكة مريحة جداً فعلاً، واسترخى ليو إلى الخلف، وهو يفكر في التعذيب الغريب في تلك الغرفة. لكن لم يكن لديه وقت يضيعه سدى، ويجب عليه أن يعمل بسرعة لأن فاسيلي سيحضر في أي لحظة، وتمنّى ليو أن يستطيع إقناع أناتولي بالتعاون قبل أن يصل.

نظر أناتولي إلى الأعلى، واتسعت عيناه قليلاً، واستغرق الأمر منه لحظة قبل أن يميّز دماغه المحروم من النوم الرجل الجالس بجانبه، وهو الرجل نفسه الذي ألقى القبض عليه، وأنقذ حياته. قال متمتماً وكأنه تحت تأثير الممنوعات:

- الفتاتان؟ ابنتا ميخائيل؟ أين هما الآن؟

- لقد وُضعتا في ميتم، وهما بأمان.

ميتم! هل كانت تلك دعابة؟ أم أنها جزء من عقابه؟ لا، هذا الرجل لن يلقي دعابة، فهو إنسان صادق.

- هل ذهبت يوماً إلى ميتم؟

- لا.

- كانت الفتاتان ستحظيان بفرصة أفضل للبقاء حيّتين لو أنك تركتهما وحدهما.

- الدولة تعتني بهما الآن.

دهش ليو عندما رفع السجين يديه إلى الأعلى، ومعصماه لا يزالان مقيّدين، وتحسس جبين ليو. وسرعان ما اندفع الضابط الشاب إلى الأمام، ورفع الهراوة الخشبية مستعداً لتوجيه ضربة إلى ركبتي السجين، لكن ليو

telegram @ktabpdf

مكتبة الرمحي أحمد

لوّح له أن يبتعد، فتراجع الضابط إلى الخلف متردداً.

- تعاني حمّى، ويجب أن تكون في المنزل. لديك منزل؟ حيث تنام وتأكل وتفعل كل الأشياء التي يفعلها الرجال الطبيعيون؟

استغرب ليو من أقوال ذلك الرجل، الذي كان لا يزال طبيباً، حتى في ذلك الوقت. لا يزال جريئاً، حتى في هذه اللحظات. كان شجاعاً وفظاً، ولم يسع ليو إلا أن يُعجب به.

تراجع ليو إلى الخلف، ومسح جبينه الرطب برُدن معطفه:

- يمكن أن توفّر على نفسك عناءً غير ضروري بالتحدث إليّ. ليس هناك شخص استجوبناه لم يتمنَّ أن يكون قد اعترف بكل شيء فوراً. ما الذي ستجنيه من الصمت؟

- لن أجني شيئاً.

- إذاً، هل ستخبرني الحقيقة؟

- نعم.

- لمصلحة من تعمل؟

- آنا فلاديسلوفوفنا، أُصيبت قطتها بالعمى. دورا أندريفا، يرفض كلبها أن يأكل. أركادي ماسلوف، كُسرت قائمةُ كلبه الأمامية. ماتياس راكوسي، لديه مجموعة من الطيور النادرة.

- إذا كنت بريئاً، فلماذا هربت؟

- هربتُ لأنكم كنتم تلاحقونني، لم يكن هناك سبب آخر.

- لا يبدو ذلك منطقياً.

- أتفق معك، لكن ذلك صحيح. عندما تُلاحق، فهذا يعني أنك ستُعتقَل دائماً؛ وعندما تُعتقل، فستصبح مذنباً دائماً. لا تجلبون أشخاصاً أبرياء قط إلى هنا.

- من هم المسؤولون من السفارة الأميركية الذين تعمل معهم؟ وما المعلومات التي كنت تنقلها إليهم؟

أخيراً، فهم أناتولي. قبل بضعة أسابيع، كان موظف عادي يعمل في السفارة الأميركية قد أحضر إليه كلبه ليفحصه، واكتشف أنه يعاني جرحاً ملوثاً. كان بحاجة إلى جرعة من المضادات الحيوية، لكن، نظراً إلى عدم توافرها فقد نظّف جرح الحيوان بعناية، وطهّره، وأبقاه تحت المراقبة. لم يمض وقت طويل بعد ذلك حتى لاحظ رجلاً يتسكّع خارج منزله. وكان قد جافاه النوم في تلك الليلة، ولم يستطع أن يتخيل الخطأ الذي اقترفه. في صباح اليوم التالي، تبعه رجل إلى العمل ثم إلى المنزل مجدداً، واستمر ذلك ثلاثة أيام، فقرّر بعد الليلة الرابعة من دون نوم أن يلوذ بالفرار. آنذاك، أخيراً، عرف تفاصيل جريمته: لقد عالج كلبَ أجنبيٍّ.

– ليس لدي أدنى شك في أنني سأقول في نهاية المطاف ما تريد مني قوله، لكنني سأقول الآن ما يلي: أنا أناتولي تاراسوفيتش برودسكي طبيب بيطري. سيُذكَر في سجلاتك قريباً أنني كنت جاسوساً، وستحصل على توقيعي واعترافي، وسترغمني على تزويدك بأسماء. ستنفذون مزيداً من عمليات الاعتقال، والاستجواب، والاعتراف. لكن كل ما أقوله لك أخيراً سيكون كذباً لأنني طبيب بيطري.

– لست أول رجل مذنب يدّعي أنه بريء.

– هل تصدّق فعلاً أنني جاسوس؟

– من هذه المحادثة وحدها لدي ما يكفي لإدانتك بالتخريب. لقد أوضحت بجلاء أنك تكره هذا البلد.

– أنا لا أكره هذا البلد، بل أنتم من تكرهون هذا البلد، وتكرهون شعب هذا البلد، وإلا لماذا اعتقلتم عدداً كبيراً منا؟

نفد صبر ليو.

– هل تدرك ما سيحدث لك إذا لم تتحدث إلي؟

– حتى الأطفال يدركون ما يجري هنا.

– لكنك مع ذلك ترفض الاعتراف؟

- لن أجعل هذا سهلاً عليك. إذا أردت أن أقول إنني جاسوس فيجب عليك أن تعذّبني.

- كنت آمل أن يكون بمقدورنا تفادي ذلك.

- تظن أن بمقدورك الحفاظ على كرامتك في الأسفل هنا؟ اذهب واجلب سكاكينك، ومجموعة أدواتك. وعندما يغطي دمي يديك، عندها يمكن أن تبدو منطقياً.

- كل ما أريده لائحة بالأسماء.

- لا شيء أكثر عناداً من الحقيقة، ولهذا السبب تكرهونها كثيراً، فهي تؤذيكم. ولهذا السبب يمكن أن أزعجكم ببساطة بالقول إنني أنا أناتولي تاراسوفيتش برودسكي طبيب بيطري. براءتي تزعجكم؛ لأنكم تتمنون أن أكون مذنباً. أنتم تتمنون ذلك؛ لأنكم قمتم باعتقالي.

سمعوا قرعاً على الباب، وكان فاسيلي قد وصل، فنهض ليو متمتماً:

- كان يجب أن تقبل عرضي.

- ربما ستفهم يوماً ما لماذا لم أستطع ذلك.

فتح الجندي الشاب الباب، فدخل فاسيلي الذي كان يضع ضمادة معقّمة على مكان إصابته، وشكّ ليو في أنها ليست ذات قيمة عملية، والقصد منها فقط بدء حوار، والسماح له بوصف الحادثة إلى أكبر عدد ممكن من الناس. كان رجل في منتصف العمر يرافق فاسيلي. شعره خفيف، ويرتدي بذلة كاملة. وعندما رأى فاسيلي ليو وأناتولي معاً، بدا القلق على محياه.

- هل اعترف؟

- لا.

انفرجت أسارير فاسيلي على نحو واضح، وأشار إلى الجندي الشاب أن يوقف السجين على قدميه، في حين تقدم الرجل الذي يرتدي البذلة البنية إلى الأمام مبتسماً، وماداً يده نحو ليو:

- الدكتور رومان هفوستوف، أنا عالم نفس.

telegram @ktabpdf

مكتبة الرمحي أحمد

- ليو دميدوف.

- تشرّفت بمعرفتك.

تصافحا، وأومأ هفوستوف إلى السجين.

- لا تقلق بشأنه.

تقدّمهم هفوستوف إلى غرفة عملياته التي فتح بابها، وأومأ إليهم ليدخلوها وكأنهم أطفال، وتلك حجرة ألعابه. كانت الغرفة صغيرة ونظيفة، فيها كرسي جلدي أحمر مثبّت إلى الأرضية الآجرية البيضاء، ويمكن تحويله باستخدام سلسلة من الروافع إلى سرير ثم إعادته إلى حالته الأولى مجدداً. رأوا على الجدران خزائن زجاجية مملوءة بقوارير ومساحيق وحبوب، ومصنّفة بلصاقات بيضاء مرتّبة كُتِب عليها بخط يد أسود أنيق. وعُلِّقت في أسفل الخزائن مجموعة من الأدوات الجراحية، فيما فاحت رائحة مطهّر في الغرفة. لم يقاوم برودسكي حين شُدَّ وثاقه إلى الكرسي، ورُبط معصماه، وكاحلاه وعنقه بأشرطة جلدية سوداء. وبينما كان ليو يربط قدميه، أوثق فاسيلي ذراعيه. وعندما انتهيا من ذلك لم يعد قادراً على تحريك أي جزء من جسده، وتراجع ليو إلى الخلف، في حين نظّف هفوستوف يديه فوق المغسلة.

- عملت لبعض الوقت في غولاغ، قرب مدينة مولوتوف. كان المستشفى مملوءاً بأشخاص يتظاهرون بأنهم مجانين، ومستعدين لفعل أي شيء للتوقف عن العمل. كانوا يجرون في المكان مثل حيوانات، ويصرخون بأقوال فاحشة، ويمزّقون ملابسهم، ويتغوطون على الأرض. أي يفعلون أيّ شيء وكل شيء لإقناعي بأنهم مخبولون، لكنني لم أكن أثق بأيٍّ من ذلك. كان عملي هو تحديد الكاذب من الصادق، وإجراء اختبارات أكاديمية عديدة. لكن السجناء سرعان ما فهموا ما يجري، وتناقلوا تلك المعلومات في ما بينهم، وعرف الجميع بسرعة كيف يتصرفون من أجل خداع النظام. مثلاً، كان السجين الذي يظن أنه هتلر أو حصان أو شيء غريب على نحو

telegram @ktabpdf

مكتبة الرمحي أحمد

واضح يدّعي سابقاً أنه مجنون. لكن السجناء توقفوا عن الادّعاء أنهم هتلر وأصبحوا أكثر مكراً ودهاءً في خداعهم. وفي النهاية، لم تعد هناك إلا طريقة واحدة فقط للحصول على الحقيقة.

ملأ محقنة بزيت أصفر كثيف، ثم وضعها على طبق معدني، واقتطع بعناية جزءاً من قميص السجين، وربط مرقاة مطاطية حول أعلى ذراعه لإبراز وريد أزرق عريض سرعان ما ظهر للعيان. تكلم هفوستوف مع السجين:

- سمعت أنك تعرف القليل عن الطب. أنا على وشك حقن زيت الكافور في مجرى دمك. هل تفهم ما سيفعله ذلك بك؟

- خبرتي الطبية محدودة بمساعدة الناس.

- هذا يمكن أن يساعد الناس أيضاً، خاصة المُضلَّل منهم. ستُصاب بنوبة مرضية، وفي أثناء ذلك لن تستطيع الكذب. في الواقع، لن تكون لديك القدرة على فعل الكثير، وإذا استطعت الكلام، فلن تقول إلا الصدق.

- إذاً، افعل ذلك. احقني بزيتك، واسمع ما سأقوله.

خاطب هفوستوف ليو:

- سنستخدم كِعَاماً مطاطياً لمنعه من عض لسانه في أثناء الجزء الأصعب من النوبة المرضية. على أيّ حال، عندما يهدأ يمكننا إبعاد الكِعَام، وسنستطيع طرح أسئلتك.

أمسك فاسيلي مشرطاً، وبدأ يستخدم طرفه لتنظيف أظفاره، وإزالة بعض الأوساخ عن طرف معطفه، وعندما انتهى من ذلك، وضع المشرط جانباً ومدّ يده إلى جيبه، وأخرج منه لفافة تبغ، لكن الطبيب هزّ رأسه.

- ليس هنا من فضلك.

أبعد فاسيلي لفافة التبغ. فحص الطبيب المحقنة. كانت هناك قطرة صفراء من الزيت على رأس الإبرة، فغرز الإبرة راضياً في وريد برودسكي.

- يجب أن نفعل هذا ببطء. إذا حدث الأمر سريعاً، فسيعاني انسداداً وعائياً.

telegram @ktabpdf

مكتبة الرمحي أحمد

ضغط على الدافعة وانتقل الزيت الأصفر الكثيف مثل الدّبس من المحقنة إلى وريد السجين.

لم يستغرق ظهور التأثيرات وقتاً طويلاً. فجأة، اختفى كل إدراك من عيني أناتولي برودسكي. فقد انقلبتا إلى الخلف في رأسه، وبدأ جسده يرتعش وكأن الكرسي الذي كان مثبتاً إليه قد شُحن بألف فولت. كانت الإبرة لا تزال في ذراعه وكمية صغيرة فقط من الزيت قد حُقنت فيها.

- ونحقن الآن المزيد منها.

حُقنت خمسة ملليمترات أخرى، وظهرت فقاعات على طرفي فم برودسكي؛ فقاعات بيضاء صغيرة.

- والآن، ننتظر وقتاً إضافياً آخر، ونحقن ما تبقى.

حقن هفوستوف الزيت المتبقي، ثم سحب الإبرة إلى الخارج، وضغط قطعة قطن على نقطة دخولها في الذراع، ثم تراجع إلى الخلف.

لم يعد برودسكي يشبه إنساناً، وإنما بدا كآلة تعمل على نحو غير صحيح، أو كمحرّك دُفعَ إلى خارج حدود استطاعته، وأخذ جسده يشدّ القيود بقوة بطريقة تشير إلى وجود قوة خارجية ما تؤثر فيه. سمعوا طقطقة، وكُسرت عظمة في معصمه حين انتفض بعنف تحت القيد. نظر هفوستوف إلى الجرح، الذي كان يتورم آنذاك:

- هذا أمر عادي.

وقال وهو يلقي نظرة إلى ساعته:

- سننتظر وقتاً أطول قليلاً.

خرج وَشَلان من رغوةٍ من طرفي فم السجين، وسالا تحت ذقنه، ونزلت منهما قطرات على ساقيه، وأضحت الاهتزازات أبطأ.

- لا بأس. اطرح أسئلتك، واسمع ما سيقوله.

تقدم فاسيلي إلى الأمام، وحلّ الكِعَام المطاطي، فتقيأ برودسكي رغوة ولعاباً في حجره. استدار فاسيلي إلى الخلف ونظرة متشككة تعلو وجهه.

- ما الذي سيخبرنا به وهو على هذه الحال؟

- حاول.

- مع من تعمل؟

رداً على ذلك أخفض الرجل رأسه فوق القيود، وقرقر، ثم خرج الدم من أنفه. استخدم هفوستوف منديلاً ليمسح الدم.

- حاول مجدداً.

- مع من تعمل؟

تحرك رأس برودسكي إلى الجانب؛ وكأنه لعبة أو دمية تنبض بالحياة، يمكنها أن تتحرك، لكنها ليست حيّة في الواقع. فتح فمه وصرخ، ولسانه ممدود إلى الخارج في محاكاة ميكانيكية للكلام، لكن لم يخرج أيّ صوت من فمه.

- حاول مجدداً.

- مع من تعمل؟

- حاول مجدداً.

هز فاسيلي رأسه، واستدار إلى ليو.

- هذا غباء، حاول أنت.

كان ظهر ليو مستنداً إلى الجدار؛ وكأنه يحاول الانتقال إلى أبعد مكان ممكن. تقدم خطوة إلى الأمام:

- مع من تعمل؟

خرج صوت من فم برودسكي، لكنه كان مضحكاً، وهزلياً، مثل غمغمة طفل. وضع هفوستوف ذراعاً فوق أخرى وحدّق إلى عيني برودسكي.

- حاول مجدداً. ابدأ بطرح أسئلة بسيطة. اسأله عن اسمه.

- ما اسمك؟

- حاول مجدداً. ثق بي، سيصحو من ذلك. حاول مجدداً من فضلك.

اقترب ليو أكثر، وأصبح قريباً كفاية ليمد يده ويمسَّ جبينه.

- ما اسمك؟

تحرّكت شفتاه.

- أناتولي.

- مع من تعمل؟

لم يعد يهتز آنذاك، وانقلبت عيناه إلى الأمام.

- مع من تعمل؟

أطبق الصمت للحظة، ثم تكلم بصوت واهن وبسرعة، كما يتكلم رجل في نومه:

- آنا فلاديسلوفوفنا، دورا أندريفا، أركادي ماسلوف، ماتياس راكوسي.

مدّ فاسيلي يده إلى دفتر ملاحظاته، وسجّل الأسماء، وسأل:

- هل تعرف أياً من هذه الأسماء؟

نعم، عرف ليو تلك الأسماء: آنا فلاديسلوفوفنا: أُصيبت قطتها بالعمى، دورا أندريفا: يرفض كلبها تناول الطعام، أركادي ماسلوف: كُسِرت قائمة كلبه الأمامية. فُتحت بذرة الشك، التي تستقر ساكنة في تجويف بطن ليو، محدثة طقطقة.

كان أناتولي تاراسوفيتش برودسكي طبيباً بيطرياً.

لم يكن أناتولي تاراسوفيتش برودسكي أكثر من طبيب بيطري.

17 شباط

اعتمر د. زاروبين قبعته المزينة بفرو المنك[1]، وحمل حقيبته الجلدية، وشق طريقه إلى خارج عربة الترام المزدحمة وهو يعتذر بفتور. كان الرصيف جليدياً، وعندما نزل إليه أمسك بجانب العربة ليسند نفسه. شعر بأنه عجوز فجأة، فقدماه تهتزان ويخاف الانزلاق. ابتعدت عربة الترام، ونظر حوله؛ متمنياً أن تكون تلك هي المحطة الصحيحة؛ كانت الضواحي الشرقية مقاطعة لا يعرفها جيداً، لكن تبين أن تحديد موقعه أمر بسيط، فقد هيمن مقصده على أفق الشتاء الرمادي. رأى على الطرف الآخر من الطريق، على بعد عدّة مئات من الأمتار فوقه وفوق كل شيء آخر، مجموعةً من مبانٍ سكنية تتطاول على شكل حدوة حصان، كل اثنينِ منها مشيّدان قرب بعضهما؛ وكأن أحدهما صورة معكوسة عن الآخر. أعجب الطبيب بذلك التصميم الحديث، موطن آلاف الأسر، الذي لم يكن مجرد مشروع سكني، وإنما كان صرحاً لحقبة جديدة. لم تعد هناك عقارات خاصة مؤلفة من طابق أو اثنين، فقد ولّى زمانها، والقائم منها سوّي بالأرض، وظهرت مكانه شقق نموذجية صممتها الحكومة وهي تمتلكها أيضاً. طليت الشقق كلها باللون الرمادي نفسه، وتكدست فوق بعضها أو كانت إلى جانب بعضها. لم يكن قد رأى في أي مكان آخر الشكل نفسه يتكرر مرات عديدة في كل الاتجاهات، وكل شقة

---

(1) حيوان ثديّي لاحم، نصف مائي ذو قوائم قصيرة، وعنق طويل، ورأس عريض، وأذنين قصيرتين مدورتين، وذيل كثير الوبر، وفرو ثمين يتراوح لونه بين البني الباهت والداكن.

telegram @ktabpdf

مكتبة الرمحي أحمد

نسخة طبق الأصل عن الأخرى. كانت الشقة 124 في مكان ما في أحد تلك المباني الأربعة - منزل ضابط إ.أ.د. ليو ستيفانوفيتش دميدوف.

في وقت باكر من ذلك الصباح، كان الرائد كوزمن قد أبلغ الطبيب بتفاصيل رحيل ليو المفاجئ، الذي غادر في بداية استجواب مهم؛ مدّعياً أنه يشعر بالحمّى، ولا يستطيع مواصلة واجباته. أُصيب الرائد بالقلق من توقيت مغادرته؛ هل كان مريضاً حقاً؟ أم أن هناك سبباً آخر لغيابه؟ لماذا كان قد أطلق تأكيدات بأن صحته بخير ويمكنه العمل، ثم غير رأيه فقط بعد أن بدأ مهمة استجواب المشتبه فيه؟ ولماذا حاول مقابلة الخائن على انفراد؟ كان الطبيب قد أُرسل كي يتحقق من صحة مرض ليو.

افترض الطبيب من وجهة نظر طبية، حتى قبل الفحص، أن اعتلال صحة ليو مرتبط بتعرضه طويلاً لماء مُثلج. وربما تفاقمت إصابته إلى ذات الرئة نتيجة استخدامه المخدّرات؛ وإذا كانت تلك هي الحال، وتبين أنه مريض حقاً، يجب على زاروبين عندها أن يتصرف كطبيب ويساعده على الشفاء. وإذا كان، على أيّ حال، يتظاهر بالمرض لأي سبب، فسيكون على زاروبين عندها أن يتصرف كضابط إ.أ.د. ويحقنه بعقار مسكّن قوي، بعد أن يدّعي أنه دواء أو منشّط. سيبقى ليو طريح الفراش أربعاً وعشرين ساعة مما يحول دون هروبه، ويمنح الرائد وقتاً ليقرر ما يجب عليه فعله.

وفقاً لمخطط الطوابق الفولاذي المثبّت على عمود إسمنتي في قاعدة المبنى الأول، كانت الشقة رقم 124 في المبنى الثالث في الطابق الرابع عشر. فعقع المصعد، وهو عبارة عن علبة معدنية تتسع لاثنين، أو أربعة أشخاص إذا لم تكن تمانع الالتصاق بأشخاص آخرين، في طريقه صعوداً إلى الطابق الثالث عشر، حيث توقف قليلاً وكأنه يستعيد طاقته لمواصلة الصعود، قبل أن يتابع طريقه إلى المحطة الأخيرة. احتاج زاروبين إلى كلتا يديه؛ لإبعاد الحاجز المعدني القاسي جانبياً. وعلى ذلك الارتفاع، جعلت الريح التي تعصف بالممر الإسمنتي المكشوف عينيه تذرفان دمعاً، وألقى نظرة على

أطراف موسكو المغطاة بالثلج قبل أن يستدير يساراً ويصل إلى الشقة 124.

فتحت شابة الباب. كان الطبيب قد قرأ ملف ليو، ويعرف أنه متزوج من امرأة تدعى ريزا غافريلوفنا دميدوفا. عمرها سبع وعشرون سنة، وتعمل معلّمة، لكن الملف لم يذكر أنها جميلة. كانت رائعة الجمال، ويجب أن يُذكر ذلك في الملف؛ لأن تلك الأشياء مهمة. لم يكن قد أعدَّ نفسه لذلك؛ لأنه يعاني ضعفاً أمام الجمال، وهو ليس من النوع الذي يتباهى بأن ذلك لا يهمه ويفضّل الحُسن المكنون. كانت من ذلك النوع من النساء. لا يعني هذا أنها لا تبذل أي جهد بشأن مظهرها، وإنما العكس، فهي تبذل كل جهد ممكن لتظهر عادية، وتخفف من جمالها. بدا أنها تصفّف شعرها، وتنتقي ملابسها وفقاً لما هو شائع. وكان واضحاً أنها لا تسعى إلى لفت انتباه الرجال، وهي حقيقة جعلتها أكثر جاذبية في نظر الطبيب؛ لأنها ستمثّل تحدّياً. كان الطبيب في سنوات شبابه زير نساء؛ أسطورة في الواقع ضمن دوائر اجتماعية معينة. ابتسم لها مستعيداً ذكريات نجاحاته السابقة.

لمحت ريزا مجموعة من الأسنان الملطخة التي بدت صفراء من دون شك نتيجة سنوات من التدخين بكثرة، فابتسمت بالمقابل. كانت قد توقعت أن ترسل إ.أ.د. شخصاً من دون سابق إنذار، وانتظرت أن يعرّف الرجل عن نفسه.

- أنا الطبيب زاروبين. لقد أُرسلت لإلقاء نظرة على ليو.

- أنا ريزا، زوجة ليو. هل لديك بطاقة تعريف؟

خلع الطبيب قبعته، وعثر على بطاقته، وقدّمها لها.

- ادعيني بوريس من فضلك.

كانت هناك شموع تنير الشقة، وشرحت ريزا أنها الضوء الوحيد في ذلك الوقت. فقد كانت لديهم مشكلة في الكهرباء في كل الطوابق التي تلي الطابق العاشر. عانوا انقطاعاتٍ دوريةً، تدوم أحياناً دقيقة، وأحياناً أخرى يوماً. اعتذرت، ولم تكن تعرف متى ستعود الكهرباء. ألقى زاروبين دعابة:

- سينجو طالما بقي دافئاً، فهو ليس وردة.

سألت الطبيبَ إن كان يريد شراباً؛ شيئاً ساخناً ربما بسبب البرد في الخارج. قَبِل عرضها، ومسَّ ظاهر يدها حين أخذت معطفه.

في المطبخ، استند الطبيب إلى الجدار، ويداه في جيبيه، وهو يراقبها في أثناء تحضيرها الشاي.

- آمل أن الماء لا يزال ساخناً.

كان صوتها لطيفاً وخافتاً وهادئاً. خمّرت أوراقاً في قدرٍ صغيرة قبل أن تسكب الشراب في كأس طويلة. كان الشاي داكناً، وعندما امتلأ نصف الكأس استدارت إليه:

- كيف تحب مذاقه؟

- أكثف ما يمكنك تحضيره.

- إذاً، هكذا؟

- ربما يجب إضافة كمية قليلة أخرى من الماء.

عندما كانت تضيف ماءً من السّماور، مسح زاروبين جسدها بعينيه، وجال بعينيه على صدرها وخصرها. كانت ملابسها مزرية، عبارة عن فستان قطني رمادي، وجورب سميك، وسترة صوفية فوق قميص أبيض. تساءل لماذا لم يستخدم ليو مركزه لجعلها ترتدي ملابس أجنبية فاخرة؟ لكن، حتى الثياب التي تُنتج على نطاق واسع، والقماش الخشن لم تجعلها أقل جاذبية.

- أخبريني عن زوجك.

- يعاني حمّى، ويقول إنه يشعر بالبرد، فيما حرارته مرتفعة. إنه يرتعش، ويرفض أن يأكل.

- إذا كان يعاني حمّى، فمن الأفضل ألاّ يأكل شيئاً في الوقت الحالي. على أيّ حال، قد يكون فقدانه الشهية مرتبطاً باستخدامه الميثامفيتامين. هل تعرفين شيئاً عن هذا؟

- إذا كانت له علاقة بعمله، فأنا لا أعرف شيئاً عنه.

مكتبة الرمحي أحمد

telegram @ktabpdf

- هل لاحظت أي تغييرات طرأت عليه؟

- إنه لا يتناول وجبات الطعام في المنزل، ويمضي الليل كله خارجاً، لكن عمله يتطلّب ذلك. لقد لاحظت أنه بعد العمل يصبح شارد الذهن قليلاً لوقت طويل.

- ينسى أشياء؟

ناولت الطبيب كأسه.

- هل تريد سكراً؟

- سيكون المربّى رائعاً.

مدّت يدها إلى الرف العلوي، وعندما فعلت ذلك ارتفع قميصها ليكشف عن جلد شاحبٍ مثالي. شعر زاروبين أن فمه يجف. أنزلت "مرطباناً" من مرّبى بنفسجي داكن، وفتحت الغطاء، وأعطته ملعقة، فغرف كمية من المربّى وضعها على لسانه، وارتشف الشاي الساخن، وشعر بالمربّى يتحلل. حدّق إلى عينيها على نحو متعمّد، وعندما أدركت رغبته تورّدت خجلاً، وراقب اللون الأحمر ينتشر حول عنقها.

- شكراً.

- ربما تودُّ المضي قدماً في الفحص؟

أحكمت إغلاق غطاء المرطبان، وتركته جانباً، وتقدمت نحو غرفة النوم، لكنه لم يتحرك.

- أود الانتهاء من شرب الشاي أولاً. لا داعي للعجلة.

كانت مرغمة على العودة. زمّ زاروبين شفتيه ونفخ الهواء، فالشاي ساخن وحلو. ارتبكت، واستمتع بجعلها تنتظر.

كانت غرفة النوم التي تفتقر إلى النوافذ حارة، والهواء فيها خانقاً. وعرف زاروبين من الرائحة وحدها أن الرجل الذي يستلقي على السرير مريض. ولدهشته، شعر بشيء يشبه خيبة الأمل، فركّز تفكيره على ذلك الإحساس، وجلس على السرير بجانب ليو. قاس حرارته، فوجد أنها مرتفعة

لكنها ليست خطرة. أصغى السمع إلى صدره، ولم يسمع شيئاً غير معتاد. لم يكن ليو يعاني السلَّ، ولم تكن هناك علامات تشير إلى أن حالته خطرة، أو أنه يعاني ما هو أكثر من زكام. وقفت ريزا بجانبه مراقبة، واستطاع الطبيب شم رائحة صابون على يديها، وأحب وجوده قربها. أخرج قارورة زجاجية بنية من حقيبته، وملأ ملعقة من سائلٍ أخضر كثيف.

- ارفعي رأسه من فضلك.

ساعدت ريزا زوجها على الجلوس، وأفرغ زاروبين السائل في حلقه، وعندما ابتلعه ليو، وضعت رأسه على الوسادة.

- ما هذا؟

- إنه دواء لمساعدته على النوم.

- لا يحتاج إلى مساعدة حتى ينام.

لم يجب الطبيب، ولم يكن ليزعج نفسه بالتفكير في كذبة. في الواقع، كان العقار الذي أعطاه إيّاه على أنه دواء من صنع الطبيب. وهو مزيج من مخدّر، ومسكّن، ومنكّه بمحلول سكري لإخفاء الطعم؛ والغرض منه إضعاف الجسد والعقل. عند تناوله عن طريق الفم، وفي أقل من ساعة، تتأثر العضلات أولاً، فتصبح رخوة، وتسترخي كثيراً حيث تصبح أقلَّ حركة وكأنك قمت بعملٍ شاق على نحو لا يمكن تخيله، وتبدأ الهلوسة بعد ذلك بوقت قصير.

كانت هناك فكرة قد استحوذت على زاروبين، وتكوّنت في المطبخ حين تورّدت ريزا، وتبلورت إلى خطة في اللحظة التي شمّ فيها رائحة الصابون التي تفوح من يديها. إذا قدّم تقريراً بأن ليو لم يكن مريضاً، وأنه يلفّق إجازته المرضية، فسيجري بالتأكيد اعتقاله واستجوابه، ومع كل الشكوك الأخرى التي تحيط بسلوكه، سيصبح موضع شبهة، ويُسجن على الأرجح. سينتهي الأمر بزوجته، امرأته الجميلة، وحيدةً وضعيفةً، وستحتاج إلى حليف. كان موقع زاروبين في جهاز أمن الدولة يماثل مكانة ليو أو

حتى يفوقها، وشعر واثقاً أنه سيكون بديلاً مقبولاً ومريحاً. وبالرغم من أنه متزوج، إلا أنه يستطيع اتخاذها خليلة. كان مقتنعاً أن غريزة البقاء عند ريزا قوية جداً. لكن، حتى مع أخذ كل شيء في الحسبان، ربما كانت هناك طريقة أقل تعقيداً للحصول على ما يريده. وقف.

- هل يمكننا التحدث على انفراد؟

في المطبخ، شبكت ريزا ذراعيها، وتقطب جبينها عبوساً، فتغضّن جلدها الشاحب المثالي. أراد زاروبين تمرير لسانه عليه.

- هل سيكون زوجي بخير؟

- إنه يعاني حمّى، وسأكون مستعداً لقول ذلك.

- ستكون مستعداً لقول ماذا؟

- سأكون مستعداً لقول إنه مريض فعلاً.

- إنه مريض حقاً، وقد قلت ذلك بنفسك.

- هل تفهمين لماذا أنا هنا؟

- لأنك طبيب ولأن زوجي مريض.

- لقد أُرسلت لأكتشف إن كان زوجك مريضاً فعلاً أو أنه يحاول فقط التهرّب من العمل.

- لكن، من الواضح أنه مريض. يستطيع أي شخص رؤية ذلك سواء أكان طبيباً أم لا.

- نعم، لكن أنا هنا الآن، وأنا من يقرر ذلك، وسيصدّقون ما أقوله.

- أيها الطبيب، لقد قلت حالاً إنه مريض، ويعاني حمّى.

- وسأكون مستعداً لقول ذلك، رسمياً، إذا كنت مستعدة لإقامة علاقة معي.

على نحو يثير الدهشة، لم يرفَّ لها جفن، أو يظهر عليها أي ردّ فعل. وبسبب هدوئها، شعر زاروبين برغبة فيها بشدة أكبر. تابع:

- ستكون مرة واحدة فقط، طبعاً، إلا إذا أعجبتك علاقتنا، وعندها

سيتواصل الأمر. يمكن أن نتوصل إلى ترتيب معين: ستكافَئين بما تريدينه، ضمن حدود المعقول. أقصد أنه لا داعي أن يعرف أحد ذلك.

- وإذا رفضتُ؟

- سأقول إن زوجك كاذب، وإنه يحاول جاهداً التهرّب من العمل لسبب أجهله، وسأقترح التحقيق معه.

- لن يصدّقوك.

- هل أنت واثقة من ذلك؟ الشك موجود حالياً، وكل ما يحتاج إليه الأمر دفعة صغيرة مني.

اعتبر صمتها قبولاً لعرضه، فتقدم منها متردداً، ووضع يده على ساقها، لكنها لم تتحرك. كان بمقدورهما إقامة علاقة في المطبخ، ولن يعرف أحد ذلك، فزوجها لن يستيقظ، ويمكنها أن تتأوه، وتصدر الضوضاء التي ترغب فيها.

نظرت ريزا جانبياً مشمئزة، وغير واثقة بما يجب أن تفعله، وانزلقت يد زاروبين على ساقها.

- لا تقلقي، فزوجك يغط في نوم عميق، ولن يزعجنا أو نزعجه. عشر دقائق ليست ثمناً باهظاً تدفعينه لحياة زوجك. افعلي ذلك من أجله.

شدّها إليه، واشتدت قبضته عليها.

أفلتها فجأة، ورفع كلتا يديه في الهواء، فقد وضعت ريزا سكيناً على عنقه.

- إذا لم تكن واثقاً من حالة زوجي، أرجو أن تطلب من الرائد كوزمن - وهو صديق حميم لنا - إرسال طبيب آخر. سيكون رأيٌ ثانٍ موضع ترحيب.

مشى كلاهما جانبياً حول بعضهما، والسكين على عنقه، حتى خرج زاروبين من المطبخ، وبقيت ريزا عند المدخل، وهي تحمل السكين على ارتفاع خصرها. أخذ الطبيب معطفه، وارتداه متمهّلاً، ثم حمل حقيبته، وفتح الباب الأمامي، وأغمض عينيه قليلاً حتى اعتادتا ضوءَ شمس الشتاء

الساطعة:

- وحدهم الأطفال لا يزالون يصدّقون وجود أصدقاء؛ الأطفال الأغبياء فقط.

تقدمت ريزا إلى الأمام، ونزعت قبعته عن المشجب، ورمتها عند قدميه؛ وعندما انحنى ليلتقطها، أغلقت الباب الأمامي بعنف.

سمعته يمشي مبتعداً، وكانت يداها ترتعشان وهي لا تزال تحمل السكين. ربما كانت قد أعطته سبباً ما للتفكير في أنها ستقيم علاقة معه، واستعرضت الأحداث في ذهنها. فتحُ الباب، الابتسام لدعابته السخيفة، أخذ معطفه، تحضير الشاي. لقد أساء زاروبين الفهم، ولم يكن بمقدورها فعل شيء بشأن ذلك. لكن، ربما كان بإمكانها مناقشة عرضه، والتظاهر بأنه يغويها، وربما كان الأحمق العجوز يحتاج إلى التفكير في أنها أُعجبت باقتراحه. فركت جبينها، وأدركت أنها قد عالجت ذلك الأمر على نحو سيئ، وأنهما في خطر.

دخلت غرفة النوم، وجلست بجانب ليو الذي كانت شفتاه تتحركان وكأنه يتلو تضرعاً صامتاً. انحنت مقتربة منه محاولة أن تفهم كلماته التي كانت مسموعة بصعوبة، وتتكون من مقاطع لا تعني شيئاً. كان يهذي، وأمسك يدها لتكتشف أن جلده رطب، فحرّرتها منه، وأطفأت الشمعة.

* * *

كان ليو يقف في الثلج، والنهر أمامه، في حين أن أناتولي برودسكي يقف في الطرف الآخر، وقد نجح في العبور إلى الضفة الأخرى، ووصل تقريباً إلى أمان الغابة. لحق به ليو، ورأى تحت قدميه الرجالَ والنساء الذين اعتقلهم عالقين في طبقة الجليد السميكة. نظر يميناً ويساراً؛ كان النهر كله مملوءاً بأجسادهم المتجمدة. إذا أراد الوصول إلى الغابة، وإلقاء القبض على ذلك الرجل، يجب أن يمشي فوقهم. ومن دون أي خيار آخر - كان ذلك واجبه - حثّ ليو الخطى. لكن، بدا أن خطواته تعيد الحياة إلى الجثث.

بدأ الجليد يذوب، ونبض النهر بالحياة، وتلوّى. غاص ليو في ثلج نصف ذائب وشعر بالوجوه تحت حذائه، وبغض النظر عن السرعة التي جرى بها، ظهروا في كل مكان، خلفه وأمامه. أمسكت يدٌ قدمَه فحرّكها ليحررها من قبضة تلك اليد. أمسكت يد أخرى كاحله، ثم ثانية وثالثة ورابعة. أغمض عينيه، وهو لا يجرؤ على النظر، وينتظر أن يُسحب إلى الأسفل.

عندما فتح ليو عينيه كان يقف في مكتب كئيب، وريزا بجانبه مرتدية فستاناً أحمر باهتاً استعارته من صديقة في يوم زفافهما، عدّلته على عجل حتى لا يبدو كبيراً جداً عليها. وكانت تضع في شعرها وردة بيضاء واحدة قطفتها من المتنزه. كان يرتدي بذلة رمادية لا تناسب مقاسه، ولم تكن له، فقد استعارها من زميل. كانا في مكتب متهالك في مبنى حكومي متداع، يقفان جنباً إلى جنب أمام طاولة يجلس خلفها رجل أصلع ينحني فوق أوراقٍ موضوعة عليها. قدّمت ريزا وثائقهما وانتظرا حتى تم التوثق من هويتيهما. لم تكن هناك عهود، أو احتفال، أو باقات ورود. ولم يكن هناك ضيوف، أو دموع، أو أمنيات بالتوفيق. ولم يكن هناك أحد سواهما، وكانا يرتديان أفضل الملابس التي استطاعا الحصول عليها. ليست هناك ضوضاء. فقد كان إحداث صخب أحد مظاهر البرجوازية، وشاهِدُهما الوحيد هو ذلك الموظف المدني الأصلع، الذي وثّق معلومات عنهما في سجل سميك بالٍ. وعندما انتهى العمل الورقي مُنحا شهادة زواج، وأصبحا زوجاً وزوجة.

عادا إلى شقة والديه القديمة، المكان الذي سيحتفلان فيه بزفافهما، ووجدا أصدقاء وجيراناً، كلهم متشوّقون إلى الاستفادة من حسن ضيافتهما. غنّى رجال مسنون أغاني غير مألوفة، لكنه شعر أن هناك شيئاً خاطئاً في تلك الذكرى، وأن هناك وجوهاً باردة وقاسية، ورأى أسرة فيودور. كان ليو لا يزال يرقص لكن الزفاف تحول إلى جنازة، والجميع يحدّقون إليه. سمع ليو نقراً على النافذة، واستدار ليرى شكل رجل يستند إلى الزجاج، فمشى نحوه، ومسح الرطوبة عن الزجاج ليكتشف أنه ميخائيل سفياتوسلافيتش زينوفيف،

الذي وقف أمامه وقد ثُقِب جبينه، وتحطّم فكّه، وتعرض رأسه لضرب مبرّح. تراجع ليو إلى الخلف، واستدار حول نفسه ليرى الغرفة خاوية تماماً باستثناء الفتاتين اليافعتين؛ ابنتي زينوفيف اللتين كانتا ترتديان ثياباً متسخة. يتيمتان، بطناهما منتفخان، جلدهما متقرّح، القمل ينتشر على ملابسهما. أغمض ليو عينيه وهز رأسه.

فتح عينيه مرتعشاً وهو يشعر ببرد قارس، ليجد أنه يغوص تحت الماء بسرعة. كان الجليد فوقه، فحاول أن يسبح إلى الأعلى، لكن التيار جذبه إلى الأسفل. شاهد أشخاصاً على الجليد، ينظرون إليه، ويراقبونه وهو يغرق، وشعر بألم شديد يحرق رئتيه. وأخيراً، فتح فمه بعد أن عجز عن حبس أنفاسه.

* * *

لهث ليو، وفتح عينيه ليجد ريزا تجلس بجانبه، تحاول تهدئته. نظر حوله مرتبكاً، وذهنه مشتت بين عالم الحلم والعالم الحقيقي. فقد عاد إلى شقته، والزمن هو الحاضر. أمسك يد ريزا مرتاحاً، وهمس بكلام سريع متواصل:

- هل تتذكرين أول مرة رأينا فيها بعضنا؟ ظننتِ أنني فظ؛ لأنني حدّقت إليك. نزلت في محطة المترو الخطأ فقط لأسألك عن اسمك، ورفضتِ إخباري، لكنني لم أغادر حتى فعلتِ ذلك، لكنك كذبت وأخبرتني أن اسمك لينا. طوال أسبوع كامل كان كل ما تكلمت عنه هو تلك المرأة الجميلة المدعوة لينا. لقد أخبرت الجميع أن لينا جميلة جداً. وعندما رأيتك أخيراً مجدداً وأقنعتك أن تتحدثي إليّ دعوتك لينا طوال الوقت. في نهاية الأسبوع، أصبحت مستعداً لتقبيلك لكنك لم تكوني جاهزة إلا لإبلاغي باسمك الحقيقي. في اليوم التالي، أخبرتُ الجميع عن مدى روعة تلك المرأة ريزا، وسخروا مني قائلين إنها في الأسبوع الماضي كانت لينا، وهذا الأسبوع ريزا، وفي الأسبوع التالي ستصبح شخصاً مختلفاً، لكن ذلك لم

يحدث، وبقيتِ على حالك دائماً.

استمعت ريزا إلى زوجها، واستغربت تدفق عواطفه فجأة. من أين جاءت؟ ربما يصبح الجميع عاطفيين حين يمرضون. جعلته يستلقي مجدداً، وبعد وقت قصير غطّ في النوم. كانت قد انقضت نحو اثنتي عشرة ساعة منذ غادر د. زاروبين، الرجل العجوز الوضيع والشرير والعدو الخطر. ولإبعاد ذهنها عن القلق حضّرت حساء دجاج كثيفاً مع قطع من اللحم، وليس الخضار المسلوقة وعظام الدجاج فقط. غلى الحساء على النار الهادئة، وأضحى جاهزاً من أجل ليو حين يستطيع تناول الطعام مجدداً. حرّكت الحساء، وملأت طبقاً لنفسها، وعندما انتهت من ذلك سمعت قرعاً على الباب. كان الوقت متأخراً، ولم تكن تتوقع زواراً، فأمسكت السكين نفسها، ووضعتها خلف ظهرها قبل أن تقترب من الباب.

- من الطارق؟

- الرائد كوزمن.

ارتعشت يداها، وفتحت الباب.

كان الرائد كوزمن يقف في الخارج مع مرافقَيه، وهما جنديان شابان قويا البنية.

- لقد تكلم معي د. زاروبين.

قالت ريزا بسرعة:

- أرجوك، ألقِ نظرة على ليو بنفسك.

بدا كوزمن مندهشاً.

- لا، ذلك ليس ضرورياً. لا أريد إزعاجه، وأثق بالطبيب في القضايا الطبية. إضافة إلى ذلك، لا تظني أنني جبان، أخاف من أن أصاب بالزكام.

لم تفهم ما حدث، فقد أخبرهم الطبيب الحقيقة. عضت شفتها، وهي تحاول عدم إظهار ارتياحها. تابع الرائد:

- لقد تكلمتُ مع مدرستك، وشرحت لهم أنك ستأخذين إجازة

لمساعدة ليو على التماثل إلى الشفاء. نحتاج إليه معافى، فهو واحد من أفضل ضباطنا.

- إنه محظوظ لأن لديه زملاء يهتمون بأمره.

تجاهل كوزمن تلك الملاحظة، وأومأ إلى الجندي الواقف بجانبه. كان الرجل يحمل كيساً ورقياً، وتقدم إلى الأمام، وأعطاها إياه.

- هذه هدية من د. زاروبين، لهذا، لا داعي لشكري.

كانت ريزا لا تزال تحمل السكين خلف ظهرها. ومن أجل قبول الهدية كان عليها استخدام كلتا يديها. وضعت السكين تحت قميصها، ثم مدّت يدها إلى الأمام، وأخذت الكيس الذي كان أثقل مما توقعت.

- تفضل بالدخول.

- شكراً لك، لكن الوقت متأخر وأنا متعب.

- عمت مساءً.

أغلقت الباب، ومشت إلى المطبخ، ثم وضعت الكيس على الطاولة وأخرجت السكين من تحت قميصها. فتحت الكيس، ووجدته مملوءاً برتقالاً وليموناً حامضاً، وهو ترف في مدينة تعاني شحَّ الطعام. أغمضت عينيها، وتخيلت الرضا الذي يغمر زاروبين بسبب معرفته مشاعرها. ليس بسبب الفاكهة، وإنما من حقيقة أنه قد قام بعمله فقط، وحقيقة أنه قال إن ليو مريض فعلاً. كان البرتقال والليمون طريقته في قول إنها يجب أن تكون مدينة له. لو أن نزوة أخرى أصابته، لكان كلاهما قد اعتُقلا آنذاك. أفرغت الكيس في صندوق، وحدّقت إلى الألوان اللامعة قبل أن تلتقط حبة من الفاكهة. كانت ستأكل هديته، لكنها رفضت أن تبكي.

19 شباط

كانت تلك المرة الأولى خلال أربع سنوات التي يحصل فيها ليو على إجازة غير محددة سلفاً. كانت هناك فئة كاملة من سجناء غولاغ المدانين بانتهاك أخلاقيات العمل. أشخاصٌ كانوا قد تركوا أماكن عملهم لبعض الوقت، أو ذهبوا إلى مناوبتهم بعد ساعة من بدئها. كان الذهاب إلى العمل والانهيار على أرض المعمل أكثر أماناً من البقاء في المنزل بناءً على مبادرة ذاتية. لم يكن القرار بالعمل أو عدم العمل يقع على عاتق العامل، لكن ليو لم يكن على الأرجح معرضاً لأي خطر. ووفقاً لريزا فقد فحصه طبيب، وقام الرائد كوزمن بزيارته، ومنحه موافقته على الإجازة. عنى ذلك أن القلق الذي يشعر به يخص شيئاً آخر، وكلما فكّر في الأمر أكثر أصبح أوضح بالنسبة إليه. لم يكن يريد العودة إلى العمل.

لم يكن قد غادر شقته في الأيام الثلاثة الماضية. فقد انقطع عن العالم، ولزم السرير، وارتشف ليموناً ساخناً وماءً محلى بالسكر، وتناول حساء الخضار، ولعب الورق مع زوجته التي لم تتساهل معه لأنه مريض، وفازت بكل لعبة تقريباً. بقي نائماً معظم الوقت. وبعد ذلك اليومِ الأولِ لم يعانِ المزيد من الكوابيس، وإنما شعر بالخمول، وقد توقع أن يزول ذلك الإحساس، مقتنعاً أن اكتئابه تأثير جانبي لنوبة الميثامفيتامين، لكن الأمر ازداد سوءاً. كان قد أمسك ما لديه من عقاقير - عدّة قوارير زجاجية من الكريستال الأبيض الملوث - وأفرغها في المغسلة. لا مزيد من عمليات الاعتقال التي يغذّيها المخدّر. هل كانت العقاقير هي السبب؟ أم عمليات الاعتقال؟ مع

telegram @ktabpdf

مكتبة الرمحي أحمد

استعادته قوته، وجد أن تبرير أحداث الأيام القليلة الماضية يصبح أسهل. لقد اقترفوا خطأً: كان القبض على أناتولي تاراسوفيتش برودسكي غلطة، فهو رجل بريء. لقد أُلقي القبض عليه، وسُحق بين مسننات آلة حكومية حيوية ومهمة لكنها ليست معصومة عن الخطأ؛ الأمر بتلك البساطة. رجل واحد لا يؤثر في أهمية عملياتهم. كيف بمقدوره ذلك؟ بقيت مبادئ عملهم سليمة، وحماية أمة أهم من حماية أي شخص، ومن ألف شخص. كم تساوي كل مصانع الاتحاد السوفييتي وآلاته وجيوشه؟ لم يكن أي فرد يعني شيئاً مقارنة بذلك، وكان من الضروري أن يعمل ليو على إبقاء الأمور ضمن نطاقها الطبيعي، فالطريقة الوحيدة للمضي قدماً هي الحفاظ على توازن الأشياء. بدا الاستنتاج منطقياً لكنه لم يصدّق أي شيء منه.

رأى ليو أمامه تمثال فليكس دزرزينسكي، في وسط دوّار لوبيانكا، محاطاً بقطعة أرض معشوشبة، وحركة المرور ناشطة حوله. وكان يحفظ قصته عن ظهر قلب، وكل عميل يعرفها تماماً. بوصفه أول قائد للشيكا - اسم الشرطة السياسية التي أنشأها لينين بعد خلع نظام القيصر - كان دزرزينسكي الأب الروحي لقوات الشرطة السرية، ونموذجاً يحتذى، وكتيبات التدريب مملوءة باقتباسات تُنسب إليه، وربما كانت أشهر خطاباته التي تتكرر غالباً هي تلك التي تصف كيف يجب على الضابط أن يدرّب قلبه على القسوة.

كانت القسوة متجذرة في نظام عملهم، وفضيلة، وشيئاً ضرورياً. التوق إلى القسوة! القسوة تحمل المفاتيح التي ستفتح بوابات الدولة المثالية. وإذا كان الانتماء إلى الشرطة السرية مماثلاً لاتّباع عقيدة دينية، فإن القسوة إحدى وصاياها الأساسية.

كانت ثقافة ليو تدور حول قوته، وقدراته الجسدية. ولقد ساعدته هذه الحقيقة في حياته المهنية حتى ذلك الوقت أكثر مما عرقلتها، ومنحته هيئة رجل يمكن الوثوق به بالطريقة نفسها التي لا يمكن الاشتباه فيها بعالم، لكنها لم تكن تعني أنه مرغم على تخصيص ليلة واحدة على الأقل في

مكتبة الرمحي أحمد telegram @ktabpdf

الأسبوع ليكتب بجهدٍ مضنٍ كل الاقتباسات التي يجب أن يعرفها العميل عن ظهر قلب. مثقلاً بذاكرة ضعيفة، وهي حالة تفاقمت نتيجة استخدامه المخدّرات، لم يكن رجلاً مولعاً بالكتب. على أيّ حال، كانت القدرة على تذكر خطابات سياسية رئيسة أمراً ضرورياً، وكذلك تجنّب أيّ هفوات تدل على الافتقار إلى الثقة والإخلاص. بعد ابتعاده لمدة ثلاثة أيام عن العمل، واقترابه من أبواب لوبيانكا، ونظره إلى الخلف إلى تمثال دزرزينسكي، أدرك أن ذهنه مشوش؛ فقد تذكر عبارات، لكنه لم يتذكرها كاملة أو في ترتيبها الصحيح. كل ما استطاع تذكّره بالضبط، من بين آلاف الكلمات، من كتاب شيكا عن البديهيات والمبادئ، هو أهمية القسوة.

ذهب ليو إلى مكتب كوزمن. كان الرائد جالساً، وأشار إلى ليو ليجلس على الكرسي قبالته.

- هل تشعر بتحسن؟

- نعم، شكراً لك. أخبرتني زوجتي أنك زرتنا.

- كنا قلقين عليك. إنها المرة الأولى التي تمرض فيها. لقد توثقتُ من سجلك.

- أعتذر.

- لم يكن ذلك خطأك. أظهرتَ شجاعة بالسباحة في ذلك النهر، ونحن سعيدون لأنك أنقذته. إنه يقدم بعض المعلومات المهمة.

رمى كوزمن ملفاً أسود رقيقاً على وسط مكتبه.

- اعترف برودسكي في غيابك. استغرق الأمر يومين، وحقنتَي كافور. اتسم بعناد كبير، لكنه انهار في النهاية، وزوّدنا بأسماء سبعة متعاطفين مع الأنغلو-أميركيين.

- أين هو الآن؟

- برودسكي؟ لقد أُعدم فيها الليلة الماضية.

ماذا كان ليو يتوقع؟ ركّز على إبقاء تعبير وجهه هادئاً؛ وكأن شخصاً ما

قد أخبره أن الجو بارد في الخارج. أمسك كوزمن الملف الأسود، وسلّمه إلى ليو.

- ستجد في الداخل النسخة الكاملة عن اعترافه.

فتح ليو الملف، والتقط بصره السطر الأول.

أنا، أناتولي تاراسوفيتش برودسكي، جاسوس.

قلّب ليو الصفحات المطبوعة، وتعرّف إلى النموذج: الافتتاح باعتذار، التعبير عن الندم قبل وصف طبيعة جريمته. كان قد رأى ذلك النموذج ألف مرة، ولا يختلف إلا في التفاصيل: الأسماء، الأماكن.

- هل تريد أن أقرأه الآن؟

هز كوزمن رأسه، وناوله مغلفاً مختوماً.

- سمّى ستة مواطنين سوفيتيين ورجلاً مجرياً. إنهم متعاونون يعملون مع حكومات أجنبية، وقد زوّدتُ عملاء آخرين بالأسماء الستة، في حين إن الاسم السابع من نصيبك لتحقق في أمره. وعلى اعتبار أنك أحد أفضل ضباطي، فقد أعطيتك الأصعب. لديك داخل ذلك المغلّف عملنا التمهيدي، بعض الصور وكل المعلومات التي نملكها حالياً عن الشخص، التي كما ترى ليست كثيرة. مهمتك هي جمع المزيد من المعلومات، وإذا كان أناتولي محقاً، وتبين أن هذا الشخص خائن، فعليك أن تعتقله وتحضره إلى هنا، جرياً على العادة.

مزّق ليو المغلّف، وأخرج عدّة صور كبيرة بالأبيض والأسود، اتضح له أنها صور مراقبة التُقطت من مسافة بعيدة عبر الشارع.

كانت الصور لزوجة ليو.

telegram @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

اليوم نفسه

شعرت ريزا بالراحة مع اقتراب اليوم من نهايته، فقد أمضت الساعات الثماني الماضية وهي تعلّم الدرس نفسه بالضبط لكل الفئات العمرية. إنها تدرّس عادة مادة العلوم السياسية الإلزامية، لكنها تلقت تعليمات في ذلك الصباح أُرسلت إلى المدرسة من وزارة التعليم تأمرها بتطبيق خطة تعليم محددة. بدا أن تلك التعليمات قد أُرسلت إلى كل مدرسة في موسكو ويجب تنفيذها فوراً، في حين يمكن استئناف الدروس العادية في اليوم التالي. نصّت التعليمات على تمضية اليوم في النقاش مع كل صف كم يحب ستالين أطفال بلده، فقد كان الحب نفسه درساً سياسياً، وليس هناك حب أكثر أهمية من محبة القائد لشعبه، وبالتالي حب الفرد له. وكجزء من ذلك الحب، أراد ستالين تذكير كل أولاده، بغض النظر عن أعمارهم، ببعض التدابير الاحترازية الأساسية التي يجب أن يجعلوها جزءاً من حياتهم اليومية. يجب عليهم ألاّ يجتازوا الشارع من دون النظر مرتين، ويجب أن يتوخوا الحرص حين ينتقلون بواسطة المترو، وأخيراً، مع تشديد خاص على ذلك، يجب أن يتفادوا اللعب على السكك الحديدية، فقد وقعت في السنة الأخيرة عدّة حوادث مأساوية عليها. كانت سلامة أولاد ستالين أمراً بالغ الأهمية، فهم المستقبل. قُدّمت عدّة أمثلة سخيفة جداً، وانتهى كل صف بامتحان قصير للتوثق من أن كل المعلومات قد تم استيعابها.

مكتبة الرمحي أحمد
telegram @ktabpdf

من يحبكم أكثر؟ الإجابة الصحيحة: ستالين.

من تحبون أكثر؟ الإجابة الصحيحة: انظر فوق.

(تسجيل الإجابات الخاطئة)

ماذا يجب أن تتفادوا؟ الإجابة الصحيحة:

اللعب على السكك الحديدية.

استطاعت ريزا أن تخمّن أن السبب وراء ذلك الأمر الأخير هو أن الحزب قلق بشأن مستويات عدد السكان.

كانت صفوفها مُتعِبة عادة، ربما أكثر من المواد الدراسية الأخرى. وبينما لم يكن هناك أي توقع بأن يصفق الطلاب عند إنهاء كل معادلة رياضية، كان هناك توقّع بأن تُقابل كل مرة تنطق فيها اسم القائد العام ستالين، أو دولة الاتحاد السوفييتي، أو احتمالات الثورة العالمية، بالتصفيق. كان التلاميذ يتنافسون مع بعضهم، ولا أحد منهم يريد أن يبدو أقل إخلاصاً من جاره. ويتوقف الدرس كل خمس دقائق حين يقف الطلاّب على أقدامهم، ويركلون الأرض بأحذيتهم، أو يضربون مقاعدهم بقبضاتهم، وتجد ريزا نفسها ملزمة بحكم الواجب بالوقوف والانضمام إليهم. ومن أجل منع تقرّح يديها، كانت تصفق بطريقة تجعل راحتي يديها لا تكادان أن تتماسّا، وتنزلقان فوق بعضهما في محاكاةٍ للحماسة. في البداية، ظنّت أن الأولاد يستمتعون بذلك السلوك الخشن ويستغلون أي فرصة لمقاطعة الدرس، لكنها أدركت في ما بعد أن الأمر ليس على تلك الحال، فقد كانوا خائفين، ولهذا لم يكن الانضباط مشكلة قط، ونادراً ما وجدت نفسها بحاجة إلى أن ترفع صوتها، ولم تطلق تهديدات من أي نوع. حتى بعمر السادسة، كان الأولاد يفهمون أن ازدراء السلطة، أو التحدث من غير استئذان، معناه القضاء على حياتك بيديك. لم تكن سنّ الطفولة توفر أي حماية للمرء، والعمر الذي يمكن إعدام طفل فيه على جرائمه، أو جرائم والده، هو الثانية عشرة. كان ذلك

درساً لا تستطيع ريزا تعليمه لطلابها.

بالرغم من أحجام الصفوف الكبيرة التي كانت ستستضيف أعداداً أكبر لولا الدمار الذي ألحقته الحرب بالسكان، بدأت ريزا عملها وهي تضع نصب عينيها هدف تذكّر اسم كل تلميذ. كانت نيتها أن تُظهر اهتمامها بكل تلميذ على حدة، لكنها سرعان ما لاحظت أن قدرتها على تذكر الأسماء تحمل في طياتها سبباً غريباً للقلق؛ وكأنه وعيد مبطّن.

إذا كنت أتذكر اسمك، فبإمكاني اتهامك.

كان الطلاب قد فهموا آنذاك قيمة المجهولية، وقد أدركت ريزا أنهم يفضلون أن توليهم أقل عناية شخصية ممكنة. وبعد أقل من شهرين توقفت عن مناداتهم بأسمائهم وتحولت إلى الإشارة إليهم.

نسبياً، لم يكن لديها سبب للشكوى، فقد كانت المدرسة التي تعلّم فيها، المدرسة الثانوية 7 - بناء مستطيل الشكل يرتفع على أعمدة إسمنتية متينة - إحدى دُرر سياسة التعليم الحكومي. التُقطت لها صور كثيرة، وحظيت بدعاية مكثّفة، وافتتحها نيكيتا خروتشوف الذي ألقى خطاباً في القاعة الرياضية الجديدة، التي شُمّعت أرضيتها إلى حدّ أن حرّاسه الشخصيين كافحوا حتى لا ينزلقوا عليها. كان قد ادّعى أن التعليم يجب أن يتناسب مع احتياجات البلد الذي كان بأمس الحاجة إلى علماء ومهندسين ورياضيين يفوزون بميداليات ذهبية أولمبية، وشبان منتجين موفوري الصحة. كانت القاعة الرياضية الملحقة بالمبنى الرئيس كبيرة جداً، فهي أعرض وأوسع من المدرسة نفسها، ومزوّدة بمضمار جري داخلي، وعدد كبير من البُسط، والأطواق، وسلالم الحبال، وألواح القفز؛ كلها جاهزة للاستخدام وفقاً لجدول زمني لا صفّي يتضمن ساعة تمرين كل يوم لكل تلميذ بغض النظر عن العمر أو القدرة. بقي معنى كل من خطابه وتصميم المدرسة نفسها واضحاً جداً لريزا: البلاد لا تحتاج إلى شعراء، وفلاسفة،

telegram @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

ورجال دين، وإنما إلى إنتاجيةٍ يمكن قياسها وحسابها، ونجاحٍ يمكن مراقبته بساعة توقيت.

كان لريزا صديق واحد فقط من بين زملائها؛ إيفان كوزميتش زوكوف، مدرس لغة وأدب. لم تكن تعرف عمره بالتحديد فهو لا يفصح عنه، لكنه يبلغ من العمر نحو أربعين سنة، وقد نشأت صداقتهما مصادفة. كان قد اشتكى مرة من حجم مكتبة المدرسة. فهي غرفة بحجم خزانة ملابس في القبو بجانب المرجل تتكدس فيها كتيبات، وأعداد سابقة من برافدا، ونصوص معتمدة، ليس فيها عمل واحد من إنتاج مؤلف أجنبي. وعندما سمعته ريزا يقول ذلك، همست له أنه يجب أن يكون أكثر حذراً، وأصبحت تلك الهمسة بداية صداقة لم تكن محتملة، ولم تكن من وجهة نظرها حكيمة على نحو استراتيجي عند الأخذ في الحسبان نزعة إيفان إلى الإفصاحِ عمّا يجول في خاطره، فقد كان في عيون أشخاص كثيرين رجلاً مشبوهاً آنذاك. ساد اقتناع بين مدرّسين آخرين أنه أخفى نصوصاً ممنوعة تحت أرضية غرفته، أو أسوأ من ذلك؛ أنه كان يؤلف كتابه الخاص، ويهرّب الصفحات المخرِّبة من دون شك إلى الغرب. كان صحيحاً أنه قد أعارها ترجمة لكتاب لمن تقرع الأجراس، وهي ترجمة تداولها غير مسموح، وقد قرأتها مرغمة في المتنزهات خلال الصيف، ولم تجرؤ قط على أخذها إلى شقتها. استطاعت ريزا تحمّل عبء تلك الزمالة فقط؛ لأن ولاءها لم يكن موضع تدقيق قط، فقد كانت بالمحصلة زوجة ضابط في أمن الدولة، وهي حقيقة يعرفها الجميع تقريباً، بمن في ذلك بعض الطلاّب. منطقياً، كان يجب على إيفان الابتعاد عنها، ولا شك في أنه قد طمأن نفسه بالاستنتاج أنه لو أرادت ريزا الإبلاغ عنه لكانت فعلت ذلك منذ وقت طويل، مع الأخذ في الحسبان الكم الهائل من الأشياء الحمقاء التي سمعته يقولها، وسهولة أن تهمس باسمه فوق الوسادة في أذن زوجها. وهكذا أصبح الشخص الوحيد الذي تثق به بين الموظفين هو الرجل الأقل جدارة بالثقة، والإنسانة

telegram @ktabpdf

مكتبة الرمحي أحمد

الوحيدة التي يثق بها هي المرأة التي يجب ألاّ يثق بها إطلاقاً. كان متزوجاً، ولديه ثلاثة أبناء، ومع ذلك انتابها شك في أنه يحبها. لم يكن ذلك شيئاً تمعن التفكير فيه، وتمنت لمصلحة كليهما ألاّ يكون شيئاً يفكر فيه أيضاً.

* * *

وقف ليو خارج المدخل الرئيس للمدرسة، في الطرف الآخر من الطريق، في بهو مبنى سكني منخفض، بعد أن غيّر بزّته وارتدى ملابس مدنية استعارها من العمل. كانت في لوبيانكا خزائن مملوءة ثياباً، من معاطف، وسترات، وسراويل؛ من كل المقاسات المختلفة التي تختلف بالجودة، والمعدّة لهذا الغرض خاصة. لم يفكر ليو من أين جاءت تلك الملابس حتى وجد بقعة دم على رُدن قميص قطني، فأدرك أنها كانت ثياب أولئك الذين أُعدموا في المبنى في زقاق فارسونوفيفسكي. ومع أنها غُسلت بالطبع، إلا أن بعض البقع بقيت عصيّة على الزوال. ارتدى ليو معطفاً صوفياً رمادياً يصل إلى الكاحل، واعتمر قبعة من الفرو السميك التي غطّت جبينه، وكان مقتنعاً أن زوجته لن تعرفه إذا ألقت مصادفة نظرة في اتجاهه. ضرب الأرض بقدميه ليبقى دافئاً، وتوثق من ساعته؛ بالوت أفياتور فولاذية، وهي هدية ذكرى ميلاده من زوجته. لم يكن سيمضي وقت طويل قبل أن تُنهي دروسها في ذلك اليوم. نظر إلى الضوء فوقه، ثم نظر حوله فوجد ممسحة ملقاة جانباً، فأخذها، وحطم المصباح، فغرقت الردهة في الظلام.

لم تكن تلك المرة الأولى التي تُلاحق فيها زوجته، فقد نظّم ليو قبل ثلاث سنوات عملية مراقبتها لأسباب لا علاقة لها بكونها خطراً أمنياً أو لا. كانا متزوجين آنذاك منذ أقل من سنة، وقد أخذت تبتعد عنه على نحو متزايد، وبالرغم من أنهما يعيشان معاً، لكن لم يكن هناك شيء يجمعهما، فهما يعملان ساعات طويلة، ويشاهدان بعضهما وقتاً قصيراً في الصباح والمساء، ولا يتواصلان إلا قليلاً مثل قاربي صيد أسماك يبحران كل يوم من الميناء نفسه. لم يصدّق أنه قد يتغير بصفته زوجاً، ولهذا لم يفهم سبب

telegram @ktabpdf

مكتبة الرمحي أحمد

تغيرها بصفتها زوجة، وكلما فتح الموضوع كانت تدّعي أنها تشعر بتوعك، لكنها ترفض زيارة طبيب، وعلى أيّ حال، مَن الذي يشعر أنه مريض شهراً بعد شهر بعد آخر؟ كان التفسير الوحيد الذي استطاع استنتاجه هو أنها تحب رجلاً آخر.

مملوءاً شكاً آنذاك، كان قد أرسل عميلاً شاباً واعداً مجنداً حديثاً ليلاحق زوجته، وقد فعل العميل ذلك بشكل يوميّ وعلى مدى أسبوع، وقد برّر ليو أن الدافع للقيام بذلك الفعل البغيض هو الحب. على أيّ حال، كان ذلك ينطوي على مخاطرة لا تقتصر فقط على اكتشاف ريزا الأمر، فلو اكتشف زملاؤه الأمر لربما فسّروا تلك القضية على نحو مختلف. إذا لم يكن ليو يثق بزوجته، فكيف يمكن لهم أن يثقوا بها سياسياً؟ خائنة أم لا، هدّامة أم لا، سيكون من الأفضل للجميع إرسالها إلى غولاغ؛ فقط ليكونوا واثقين. لكن ريزا لم تكن على علاقة برجل آخر، ولم يكتشف أحد قط عملية المراقبة. كان قد قبل - مرتاحاً - أنه يجب أن يتحلّى ببساطة بالصبر واللطف ويساعدها على أي وضع صعب تواجهه. كانت علاقتهما قد تحسّنت بانقضاء الشهور، ونقل ليو العميلَ الشاب إلى مركز في لينينغراد، وهي خطوة قدّمها له على أنها ترقية.

إنّ هذه المهمة، على أيّ حال، شيء مختلف تماماً، فقد جاء أمر التحقيق من فوق، وأضحت قضية دولة بشكل رسميّ، ومسألة أمن قومي. لم يكن زواجهما على المحك وحسب، وإنما حياتهما معاً أيضاً. ولم يساور ليو أي شك في أن فاسيلي قد أقحم اسم ريزا في اعتراف أناتولي برودسكي. لم تكن حقيقة توثيق عميل آخر لتفاصيل الاعتراف تعني شيئاً: فهذه مؤامرة، أو كذبة عارية عن الصحة، أو أن فاسيلي قد زرع الاسم في رأس برودسكي في وقت ما في أثناء التحقيق معه، وهو شيء يمكن فعله في منتهى السهولة. ألقى ليو اللوم على نفسه، فقد كانت إجازته قد منحت فاسيلي فرصة استغلها بقسوة كبيرة. وقع ليو في الفخ، ولم يستطع الادّعاء بأن الاعتراف

telegram @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

نفسه كذبة؛ كانت وثيقة رسمية صحيحة وحقيقية مثل كل اعتراف آخر. كان العمل الوحيد الممكن هو التعبير عن عدم تصديق ذلك، واقتراح أن الخائن برودسكي قد حاول تجريم ريزا في محاولة للانتقام منه. وعندما سمع كوزمن تفسيره، سأله كيف عرف الخائن أنه متزوج، فشعر ليو باليأس، ووجد نفسه مضطراً إلى الكذب، وادّعى أنه قد ذكر اسم زوجته في سياق أحاديثهما، لكنه لم يكن يتقن الكذب. وبدفاعه عن زوجته كان ليو يجرّم نفسه، فقد كانت مساندة شخص تعني خياطة مصيرك ببطانة مصيره. كان كوزمن قد ختم كلامه بالقول إنه يجب التحقيق جيداً في مثل ذلك الخرق الأمني المحتمل، وإما أن يفعل ليو ذلك بنفسه أو يسمح لعميل آخر بتولي زمام الأمر. عندما سمع ليو ذلك الإنذار، قبل تولي القضية على أساس أنه سيحاول ببساطة تبرئة اسم زوجته. وبالطريقة نفسها تقريباً التي توثّق فيها قبل ثلاث سنوات من شكوكه في شأن إخلاصها، كان عليه الآن أن يتوثق من الشكوك في شأن إخلاصها للدولة.

على الطرف الآخر من الطريق، خرج الأولاد من المدرسة مثل سيل متدفق، وانطلقوا في كل الاتجاهات. ركضت فتاة صغيرة واحدة عبر الطريق، واتجهت مباشرة نحو ليو، ودخلت المبنى السكني حيث كان يختبئ. عندما تجاوزته في العتمة، داست قدماها على قطع زجاج المصباح، فتوقفت، وهي تفكر إن كان يجب عليها أن تتكلم أم لا. استدار ليو لينظر إليها، ورأى أن شعر الفتاة أسود طويل ومربوط بشريط أحمر. وفجأة، انطلقت تجري، ونعلاها الصغيران يصدران صوتاً وهي تصعد بسرعة على السلالم، بعيداً عن ذلك الغريب عائدة إلى المنزل حيث تظن أنها لا تزال يافعة كفاية لتكون بأمان.

تحرك ليو نحو الباب الزجاجي، وراقب آخر التلاميذ وهو يغادر المبنى. كان يعرف أن جدول عمل ريزا لا يتضمن أي نشاطات لاصفّية، وأنها ستغادر قريباً. رآها هناك، عند المدخل، تقف مع زميل لها، لحيته

رمادية مشذّبة، ويضع نظارة دائرية العدستين. لاحظ ليو أنه لم يكن رجلاً جذاباً، وبدا مثقفاً، ومهذباً، ورقيقاً، وعيناه تتحركان باستمرار، ويحمل حقيبة مملوءة كتباً. لا بد من أنه إيفان: كانت ريزا قد ذكرته، وهو مدرّس اللغة. قدّر ليو تخميناً أن ذلك الرجل أكبر منه بنحو عشر سنوات على الأقل.

تمنّى ليو أن يفترقا عند البوابة. لكن، بدلاً من ذلك انطلقا معاً، يمشيان جنباً إلى جنب ويتحدّثان إلى بعضهما. انتظر حتى ابتعدا عنه قليلاً. كانا يعرفان بعضهما، وضحكت ريزا على دعابة، وبدا إيفان سعيداً. هل يجعلها ليو تضحك؟ ليس حقاً، وليس كثيراً. لم يكن بالتأكيد يعترض على أن تضحك عليه حين يكون أحمق أو أخرق، فقد كان يتمتع بروح دعابة في ما يخص ذلك الشأن. لكن، لا، لم يكن يقول الدعابات، في حين أن ريزا تفعل ذلك، فهي تحب المزاح الشفهي والفكري. ومنذ أن التقيا أول مرة، وجعلته يظن أنها تدعى لينا، لم ينتابه أي شك في أنها أذكى منه. ومع الأخذ في الحسبان المخاطر المرتبطة بسرعة البديهة الفكرية، لم يشعر قط بالغيرة؛ حتى الآن، حين شاهدها مع ذلك الرجل.

كانت قدما ليو خدرتين، وشعر بالسعادة؛ لأنه يتحرك، ويتبع زوجته على مسافة نحو خمسين متراً. وفي وهج مصابيح الشارع البرتقالية الخافتة، لم تكن ملاحقتها أمراً صعباً، إذ لم يكن هناك أشخاص آخرون تقريباً في الطريق. تغير ذلك حين استدارا إلى أفتوزافودسكايا، الطريق الرئيس، واسم محطة المترو التي يتوجهان إليها بكل تأكيد. شاهد صفوفاً طويلة من الناس تصطف خارج متاجر البقالة، وتسدُّ الأرصفة، واكتشف ليو أن تعقّب زوجته أمر صعب، وأن الوضع يصبح أصعب نتيجة ملابسها العادية. لم يكن لديه خيار إلا تقصير المسافة بينهم، وتسريع خطاه، ليصبح على بعد أقل من عشرين متراً خلفها. لكن، كان هناك خطر أن تراه من تلك المسافة. دخلت ريزا وإيفان محطة أفتوزافودسكايا، واختفيا عن الأنظار، فأسرع ليو إلى الأمام، وهو يسلك سبيلاً متعرجاً بين المشاة؛ لأنها يمكن أن تختفي بسهولة

telegram @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

بين الحشود. كانت تلك المحطة - كما تتباهى البرافدا دائماً - أفضل محطة مترو، وأكثرها ازدحاماً في العالم.

وصل ليو إلى مدخل المحطة، ونزل على الدرجات الحجرية إلى القاعة في الأسفل، إلى حجرة فخمة بدت وكأنها قاعة استقبال دبلوماسية، لها أعمدة رخامية صفراء باهتة، و"درابزين" خشبي لامع، ويصل إليها الضوء من قببٍ من الزجاج المزركش. كانت تلك ساعة الازدحام، ولا يمكن رؤية سنتيمترٍ واحد من الأرضية، ويصطف آلاف الأشخاص الذين يرتدون معاطف طويلة ويضعون أوشحة في صفٍّ طويل عند حواجز التذاكر. اندفع ليو عكس التيار، وعاد من حيث أتى صعوداً على الدرجات، واستفاد من الارتفاع البسيط لإلقاء نظرة على رؤوس الحشد. كانت ريزا وإيفان قد مرّا عبر حاجز التذاكر الفولاذي، وينتظران مكاناً على السلم الدوّار. انضم ليو إلى الازدحام مجدداً، واستغل الثغرات ليتقدم إلى الأمام، لكنه علق خلف كتلة من الأجساد، ولم يعد لديه خيار إلا باللجوء إلى أساليب أقل لطفاً، فاستخدم يديه لإبعاد الناس جانبياً. لم يجرؤ أحد على فعل شيء أكثر من إبداء الانزعاج؛ لأن أحداً منهم لم يعرف من قد يكون ليو.

وصل ليو إلى حاجز التذاكر في الوقت المناسب ليرى زوجته تتحرك خارج نطاق الرؤية. اندفع إلى الأمام، وتجاوز الصفّ الطويل، وشغَل أول موقع متوافر على السلم الدوّار. نزل على الدرجات الخشبية إلى الأسفل، إذ رأى قمم مئة قبعة شتوية، لكنه لم يميز واحدة عن أخرى فمال إلى اليمين. كانت ريزا على بعد نحو خمس عشرة خطوة إلى الأسفل منه. وكي تتكلم مع إيفان الذي كان يقف على الدرجة وراءها وأعلى منها، استدارت نحو الخلف، ورفعت وجهها إلى الأعلى. أصبح ليو في مرمى بصرها، لكنه توارى خلف الرجل أمامه. ولأنه لم يرغب في المخاطرة بإلقاء نظرة أخرى، انتظر حتى أصبح على المستوى الأدنى تقريباً قبل أن ينظر مجدداً. كان الممر ينقسم إلى نفقين للقطارات التي تتحرك شمالاً وتلك التي تتحرّك

telegram @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

جنوباً، وكل منهما مملوء بمسافرين يمشون ببطء إلى الأمام، ويحاولون شق طريقهم إلى الأرصفة، ويتنافسون من أجل الحصول على مكان لهم على متن القطار التالي. لم يستطع ليو رؤية زوجته آنذاك.

إذا كانت ريزا في طريقها إلى المنزل فستتجاوز ثلاث محطات شمالاً على مسار زاموسكفورتسكايا إلى تيترالنايا، حيث ستغير وجهتها. لم يكن لدى ليو خيار آخر إلا الافتراض أن ذلك ما ستفعله، فتحرك نزولاً إلى الرصيف، ونظر يميناً ويساراً، وتفحّص وجوه الأشخاص المحتشدين معاً والواقفين في الصف الطويل، وهم يحدقون في الاتجاه نفسه؛ منتظرين القطار. اجتاز نصف المسافة إلى الرصيف، لكن ريزا لم تكن هناك. هل يعقل أنها استقلّت قطاراً في الاتجاه الآخر؟ لماذا ستذهب جنوباً؟ فجأة تحرك رجل، ولمح ليو حقيبة مدرسية. كان ذلك إيفان، وريزا إلى جانبه، وكلاهما يقفان بجانب حافة الرصيف. وجد ليو نفسه قريباً جداً منها، حتى إنه يستطيع مدَّ يده وملامسة وجنتها. وإذا أدارت رأسها قليلاً فقط فستنظر إلى عينيه مباشرة، فقد كان في مجال رؤيتها المحيطية بالتأكيد، ولم تكن قد شاهدته بعد؛ لأنها لا تتوقع رؤيته أبداً. لم يكن هناك شيء يستطيع فعله، أو مكان يختبئ فيه. لذا، تابع طريقه نزولاً إلى الرصيف، وهو ينتظر أن تنادي اسمه. لن يستطيع تفسير ذلك على أنه محض مصادفة؛ لأنها ستكتشف أنه يكذب، وستعرف أنه كان يلحق بها. عدَّ عشرين خطوة ثم توقف عند حافة الرصيف، وهو يحدّق إلى الفسيفساء أمامه. سالت ثلاثة خطوط منفصلة من العرق على جانب وجهه، لكنه لم يجرؤ مسحها أو الاستدارة ليتوثق مما يحدث؛ تحسباً من أنها تنظر في اتجاهه. حاول التركيز على لوحة الفسيفساء التي تمجّد القوة العسكرية السوفييتية: دبابة يبرز منها مدفع، ومحاطة بمدافع ثقيلة يعلوها جنود روس يرتدون معاطف طويلة ويلوّحون ببنادقهم مهددين. أدار رأسه ببطء شديد، ورأى أن ريزا تتكلم مع إيفان، لكنها لم تكن قد رأته. هبّ نسيم دافئ على الرصيف المزدحم، وعرف الجميع أن القطار يقترب.

عندما استدار الجميع ليشاهدوه، رأى ليو رجلاً ينظر إليه مباشرة، بعيداً عن القطار القادم في اتجاههم. كانت نظرة قصيرة، ولم يدم التواصل البصري أكثر من جزء من الثانية فقط. بدا الرجل في الثلاثين من عمره، ولم يكن ليو قد رآه قط من قبل، لكنه عرف فوراً أن ذلك الرجل شيكا زميل، موظف أمن دولة. كان هناك عميل ثانٍ على الرصيف.

اندفع الحشد إلى الأمام نحو أبواب القطار، واختفى العميل عن الأبصار. فُتحت الأبواب، لكن ليو لم يتحرك، فقد كان جسده يستدير بعيداً عن القطار، لا يزال يحدّق إلى المكان الذي رأى فيه العينين الهادئتين المحترفتين. دفعه جانباً ركّاب ترجلوا من القطار فاستفاق من ذهوله، وصعد على متن القطار، بعيداً عربةً واحدة عن ريزا. من كان ذلك العميل؟ لماذا يحتاجون إلى عميلٍ ثانٍ ليلاحق زوجته؟ ألا يثقون به؟ بالطبع لا. لكنه لم يكن يتوقع أن يقوموا بمثل تلك الإجراءات الإضافية المتطرفة. شق طريقه نحو النافذة التي سيكون بمقدوره أن ينظر من خلالها إلى العربة المجاورة. استطاع رؤية يد ريزا وهي تمسك القضيب المعدني الجانبي. لكن، لم يكن هناك أثر لذلك العميل الثاني. كانت الأبواب على وشك أن تُغلق.

صعد العميل الثاني على متن العربة نفسها التي يوجد فيها ليو، وتجاوزه من دون اكتراث واضح، واتخذ موقعاً على بعد عدّة أمتار منه. كان مُدرَّباً جيداً، وهادئاً، ولولا تلك النظرة الخاطفة ربما ما كان ليو قد رآه. لم يكن ذلك العميل يلاحق ريزا وإنما ليو.

كان حريّاً به أن يخمّن أنهم لن يتركوا العملية برمّتها بين يديه، وأن هناك احتمالاً بأن يكون هو نفسه عرضة للشبهة، وربما كانوا يشكّون في أنه يعمل مع ريزا إذا كانت جاسوسة. كان يقع على عاتق المسؤولين عنه التوثق من أنه يقوم بعمله على نحو مناسب، وأي شيء ينقله إليهم سيخضع للتدقيق من قبل العميل الآخر. ولذلك السبب أصبح ضرورياً أن تذهب ريزا إلى المنزل مباشرة؛ لأنها إذا توجهت إلى أي مكان آخر؛ إلى المطعم الخطأ، أو

المكتبة الخطأ، أو المنزل الخطأ حيث يعيش الأشخاص الخطأ، فستعرّض نفسها للخطر. كانت فرصتها الوحيدة للنجاة، وهي فرصة ضئيلة جداً، تتمثّل بالتزام الصمت، وألاّ تفعل شيئاً، أو تلتقي أحداً. كان بمقدورها أن تعمل وتتسوق وتنام، وأيٌّ نشاط آخر مختلف سيصبح عرضة لإساءة التفسير.

إذا كانت ريزا في طريقها إلى المنزل، فستبقى على متن ذلك القطار في المحطات الثلاث التالية. وحين تصل إلى محطة تيترالنايا، فستنتقل إلى مسار أرباتسكو - بوكروفسكايا، وستتجه شرقاً. نظر ليو إلى الضابط الذي يلاحقه، ورأى أن شخصاً قد وقف ليترجل من القطار فشغل العميل مقعده الشاغر، محدّقاً آنذاك إلى خارج النافذة، وهو يراقب باهتمام واضح ليو بطرف عينه. كان العميل يعرف أن ليو قد رآه، وربما كان ذلك ما يقصده، لكن لا شيء من ذلك سيغدو مهماً إذا ذهبت ريزا إلى المنزل مباشرة.

توقف القطار في المحطة الثانية نوفوكوزنتسكايا. محطة أخرى بعد وسيغيرون مسارهم. فُتحت الأبواب، وشاهد ليو إيفان وهو يترجل من القطار، وفكّر:

مكتبة الرمحي أحمد

أرجوكِ ابقي على متن القطار.

نزلت ريزا من القطار، ومشت على الرصيف، واتجهت نحو المخرج. لم تكن في طريقها إلى المنزل، ولم يعرف ليو إلى أين تتجه. كان لحاقه بها يعني جعلها عرضة للتدقيق من قبل العميل الثاني، وعدم اللحاق بها يعني تعريض حياته للخطر. وجد ليو نفسه مضطراً إلى الاختيار، فأدار رأسه ورأى أن العميل لم يتحرك. ومن ذلك المكان لم يكن بمقدوره رؤية ريزا وهي تغادر القطار، وقد كان مهتماً بليو وليس بريزا، مفترضاً أن حركات الاثنين متزامنة. كانت الأبواب على وشك أن تُغلق، لكن ليو بقي في مكانه.

ألقى ليو نظرة خاطفة عبر النافذة؛ وكأن ريزا لا تزال في العربة المجاورة، ولا يزال يتحقق من أمرها. ماذا كان يفعل؟ كان قراراً متهوراً

وطائشاً، فقد اعتمدت خطته على أن العميل سيصدّق أن زوجته على متن القطار، وهي خطة واهية في أفضل الحالات. لم يعتمد ليو على الحشود، وبقيت ريزا وإيفان على الرصيف وهما يتحركان نحو المخرج ببطء شديد. ونظراً إلى تحديق العميل إلى خارج النافذة، كان سيراهما حين يبدأ القطار بالتحرك. اقتربت ريزا من المخرج، وانتظرت بصبر في صف طويل. لم تكن على عجلة من أمرها، ولا يوجد سبب يدعوها إلى ذلك، ولا تدرك أن حياتها وحياة ليو في خطر إذا لم تبتعد عن الأنظار. بدأ القطار يتحرك إلى الأمام ببطء، ووصلت عربتهما إلى قبالة المخرج تقريباً. كان العميل سيرى ريزا بالتأكيد؛ وسيعرف أن ليو قد فشل عمداً.

ازدادت سرعة القطار، فأصبحا قبالة المخرج، وريزا تقف ظاهرة للعيان. شعر ليو أن الدم يغلي في عروقه، وأدار رأسه ببطء ليرى رد فعل العميل، لكنه شاهد رجلاً قوي البنية في منتصف العمر وزوجته قوية البنية في منتصف العمر أيضاً يقفان في الممر، ويحجبان عن العميل رؤية أي شيء على الرصيف. قعقع القطار في النفق. لم يكن قد رأى ريزا عند المخرج، وهو لا يعرف أنها لم تعد على متن القطار. استطاع ليو إخفاء ارتياحه بصعوبة، وتابع التظاهر بأنه يحدّق إلى العربة المجاورة.

في محطة تيترالنايا انتظر ليو أطول وقت ممكن قبل أن يترجل من القطار، وتصرف وكأنه لا يزال يلاحق زوجته التي تتجه إلى المنزل. تحرك نحو المخرج، ونظر إلى الخلف، ورأى أن العميل قد نزل من القطار أيضاً ويحاول تضييق المسافة بينهما، فاندفع ليو إلى الأمام.

اتسع الممر، وصار طريقاً يصل إلى خطوط السكك المختلفة أو المخرج على مستوى الشارع. وخطّط ليو للتخلص من مراقبة ذلك الشخص من دون أن يبدو أنه يفعل ذلك. كان النفق إلى اليمين سيقوده إلى القطارات التي تسافر شرقاً على خط أرباتسكو - بوكروفسكايا، وهو الطريق إلى منزله. استدار ليو يميناً، وكان نجاح مخططه يعتمد على وصول القطار التالي. إذا

استطاع الابتعاد في المقدمة فقد يستطيع الصعود إلى متن القطار قبل أن يلحق به العميل، ويدرك أن ريزا ليست على الرصيف.

واجهته حشود من الناس أمامه في النفق الذي يؤدي إلى الرصيف، وسمع فجأة صوت قطار يقترب مخففاً سرعته. لم يكن من الممكن أن يصل في الوقت المناسب، ليس وكلّ هؤلاء الناس أمامه. مدَّ يده إلى جيب سترته، وأخرج بطاقة أمن الدولة، وربت بها على كتف الرجل أمامه الذي تنحّى جانباً؛ وكأنه سُفع بماءٍ ساخنٍ، وابتعدت المرأة خطوة إلى الجانب وتفرّق الحشد. أصبح الطريق أمامه خالياً فأسرع إلى الأمام، حيث كان القطار موجوداً، وأبوابه مفتوحة، ومستعداً للانطلاق. وضع بطاقته في جيبه وصعد إلى القطار، واستدار ليرى إن كان الشخص الذي يطارده قريباً منه. إذا استطاع الرجل اللحاق به وصعد على متن ذلك القطار، فستنتهي اللعبة.

كان الأشخاص الذين ابتعدوا عن طريقه قد أغلقوا صفوفهم، وعلق العميل خلفهم، فلجأ إلى أساليب أقل مكراً، ودفع الناس بعيداً عنه. كاد يلحق به. لماذا لم تُغلق الأبواب؟ أصبح العميل آنذاك على الرصيف، على بعد أمتار قليلة فقط. بدأت الأبواب تُغلق، فمدَّ يديه إلى الأمام، وأمسك جانب الباب، لكن الباب لم يتراجع إلى الجانب، ولم يكن لدى الرجل - الذي رآه ليو عن كثب للمرة الأولى - خيار إلا إفلاته من يده. حافظ ليو على التظاهر بعدم المبالاة، وحاول عدم إظهار أي رد فعل، وراقب من طرف عينيه العميل وهو يتخلّف وراءه، ثم خلع في ظلمة النفق قبعته المبللة بالعرق.

اليوم نفسه

توقف المصعد في الطابق الخامس، في الطابق الأعلى في المبنى، وفُتحت الأبواب، وخرج ليو إلى الممر الضيق. شمّ رائحة طهي في الرواق، وكانت الساعة السابعة مساءً، وهو الوقت الذي تتناول فيه أسر كثيرة آخر وجبة في اليوم. وفي أثناء سيره متجاوزاً الشقق استطاع سماع صوت الاستعداد لتناول طعام العشاء عبر الأبواب الأمامية الخشبية الرقيقة. وكلما اقترب من شقة والديه شعر بتعب أكبر. كان قد أمضى عدّة ساعات في التجول في المدينة. فبعد الإفلات من مراقبة العميل الذي كان يلاحقه في محطة تيترالنايا، عاد إلى منزله، الشقة 124، وأضاء المصابيح، وشغّل المذياع، وأرخى الستائر؛ وهذه إجراءات احترازيّة ضروريّة بالرغم من أنهما كانا في الطابق الرابع عشر. ثم غادر مجدداً، وسلك متعمداً درباً غير مباشر إلى المترو وعاد إلى المدينة. لم يكن قد غير ملابسه، وندم على ذلك لأنها لم تعد مريحة. فقميصه الذي تبلل بالعرق جفّ والتصق بظهره. كان واثقاً أن رائحته كريهة بالرغم من أنه لم يشمها بنفسه. نحّى تلك الهموم جانباً؛ لأن والديه لن يهتما بذلك، وسيُشغلان بحقيقة أنه يطلب نصيحتهما، وهو شيء لم يكن قد فعله منذ وقت طويل.

كان ميزان علاقتهم قد تغير؛ فقد أصبح يساعدهما آنذاك أكثر مما يساعدانه. أحب ليو الأمر على ذلك النحو، واستمتع بقدرته على توفير وظيفتين أكثر سهولة لهما في مكاني عملهما. لم يتطلب منه الأمر أكثر من طلب مهذّب ليصبح والده كبير العمال في مصنع الذخيرة، ويبتعد

عن خط التجميع، في حين حظيت والدته التي أمضت أيامها في خياطة مظلات الهبوط على ترقية مماثلة في المرتبة. كان قد سهّل حصولهما على الطعام أيضاً، فلم يعودا مضطرين إلى الانتظار في صفوف طويلة عدّة ساعات للحصول على مواد أساسية مثل الخبز والحنطة السوداء، وبدلاً من ذلك سُمح لهما بالدخول إلى سبيتزتورغي، أي المتاجر الخاصة التي لا يستطيع العامة دخولها. في تلك المتاجر أطايب غريبة مثل السمك الطازج، والزعفران، وحتى ألواح من الشوكولا الداكنة الحقيقية، عوضاً عن النوع التركيبي الذي يبدّل بالكاكاو مزيجاً من الجاودار، والشعير، والقمح، والبازيلاء. وإذا واجه والداه مشكلة مع جارٍ مزعج، فإن ذلك الجار لا يثير أي متاعب أبداً لوقت طويل. لم يكن الأمر ينطوي على استخدام العنف، أو التهديدات الفظّة، وإنما مجرد الإشارة إلى أنهم يتعاملون مع أسرة لها ارتباطات أقوى منهم.

تقع تلك الشقة التي استطاع تخصيصها لهما في منطقة سكنية هادئة شمالي المدينة، في مبنى منخفض تتباهى فيه كل شقة بوجود قسم خاص فيها للغسيل، وشرفتها الصغيرة تطل على بقعة صغيرة من الأعشاب وطريق هادئ. لم يكونا مشتركَين فيها مع أحد، وهذا شيء استثنائي في تلك المدينة. وبعد خمسين سنة من الحرمان، استمتعا أخيراً بحياة رغيدة، وهي حقيقة أعجبت والديه كثيراً. كانا قد اعتادا الراحة، وكل شيء معلّق بخيط وظيفة ليو.

قرع ليو الباب، وعندما فتحته والدته آنا بدت مدهوشة، لكن تلك المفاجأة التي عقدت لسانها وقتاً قصيراً تلاشت بسرعة. فتقدّمت إلى الأمام، وعانقت ابنها، وقالت بإثارة:

- لماذا لم تخبرنا أنك قادم؟ سمعنا أنك كنت مريضاً، وقد ذهبنا لرؤيتك لكنك كنت نائماً. سمحت لنا ريزا بدخول غرفتك، فألقينا نظرة عليك، وقد أمسكتُ يدك. لكن، ماذا كان بمقدورنا أن نفعل؟ كنت بحاجة

إلى الراحة، ونائماً مثل طفل.

- أخبرتني ريزا أنكما زرتمانا. شكراً على الفاكهة؛ البرتقال والليمون.

- لم نجلب أي فاكهة. على الأقل لا أظن أننا فعلنا ذلك، فالعمر يتقدم بي. ربما فعلنا ذلك!

عندما سمع والده ستيفان الحديث، خرج من المطبخ، ووكز زوجته التي ازداد وزنها قليلاً مؤخراً بلطف. كان وزناهما قد ازدادا، وكانا يبدوان على ما يرام.

عانق ستيفان ابنه.

- هل أنتَ أفضل حالاً؟

- نعم، كثيراً.

- هذا جيد، فقد كنا قلقين عليك.

- كيف حال ظهرك؟

- لم يؤلمني منذ بعض الوقت. هذه إحدى فوائد العمل الإداري، وكل ما أفعله هو الإشراف على العمل الشاق الذي يقوم به أشخاص آخرون؛ فأتجوّل بينهم حاملاً قلماً ولوح كتابة.

- لا داعي للشعور بالذنب، فقد أدّيتَ ما عليك.

- ربما، لكن الناس ينظرون إليك على نحو مختلف حين لا تكون واحداً منهم. لم يعد أصدقائي ودودين معي تماماً. وإذا تأخر أحدهم، فأنا من يجب أن يقدم تقريراً عنه. لكن، لحسن الحظ لم يتأخر أحد حتى الآن.

قلّب ليو تلك الكلمات في ذهنه.

- ماذا ستفعل إذا تأخروا؟ هل ستبلّغ عنهم؟

- أقول لهم باستمرار كل مساء: لا تتأخروا.

لا، بكلمات أخرى، لن يبلّغ والده عنهم. وكان على الأرجح قد تغاضى عن بعض تلك الحالات. لم يكن ذلك هو الوقت المناسب لتحذيره، لكن ذلك النوع من الكرم عرضة للاكتشاف.

telegram @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

في المطبخ، كان الملفوف يغلي في الماء في قدر نحاسية. كان والداه يقومان بتحضير غولوبستي، وطلب منهما ليو أن يتابعا العمل، ويمكنهم التكلم في المطبخ. وقف ليو في الخلف وراقب ما يجري، في حين مزج والده اللحم المفروم (لحم طازج وليس مجففاً، ربما بسبب وظيفة ليو فقط) مع جزر مقطّع طازج (مرة أخرى ربما بسببه فقط) وأرز مطهي. بدأت والدته تزيل الأوراق الشاحبة من رأس الملفوف المسلوق. عرف والداه أن هناك خطباً ما وانتظرا، من دون أن يحثّاه، أن يشرع في الكلام. شعر بالسعادة؛ لأنهما مشغولان بطعامهما.

- لن نتكلم كثيراً بشأن عملي، فذلك أفضل للجميع. انقضت أوقات وجدت فيها أن عملي صعب، وقمت بأشياء لا أفتخر بها، لكنها كانت ضرورية دائماً.

توقف ليو عن الكلام، محاولاً استنباط أفضل طريقة للمضي قدماً، ثم سأل:

- هل اعتُقل أيٌّ من معارفكما؟

كان السؤال مربكاً، وليو يعرف ذلك. نظر ستيفان وآنا إلى بعضهما قبل أن يتابعا تحضير الطعام، سعيدين من دون شك لأن لديهما شيئاً يفعلانه، وهزّت آنا كتفيها.

- الجميع يعرف شخصاً اعتُقل، لكننا لا نناقش ذلك. أقول لنفسي: ضباطكم هم الذين يمتلكون الدليل. لا أعرف إلا ما أراه. ومن السهل أن يبدو المرء لطيفاً وعادياً وموالياً. مهمتكم رؤية ما يوجد خلف ذلك، فأنتم تعرفون ما هو الأفضل لهذا البلد، وليس لأشخاص مثلنا أن يحكموا على ذلك.

أومأ ليو، وأضاف:

- أعداء هذا البلد كثر، وثورتنا مكروهة حول العالم. يجب أن نحميها، حتى من أنفسنا لسوء الحظ.

توقف قليلاً. لم يكن قد جاء إلى هنا لتكرار بيانات حكومية. توقف والداه عن العمل، واستدارا ليواجها ابنهما، وأصابعهما دبقة من اللحم المفروم.

- بالأمس، طُلب مني تجريم ريزا. يظن رؤسائي الضباط أنها خائنة وجاسوسة تعمل لمصلحة وكالة أجنبية. لقد أمروني أن أحقق في أمرها.

سالت قطرة دهن واحدة من إصبع ستيفان إلى الأرضية، فحدّق إلى قطرة الدهن ثم سأل:

- هل هي خائنة؟

- أبي، إنها معلّمة. إنها تعمل، وتعود إلى المنزل... العمل، المنزل.

- إذاً، أخبرهم ذلك. هل هناك أي دليل؟ لماذا يظنون مثل ذلك الأمر؟

- هناك اعتراف من جاسوس أعدم ذكر اسمها، وادّعى أنه قد عمل معها، لكنني أعرف أن ذلك الاعتراف كاذب. أعرف أن الجاسوس لم يكن في الواقع أكثر من مجرد طبيب بيطري، وأننا اقترفنا خطأً باعتقاله. أظن أن ضابطاً آخر لفّق ذلك الاعتراف لتوريطي. أعرف أن زوجتي بريئة، والأمر كله فعل انتقام.

مسح ستيفان يديه بمئزر آنا.

- أخبرهم الحقيقة، اجعلهم يصغون إليك، اكشف الضابط. أنت في موقع سلطة.

- لقد اعتبر هذا الاعتراف، سواء أكان ملفّقاً أم لا، حقيقياً. إنه وثيقة رسمية واسمها وارد فيها. إذا دافعت عن ريزا، فسأكون كمن يطعن في صحة وثيقة حكومية. لا يمكن العودة إلى الوراء، فالأصداء ستكون ضخمة، وسيعني ذلك أن كل الاعترافات ستكون موضع تساؤل.

- ألا يمكنك القول إن هذا الجاسوس - هذا الطبيب البيطري - كان مخطئاً؟

- نعم، هذا ما أنوي فعله. لكن، إذا أثرتُ القضية ولم يصدقوني، فعندها

لن يعتقلوها هي فقط وإنما سيعتقلونني أيضاً. إذا كانت مذنبة وزعمت أنها بريئة، فسأكون مذنباً أيضاً. وهذا ليس كل شيء؛ لأنني أعرف كيف تسير هذه الأمور. هناك احتمال كبير أن يقوموا باعتقالكما كليكما. يستهدف جزء من النظام القضائي كل أفراد أسرة مجرم مدان. سنكون مذنبين جميعنا.

– وإذا أدنتها؟

– لا أعرف.

– بلى، تعرف.

– سننجو. لكن هي لن تنجو بالتأكيد.

كان الماء لا يزال يغلي على الموقد، وتكلم ستيفان أخيراً:

– أنت هنا لأنك غير واثق مما ينبغي فعله. جئت إلى هنا لأنك رجل طيب وتريد منا أن نخبرك أن تفعل الشيء الصحيح، الشيء اللائق. تريد منا إسداءك النصيحة المناسبة، والتي ستكون إبلاغهم أنهم مخطئون، والقول لهم إن ريزا بريئة، وتحمّل العواقب التي قد تنجم عن ذلك.

– نعم.

أومأ ستيفان وهو ينظر إلى آنا، وأضاف بعد لحظة:

– لكن، لا يمكنني إسداؤك تلك النصيحة، ولست واثقاً من أنك تصدّق أنني سأفعل ذلك. كيف يمكنني ذلك؟ الحقيقة هي أنني أريد أن تعيش زوجتي، وأن يعيش ابني، وأن أعيش أنا. سأفعل كل ما يتطلبه الأمر لضمان ذلك. ووفقاً لفهمي للوضع، إنها حياة واحدة مقابل ثلاث. آسف، أعرف أنك توقعت المزيد مني، لكننا عجوزان يا ليو، ولا يمكننا النجاة في غولاغ. سننفصل عن بعضنا، وسيموت كل منا وحيداً.

– ولو كنتَ شاباً ماذا ستكون نصيحتك عندها؟

أومأ ستيفان:

– أنت محق، ستكون نصيحتي نفسها. لكن، لا تغضب مني. ماذا توقعت حين جئت إلى هنا؟ هل توقعت أن نقول: لا بأس، لا نمانع أن

telegram @ktabpdf

مكتبة الرمحي أحمد

نموت؟ وما الفائدة التي ستتحقق من موتنا؟ هل سينقذ ذلك زوجتك؟ هل ستعيشان بسعادة معاً؟ إذا كانت تلك هي الحال، فسأتخلى عن حياتي لكما بسعادة، لكن ذلك لن يحدث. كل ما سيحدث هو أننا سنموت - جميعنا - لكنك ستموت وأنت تعرف أنك قد فعلت الصواب.

نظر ليو إلى والدته التي كان وجهها شاحباً مثل أوراق الملفوف المسلوق الذي تحمله في يدها. كانت هادئة تماماً، ولم تعارض ستيفان، وبدلاً من ذلك سألت:

- متى عليك أن تتخذ قرارك؟

- لدي يومان لجمع الأدلّة، ثم يجب أن أقدّم تقريري.

تابع والداه تحضير العشاء، فوضعا اللحم المفروم فوق أوراق الملفوف ولفاها، ثم وضعاها جنباً إلى جنب في طبق خَبز، فبدت مثل صف من أصابع سميكة مبتورة. لم يتكلم أحد حتى امتلأ الطبق، وسأل ستيفان:

- هل ستأكل معنا؟

تبع ليو والدته إلى غرفة الجلوس، ورأى أن المكان قد أُعدَّ لثلاثة أشخاص.

- هل تتوقعان زائراً؟

- نتوقع حضور ريزا.

- زوجتي؟

- ستأتي لتناول العشاء. عندما قرعتَ الباب ظننا أنك هي.

وضعت آنا طبقاً آخر على الطاولة، وشرحت:

- إنها تأتي كل أسبوع تقريباً. لا تريدك أن تعرف كم تشعر بالوحدة وهي تتناول الطعام برفقة المذياع فقط. لقد أصبحنا مغرمين بها جداً.

كان صحيحاً أن ليو لا يعود إلى المنزل عند السابعة مطلقاً، فقد لقيت ثقافة العمل ساعات طويلة كل يوم تشجيعاً من ستالين المصاب بالأرق، والذي لا ينام أكثر من أربع ساعات في الليل. كان ليو قد سمع أنه لا يُسمح

لأحد في المكتب السياسي بالمغادرة قبل أن تُطفأ مصابيح مكتب ستالين، عادة بعد منتصف الليل. وبالرغم من أن تلك القاعدة لا تنطبق تماماً على لوبيانكا، إلا أن مستويات مشابهة من التفاني كانت متوقعة. كان قلّة من الضباط يعملون أقل من عشر ساعات يومياً، حتى إن كانوا يمضون عدّة ساعات منها وهم لا يفعلون شيئاً على الإطلاق.

سمعوا قرعاً على الباب، ففتحه ستيفان، ودخلت ريزا الردهة، ودُهشت مثل والدي ليو لدى رؤيتها إيّاه. شرح ستيفان:

- كان يعمل قريباً من هنا، ويمكننا مرة واحدة أن نأكل معاً كأسرة.

خلعت سترتها، فأخذها ستيفان منها. تقدمت إلى الأمام، واقتربت من ليو وهي تنظر إليه من أعلى رأسه إلى أخمص قدميه.

- لمن هذه الملابس؟

ألقى ليو نظرة على السروال والقميص. هذه ملابس الرجل الميت.

- استعرتها... من العمل.

انحنت ريزا مقتربة منه، وهمست في أذنه:

- رائحة القميص كريهة.

تحرك ليو نحو الحمّام، وعند الباب ألقى نظرة خلفه فرأى ليزا تساعد والديه على ترتيب المائدة.

كان ليو قد ترعرع من دون أن يعرف الماء الساخن؛ لأن والديه كانا يشتركان في شقتهما القديمة مع عم والده وأسرته. لم تكن هناك إلا غرفتا نوم، واحدة لكل أسرة. وليس في الشقة مرحاض أو حمّام داخلي، ويضطر شاغلو البناء إلى استخدام المرافق الخارجية التي تفتقر إلى الماء الساخن. في الصباح، كانت صفوف الانتظار طويلة. وفي الشتاء، يتساقط عليهم الثلج في أثناء انتظارهم. وكان مغطس خاص مملوء ماء ساخناً يعدُّ ترفاً غير ممكن، وحلماً بعيد المنال. تجرّد ليو من قميصه واغتسل. وعندما انتهى، فتح الباب وسأل والده إن كان يستطيع استعارة قميص. وبالرغم من أن

جسم والده قد أضناه العمل - فقد تقوّس ظهره، واتخذ شكل خط التجميع وقذائف الدبابات التي كان يصنعها بيديه - إلا أن جسده يشبه كثيراً جسد ابنه، ببنيته القوية، ومنكبيه العريضين ذوَي العضلات المفتولة. كان القميص مناسباً له تقريباً.

غيّر ليو قميصه، وجلس لتناول الطعام. وعندما انتهى خَبز غولوبستي في الفرن، أكلوا زاكوسكي، وهي أطباق من المخلل وصلصة الفطر، وحصل كل واحدٍ منهم على شريحة رقيقة مطهيّة من لسان عجل قُدّمت مع فجل برّي. كانت تلك مائدة عامرة على نحو استثنائي، ولم يسع ليو إلا أن يحدّق إليها، ويقدّر تكلفة كل طبق. وفاة مَن دفعت ثمن ذلك؟ هل اشتُريت شريحة اللسان بحياة أناتولي برودسكي؟ شعر بالغثيان، وعلّق:

- أفهم لماذا تأتين إلى هنا كل أسبوع.

ابتسمت ريزا.

- نعم، إنهما يدلّلانني. أقول لهما إنه لا بأس بتناول كاشا، لكن...

قاطعها ستيفان:

- إنه عذر لندلّل نفسينا.

محاولاً أن يبدو طبيعياً، سأل ليو زوجته:

- هل جئت إلى هنا مباشرة بعد مغادرتك المدرسة؟

- هذا صحيح.

كانت تلك كذبة، فقد ذهبت إلى مكان آخر مع إيفان أولاً، لكن قبل أن يمعن ليو التفكير في الأمر، صحّحت ريزا الأمر:

- هذا ليس صحيحاً. أقصد أنني آتي إلى هنا عادة مباشرة بعد مغادرتي المدرسة. لكن، الليلة كان لدي موعد، ولهذا تأخرت قليلاً.

- موعد؟

- مع الطبيب.

بدأت ريزا تبتسم.

مكتبة الرمحي أحمد
telegram @ktabpdf

- كنت أنوي إخبارك حين نصبح بمفردنا. لكن، نظراً إلى أننا نتحدث في الموضوع...

- بمَ ستخبرينني؟

وقفت آنا.

- هل تودّان أن نترككما وحدكما؟

أشار ليو إلى والدته أن تجلس.

- أرجوكِ، نحن أسرة، ولا أسرار بيننا.

- أنا حامل.

20 شباط

جافى النومُ ليو، فاستلقى مستيقظاً، وهو يحدّق إلى السقف مصغياً إلى أنفاس زوجته البطيئة، وظهرها يضغط على جانبه، ليس تعبيراً متعمداً عن الحميمية، وإنما نتيجة حركاتٍ بمحض المصادفة. لم تكن تنعم بنوم هادئ؛ هل كان ذلك سبباً كافياً لتجريمها؟ كان يعرف أنه كذلك، ويعرف كيفَ يُصاغ الأمر:

لا تنام قريرة العين، وتزعجها أحلامها.
من الواضح أن زوجتي قلقة من سرٍّ ما.

يمكنه نقل مسؤولية التحقيق إلى شخص آخر. وعندها يستطيع خداع نفسه بأنه يحقق العدالة، فقد كان قريباً جداً، ومتورطاً تماماً. لكن، أي تحقيق مماثل سيصل إلى نتيجة واحدة فقط، فقد فُتحت القضية، ولن يعارض أحد آخر افتراض الذنب.

نهض ليو عن السرير، ووقف بجانب نافذة غرفة المعيشة التي تطل على المبنى السكني المقابل وليس على المدينة. شاهد جداراً من النوافذ، فيه ثلاثة مصابيح مضاءة، ثلاثة من أصل ألف أو نحو ذلك، وتساءل عن الهموم التي تقلق الساكنين، وعمّا يمنعهم من النوم. شعر بنوع غريب من الصحبة بوجود تلك المربعات الثلاثة من الضوء الأصفر الباهت. كانت الساعة الرابعة فجراً؛ إنها ساعةُ الاعتقال. إذ أفضل وقت لإلقاء القبض على شخص ما، والإمساك به في أثناء نومه. إذ يكون الناس غافلين، ويصابون بالارتباك في ذلك الوقت. كان الضباط الذين يقتحمون منازلهم يستخدمون

telegram @ktabpdf

مكتبة الرمحي أحمد

غالباً أي تعليقات غير حذرة في استجواب المعتقلين. لم يكن سهلاً أن تتوخى الحذر حين ترى زوجتك وهي تُسحب على الأرض من شعرها. كم مرة كان ليو قد حطّم باباً وفتحه بنعل حذائه؟ كم مرة كان قد شاهد زوجين يُسحبان من سريرهما، وضوء الكشّاف يبهر عيونهما، وهما يرتديان ثياب نومهما؟ كم مرة كان قد سمع صوت ضابط لدى رؤيته العضو الحساس لشخص ما؟ كم عدد الأشخاص الذين كان قد سحبهم من أسرّتهم؟ كم عدد الشقق التي كان قد قلبها رأساً على عقب؟ وماذا عن الأطفال الذين احتجزهم بعد أن اقتيد الوالدان بعيداً؟ لم يتذكر. كان قد أبعد ذلك عن ذهنه: الأسماء، والوجوه. كان ضعف ذاكرته يخدمه جيداً. هل صقل تلك الموهبة؟ هل تناول ميثامفيتامين لطمس ذكريات تلك الوظيفة وليس للعمل ساعات طويلة؟

انتشرت دعابة بين الضباط، واستطاعوا تناقلها من دون وجل: كان رجل وزوجته نائمين على السرير حين استيقظا على قرع عنيف على الباب. ومخافة حدوث الأسوأ، نهضا وتبادلا القُبل مودّعين بعضهما:

أحبكِ يا زوجتي.
أحبك يا زوجي.

فتحا الباب الأمامي بعد أن ودّعا بعضهما، ووجدا أمامهما جاراً يقف خائفاً، والرواق مملوءاً بالدخان، وألسنة اللهب تتطاول لتصل إلى السقف. ابتسم الرجل وزوجته ارتياحاً، وشكرا الله. كان المبنى يحترق فحسب. كان ليو قد سمع عدّة روايات لتلك الدعابة، وبدلاً من النار ذكر أحدهم لصوصاً مسلحين، وعوضاً عن اللصوص المسلحين كان هناك طبيب يحمل خبراً سيئاً. ضحك في الماضي، واثقاً بأن ذلك لن يحدث له أبداً.

كانت زوجته حاملاً؛ هل تغير تلك الحقيقة أي شيء؟ قد تغير موقف رؤسائه نحو ريزا، فهم لم يحبوها قط؛ لأنها لم تنجب أي أولاد لليو. في

تلك الأوقات، كان متوقعاً ومطلوباً أن ينجب المتزوجون أطفالاً. وبعد موت الملايين وهم يقاتلون، أصبح إنجاب الأولاد واجباً اجتماعياً. لماذا لم تصبح ريزا حاملاً في ذلك الوقت؟ كان السؤال قد لازم زواجهما، والاستنتاج الوحيد هو أنها تعاني خطباً ما، وقد تزايد الضغط أخيراً: طُرحت أسئلة بوتيرة متزايدة. كانت ريزا تذهب إلى الطبيب لمعالجة القضية، وعلاقاتهما الجنسية نشيطة، تحفّزها ضغوط خارجية. لم تكن المفارقة غائبة عن ليو، وهي أنه عندما حصل رؤساؤه على ما يريدونه - حمل ريزا - أرادوا موتها. ربما يستطيع أن يذكر أنها حامل؟ أبعد الفكرة عن ذهنه، فالخائن خائن، وليست هناك ظروف تجعله بريئاً.

استحم ليو بماء بارد، وغيّر ملابسه، وحضّر فطوراً من دقيق الشوفان. لم تكن لديه شهية لتناول الطعام، وراقبه وهو يسخن فوق الموقد. دخلت ريزا المطبخ، وجلست وهي تفرك عينيها لتطرد النعاس منهما. نهض من دون أن يتكلم أي منهما فيما كان ينتظر أن يسخن دقيق الشوفان، ووضع طبقاً لها، لكنها لم تنبس بكلمة. حضّر كوباً من الشاي، ووضعه على الطاولة إلى جانب مرطبان مربّى.

- سأحاول العودة إلى المنزل في وقت أبكر.

- ليس عليك أن تغير روتينك من أجلي.

- سأحاول على أيّ حال.

- ليو، ليس عليك أن تغير روتينك من أجلي.

أغلق ليو الباب الأمامي. كان الوقت فجراً، واستطاع من حيث يقف في بداية الممر رؤية أشخاص ينتظرون عربة الترام على بعد مئات الأمتار في الأسفل. مشى إلى المصعد، وعندما وصل إليه ضغط الزر إلى الطابق العلوي، وعندما أصبح في الطابق الثلاثين، الأعلى في المبنى، خرج من المصعد وسار في الرواق إلى باب الخدمة في نهايته، الذي يحمل لافتة كتب عليها: ممنوع الدخول. كان القفل قد حُطّم قبل وقت طويل، والباب

يفضي إلى سلالم تصل بدورها إلى السطح. كان قد صعد إلى هناك من قبل، حين انتقلوا حديثاً إلى المكان. إذا نظرت إلى الغرب يمكنك رؤية المدينة، في حين أنك إذا نظرت إلى الشرق فستتمكن من مشاهدة بداية الريف؛ حيث تنتهي موسكو وتفسح في المجال للحقول المغطاة بالثلج. قبل أربع سنوات، نظر بإعجاب إلى ذلك المشهد، وظنّ نفسه واحداً من أكثر الرجال الأحياء حظاً. كان بطلاً - احتفظ بقصاصة الصحيفة لإثبات ذلك - يعمل في وظيفة مهمة، ولديه زوجة جميلة. لم تكن ثقته بالدولة موضع تشكيك؛ هل فقد ذلك الشعور؟ الثقة المطلقة التي لا تتزعزع. نعم، لقد فقدها.

استقل المصعد نزولاً إلى الطابق الرابع عشر، ثم عاد إلى شقته ليجد أن ريزا قد ذهبت إلى العمل، وطبق فطوره لم يُغسل بعد. خلع سترته وحذاءه، ثم أدفأ يديه مستعداً لبدء البحث.

كان ليو قد نظّم عمليات تفتيش، كما أشرف على تفتيش الكثير من المنازل، والشقق، والمكاتب، وهو أمر يتنافس فيه أولئك الذين يعملون في إ.أ.د. انتشرت قصص عن القدرات الاستثنائية التي يستعرضها الضباط لإثبات تفانيهم في العمل. كانت أشياء ثمينة تُحطّم، وصور وأعمال فنية تُنتزع من أُطرها، وكتب تُمزّق، وجدران تُهدم كلها. وبالرغم من أن المنزل كان لليو، والأشياء الموجودة فيه ملك له إلا أنه كان مستعداً للقيام بعملية التفتيش بالطريقة نفسها: مزّق بطانة السرير، وأكياس الوسائد والملاءات، وقلب الفراش رأساً على عقب وتحسّسه بحرص، كل بوصة مربّعة منه، مثل رجل ضرير يقرأ كتابة بلغة بريل. كان من الممكن تثبيت وثائق ورقية في فراش من دون أن تصبح ظاهرة للعيان، والطريقة الوحيدة لتحديد أماكن المخابئ السرية تلك هي اللمس. لم يعثر على شيء، فانتقل إلى الرفوف، وقلّب صفحات كل كتاب؛ ليتوثق أن لا شيء بداخله. وجد مئة روبل، أقل قليلاً من أجر أسبوع، فنظر إلى المال متسائلاً عما قد يعنيه، حتى تذكر أن الكتاب له والمال يخصّه، وأن ذلك هو المخبأ السري الخاص به. ربما

كان عميل آخر سيعلن أنه دليل على أن المالك مُضارب. أعاد ليو المال إلى مكانه، ثم فتح الأدراج، ونظر إلى ملابس ريزا المطوية بعناية، ورفع كل قطعة، وتحسسها وهزّها قبل أن يرمي بها في كومة على الأرض. عندما أصبحت كل الأدراج فارغة، توثق من الخلف والجانبين، لكنه لم يعثر على شيء، فاستدار ونظر إلى الغرفة بإمعان. استند إلى الجدران، ومرّر أصابعه عليها ليتحسّس إن كانت هناك خزنة أو ثغرة فيها. أنزل قصاصة الصحيفة المؤطرة، وفيها صورته بجانب الدبابة المحترقة. كان غريباً أن يفكّر في أن تلك اللحظة - حين كان محاطاً بمظاهر الموت - هي من أكثر الأوقات سعادة. فكّك الإطار، فوقعت قصاصة الصحيفة على الأرض، ثم جمع القصاصة والإطار معاً، وقلب السرير على جانبه، وأسنده إلى الجدار، وجثم على ركبتيه. كانت ألواح الأرضية مثبّتة بإحكام، فجلب مفكاً من المطبخ وفك كل لوح منها، لكنه لم يعثر على شيء تحتها إلا على الغبار والأنابيب.

ذهب إلى المطبخ، وغسل الغبار عن يديه. كان هناك على الأقل ماء ساخن، وأمضى بعض الوقت وهو يستخدم لوح الصابون الصغير، ويفرك جلده حتى بعد زوال كل الغبار عنه. ما الذي كان يحاول أن يغسل يديه منه؟ الخيانة؟ لا. لم يكن مهتماً بالكناية المجازية. كان يفتش شقته لأنه يجب أن يفعل ذلك، ولا ينبغي له أن يفكر في الأمر كثيراً.

سمع قرعاً على الباب، فغسل يديه اللتين كانتا مغطاتين من المعصم إلى المرفق برغوة صابون صفراء اللون. تجدد القرع، فتحرّك والماء يقطر من ذراعيه إلى الردهة، وصرخ:

- من الطارق؟

- أنا فاسيلي.

أغمض ليو عينيه، وشعر أن خفقان قلبه يتسارع. حاول أن يسيطر على موجة الغضب التي انتابته. قرع فاسيلي مجدداً، فتقدم ليو إلى الأمام، وفتح الباب. كان فاسيلي برفقة رجلين: الأول ضابط شاب لم يعرفه ليو ويتميز

بقسمات ناعمة وجلد شاحب، وحدّق إلى ليو بعينين تخلوان من أي تعبير، وكأنهما قطعتا زجاج دُفعتا في قرص عجين. والضابط الثاني هو فيودور أندريف. كان فاسيلي قد انتقى الرجلين بعناية. فالرجل ذو الجلد الشاحب حارسه، وهو قوي من دون شك، وماهر في الرماية أو سريع باستخدام السكين، والثاني يضمر الضغينة نحو ليو.

- ما الأمر؟

- نحن هنا للمساعدة، أرسلنا الرائد كوزمن.

- شكراً لكم، لكن التحقيق تحت السيطرة.

- أنا واثق من ذلك. نحن هنا لنساعد.

- شكراً لكم، لكن ذلك ليس ضرورياً.

- هيا يا ليو، لقد اجتزنا مسافة طويلة، والجو بارد في الخارج.

تنحّى ليو جانباً، وسمح لهم بالدخول.

لم يخلع أي من الرجال الثلاثة أحذيتهم التي تكوّنت عليها طبقة من الجليد، وسقطت قطع منها من نعالهم وذابت على السجادة. أغلق ليو الباب؛ مدركاً أن فاسيلي قد جاء إلى منزله لمضايقته، ويريد أن يفقده أعصابه. أراد نزاعاً، أو تعليقاً يعتبره غير لائق؛ أي شيء لتقوية قضيته.

عرض ليو على ضيوفه شاياً أو شراباً إذا أرادوا، فقد كان من المعروف عن فاسيلي حبّه للشراب، لكن ذلك يعدُّ أقل العيوب شأناً إذا كان عيباً أصلاً.

رفض فاسيلي عرض ليو بهزّة من رأسه، ونظر إلى غرفة النوم.

- ماذا وجدت؟

دخل فاسيلي الغرفة من دون أن ينتظر رداً، وحدّق إلى الفراش المقلوب.

- لم تقم حتى بتمزيقه وفتحه.

انحنى إلى الأسفل، وشهر سكينه مستعداً لتمزيق الفراش، لكن ليو أمسك يده.

telegram @ktabpdf

مكتبة الرمحي أحمد

- هناك طريقة لتحسّس الأشياء المثبّتة في القماش، ولا داعي لتمزيقه.
- إذاً، ستعيد ترتيب المكان مجدداً؟
- هذا صحيح.
- لا تزال تظن أن زوجتك بريئة؟
- لم أجد شيئاً يشير إلى خلاف ذلك.
- هل لي أن أسديك نصيحة؟ جد زوجة أخرى. ريزا جميلة، لكن النساء الجميلات كثيرات، وربما ستكون أفضل حالاً مع امرأة ليست فائقة الجمال.

مدّ فاسيلي يده إلى جيبه، وأخرج مجموعة من الصور المطوية، وأعطى ليو إياها. كانت صوراً التُقطت لريزا خارج المدرسة مع إيفان، معلم الأدب.

- إنها تقيم علاقة معه يا ليو. إنها خائنة لك وللدولة.
- التُقطت هذه في المدرسة. وكلاهما معلمان. طبعاً يمكن التقاط صور لهما معاً، لكنها لا تثبت شيئاً.
- هل تعرف اسمه؟
- إيفان، كما أظن.
- لقد راقبناه لبعض الوقت.
- نحن نراقب الكثير من الناس.
- ربما أنت صديقه أيضاً؟
- لم ألتقه، أو أتحدث إليه قط من قبل.

رأى فاسيلي كومة الملابس على الأرض، فانحنى إلى الأسفل، ورفع زوجاً من ثياب ريزا الداخلية، فركهما بين أصابعه، ثم كوّرهما إلى كرة وضعها تحت أنفه، لكنه لم يشح بناظريه عن ليو قط. وبدلاً من الشعور بالغضب من ذلك الاستفزاز، نظر ليو إلى نائبه بطريقة لم يفعلها من قبل. من كان بالضبط ذلك الرجل الذي يكرهه إلى ذلك الحد؟ هل كانت غيرته المهنية هي التي تحفّزه، أم طموحه الجامح؟ أدرك ليو حين رآه آنذاك وهو

telegram @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

يشم ثياب ريزا، أن هناك شيئاً شخصياً في حقده.

- هل يمكنني إلقاء نظرة على باقي الشقة؟

خائفاً من فخ من نوعٍ ما رد ليو:

- سآتي معك.

- لا، أود أن أفعل ذلك بنفسي.

أومأ ليو، وتحرك فاسيلي.

واجه ليو صعوبة في التنفس، فقد ضاقت حنجرته من شدّة الغضب، وحدّق إلى السرير المقلوب رأساً على عقب. فاجأه صوت ناعم بجانبه، تبين أنه صوت فيودور:

- ستفعل كل هذا. ستفتّش ثياب زوجتك، وستقلب سريرك رأساً على عقب، وستنزع ألواح أرضية منزلك، وتمزّق حياتك إرباً.

- يجب أن نكون جميعاً مستعدين للخضوع لمثل عمليات التفتيش تلك؛ القائد العام ستالين.

- لقد سمعت هذا أيضاً. قال قائدنا إنه يمكن تفتيش حتى شقته إذا دعت الضرورة.

- ليس من المحتمل أن نكون جميعاً عرضة للتحقيق، بل يجب أن يجري التحقيق معنا.

- وبالرغم من ذلك، لم تحقق في موت ابني. ستحقق بشأن زوجتك، ونفسك، وأصدقائك، وجيرانك، ولكنك لم تلقِ نظرة على جثته. لم تخصص ساعة لترى أن بطنه قد مُزّق، وكيف مات بعد أن أُقحم التراب في فمه.

كان فيودور هادئاً، ولم يعد غضبه جامحاً، بل تحول إلى جليد. كان بمقدوره أن يتكلم بتلك الطريقة مع ليو - علانية وبصراحة - لأنه يعرف أن ليو لم يعد يمثّل تهديداً.

- فيودور، أنت لم ترَجثته أيضاً.

- تكلمت مع الرجل العجوز الذي وجد الجثة، وأخبرني بما رآه.

رأيت في عيني الرجل العجوز صدمته. تكلمت مع شاهدة العيان؛ المرأة التي أخفتها وجعلتها تولي الأدبار. كان هناك رجل يمسك بيد ابني، ويقوده على طول السكة، وقد رأت وجه ذلك الرجل، ويمكن أن تصفه، لكن لا أحد يريدها أن تتكلم. إنها خائفة جداً الآن. لقد قُتل ابني يا ليو، وجعلت المليشيا كل شهود العيان يبدّلون إفاداتهم. توقعت هذا. لكنك كنت صديقي، وجئت إلى منزلي، وأمرت أفراد أسرتي بإبقاء أفواههم مغلقة. هدّدت أسرة حزينة، وقرأت لنا رواية ملفّقة، وطلبت منا أن نحفظ تلك الأكاذيب في قلوبنا. وبدلاً من البحث عن الشخص الذي قتل ابني، أخضعت الجنازة بدلاً من ذلك للمراقبة.

– فيودور، كنت أحاول مساعدتك.

– أصدّقك. كنت تخبرنا بطريقة النجاة.

– نعم.

– وبطريقة ما أنا شاكر لك. من ناحية أخرى، كان الرجل الذي قتل ابني سيقتلني وأسرتي. لقد أنقذتنا، ولهذا السبب أنا هنا. ليس لأشمت بك، ولكن لأردّ لك الجميل. فاسيلي محق، يجب أن تضحي بزوجتك. لا تزعج نفسك بالبحث عن أي دليل. اِدنها وستنجو. ريزا جاسوسة، وقد حُسم الأمر. لقد قرأتُ اعتراف أناتولي برودسكي، وهو مكتوب بالحبر الأسود نفسه الذي خُطَّ به تقرير حادثة ابني.

لا، كان فيودور مخطئاً، وغاضباً. ذكّر ليو نفسه أن لديه هدفاً بسيطاً: التحقيق في أمر زوجته، وتقديم تقرير عن النتائج. كانت زوجته بريئة.

– أنا مقتنع بأن ملاحظات الخائن المتعلقة بزوجتي حفّزها الانتقام ولا شيء غير ذلك، وتحقيقي يدعم ذلك حتى الآن.

كان فاسيلي قد عاد إلى الغرفة، ولم يكن من الممكن معرفة ما سمعه من حديثهما. أجاب:

– باستثناء أن أصحاب الأسماء الستة الأخرى قد اعتُقلوا جميعاً، وقد

اعترفوا آنفاً. لقد ثبت أن معلومات أناتولي برودسكي لا تُقدّر بثمن.

- أنا سعيد لأنني كنت الشخص الذي ألقى القبض عليه.

- ذكر جاسوس مدان اسم زوجتك.

- لقد قرأتُ اعترافه. واسم ريزا هو الأخير على اللائحة.

- لم تُسجل الأسماء حسب أهميتها.

- أظن أنه أضافه بدافع الانتقام، وأعتقد أنه أراد أن يؤذيني شخصياً. يبدو من المستبعد أن تنطلي تلك الخدعة الواضحة اليائسة على أحد. أرحّب بكم للمساعدة على التفتيش إذا كان هذا ما جئتم من أجله. كما ترون...

أشار ليو إلى ألواح الأرضية المنتزعة من مكانها.

- لقد كنت أعمل.

- تخلَّ عنها يا ليو. يجب أن تكون واقعياً. فمن ناحية، لديك مهنتك والداك. ومن ناحية أخرى، لديك خائنة ساقطة.

نظر ليو إلى فيودور الذي لم تكن تظهر على وجهه أي علامة تدل على السعادة، أو الحقد. تابع فاسيلي:

- تعرف أنها ساقطة، ولهذا كنتَ قد لاحقتها من قبل.

تحول غضب ليو إلى صدمة. كانوا يعرفون طوال الوقت.

- هل كنتَ تظن أن ذلك سر؟ نعرف جميعاً. أدنها يا ليو. أنهِ الشك، وتخلص من الأسئلة المزعجة في باطن ذهنك. تخلَّ عنها. سنذهب جميعاً لتناول الشراب بعد ذلك، وستحظى في نهاية الليلة بامرأة أخرى.

- سأقدم تقريراً عن نتائج تحقيقي غداً. إذا كانت ريزا خائنة فسأقول ذلك، وإذا لم تكن كذلك فسأقول ذلك أيضاً.

- إذاً، أتمنى لك التوفيق يا رفيقي. إذا نجوت من هذه الفضيحة، فسترأس يوماً ما إ.أ.د، وأنا واثق من ذلك. سأكون فخوراً بالعمل تحت إمرتك.

عند الباب الأمامي، استدار فاسيلي:

- تذكّر ما قلته. حياتك وحياة والديك مقابل حياتها؛ إنه ليس قراراً صعباً.

أغلق ليو الباب.

أصغى ليو إلى وقع أقدامهم وهم يبتعدون، ولاحظ أن يديه ترتعشان. عاد إلى غرفة النوم، ونظر إلى الفوضى، ثم أعاد ألواح الأرضية إلى مكانها وثبّتها مجدداً، ورتّب السرير، وشدّ بعناية كل الملاءات ثم جعّدها قليلاً؛ في محاكاة للحال التي وجدها عليها. أعاد كل ثياب ريزا إلى مكانها، طواها وكدّسها فوق بعضها؛ مدركاً أنه لا يتذكر تماماً ترتيبها حين سحبها من الأدراج، لكن ترتيباً تقريبياً سيفي بالغرض.

عندما رفع قميصاً قطنياً وقع شيء صغير منه، وارتطم بقدمه، وتدحرج على الأرض. انحنى ليو إلى الأسفل وأمسكه. كانت قطعة روبل نحاسية، قذفها على الخزانة بجانب سريره، فانشطرت بتأثير ذلك إلى قسمين، وتدحرج كل نصف منفصل على أحد جانبي الخزانة. اقترب من الخزانة محتاراً، ثم جثم قربها، والتقط النصفين ليكتشف أن قلب أحدهما مجوّف، وعند وضع النصفين معاً يبدوان مثل قطعة نقدية عادية. كان ليو قد شاهد إحدى تلك القطع من قبل، وهي أداة لتهريب فيلم مصغّر.

telegram @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

21 شباط

اجتمع لسماع شهادة ليو الرائد كوزمن، وفاسيلي نيكتين، وتيمور رافائيلوفيتش؛ الضابط الذي حلّ مكان ليو في أثناء استجواب أناتولي برودسكي. لم يكن ليو يعرفه جيداً. كل ما يعرفه عنه هو أنّه رجل طموح وقليل الكلام، ويتمتع بمصداقية كبيرة. كانت المعلومات التي يستعد رافائيلوفيتش للإدلاء بها في ما يتعلق بالاعتراف، ومن بينها الإشارة إلى ريزا، مدهشة. ولم يكن ذلك الرجل تابعاً خانعاً لفاسيلي، أو يحترمه، أو يخاف منه. تساءل ليو إن كان فاسيلي قد أقحم اسم ريزا في الاعتراف. لكن، لم تكن له أي سيطرة أو نفوذ على رافائيلوفيتش، ووفقاً لرتبة كل منهما فقد عمل فاسيلي كضابط مرؤوس في أثناء الاستجواب. وفي اليومين الماضيين، كان ليو يعمل مفترضاً أن ذلك فعل انتقام من فاسيلي، لكنه كان مخطئاً، ولم يكن فاسيلي من دبّر ذلك. كان الشخص الوحيد الذي يمكن أن ينظّم تلفيق مثل ذلك الاعتراف الذي يؤيده مثل ذلك الضابط رفيع المستوى هو الرائد كوزمن.

كانت تلك مكيدة نسّقها رئيسه ولا أحد سواه، الرجل الذي تولّى ليو برعايته. كان ليو قد تجاهل نصيحته في ما يتعلق بأناتولي برودسكي. والآن، يجري تلقينه درساً. ما الذي أخبره إيّاه كوزمن؟

العاطفة يمكن أن تعمي الإنسان.

كان ذلك اختباراً، أو تدريباً. والقضية التي كانت موضع التمحيص آنذاك هي كفاءة ليو بصفته ضابطاً. لم يكن لذلك أي علاقة بريزا إطلاقاً،

telegram @ktabpdf مكتبة الرمحي أحمد

لا شيء على الإطلاق. لماذا يُعيّن زوجُ مشتبهٍ فيها للتوثّق من أمر زوجته إلا إن كان الاهتمام الرئيس منصبّاً على الطريقة التي سيتولّى فيها الزوج الأمور في أثناء ذلك التحقيق؟ ألم يكن ليو الشخص الذي لوحق؟ ألم يأتِ فاسيلي ليتوثق إن كان يفتش الشقة على نحوٍ مناسب أم لا؟ لم يكن فاسيلي مهتماً بمحتويات الشقة، بل كان مهتماً بطريقة ليو في العمل. بدا كل شيء منطقياً آنذاك. كان فاسيلي قد حفّزه أمس، إذ طلب منه أن يدين زوجته؛ لأنه يتمنّى أن يفعل ليو العكس تماماً ويساندها. لم يكن يريد أن يدين ليو ريزا، وأن يجتاز ذلك الاختبار. أراده أن يضع حياته الشخصية فوق مصلحة الحزب. كانت تلك خدعة، وكل ما عليه فعله الآن هو أن يثبت للرائد كوزمن أنه مستعد لإدانة زوجته، وأن يُظهر ولاءه المطلق لإدارة أمن الدولة بالتأكيد، وأنّ ثقته لا تتزعزع، وقلبه يمكن أن يكون قاسياً. إذا فعل ذلك فستكون ريزا، وابنه الذي لم يولد بعد، ووالداه بأمان، وسيصبح مستقبله مع إ.أ.د. مضموناً، في حين أن فاسيلي لن يكون ذا شأن.

لكن أليس ذلك افتراضاً؟ ماذا إن كان الخائن، كما اعترف بنفسه، خائناً؟ ماذا إن كان يعمل بطريقة ما مع ريزا؟ ربما كان يقول الحقيقة. لماذا كان ليو واثقاً تماماً بأن ذلك الرجل بريء؟ لماذا كان واثقاً تماماً بأن زوجته بريئة؟ بالمحصلة، لماذا صادقت معلّم أدب منشقًّا؟ ما الذي كانت القطعة النقدية تفعله في شقتهما؟ ألم يجرِ اعتقال الأشخاص الستة الآخرين الذين ذُكِرَت أسماؤهم في الاعتراف، واستجوابهم جميعاً بنجاح؟ كانت اللائحة مثبتة، واسم ريزا وارداً فيها. نعم، كانت جاسوسة. وتوجد في جيبه قطعة النقد النحاسية؛ الدليل الذي يثبت ذلك. كان يستطيع وضع قطعة النقود على الطاولة ويوصي بجلبها مع إيفان زوكوف إلى الاستجواب. شعر بأنه قد غُرّر به، وأن فاسيلي على حق: إنها خائنة. كانت حاملاً بطفل رجل آخر. ألم يعرف دائماً أنها لم تكن مخلصة له؟ لم تكن تحبه، وهو واثق بذلك. لماذا يخاطر بكل شيء من أجلها؟ امرأة باردة نحوه، امرأة تتحمّله على مضض في

أحسن الأحوال. كانت تهديداً لكل ما عمل من أجله، لكل ما حققه لوالديه ولنفسه؛ تهديداً للدولة، البلد الذي قاتل ليو دفاعاً عنه.

كان الأمر واضحاً تماماً: إذا قال ليو إنها مذنبة، فسينتهي الأمر عندها بالنسبة إليه وإلى والديه. كان ذلك مؤكداً. والشيء الآمن الوحيد الذي يمكن أن يفعله. إذا كان ذلك اختباراً لإخلاص ليو، فستنجو ريزا عندها أيضاً، ولا داعي لأن تعرف أبداً. إذا كانت جاسوسة، فسيكون لدى هؤلاء الرجال الدليل سلفاً. وهم ينتظرون الآن ليروا إن كان ليو يعمل معها. إذا كانت جاسوسة، فعليه أن يدينها، فهي تستحق الموت. كان الشيء الوحيد الذي يمكنه فعله هو إدانة زوجته.

بدأ الرائد كوزمن الإجراءات.

- ليو ستيفانوفيتش، لدينا سبب يدعونا إلى الاعتقاد أن زوجتك تعمل لمصلحة وكالات أجنبية. أنت شخصياً لست موضع شبهة في أي جرائم، ولهذا السبب طلبنا منك التحقيق في هذه الادّعاءات. أخبرنا من فضلك ماذا اكتشفت؟

أصبح لدى ليو التأكيد الذي يبحث عنه، فقد كان عرضُ الرائد كوزمن واضحاً. إذا أدان زوجته فسيحتفظ بثقتهم. ماذا قال فاسيلي؟

إذا نجوت من هذه الفضيحة فسترأس يوماً ما إ.أ.د،
وأنا واثق من ذلك.

كانت الترقية مرتبطة بذلك الحكم.

أطبق الصمت على الغرفة، فانحنى الرائد كوزمن إلى الأمام.

- ليو؟

نهض ليو، وشدّ سترة بذلته:

- زوجتي بريئة.

بعد ثلاثة أسابيع

telegram @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

غربي جبال الأورال
بلدة فوالسك

13 آذار

استلم موظفو المناوبة الأخيرة خط تجميع السيارات، فتوقفت إلينايا عن العمل، وبدأت تنظّف يديها باستخدام لوح صابون أسود كريه الرائحة؛ النوع الوحيد المتوافر على الإطلاق. كان الماء بارداً، والصابون لا يرغي - إذ يتفتّت ببساطة إلى قطع دهنية الملمس - لكن، كل ما استطاعت التفكير فيه هو الساعات بين ذلك الوقت وبداية الوردية التالية. لقد خططت لليلتها: أولاً، ستنهي تنظيف الزيت وبرادة الحديد من تحت أظفارها، ثم ستذهب إلى المنزل وتغير ملابسها، وتضع بعض اللون على وجنتيها قبل أن تتجه إلى باساروف؛ وهو مطعم يقع قرب محطة السكك الحديدية.

كان روّاد باساروف أشخاصاً يقصدونه للعمل، ومسؤولين يتوقفون هناك قبل أن يتابعوا رحلاتهم على السكك الحديدية العابرة لسيبيريا شرقاً أو غرباً. ويقدّم المطعم طعاماً - حساء الدُخن، كاشا الشعير، والرنكة المملح - كانت إلينايا تظنّه كله فظيعاً، لكن الأهم هو أنه يقدّم الشراب. ونظراً إلى عدم شرعية بيع الشراب علانية من دون أن يترافق مع الطعام، فقد أصبحت الوجبات وسيلة لتحقيق غاية، وأصبح طبق طعام بمنزلة إذن باحتساء الشراب. في الواقع، لم يكن المطعم أكثر من مشرب ومكان للالتقاء، يتجاهل الجميع فيه قانون عدم بيع شخص واحد أكثر من مئة ملليليتر من الشراب الروسي. كان باساروف، المدير والشخص الذي منح المطعم اسمه، ثملاً دائماً وعنيفاً في أغلب الأحيان. وإذا أرادت إلينايا أن تزاول صنعتها في عقاره، فيجب أن

telegram @ktabpdf

مكتبة الرمحي أحمد

يحصل على حصة. لم يكن بمقدورها أن تتظاهر بأنها تتناول الشراب هناك من أجل المتعة، في حين أنها تتسلل مع زبون يدفع لها. لم يكن أحد يشرب هناك من أجل المتعة. والذين يقصدون المكان هم عابرو السبيل وليسوا السكان المحليين. لكن تلك كانت أفضلية بالنسبة إليها، فهي لم تعد تستطيع العمل مع السكان المحليين الآن. فقد أصابها مرض في الآونة الأخيرة: تقرّحات، وحمّى، وطفح جلدي؛ ذلك النوع من العوارض. وظهرت على اثنين من الزبائن المنتظمين العوارض نفسها تقريباً مما شوّه سمعتها في البلدة، فأصبح لزاماً عليها آنذاك التعامل مع أشخاص لا يعرفونها؛ أفراد لا يمكثون في البلدة وقتاً طويلاً، ولا يكتشفون أنهم يتبولون قيحاً حتى يصلوا فلاديفوستوك أو موسكو، وفقاً لاتجاه سفرهم. لم تشعر بأي سعادة من فكرة قيامها بنقل الجراثيم إلى الآخرين؛ حتى إذا لم يكونوا أشخاصاً لطفاء. لكن، في تلك البلدة، كانت رؤية طبيب بشأن عدوى منقولة جنسياً أكثر خطورة من المرض نفسه. وبالنسبة إلى امرأة غير متزوجة بدا الأمر مثل تسليم اعتراف موقّع بالإقرار بالذنب، ووجدت نفسها مضطرة إلى الذهاب إلى السوق السوداء لتلقي العلاج، لكن ذلك يتطلب مالاً، وربما أموالاً طائلة، فأخذت تدّخر آنذاك من أجل شيء مختلف، شيء أكثر أهمية؛ فرارها من تلك البلدة.

بحلول وقت وصولها، كان المطعم مكتظاً، والبخار يغطّي النوافذ، والجو يعبق بالماخوركا؛ التبغ الرخيص. سمعت ضحكات الثملين قبل خمسين خطوة من دخولها عبر الباب، وخمّنت أنهم جنود، واكتشفت أن ذلك صحيح. كان هناك دائماً نوع من التدريبات العسكرية التي تحدث في الجبال، يجريها عادة أفراد خارج الخدمة. اعتاد باساروف أن يزوّد ذلك النوع من الزبائن بطعام يعدّه على نحو خاص، يقدم لهم الشراب مخفّفاً بالماء، ويدّعي إذا اشتكى أحد - وهم يفعلون ذلك غالباً - أنها مبادرة نبيلة للحد من الثمالة، لكن لم تكن تقع شجارات كثيرة هناك. كانت تعرف أنه بالرغم من كل كلامه عن قسوة حياته ومدى شناعة زبائنه، إلا أنه يجني أرباحاً جيدة من

telegram @ktabpdf

مكتبة الرمحي أحمد

بيع الشراب السيئ الذي يغشّه. كان انتهازياً وحثالة، وقد صعدت قبل شهرين إلى الطابق الأعلى لتدفع له حصته الأسبوعية، ورأته من خلال شقٍّ في باب غرفة نومه يعدّ ورقة روبل تلو أخرى، ويحتفظ بها في صندوق معدني يغلقه بإحكام بواسطة سلك. راقبته، وهي تكاد لا تجرؤ على التنفس، حين لف صندوقه في قطعة قماش قبل أن يخفيه في مدخنته؛ ومنذ ذلك الوقت حلمت بسرقة ذلك المال والهروب به. وبالطبع سيدقّ باساروف عنقها إذا أمسكها، لكنها تخيّلت أنه إذا اكتشف أن صندوقه المعدني فارغ، فإن قلبه سيتوقف عن الخفقان فوراً، وسيقع أرضاً بجانب مدفأته، وأضحت واثقة تماماً أن قلبه والصندوق شيء واحد لا انفصام فيه.

وفقاً لتقديرها، كان الجنود سيتناولون الشراب لعدّة ساعات أخرى، وكل ما يفعلونه في تلك اللحظة هو التودّد إليها؛ وهذا امتياز لم يكونوا يدفعون مقابله إلا إذا اعتبر الشراب المجاني دفعة على الحساب، لكن ليس بالنسبة إليها. نظرت إلى الزبائن الآخرين، واقتنعت أن بمقدورها كسب مال إضافي قبل أن يبدأ الجنود بالتهافت عليها. كان أفراد الجيش يشغلون المقاعد الأمامية، ويبعدون الزبائن الآخرين إلى الخلف. كانوا يجلسون وحدهم مع مشروباتهم وأطباقهم التي لم يمسّوها. لا شك في ذلك؛ كانوا يبحثون عن علاقة، فليس هناك سبب آخر لوجودهم في ذلك المكان.

شدّت إلينايا ثوبها، وأنهت كأسها، وسلكت طريقها بين الجنود، متجاهلة القرصات والملاحظات حتى وجدت نفسها قرب إحدى الطاولات الخلفية. كان الرجل الجالس هناك يبلغ من العمر نحو أربعين سنة، أو أصغر قليلاً؛ لأن تحديد ذلك بدا صعباً. لم يكن وسيماً، ولكنها قدّرت أنه سيدفع على الأرجح مبلغاً أكبر قليلاً بسبب ذلك. كان يجول في أذهان الأشخاص الأكثر وسامة أحياناً أن المال ليس ضرورياً؛ وكأن اللقاء سيصبح ممتعاً للطرفين. جلست، ووضعت ساقها على فخذه وابتسمت:

– اسمي تانيا.

كان يساعدها، في أوقات مثل تلك، أن تظن أنها امرأة أخرى.

أشعل الرجل لفافة تبغ، ووضع يده على ركبة إلينايا، ولم يزعج نفسه بأن يشتري لها شراباً، وإنما أفرغ نصف الشراب الذي يشربه في إحدى الكؤوس العديدة المتسخة التي تحيط به، ودفعها نحوها. داعبت الكأس، وهي تنتظر أن يقول شيئاً. أنهى شرابه من دون أن تظهر عليه أي علامة تشير إلى رغبته في الحديث. حاولت ألاّ تحرّك عينيها، وحثّته على إجراء حوار:

- ما اسمك؟

لم يجب، مدّ يده إلى جيب معطفه، وبحث فيه، ثم أخرج يده مغلقاً قبضته. فهمت أن تلك لعبة من نوعٍ ما وأنه يتوقع أن تلعب معه. ربتت على مفاصله، فقلب قبضة يده رأساً علىَ عقب، وفتح أصابعه ببطء، الواحدة تلو الأخرى...

كان يحمل في وسط راحة كفه قطعة صغيرة من الذهب. انحنت إلى الأمام، وقبل أن تتمكن من إلقاء نظرة جيدة عليها أغلق يده وأعادها إلى جيبه. لم يكن قد نبس ببنت شفة حتى ذلك الوقت. أمعنت النظر إلى وجهه، ورأت أن عينيه محتقنتان بفعل الشراب. لم تحبّه على الإطلاق؛ لكنها أدركت آنذاك أنها لم تحب الكثير من الناس، وبالتأكيد ليس أحد الرجال الذين عاشرتهم. وإذا أرادت أن تغضب من ذلك، فعليها أن تعتزل العمل، وتتزوج أحد هؤلاء السكان المحليين، وتحكم على نفسها بالبقاء في تلك البلدة إلى الأبد. كانت الطريقة الوحيدة لعودتها إلى لينينغراد، حيث تعيش أسرتها، وحيث عاشت طوال حياتها حتى أُمرت بالانتقال إلى ذلك المكان؛ إلى بلدة لم تسمع بها قط من قبل، هي ادخار مالٍ كافٍ لرشوة المسؤولين. ولأنّها لا تملك أصدقاء أقوياء رفيعي المستوى لإقرار ذلك النقل، فستحتاج إلى تلك القطعة الذهبية.

- أتريدين بعض الشراب؟

- تدفع لي أولاً، ثم يمكنك إخباري ما ترغب في فعله. تلك هي

telegram @ktabpdf

مكتبة الرمحي أحمد

القاعدة؛ تلك هي القاعدة الوحيدة.

اختلج وجه الرجل وكأنها ألقت حجراً على سطح تعبيره. للحظة، رأت شيئاً تحت مظهره الريّان الدمث، شيئاً غير سار جعلها ترغب في أن تشيح بصرها بعيداً، لكن قطعة الذهب جعلتها تستمر في النظر إليه، وأبقتها جالسة على مقعدها. أخرج القطعة من جيبه، وقدّمها لها، وعندما مدّت يدها والتقطتها من راحة كفّه المتعرّقة، أغلق يده، وأمسك أصابعها. لم يؤلمها ذلك، لكن أصابعها بقيت عالقة، وكان بمقدورها إما أن تستسلم لقبضته أو أن تسحب يدها من دون القطعة الذهبية. خمّنت ما كان متوقعاً منها، فابتسمت وضحكت مثل فتاة بائسة، وتركت ذراعها تسترخي. أفلت قبضته، فأخذت القطعة الذهبية، وحدّقت إليها لتكتشف أنها على شكل سنّ. حدّقت إلى الرجل.

- من أين حصلت عليها؟

- عندما تصبح الأوقات صعبة، يبيع الناس كل ما لديهم.

ابتسمت، لكنها شعرت بالغثيان. أي نوع من العملة تلك؟ نقر على كأس الشراب. كانت تلك السن بطاقة خروجها من هناك، وتجرّعت شرابها كلّه.

* * *

توقفت إلينايا عن المشي.

- أنت تعمل في المصانع ؟

كانت تعرف أنه لا يعمل هناك. لكن، لم تكن هناك منازل حولها باستثناء بيوت عمّال المصانع. لم يزعج نفسه حتى بالرد.

- مهلاً، إلى أين نحن ذاهبان؟

- كدنا نصل.

قادها إلى محطة السكك الحديدية في مشارف البلدة. وبالرغم من أن المحطة نفسها كانت جديدة إلا أنها تقع ضمن أحد أقدم الأحياء. فهو مكوّن

من أكواخ آيلة للسقوط، يتألف كل منها من غرفة واحدة، سطحها قصديري، وجدرانها من الخشب الرقيق. كانت الأكواخ تصطف جنباً إلى جنب على طول شوارع تفوح منها رائحة المجاري النتنة. كانت تلك الأكواخ تخص العمّال في مصنع الخشب، الذين يعيش كل خمسة منهم أو ستة أو حتى سبعة في غرفة واحدة، ولا ترقى إلى ما يوجد في أذهانهم.

كان البرد قارساً، وإلينايا صاحية تماماً، وتشعر بأن ساقيها بدأتا تتعبان.

- هذا وقتكَ. قطعة الذهب تمنحكَ ساعة واحدة، وفقاً لما اتفقنا عليه. إذا حسبت الوقت الذي يلزمني للعودة إلى المطعم، فهذا يترك لك عشرين دقيقة بدءاً من الآن.

- إنه قرب نهاية المحطة.

- لا يوجد إلا الغابة في الخلف.

- سترَين.

تقدم إلى الأمام مسرعاً، ووصل إلى جانب المحطة، وأشار إلى الظلام. دفعت يديها في جيبَي سترتها، ثم لحقت به، ونظرت إلى الاتجاه الذي أشار إليه، واستطاعت رؤية خطوط سكك حديدية تختفي في الغابة ولا شيء آخر.

- ما الذي أنظر إليه؟

- هناك.

كان يشير إلى كوخ خشبي صغير على أحد طرفي خط السكة الحديدية، ليس بعيداً عن طرف الغَابة.

- أنا مهندس، وأعمل في السكك الحديدية. ذلك كوخ الصيانة، وهو منعزل تماماً.

- كانت غرفة ستفي بالغرض.

- لا يمكنني اصطحابك إلى حيث أسكن.

- أعرف مكاناً كان بمقدورنا الذهاب إليه.

- الأمر أفضل على هذا النحو.

- ليس لي، إنه غير مناسب.

- كانت هناك قاعدة واحدة. أدفع لكِ، وتطيعينني. إما أن تعيدي إلي القطعة الذهبية، أو تفعلين ما أقوله.

لم يكن أي شيء يتعلق بذلك الأمر جيداً؛ باستثناء القطعة الذهبية. مدّ ذراعه منتظراً أن ترد قطعة الذهب. لم يبدُ عليه الغضب أو خيبة الأمل أو نفاد الصبر، ووجدت إلينايا عدم الاكتراث ذاك مريحاً فبدأت تمشي نحو الكوخ.

- ستحظى في الداخل بعشر دقائق، اتفقنا؟

لم يُجِب، فاعتبرت صمته موافقةً.

كان الكوخ موصداً، لكنه أخرج مجموعة مفاتيح. وبعد أن تحسّس المفتاح المناسب، واجه صعوبة مع القفل.

- إنه متجمد.

لم تُجِب، وأدارت رأسها إلى الجانب، وتنهّدت لتشير إلى عدم رضاها. كان التكتّم أمراً مطلوباً، وقد افترضت آنذاك أنه متزوج. ولكن، نظراً إلى أنه لا يعيش في تلك البلدة، فلم تفهم ما مشكلته. ربما كان يسكن مع أسرة أو أصدقاء، أو أنه عضو بارز في الحزب. لم تكترث بذلك، فكل ما أرادته هو أن تنقضي الدقائق العشر التالية.

جثم أرضاً، وضم كفّيه حول القفل، ونفخ عليه بقوّة، فانزلق المفتاح، وطقطق القفل حين فُتح. بقيت في الخارج، فإذا لم يكن هناك أي ضوء فستلغي الاتفاق وتحتفظ بالقطعة الذهبية. كانت قد منحت ذلك الرجل آنذاك وقتاً أكثر من كافٍ، وإذا أراد إضاعته في رحلة إلى مكان مجهول، فإن ذلك شأنه وحده.

دخل الكوخ، واختفى في الظلام، ثم سمعت صوت عود ثقاب يُشعل. اهتز الضوء تحت زجاجة القنديل قبل أن يرفعه ويعلّقه على خطّاف معقوف يتدلى من السقف. نظرت إلى الداخل، ورأت أن الكوخ مملوء بقطع السكك

telegram @ktabpdf

مكتبة الرمحي أحمد

الإضافية، وصواميل، وبراغ، وأدوات، وأخشاب، وشمّت رائحة قطران. بدأ يزيل كل شيء عن إحدى الطاولات، فضحكت.

- ستدخل الشظايا في مؤخرتي.

لدهشتها تورّد خجلاً، ووضع معطفه بشكل ارتجالي على الطاولة، فدخلت المكان.

- أنت سيد نبيل حقاً...

عادة، كانت تخلع معطفها، وربما تجلس على السرير وتنزع جورباً، وتجعل ذلك يبدو مغرياً. لكن، من دون سرير أو تدفئة، كل ما كانت تخطط للسماح له بفعله هو رفع فستانها، في حين أنها لن تخلع باقي ملابسها.

- آمل ألاّ تمانع إذا لم أخلع سترتي؟

أغلقت الباب وهي لا تتوقع أن يمثّل ذلك فارقاً كبيراً في الحرارة، فقد كان الكوخ بارداً جدًّا في الداخل؛ مثل الخارج تماماً. ثم استدارت.

كان الرجل أقرب إليها مما تتذكر، ولمحت شيئاً معدنياً آتياً نحوها، ولم يكن لديها وقت لتكتشف ماهيته. مسّ ذاك الشيء جانب وجهها، وسرى الألم في جسدها من نقطة الاحتكاك عبر عمودها الفقري إلى ساقيها. استرخت عضلاتها، وخارت ساقاها وكأن أوتارها قد قُطعت. سقطت إلى الخلف على باب الكوخ وقد تشوش بصرها، وشعرت بحرارة في وجهها، وسال الدم في فمها. كادت تفقد وعيها، لكنها كافحت ضد ذلك، وأرغمت نفسها على البقاء مستيقظة، وركّزت على صوته.

- ستفعلين ما أقوله بالضبط.

هل سيرضي الخضوع ذلك الرجل؟ اندفعت قطع من سن مكسورة في لثتها، وأقنعتها بخلاف ذلك. لم تشعر بأنه سيكون رحيماً بها، وإذا كانت ستموت في بلدة تكرهها، في بلدة نُقلت إليها بموجب أمر حكومي إلزامي، على بعد ألف وسبعمئة كيلومتر عن أسرتها، فلن تفعل ذلك قبل أن تفقأ عيني ذلك الوغد.

أمسك ذراعيها متوقعاً أن تكون مقاومتها قد تلاشت، فبصقت ملء فمها دماً وبلغماً باتجاه عينيه، وتفاجأ بالتأكيد لأنه سرعان ما أفلتها. شعرت بالباب خلفها، فدفعت نفسها إليه ففُتح، وسقطت على الثلج في الخارج، على ظهرها، محدقة إلى السماء. أمسك قدمها، لكنها ركلته على نحو مسعور، محاولة الابتعاد عن متناول يده. حاول إمساك إحدى قدميها بقوة، وسحبها إلى الكوخ، لكنها ركّزت، وسدّدت ركلة؛ فأصاب كعبُها فكَّه. كانت تسديدة محكمة، فاستدار رأسه على إثرها، وسمعته يصرخ. أفلتها من قبضته، فقلبت نفسها على بطنها، ثم نهضت وركضت.

ركضت مترنحة كالعمياء، واستغرقها الأمر ثانيتين لتدرك أنها تجري بعيداً عن البلدة، وعن المحطة، وأنها تجري على خطوط السكة الحديدية. دفعتها غريزة البقاء إلى الابتعاد عنه، لكنها خذلتها، فقد كانت تجري بعيداً عن بر الأمان. نظرت إلى الخلف، ورأته يطاردها. كانت أمام خيارين: إمّا أن تستمر في الركض في ذلك الاتجاه أو تستدير عائدة نحوه. لم تكن هناك طريقة يمكن أن تتفاداه بها. حاولت أن تصرخ لكن فمها كان مليئاً بالدم. غصّت، وبقبق الدم في فمها، ثم أبطأت قليلاً فتقلصت المسافة بينهما، وبدأ يقترب منها.

فجأة، بدأت الأرض تهتز. وحين نظرت جيّداً رأت قطار شحن يقترب منهما مسرعاً، وأعمدة دخان تتصاعد من مقدّمته الحديدية العالية. رفعت ذراعيها ملوّحةً. لكن، حتى إن رآها السائق، فلم يكن بإمكانه التوقف في الوقت المناسب؛ فهو بعيد عنها مسافة خمسمئة متر. لم تكن هناك إلا ثوانٍ فقط قبل الاصطدام، لكنها لم تبتعد عن خط السكة الحديدية، وتابعت طريقها نحو القطار، وهي تجري بسرعة أكبر، فبدت وكأنها تنوي رمي نفسها تحته. لم تظهر على القطار أي علامة تشير إلى تخفيفه سرعته، ولم تسمع صوت مكابح معدنية، أو صافرة. كانت قريبة منه جداً، وتكاد الاهتزازات توقعها أرضاً.

telegram @ktabpdf

مكتبة الرمحي أحمد

عندما أوشك القطار أن يصدمها، رمت نفسها إلى جانب السكة فوق الثلج السميك. قعقعت القاطرة والعربات في أثناء مرورها بجانبها، وجعلت الثلج يتساقط عن أغصان الأشجار القريبة. نظرت خلفها وهي تلهث، آملة أن يكون مطاردها قد سحق، أو علق في الطرف الآخر من السكة الحديدية، لكنه كان يستجمع قواه بعد أن قفز إلى جانبها، واستلقى على الثلج. نهض، وتقدم منها مترنحاً.

بصقت الدم من فمها، وصرخت بنداء استغاثة يائس. كان ذلك قطار شحن، وليس هناك من يسمعها أو يراها. نهضت وركضت، وعندما وصلت إلى طرف الغابة، لم تخفف سرعتها، وإنما اندفعت عبر الأغصان البارزة من الأشجار. كانت خطتها أن تدور حول المكان، وتعود إلى خط السكة الحديدية لتتوجه إلى البلدة. لم يكن بمقدورها الاختباء، فقد كان قريباً جداً منها، وضوء القمر ساطعاً. وبالرغم من معرفتها أنه من الأفضل لها أن تركّز على الجري، إلا أنها استسلمت للإغراء. كان عليها أن تنظر، وتعرف أين أصبح، فاستدارت إلى الخلف.

كان قد اختفى، ولم تستطع رؤيته، فيما كان القطار لا يزال يدوي متجاوزاً إياها. فكّرت في أنها قد تخلّصت منه من دون شك حين دخلت الغابة. غيّرت اتجاهها، وركضت عائدة نحو البلدة، إلى بر الأمان.

فجأةً، خرج الرجل من خلف شجرة، وأمسكها من معصمها، فوقعا على الثلج، وجثم فوقها، ومزّق سترتها وهو يصرخ. لم تتمكن من سماعه بسبب صوت القطار، وكل ما استطاعت رؤيته هو أسنانه ولسانه؛ ثم تذكّرت: لقد استعدت لتلك اللحظة. مدّت يدها إلى جيب معطفها، وتحسّسته بحثاً عن إزميل سرقته من العمل. كانت قد استخدمته من قبل، لكن للتهديد فقط، حتى تُثبتَ أن بمقدورها القتال إذا فُرض القتال عليها. أمسكت بمقبض الإزميل الخشبي. لم تكن لديها إلا فرصة واحدة لفعل ذلك. عندما مرّر يده على فستانها دفعت النصل المعدني في جانب رأسه، فجلس منتصباً،

وهو يمسك أذنه. ضربته مجدداً، فجرحت اليدَ التي أمسك بها أذنه. كان عليها أن تضربه مراراً وتكراراً، وأن تقتله، لكن رغبتها في الابتعاد عنه كانت قوية جداً. زحفت إلى الخلف على يديها وقدميها مثل حشرة، وهي لا تزال تمسك بالإزميل الملطخ بالدم.

جثم الرجل على يديه وركبتيه، وزحف خلفها. كان جزء من شحمة أذنه مقطوعاً. وكان تعبير وجهه غاضباً. اندفع إلى الأمام وهو يريد الإمساك بكاحليها، لكنها استطاعت بصعوبة البقاء بعيداً عن متناول يده، وسبقته حتى استند ظهرها إلى جذع شجرة. عندما توقفت فجأة، لحق بها، وأمسك كاحلها، لكنها طعنت يده بالإزميل وجرحته. أمسك معصمها، وسحبها نحوه. وعندما أصبحا وجهاً لوجه، انحنت إلى الأمام، وحاولت أن تعض أنفه، لكنه أمسك عنقها بيده الطليقة، وضغط عليه، مبتعداً عن متناول يدها. لهثت، وحاولت أن تحرّر نفسها منه، لكن قبضته كانت قوية جداً. شعرت بالاختناق، فرمت بثقلها جانباً، ووقع كلاهما على الأرض وتدحرجا على الثلج، فوق بعضهما.

أفلت قبضته، وترك عنقها على نحو لا يمكن تفسيره. سعلت، والتقطت أنفاسها. كان الرجل لا يزال فوقها، وهو يثبّتها إلى الأرض، لكنه لم يعد ينظر في اتجاهها، وتحوّل انتباهه إلى شيء مختلف؛ شيء إلى جانبه. أدارت رأسها.

كانت بجانبها جثة فتاة يافعة عارية مطمورة بالثلج. جلدها شاحب وشفاف تقريباً، وشعرها أشقر يكاد أن يكون أبيضَ، وفمها مفتوح ومملوء تراباً، حيث بدا التراب وكأنه كومة ترتفع فوق شفتيها الزرقاوين الرقيقتين. بدت ذراعا الفتاة وساقاها ووجهها خالية من الجروح، ومغطاة بطبقة رقيقة من الثلج تناثرت حين تدحرجا عليها. كان جذعها مشقوقاً، وأعضاؤها مكشوفة وممزقة، ومعظم جلدها مفقوداً أو منتزعاً أو منهوشاً، وكأن قطيعاً من الذئاب قد هاجم الجثة.

telegram @ktabpdf مكتبة الرمحي أحمد

نظرت إلينايا إلى مطاردها الذي بدا أنه نسي أمرها، وأخذ يحدق إلى جثة الفتاة. بدأ يتقيّأ، وانحنى جانباً. ومن دون أي تفكير، وضعت يدها على ظهره في محاولة للتخفيف عنه، ثم تمالكت أعصابها، وتذكرت من كان ذلك الرجل، وما فعله بها، فسحبت يدها بعيداً، ونهضت وركضت. لم تخذلها غريزة البقاء هذه المرة، خرجت من الغابة، وركضت نحو المحطة. لم تكن لديها فكرة إن كان الرجل لا يزال في إثرها أم لا، فهي لم تصرخ هذه المرة، أو تخفف سرعتها، أو تنظر إلى الخلف.

موسكو

14 آذار

فتح ليو عينيه، فبهر كشّاف بصره. لم يكن بحاجة إلى التوثق من ساعته ليعرف الوقت، فقد كانت تلك ساعة الاعتقال؛ الرابعة صباحاً. خرج من السرير وقلبه يخفق بقوة، ثم ترنّح في الظلام مرتبكاً، وارتطم برجُل فدفعه جانبياً. تعثّر لكنه استعاد توازنه. وبعد أن اعتادت عيناه سطوع الضوء رأى ثلاثة شبان، لا تتجاوز أعمارهم الثامنة عشرة. كانوا مسلحين، ولم يعرفهم ليو لكنه عرف أنهم من رتب منخفضة، ومطيعون من دون تفكير، وسيلتزمون بأي أوامر تصدر لهم، وسيلجأون إلى العنف من دون تردد؛ وسيردون على أي مقاومة بسيطة بعنف شديد. فاحت منهم روائح السجائر والشراب، وافترض ليو أن هؤلاء الرجال لم يناموا بعد. فلقد شربوا كل الليل، وبقوا مستيقظين من أجل تنفيذ هذه المهمة. لن يكون من الممكن توقّع تصرفاتهم نتيجة تناولهم الشراب. وكي ينجو في الدقائق القليلة التالية، سيتوجب عليه توخي الحرص، والإذعان لهم؛ وتمنّى أن تفهم ريزا ذلك أيضاً.

كانت ريزا تقف في ثياب نومها مرتعشةً؛ ولكن ليس من البرد. ولم تكن واثقة إن كان ذلك بسبب الصدمة أو الخوف أو الغضب. لم تتمكن من إيقاف ارتعاشها، لكنها لم تشح ببصرها بعيداً. لم تشعر بالإحراج، فهم من يجب أن يكونوا محرجين من انتهاك حرمة منزلها، ورؤية ثوب نومها المجعّد، وشعرها غير المصفف. لا، لم يكونوا مكترثين. فالأمر سيّان لهم، وهو جزء من عملهم. لم ترَ حساسية في عيون هؤلاء الفتيان، التي بدت باهتة، وتتحرك من جانب إلى آخر مثل عيون الزواحف. أين كانت إ.أ.د. تجد هؤلاء الفتيان

telegram @ktabpdf

مكتبة الرمحي أحمد

بقلوبهم الميتة؟ كانت واثقة أنها تجعلهم على تلك الحال. نظرت إلى ليو الذي كان يقف ويداه أمامه، مطأطئ الرأس ليتفادى التواصل البصري مظهراً التواضع، والخنوع. ربما كانت تلك هي طريقة التصرف الذكية. لكنها لم تكن تشعر بالذكاء آنذاك؛ لأنّ هناك ثلاثة سفاحين في غرفة نومهما. لذا، أرادت أن يتحدّاهم، ويغضب منهم. هل كان ذلك ردّ الفعل الطبيعي حقاً؟ سيشعر رجل عادي بغضب شديد، لكن ليو بقي دبلوماسيًّا حتى الآن.

غادر أحد الرجال الغرفة، وعاد فوراً تقريباً وهو يحمل صندوقين صغيرين.

- هذا كل ما يمكنكما أن تأخذاه. لا تستطيعان حمل شيء من مقتنياتكما باستثناء ملابسكما وأوراقكما. سنغادر بعد ساعة سواء أكنتما مستعدين أم لا.

حدّق ليو إلى الصندوقين المصنوعين من قماش مشدود فوق هيكل خشبي. كانت مساحة تخزينهما صغيرة، وتكاد لا تكفي رحلة ليوم واحد. استدار إلى زوجته:

- ارتدي كل الملابس التي تستطيعين ارتداءها.

نظر خلفه، ورأى أحد الشبان الثلاثة يراقب وهو يدخن.

- هل يمكنك الانتظار في الخارج؟

- لا تُضِع الوقت في تقديم طلبات. الجواب على كل شيء هو لا.

بدّلت ريزا ملابسها، وشعرت أن نظرات الحارس الدنيء تجول على جسدها. ارتدت قدر ما تستطيع من الملابس؛ طبقات فوق أخرى. وفعل ليو الشيء نفسه. ربما بدا الأمر هزلياً في ظروف أخرى، لكن أوصالهما انتفخت بسبب القطن والصوف. عندما انتهت ريزا من ارتداء الملابس، فكّرت في الأشياء التي يجب أن تأخذها معها من بين كل مقتنياتهما، وتلك التي ستكون مرغمة على تركها خلفها. أمعنت النظر إلى الصندوق، الذي لم يكن عرضه يتجاوز تسعين سنتيمتراً، فيما كان ارتفاعه ستين سنتيمتراً،

وعمقه عشرين سنتيمتراً. كان عليهما أن يوجزا حياتهما لتناسب ذلك الحيّز.

عرف ليو أن هناك احتمالاً بأنهم يطلبون منهما حزم أمتعتهما فقط ليقتادوهما من دون أن يُحدثا أي جلبة، أو صراعٍ قد يترافق مع إدراكهما أنهما يساقان إلى حتفهما. كان أمراً سهلاً دائماً اقتيادُ الناس إذا تعلقوا بفكرة أنهم سينجون، بغض النظر عن ضآلتها. على أيّ حال، ماذا يستطيع أن يفعل؟ أيستسلم؟ أم يقاتل؟ أجرى عدّة حسابات سريعة. كانت مساحة ثمينة ستضيع هباءً إذا أخذا كتاب الدعاة أو دورة قصيرة في الحزب البلشفي، اللذين لا يمكن الاستغناء عن أي منهما من دون اعتبار ذلك إشارة سياسية مخرّبة، وفي ورطتهما آنذاك كان القيام بمثل ذلك العمل المتهوّر انتحاراً. أمسك الكتابين، ووضعهما في الصندوق؛ أول شيئين يختاره أي منهما. كان حارسهما الشاب يراقب كل شيء، ويرى ما يجري، والخيارات التي يتخذانها. مسّ ليو ذراع ريزا.

- خذي أحذيتنا. انتقي أفضل نعلين لكل منا.

كانت الأحذية الجيدة نادرة، وسلعة ثمينة يمكن مقايضتها.

جمع ليو الملابس، وقطعاً ثمينة، ومجموعتهما من الصور: صور زفافهما، وصور والديه ستيفان وآنا. ولم تكن هناك صور لأسرة ريزا، فقد لقي والداها حتفهما في الحرب الوطنية العظمى، ودُمّرت قريتها عن بكرة أبيها. خسرت ريزا كل شيء باستثناء الملابس التي كانت ترتديها. عندما امتلأ صندوقه، استقر بصر ليو على قصاصة الصحيفة المؤطرة المعلّقة على الجدار: صورته هو؛ بطل الحرب، ومدمّر الدبابة، ومحرّر التراب المحتل. لم يكن ماضيه يمثّل فرقاً لهؤلاء الحراس. فبعد توقيع أمر الاعتقال يصبح كل فعل بطولة وتضحية شخصية أمراً غير ذي شأن. أخرج ليو القصاصة من الإطار. بعد سنوات من الحفاظ عليها بكل حرص، وتثبيتها على الجدار وكأنها أيقونة، طواها من منتصفها ورماها في الصندوق.

انتهى وقتهما، أغلق ليو صندوقه، وأغلقت ريزا صندوقها. تساءل إن

telegram @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

كانا سيريان تلك الشقة مجدداً، لكن ذلك بدا مستبعداً.

رافقهما الحرّاس إلى الأسفل، وحُشِر الخمسة في المصعد متلاصقين. كانت هناك سيارة تنتظرهم، وجلس اثنان من الرجال في المقدمة، في حين جلس الثالث في الخلف. كانت رائحة أنفاس الرجل الثالث كريهة، وحشر نفسه بين ليو وريزا.

- أود رؤية والديّ، وأن أودّعهما.

- ليس هناك أيّ طلبات لعينة.

* * *

كانت الساعة الخامسة صباحاً، وقاعة المغادرة مكتظّة آنذاك. وكان الجنود، والركاب المدنيون، وعمّال المحطة يتجولون جميعاً حول قطار عبر - سيبيريا السريع. بدت القاطرة، التي لا تزال مدرّعة بصفائح حديدية منذ زمن الحرب، مزينة على جانبيها بكلمتي تحيا الشيوعية. عندما أخذ الركاب يصعدون على متن القطار، انتظر ليو وريزا عند نهاية الرصيف وهما يحملان صندوقيهما، وقد أحاط بهما حرّاسهما المسلحون وكأنهم مصابون بفيروس معدٍ. لم يقترب أحد منهم، وبدوا مثل فقاعة معزولة في محطة مزدحمة. لم يحصلا على إيضاح، ولم يزعج ليو نفسه بالسؤال عن ذلك. لم تكن لديه فكرة عن المكان الذي يتوجهان إليه أو الشخص الذي ينتظرهما. كان هناك احتمال بأن يُرسلا إلى معسكري غولاغ مختلفين، ولا يشاهدا بعضهما مجدداً. على أيّ حال، كان ذلك قطار ركاب على نحو جلي، وليس مركبات زاك؛ شاحنات الماشية الحمراء التي تستخدم لنقل السجناء. هل من الممكن أن ينجُوَا بحياتيهما؟ لم يكن هناك شك في أن الحظ قد وقف إلى جانبهما حتى ذلك الوقت، فقد كانا لا يزالان حيين، معاً؛ وهو شيء لم يكن ليو يجرؤ أن يتمنّاه.

أُرسل ليو إلى المنزل بعد إدلائه بشهادته، ووُضِع قيد الإقامة الجبرية حتى يتم اتخاذ قرار بشأنه، والذي لم يكن من المتوقع أن يستغرق أكثر من

يوم واحد. أدرك في طريقه إلى شقته، في الطابق الرابع عشر، أنه لا يزال يحتفظ في جيبه بالقطعة النقدية المجوّفة التي تكوّن دليلاً جنائياً. ربما كان فاسيلي هو من وضعها هناك، وربما لا، لكن ذلك لم يعد مهماً. عندما وصلت ريزا إلى المنزل عائدة من المدرسة وجدت جنديين مسلحين خارج بابهما قاما بتفتيشها وأمراها بالبقاء في الداخل. شرح لها ليو ورطتهما: الادّعاءات ضدها، والتحقيق الذي أجراه، وإنكاره التهم. لم يكن بحاجة إلى أن يشرح أن فرص نجاتهما ضئيلة. وعندما تكلم، أصغت السمع من دون أي تعليق أو سؤال، ووجهها خالٍ من أي تعبير، وأصابه ردّها حين انتهى من الكلام بالدهشة.

- كانت سذاجة أن نظن أن ذلك لن يحدث لنا أيضاً.

جلسا في شقتهما، وهما يتوقعان أن تأتي إ.أ.د. في أي لحظة، ولم يزعج أي منهما نفسه بالطهي، ولم يشعر أي منهما بالجوع بالرغم من أن الشيء المنطقي الذي يمكن فعله هو تناول أكبر كمية من الطعام استعداداً لما قد يواجهانه. لم يخلعا ملابسهما ليخلدا إلى النوم، أو يتحركا من خلف طاولة المطبخ. جلسا صامتين، ومنتظرين. ومع الأخذ في الحسبان أنهما قد لا يشاهدان بعضهما مجدداً، شعر ليو بحافز يدفعه للحديث إلى زوجته: أن يقول أشياء يجب أن تقال، لكنه لم يستطع أن يستنبط ماهيتها. أدرك مع انقضاء الساعات أن ذلك أطول وقت يمضيانه معاً، وجهاً لوجه، على نحو متواصل، وفقاً لما يتذكره. لم يكن أي منهما يعرف ما يفعله في ذلك الوقت.

لم يسمعا قرعاً على الباب تلك الليلة، وتجاوزت الساعة الرابعة فجراً من دون أن يُعتقلا. ومع اقتراب النهار من منتصفه في اليوم التالي، حضّر ليو طعام الفطور متسائلاً عمّا يؤخرهم. عندما سمعا أول ضربة على الباب أخيراً، وقف ليو وريزا، وهما يتنفسان بسرعة، ويتوقعان أن تلك هي النهاية، وأن الجنود قد وصلوا لاعتقالهما، وفصلهما عن بعضهما، واقتيادهما إلى الاستجواب في مكانين منفصلين. لكن، بدلاً من ذلك، تبين أنه أمر عادي:

فقد تغيّر الحرّاس، وأراد أحد الجنود استخدام حمّامهما، وطرح عليهما أسئلة عن شراء الطعام. ربما لم يستطيعوا العثور على أي دليل، وسيُطلق سراحهما وتنهار القضية الموجهة ضدهما. لم تراود تلك الأفكار ليو إلا لوقت قصير؛ فالاتهامات لا تنهار أبداً نتيجة الافتقار إلى الأدلّة. وبالرغم من ذلك، امتد اليوم إلى يومين، واليومان إلى أربعة.

بعد أسبوع من احتجازهما، دخل حارس الشقة وهو شاحب الوجه. عندما رآه ليو أدرك أن وقتهما قد حان أخيراً، لكنه استمع إلى الحارس وهو يعلن، بصوت يجيش عاطفة، أن قائدهم ستالين قد مات. وسمح ليو لنفسه آنذاك فقط أن يفكّر في أنّه ربما كانت لديهما فرصة للنجاة.

بعد أن حصل على تفاصيل مبهمة عن موت قائدهم - فقد كانت الصحف هستيرية، والحرّاس هستيريين - فإن كل ما استطاع ليو التّوصل إليه هو أن ستالين قد توفي بسلام في سريره، وأن كلماته الأخيرة كانت عن بلادهم العظيمة ومستقبلها الرائع. لم يصدّق ليو ذلك مطلقاً، فقد اعتاد على الارتياب والمكائد، مما يجعله لا يغفل عن رؤية تصدّعات في القصة. كان يعرف من عمله أن ستالين قد اعتقل أخيراً أفضل أطباء البلاد، الذين أمضوا حياتهم العملية كلها في العناية بصحته، بوصف ذلك جزءاً من عملية التخلص من شخصيات يهودية بارزة. ولم تكن مصادفة أن ستالين قد مات لأسباب طبيعية على ما يبدو في وقت لا يوجد فيه أطباء متمرّسون لتحديد سبب مرضه المفاجئ. ومع تنحية الجانب الأخلاقي جانباً، كانت حملة التطهير التي أطلقها القائد خطأً تكتيكياً، فقد تركته مكشوفاً. لم تكن لدى ليو فكرة إن كان ستالين قد قُتل أم لا. وبسبب احتجاز الأطباء، أصبح أي قتلة محتملين أحراراً في فعل ما يريدونه؛ أي أن يتراجعوا إلى الخلف، ويشاهدوه وهو يموت، مطمئنين إلى حقيقة أن الرجال والنساء الذين يمكن أن يمنعوهم متواجدون خلف القضبان. بعد قول ذلك، كان من الممكن بالقدر نفسه أن يكون ستالين قد مرض، ولم يجرؤ أحد على معارضة أوامره وإطلاق سراح

telegram @ktabpdf

مكتبة الرمحي أحمد

الأطباء؛ لأنه إذا تماثل للشفاء، فلربما سيعدمون لعصيانهم أوامره.

لم تكن تلك الحيلة ذات أهمية كبيرة بالنسبة إلى ليو. والمهم أن ذلك الرجل قد مات، وشعر الجميع بأن النظام والثقة قد تلاشيا. من سيتولى زمام الأمور؟ كيف سيديرون البلاد؟ ما القرارات التي سيتخذونها؟ أي الضباط سيكونون أصحاب حظوة؟ وأيهم سيواجهون وقتاً عصيباً؟ ما كان مقبولاً أيام ستالين قد يصبح غير مقبول في عهد قائد جديد. وسيعني غياب القائد فوضى مؤقتة. لن يرغب أحد في اتخاذ القرارات إلا إذا عرف أن قراره سيكون محبّذاً. فطوال عقود لم يكن أحد قد فعل شيئاً وفقاً لما يظن أنه صحيح أو خاطئ، وإنما وفقاً لما يعتقد أنه سيسعد قائده. كان الناس قد عاشوا أو ماتوا بناءً على تعليماته؛ خط بجانب اسم ينقذ شخصاً، في حين أن عدم تواجد علامة يعني أن يُترك للموت. كان ذلك هو النظام القضائي؛ فهو يعتمد على وجود خطّ أو عدم وجوده. أغمض ليو عينيه، واستطاع أن يتخيل الفزع الصامت ضمن أروقة لوبيانكا. كانت بوصلتهم الأخلاقية قد أُهملت وقتاً طويلاً حتى خرجت عن السيطرة: أصبح الشمال جنوباً والشرق غرباً. وفي ما يتعلق بأسئلة الصواب والخطأ، لم تكن لديهم أي فكرة. لقد نسوا كيف يقرّروا ذلك، وفي أوقات مثل تلك كان الفعل الأكثر أمناً هو عدم فعل شيء إذا أمكن.

في تلك الظروف، كان أفضل ما يمكن فعله بشأن قضية ليو دميدوف وزوجته ريزا دميدوفا، التي ثبت من دون شك أنها مصدر خلاف وملتهبة ويصعب البت فيها، هو تحويلها إلى الهامش. لهذا السبب تأخروا في اتخاذ قرار بشأنها، ولم يرد أحد أن يمسّها: أصبح الجميع مشغولين بتغيير المواقع مع مجموعات السلطة الجديدة في الكرملين. ولزيادة الأمور تعقيداً، كان لافرنتي بريا، أوثق مساعدي ستالين - ظنَّ ليو أنه إذا سمّم أحدهم ستالين، فسيكون لافرنتي هو ذلك الشخص - قد ارتدى آنذاك عباءة القائد، ورفض فكرة وجود مكيدة، وأمر بإطلاق سراح جميع الأطباء، وإطلاق سراح جميع

المشتبه فيهم لأنهم أبرياء. من سمع بحصول مثل ذلك الشيء من قبل؟ لم يتذكر ليو بالتأكيد أي سابقة. في تلك الظروف، قد تصبح محاكمة بطل حرب حاصلٍ على وسام، رجلٍ ظهر على الصفحة الأولى للبرافدا[2]، من دون أي دليل، محفوفةً بالمخاطر. لهذا، في السادس من آذار، وبدلاً من القرع على بابهما لإخبارهما عن مصيرهما، مُنح ليو وريزا إذناً لحضور الجنازة الرسمية لقائدهم العظيم.

كان ليو وريزا لا يزالان فعلياً تحت الإقامة الجبرية، وقد انضما مع حارسيهما إلى الحشود، وشقوا طريقهم جميعاً نحو الساحة الحمراء. شاهدوا الكثيرين يبكون، فقد كان بعض الأشخاص لا يستطيعون السيطرة على أنفسهم - رجال ونساء وأطفال - وقد تساءل ليو إن كان هناك شخص في مرمى البصر، من بين مئات آلاف المحتشدين في حزنهم الجماعي، لم يفقد أحد أفراد أسرته أو صديقاً من أجل الرجل الذي فُجعوا به على ما يبدو. ربما كان للجو المعبّأ والمشحون بإحساس غامر بالحزن علاقة ما بتعظيم ذلك الرجل الميت. كان ليو قد سمع أشخاصاً عديدين، حتى في أقسى حالات الاستجواب، يصرخون أنه إذا عرف ستالين بتجاوزات إ.أ.د. فسيتدخل. وبغض النظر عن السبب الحقيقي خلف ذلك الحزن، أصبحت الجنازة مخرجاً شرعياً لسنواتٍ من التعاسة والكبت، وفرصة للبكاء، وعناق الجار، والتعبير عن حزنٍ لم يكن إظهاره مسموحاً قط من قبل؛ لأنه يدل على

---

(2) **البرافدا** صحيفة روسية كانت من بين كبرى صحف العالم توزيعاً خلال الفترة السوفييتية. تأسست صحيفة البرافدا في العام 1912 في سانت بطرسبرغ، وكان لينين أحد المساهمين المؤسسين لها. أصبحت البرافدا من أهم المصادر للتصريحات الرسمية للحزب الشيوعي في الاتحاد السوفييتي سابقاً. وبعد سقوط الاتحاد السوفييتي عام 1991، صدر مرسوم رئاسي من الرئيس بوريس يلتسن آنذاك يقضي بإيقاف صدور البرافدا كصحيفة شيوعية من الحقبة السوفييتية الماضية، غير أن بعض العاملين القدماء فيها أعادوا إصدارها بالاسم نفسه، ولكن بصيغة مختلفة عما كانت عليه. تعتبر البرافدا اليوم صحيفة روسية شعبية الطراز والاهتمام (المحرر).

telegram @ktabpdf

مكتبة الرمحي أحمد

انتقاد للدولة.

اكتظت الشوارع الرئيسة حول الدوما بالناس حتى أضحى التنفس صعباً، والتقدم إلى الأمام شاقاً لا يمكن التحكم به تماماً؛ وكأن المرء صخرة في مجرى نهر. لم يترك ليو يد ريزا قط، وبالرغم من ضغط الأكتاف عليه من كل الجوانب إلا أنه توثق من عدم انفصالهما عن بعضهما أبداً. كانا سيبتعدان عن حارسيهما بسرعة. ومع اقترابهم من الساحة، أصبح الضغط أكبر، وشعر ليو بالاختناق، والهستيريا المتزايدة، فقرّر أن الوقت قد حان. وفجأةً، دُفعا صدفة إلى الطرف، ومشيا إلى مدخل مبنى، ثم ساعد ليو ريزا على الخروج من بين الحشود. احتميا هناك، وهما يراقبان جموع الناس الذين استمروا في السير وتجاوزوهما. كان قراراً صائباً؛ فأمامهما تماماً، سُحق الناس تحت الأقدام حتى الموت.

كان بمقدورهما أن يحاولا الفرار وسط تلك الفوضى، وقد فكّرا في الأمر، وناقشاه، وهمسا لبعضهما بعضاً في ذلك المدخل. لم يعد بمقدورهما مشاهدة الحارسين اللذين كانا يرافقانهما، وقد أرادت ريزا أن تلوذ بالفرار، لكن الهروب سيمنح إ.أ.د. سبباً كافياً لإعدامهما. ومن وجهة نظر عملية، لم يكن لديهما مال، أو أصدقاء، أو مكان يختبئان فيه. وإذا قرّرا الهرب فسيُعدم والدا ليو. لقد حالفهما الحظ حتى ذلك الوقت، فقرّر ليو أن يغامر ويضع حياتيهما على المحك ويتمسك بموقفه.

* * *

كان آخر الركاب قد صعد على متن القطار. أمّا مدير المحطة الذي شاهد أصحاب البذلات متجمّعين على الرصيف بجانب القاطرة، فقد أخّر مغادرته من أجلهم. وخرج سائق القطار من قمرته محاولاً اكتشاف ماهية المشكلة، وأخذ ركاب فضوليون يختلسون نظرات من النوافذ إلى هذين الشابين اللذين يواجهان كما يبدو بعض المتاعب.

رأى ليو ضابطاً يرتدي بذلة رسمية يمشي نحوهما، وتبين له أنه

فاسيلي. كان ليو يتوقع حضوره، فهو يعرف أنه لن يفوّت فرصة التحديق إليه بخبث. أحس بالغضب يتصاعد في داخله، لكنه استطاع إبقاء مشاعره تحت السيطرة. كانت لا تزال هناك، ربما، مكيدة تُنصب له.

لم تكن ريزا قد رأت فاسيلي قط من قبل، لكنها سمعت وصف ليو له: وجهُ بطل، وقلبُ تابع.

استطاعت أن تعرف من مجرد نظرة إليه أن هناك شيئاً ليس صحيحاً تماماً بشأنه. كان وسيماً بالتأكيد، لكنه يبتسم وكأن الابتسامة قد ابتُكرت للتعبير عن إرادته المريضة ليس أكثر. عندما وصل إليهما أخيراً، لاحظت سعادته بسبب شعور ليو بالإذلال، وخيبة أمله لأن ما يعانيه لا يكفي.

اتسعت ابتسامة فاسيلي.

- أصررتُ على أن ينتظروا مجيئي حتى أستطيع توديعك، وأشرح لك القرار الذي اتُّخذ بشأنك. أردت فعل ذلك شخصياً، كما تعرف؟

كان يستمتع بذلك، وبالرغم من أن ذلك الرجل أثار حنق ليو إلا أنه كان من الغباء المخاطرة بإغضابه حين يكافحان للنجاة، فتمتم بصوت مسموع بصعوبة:

- أقدّر ذلك.

- لقد عُيّنتَ في موقع آخر. كان من المستحيل إبقاؤك في إ.أ.د. مع كل تلك الأسئلة التي تُثار حولك، والتي ليس لها أجوبة. ستنضم إلى المليشيا، ليس بوصفك سيشكك، أو محققاً، وإنما ستكون في أقل رتبة ممكنة وهي أوشاستكوفي. ستكون الرجل الذي ينظف زنزانات الاحتجاز، والرجل الذي يسجل الملاحظات، والرجل الذي يفعل ما يؤمر به. يجب أن تعتاد تلقي الأوامر إذا أردت النجاة.

فهم ليو خيبة أمل فاسيلي. كانت تلك العقوبة - نفيه، وجعله يعمل في سلك الشرطة المحلي - خفيفة، مقارنة بشناعة المزاعم بأنهما قد يمضيان خمساً وعشرين سنة وهما يعملان في مناجم الذهب في كوليما،

حيث الحرارة تصل إلى خمسين درجة تحت الصفر، وأيادي السجناء تتشوه من قضمة الصقيع، ومدة الحياة المتوقعة ثلاثة شهور. كانا سينجوان ليس بحياتيهما فقط، وإنما بحريتيهما أيضاً. لم يتخيل ليو أن يكون الرائد كوزمن قد فعل ذلك بدافع عاطفي. كانت الحقيقة هي أنه سيُحرج نفسه بإعدام الشخص الذي كفله برعايته. وفي زمن عدم الاستقرار السياسي، يصبح إبعاده تحت غطاء نقله إلى مكان آخر خياراً أفضل وأكثر دهاءً. لم يكن كوزمن يريد أن يدقق أحد في حصافته. وبالمحصلة، إذا كان ليو جاسوساً، فلماذا منحه كوزمن ترقيات؟ لا، تلك الأسئلة صعبة، وسيكون أسهل وأكثر أماناً كنسه تحت زاوية البساط. بذل ليو قصارى جهده كي يبدو خائب الأمل، مدركاً أن أي علامة ارتياح ستغضب فاسيلي.

- سأقوم بواجبي حيث يناديني الواجب.

تقدم فاسيلي إلى الأمام، ووضع التذكرتين والوثائق في يدي ليو الذي أمسكها، وتحرك نحو القطار.

صعدت ريزا إلى العربة، وعندما فعلت ذلك صرخ فاسيلي.

- لا بد من أنه كان صعباً عليكِ سماع أن زوجك قد لحق بك، ليس مرة واحدة فقط، وأنا واثق بأنه سيخبرك عن ذلك. تبعك مرتين، وفي المرة الأولى لم يكن ذلك بسبب قضية دولة. لم يكن يظن أنك جاسوسة، وإنما ساقطة. يجب أن تسامحيه على ذلك، فالجميع لديهم شكوكهم، وأنت جميلة. شخصياً، لا أظن أنك تستحقين أن يتخلى المرء عن كل شيء من أجلك. أظن أنه عندما يدرك زوجك بؤس المكان الذي نقلناه إليه، فسيكرهك. ولو كنتُ مكانه، لاحتفظتُ بالشقة وجعلتهم يقتلونك لأنك خائنة. كل ما يمكنني افتراضه هو أنك بارعة من دون شك في العلاقة الزوجية.

استغربت ريزا من هوس ذلك الرجل بزوجها، لكنها بقيت صامتة؛ فأي ردٍّ قد يكلفهما حياتيهما. حملت صندوقها وفتحت باب العربة.

تبعها ليو حريصاً على ألاّ يستدير إلى الخلف، فقد كان هناك احتمال

بألاّ يسيطر على نفسه إذا رأى ابتسامة فاسيلي المتكلفة.

* * *

حدّقت ريزا إلى خارج النافذة. غادر القطارُ المحطةَ، ولم تكن هناك مقاعد شاغرة فاضطرا إلى الوقوف متلاصقين. لم يتكلم أي منهما لبعض الوقت، وراقبا المدينة وهي تبتعد عنهما. أخيراً، قال ليو:

- أنا آسف.

- أنا واثقة بأنه كاذب. كان سيقول أي شيء لإزعاجك.

- كان يقول الحقيقة. جعلت أحداً يلحق بك، ولم يكن لذلك علاقة بعملي. ظننت...

- أنني كنت أخونك مع شخص آخر؟

- مضى وقت لم تتكلمي فيه معي، أو تمسيني، أو تقتربي مني. أصبحنا غريبين، ولم أفهم السبب.

- لا يمكن لامرأة الزواج من ضابط إ.أ.د. من دون أن تتوقع ألاّ يلحق أحد بها. لكن، أخبرني يا ليو، كيف كنت أستطيع خيانتك؟ كنت سأخاطر بحياتي. ما كنّا لنتجادل في الأمر، وكنت ستجعلهم يعتقلونني.

- هل ذلك ما ظننت أنه سيحدث؟

- هل تتذكر صديقتي زويا؟ لقد التقيتَ بها مرة كما أظن.

- ربما، لا أعرف.

- نعم، ذلك صحيح. أنت لا تتذكر اسم أحد على الإطلاق، أليس كذلك؟ أتساءل عن السبب؟ هل تلك هي الطريقة التي تستطيع بها أن تخلد إلى النوم في الليل، وأن تمحو الأحداث من ذهنك؟

تكلمت ريزا بسرعة وهدوء وحدّة لم يسمعها ليو من قبل. تابعت:

- التقيتَ زويا فعلاً. ربما لم تترك لديك انطباعاً، لكنها لم تكن آنذاك مهمة جداً بمعايير الحزب. حُكم عليها بالسجن عشرين سنة. اعتقلوها حين خرجت من دار العبادة، واتهموها بأداء صلوات معادية لستالين. صلوات يا

telegram @ktabpdf

مكتبة الرمحي أحمد

ليو! أدانوها على أساس صلوات، ولم يسمعوها قط. اعتقلوها على أساس الأفكار الموجودة في رأسها.

- لماذا لم تخبريني؟ ربما كنت قد ساعدتها.

هزّت ريزا رأسها، وسألها ليو:

- هل تظنين أنني أدنتها؟

- هل ستعرف ذلك حقاً؟ أنت لا تتذكر حتى من هي.

دُهش ليو. لم يكن وزوجته قد تكلما على ذلك النحو من قبل، أو تحدثا قط عن أي شيء باستثناء الواجبات المنزلية. كانا يتبادلان أطراف حديث مهذب، من دون أن يرفعا صوتيهما، أو يتجادلا.

- حتى إذا لم تدنها يا ليو، فكيف كان بمقدورك أن تساعدها؟ كان الرجال الذين اعتقلوها مثلك؛ موظفين موالين للدولة، ومخلصين لها. لم تعد تلك الليلة إلى المنزل، وأدركتُ أنك كنتَ على الأرجح تعتقل أفضل صديق لشخص آخر، أو والديه أو أبناءه. أخبرني، كم بالضبط عدد الناس الذين اعتقلتهم؟ هل لديك أدنى فكرة؟ قل عدداً. أهو خمسون، مئتان، ألف؟

- رفضتُ تسليمهم إياك.

- لم يسعوا خلفي، وإنما خلفكَ. اعتقلت غرباء، واستطعت إقناع نفسك بأنهم ربما يكونون مذنبين. يمكن أن تصدّق أن ما كنت تفعله قد خدم هدفاً ما، لكن ذلك لم يكن كافياً لهم. أرادوا منك أن تثبت أنك ستفعل كل ما يطلبونه منك، حتى إذا عرفت في أعماق قلبك أنه خطأ، حتى إذا عرفت أنه من دون معنى. أرادوا منك أن تثبت طاعتك العمياء، وأتخيل أن الزوجات اختبار مفيد لذلك.

- ربما أنت محقة، لكننا تخلصنا من ذلك الآن. هل تفهمين كم نحن محظوظان للحصول حتى على هذه الفرصة الثانية؟ أريد أن نبدأ حياة جديدة كأسرة.

- ليو، ليس الأمر بتلك البساطة.

توقفت ريزا عن الكلام، وأمعنت النظر إلى زوجها؛ وكأنهما يلتقيان للمرة الأولى.

- سمعتكَ في الليلة التي تناولنا فيها العشاء في شقة والديك وأنت تتحدث إليهما. كنتُ في الرواق، وسمعت النقاش بشأن إداني كجاسوسة أو عدم إداني. لم أعرف ماذا يجب أن أفعل، ولم أرغب في أن أموت. لهذا عدت إلى الشارع، ومشيت لبعض الوقت، وأنا أحاول استجماع أفكاري. تساءلت: هل سيفعل ذلك؟ هل سيتخلى عني؟ قدم والدك رأياً مقنعاً.

- كان والدي خائفاً.

- ثلاث حيوات مقابل واحدة؟ يصعب أن يناقش المرء الأمر مع تلك الأرقام. لكن، ماذا عن ثلاث حيوات مقابل اثنتين؟

- لستِ حاملاً؟

- أما كنتَ ستشهد ضدّي لو لم أكن كذلك؟

- وانتظرتِ حتى الآن كي تخبريني.

- كنتُ خائفة من أن تغير رأيك.

كانت تلك علاقتهما؛ كانت مجرّدة تماماً. شعر ليو بعدم الاستقرار؛ القطار الذي يقف فيه، والناس قربه، والصندوقان، وملابسهما، والمدينة في الخارج؛ لم يكن أي من ذلك يبدو صحيحاً. لم يكن بمقدوره أن يثق بأي شيء، حتى بالأشياء التي يراها ويمسّها ويشعر بها. فقد تبين أن كل ما يثق به كذبة.

- ريزا، هل أحببتني يوماً؟

انقضت لحظة صمت، والسؤال معلق مثل رائحة كريهة، وكلاهما يهتزّان مع حركة القطار. أخيراً، وبدلاً من أن تجيب، جثت ريزا على الأرض وعقدت شريط حذائها.

فوالسك

15 آذار

كان فارلام بابينيتش يجلس على أرضية إسمنتية متسخة في زاوية مهجع مكتظ واضعاً ساقاً على أخرى، وظهره إلى الجدار، ويستخدم جسده ليحجب عن الآخرين رؤية الأشياء المرتّبة أمامه. لم يكن يرغب في أن يتدخل الفتية الآخرون؛ لأن لديهم نزعة لفعل ذلك إذا أثار شيء ما اهتمامهم. نظر حوله، ولم يكن الفتية الثلاثون - أو نحو ذلك - في الغرفة يعيرونه أي اهتمام. وكان معظمهم مستلقين جنباً إلى جنب على الأسرّة الثمانية المتهالكة التي أُرغموا على مشاطرتها. شاهد اثنين منهم يحكّون قرصات البعوض التي تورّمت على ظهر كل منهما. عاد فارلام إلى الأشياء المرتّبة أمامه مقتنعاً أن لا أحد سيزعجه. كانت الأشياء التي جمعها بمرور السنين، كلها عزيزة عليه، ومن بينها الإضافة الأحدث التي سرقها في ذلك الصباح؛ طفل يبلغ عمره أربعة شهور.

كان فارلام يدرك تماماً أنه قد فعل شيئاً خاطئاً بأخذه الطفل، وأنه إذا أُلقي القبض عليه فسيواجه مشكلة، ويقع في ورطة أكثر سوءاً مما واجهه من قبل. وكان يدرك أيضاً أن الطفل ليس سعيداً، فقد كان يبكي. لم يكن قلقاً على نحو خاص بشأن الصوت لأن أحداً لن يلاحظ طفلاً آخر يصرخ. كان مهتماً بالبطانية الصفراء التي كان الطفل ملفوفاً بها أكثر من اهتمامه بالطفل نفسه. وضع الطفل في وسط مجموعته، فخوراً بملكيته الجديدة، بين علبة صفراء، وقميص أصفر قديم، وقطعة آجر مطلية بالأصفر، وقطعة ممزقة من ملصق ذي خلفيّة صفراء، وقلم رصاص أصفر، وكتاب ذي غلاف ورقي

telegram @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

أصفر رقيق. في الصيف، أضاف إلى تلك المجموعة وروداً برية صفراء قطفها من الغابة، لكنها لم تدم طويلاً، وشعر بحزن شديد وهو يراقب أوراقها الصفراء وهي تذبل، وتويجاتها تصبح هزيلة وبنيّة، وأخذ يتساءل:

أين يختفي اللون الأصفر؟

لم تكن لديه فكرة، لكنه تمنّى أن يذهب إلى هناك يوماً ما، ربما حين يموت. كان اللون الأصفر أكثر أهمية بالنسبة إليه من أي شيء أو أي شخص، والسبب الذي أوصله إلى هنا، في إنترنات فوالسك، وهو عقار تديره الدولة، ويهتم بالأطفال الذين يعانون أمراضاً ذهنية.

عندما كان طفلاً صغيراً طارد الشمس، واثقاً أنه إذا اجتاز مسافة كافية فسيلحق بها أخيراً، وينتزعها من السماء ويحملها إلى المنزل. كان قد ركض نحو خمس ساعات قبل أن يُمسك به ويُعاد إلى المنزل وهو يصرخ غاضباً بسبب إيقاف رحلته. قَبِلَ والداه اللذان ضرباه على أمل أن يصحح ذلك صفاته الغريبة، في نهاية المطاف أن أساليبهما لا تجدي نفعاً، وسلّماه إلى الدولة التي عاملته بالطرائق نفسها تقريباً. وفي أول سنتين له في إنترنات، كان يُقيّد بسلسلة إلى هيكل سرير، كما يقيّد كلب مزرعة إلى شجرة. على أيّ حال، كان طفلاً قوياً، ذا كتفين عريضتين، وإرادة صلبة. وبعد عدّة شهور، استطاع كسر هيكل السرير، وتحرير السلسلة منه، والفرار. انتهى به الأمر في طرف البلدة، وهو يطارد عربة صفراء في قطار متحرك. أُعيد في النهاية إلى إنترنات وهو يعاني إرهاقاً وجفافاً، واحتُجز تلك المرة في خزانة. لكن ذلك حدث قبل وقت طويل. أصبح الموظفون يثقون به الآن، فقد بلغ السابعة عشرة من عمره، ويتمتع بذكاءٍ كافٍ كي يفهم أنه لا يستطيع الهرب بعيداً ليصل إلى الشمس، أو يتسلق ارتفاعاً كافياً ليمسك بها في السماء. بدلاً من ذلك، ركّز على إيجاد أشياء صفراء أقرب إلى المنزل، مثل ذلك الطفل الذي سرقه بمدّ يده عبر نافذة مفتوحة. ولو أنه لم يكن على عجلة من أمره، لربما

حاول فتح البطانية وترك الطفل خلفه، لكنه أصيب بالفزع، وخاف أن يُلقى القبض عليه، ولهذا أخذهما كليهما. آنذاك، لاحظ وهو يحدّق إلى الأسفل، إلى الرضيع الذي يصرخ أن البطانية تجعل جلد الطفل يبدو أصفر فاتحاً؛ وشعر بالسعادة لأنه سرقهما كليهما.

* * *

توقفت سيارتان في الخارج، وخرج منهما ستة أفراد مسلحين من مليشيا فوالسك، يقودهم الجنرال نستروف؛ وهو رجل في منتصف العمر، مربوع، وقوي البنية مثل عامل كولخوز. أشار نستروف إلى فريقه لتطويق العقار في أثناء تقدّمه ونائبه الذي كان برتبة ملازم نحو المدخل. بالرغم من أن المليشيا لم تكن مسلحة عادة، إلا أن نستروف أمر رجاله في ذلك اليوم بأن يحملوا أسلحة، فربما اضطروا إلى إطلاق النار.

كان المكتب الإداري مفتوحاً، وكان هناك مذياع يصدح، ومجموعة أوراق مهجورة على الطاولة، ورائحة شراب تعبق في الهواء. لم يكن من الممكن رؤية أي موظف. تقدم نستروف والملازم إلى الأمام، ودخلا رواقاً. اختفت رائحة الشراب، وشمّا رائحة غائط، ورائحة الكبريت الذي كان يُستخدم لإبعاد الحشرات الضارة. لم تكن رائحة الغائط تحتاج إلى تفسير، فقد شاهدا برازاً على الأرض والجدران. كانت المهاجع التي تجاوزاها مملوءة أطفالاً يافعين. وكان نحو أربعين طفلاً يقيمون في غرفة واحدة، ولا يرتدي الواحد منهم شيئاً باستثناء قميص متسخ أو سروال قصير قذر. كانوا ممددين على أسرّتهم، وكل ثلاثة أو أربعة منهم يستلقون على فراش رقيق متسخ. لم يكن الكثيرون منهم يتحركون، وكانوا يحدّقون إلى الأعلى؛ إلى السقف. تساءل نستروف إن كان بعضهم أمواتاً، وبدا صعباً تحديد ذلك. ركض الأطفال الواقفون على أقدامهم إلى الأمام، وهم يحاولون الإمساك بالمسدسين، ويمسّون بذلتيهما، وهم تواقون إلى التفاعل مع راشدين، وسرعان ما أحاطت بالرجلين أيادٍ ترتفع إليهما. وبالرغم من أن نستروف

شحذ قواه لرؤية ظروف مريعة، إلا أنه وجد صعوبة في فهم كيف يمكن أن تصل الأمور إلى ذلك السوء، وعقد العزم على إثارة الموضوع مع مدير المؤسسة؛ في وقت لاحق على أيّ حال.

بعد الانتهاء من تفتيش الطابق الأرضي، صعد نستروف السلالم إلى الطابق الأعلى، في حين حاول الملازم منع مجموعة الأطفال من اللحاق بهما. تواصل معهم بنظرات وإشارات صارمة جعلتهم يضحكون وكأنها لعبة. وعندما دفع الأطفالَ برفق إلى الخلف اندفعوا فوراً إلى الأمام، وهم يريدون منه أن يدفعهم إلى الوراء مجدداً. علّق نستروف بنفاد صبر:

- اتركهم، دعهم وشأنهم.

لم يكن لديهما خيار إلا أن يسمحا لهم باللحاق بهما.

كان الأولاد في غرف الطابق الأعلى أكبرَ سناً، وخمّن نستروف أن المهاجع مرتّبة تقريباً وفقاً للعمر. كان المشتبه فيه في السابعة عشرة من عمره، وهو الحد الأقصى للإقامة في تلك المؤسسة. إذ بعد ذلك، كان الفتيان يُرسلون لشغل الوظائف المتوافرة الأقل جذباً والأشد قسوة؛ وظائف لا يريدها أي رجل أو امرأة عاقلة؛ وظائف لا تتعدى مدة الحياة فيها ثلاثين سنة. كانا يقتربان من نهاية الرواق، ولم يبقَ أمامهما إلا مهجع واحد إلى اليسار.

كان فارلام يدير ظهره إلى الباب، مشغولاً بتحسس بطانية الطفل، وهو يتساءل لماذا لم يعد الرضيع يبكي آنذاك. وخزه بإصبع متسخة، وفجأة سمع صوتاً عبر الغرفة جعل ظهره ييبس:

- فارلام، قف واستدر ببطء شديد.

حبس فارلام أنفاسه، وأغمض عينيه، وكأن ذلك قد يجعل الصوت يختفي. لكن الأمر لم يجدِ نفعاً.

- لن أقول لك ذلك مجدداً. انهض واستدر.

تقدم نستروف إلى الأمام مقترباً من موقع فارلام. لم يستطع رؤية ما

telegram @ktabpdf

مكتبة الرمحي أحمد

يحجبه الفتى، أو سماع صوت طفل يبكي. كان كل الفتيان الآخرين في المهجع يجلسون منتصبين، وهم يحدّقون مدهوشين. ومن دون سابق إنذار، نبض فارلام بالحياة، وحمل شيئاً بذراعيه، ثم وقف واستدار. تبين أنه يحمل الطفل الذي بدأ يبكي. شعر نستروف بالراحة. كان الطفل حياً على الأقل، لكنه ليس في منأى عن الخطر، وفارلام يضمّه إلى صدره بقوة، وذراعاه تلتفان حول عنق الطفل الهش.

نظر نستروف خلفه، ورأى أن نائبه قد بقي بجانب الباب مع الأطفال الفضوليين الآخرين المتجمّعين حوله، وقد سدّد إلى رأس فارلام، وشدّ زناد مسدسه، مستعداً للقتل، وبانتظار الأمر. كان المجال أمامه واضحاً، لكنه في أفضل الأحوال رام عادي. عندما رأى الأطفال مسدسه بدأ بعضهم يصرخون، فيما ضحك آخرون وهم يضربون أسرّتهم، وبدا أن الوضع سيخرج عن السيطرة. بدأ فارلام يشعر بالخوف، فوضع نستروف مسدسه في قرابه، ورفع يديه في محاولة لتهدئته، وتكلم بصوتٍ يعلو على الضجيج:

- أعطني الطفل.

- أنا في ورطة كبيرة.

- لا، لست كذلك. أرى أن الطفل بخير، وسعيد بفضلك، فقد قمت بعمل رائع. لقد اعتنيت به، وأنا هنا لتهنئتك.

- قمتُ بعمل رائع؟!

- نعم، لقد فعلتَ ذلك.

- هل يمكنني الاحتفاظ به؟

- يجب أن أتحقق من أن الطفل بخير، فقط لأكون واثقاً، ثم سنتحدث. هل يمكنني التأكد من أن الطفل بخير؟

كان فارلام يعرف أنهم غاضبون، وسيأخذون الطفل منه ويحبسونه في غرفة تفتقر إلى اللون الأصفر، فشدّ الطفل إليه بإحكام، وضمّه إليه بقوة حتى ضغطت البطانية الصفراء على فمه. وتراجع إلى الخلف نحو النافذة،

ونظر إلى سيارات المليشيا المتوقفة في الشارع، والرجال المسلحين الذين يحيطون بالمبنى.

- أنا في ورطة كبيرة.

تقدم نستروف إلى الأمام قليلاً. لم تكن هناك طريقة لتحرير الطفل من قبضة فارلام بالقوة؛ إذ يمكن أن يُسحق في النزاع. نظر نستروف إلى الملازم الذي أومأ مشيراً إلى أنه سيسدّد رصاصة. كان مستعداً. هز نستروف رأسه ممانعاً، فالطفل قريب جداً من وجه فارلام، وخطر وقوع حادثة كبير جداً. كان لا بد من وجود طريقة أخرى.

- فارلام، لا أحد سيضربك أو يؤذيك. أعطني الطفل وسنتكلم. لن يغضب أحد، أعدك بذلك.

تقدم نستروف خطوة أخرى إلى الأمام، فلم يعد بإمكان الملازم التسديد، ثم نظر إلى الأسفل إلى مجموعة الأشياء الصفراء على الأرض. كان قد واجه فارلام في حادثة سابقة، حين سُرق فستان أصفر عن حبل غسيل، ولم يغب عن ذهنه أن الطفل متدثر ببطانية صفراء.

- إذا أعطيتني الطفل، فسأسأل الأم إن كان بمقدورك الاحتفاظ بالبطانية الصفراء، وأنا واثق بأنها ستوافق. كل ما أريده هو الطفل.

استرخى فارلام بعد أن سمع ما بدا أنه اتفاق منصف، ومدّ ذراعيه مقدّماً له الطفل. اندفع نستروف إلى الأمام، وانتزع الطفل من يديه، وتحقق من أن الطفل يبدو سليماً قبل أن ينقله إلى نائبه.

- خذه إلى المستشفى.

أسرع الملازم بالخروج.

جلس فارلام وظهره إلى الباب؛ وكأن شيئاً لم يحدث، وهو يعيد ترتيب الأشياء في مجموعته لملء المساحة التي تركها غياب الطفل. هدأ الأولاد الآخرون في المهجع مجدداً. جثم نستروف بجانبه، فسأله فارلام:

- متى يمكنني الحصول على البطانية؟

telegram @ktabpdf

مكتبة الرمحي أحمد

- يجب أن تأتي معي أولاً

تابع فارلام ترتيب مجموعته، فيما وقع نظر نستروف على الكتاب الأصفر، الذي كان كتيباً عسكرياً، ووثيقة سرّية.

- كيف حصلت على هذا؟

- عثرت عليه.

- سألقي عليه نظرة. هل ستبقى هادئاً إذا ألقيت عليه نظرة؟

- هل أصابعك نظيفة؟

لاحظ نستروف أن أصابع فارلام متسخة.

- أصابعي نظيفة.

رفع نستروف الكتاب، وقلّب صفحاته. كان هناك شيء في الوسط، بين الصفحات، فقلب الكتاب رأساً على عقب وهزّه. وقعت خصلة كثيفة من شعر أشقر على الأرض، فالتقطها نستروف، وفركها بين أصابعه. تورّد فارلام.

- أنا في ورطة كبيرة.

telegram @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

ثمانمئة كيلومتر شرق موسكو

16 آذار

كانت ريزا قد رفضت أن تجيب حين سألها بشأن حبها له، وأقرّت فقط أنها كذبت بشأن حملها. ولهذا، حتى وإن قالت: نعم، أحبك، وأحببتك دائماً؛ ما كان ليو ليصدّقها. بالتأكيد، لم تكن ستحدّق إلى عينيه وتسرد وصفاً خيالياً. ما الفائدة من السؤال على أيّ حال؟ بدا أنه يشعر بنوع من التجلّي، والإلهام بأنّ زواجهما لم يُبنَ على الحب والعاطفة. لو أنها أجّابت بصدق: لا، لم أحبك قط، لأصبح فجأة الضحية. وسيعني ذلك أن زواجهما مجرد خدعة، وأنها المخادعة التي تلاعبت بقلبه الساذج. فجأة، أصبح رومانسياً، ربما بسبب صدمته من خسارته وظيفته. لكن، منذ متى كان الحب جزءاً من الاتفاق؟ لم يكن قد سألها عن مشاعرها من قبل، ولم يقل قط:

أحبك.

لم تتوقع أن يفعل ذلك. لقد طلب منها أن تتزوجه، هذا صحيح، ووافقت. أراد زواجاً، وزوجة، وأرادها هي وحصل على مبتغاه، إلا أن ذلك لم يعد كافياً الآن. فبعد أن خسر سلطته؛ القدرة على اعتقال أي شخص يريده، أضحت عواطفه جيّاشة. ولماذا كانت حيلتها العملية، وليس افتقاره الكبير إلى الثقة، هي التي جعلت ذلك الوهم بالرضا عن الزواج ينهار من حولهما؟ لماذا لم يكن بمقدورها أن تطلب منه إقناعها بحبه؟ بالمحصلة، كان قد افترض على نحو غير صحيح أنها خائنة، وأرسل خلفها فريق مراقبة كاملاً، وهي عملية ربما نجم عنها اعتقالها بسهولة. كان قد حطّم الثقة بينهما قبل وقت طويل من اضطرارها إلى فعل ذلك. وفي

telegram @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

حين أن ما دفعها إلى القيام بذلك هو النجاة بحياتها، تبين أن حافزه قلقٌ ذكوري مثير للشفقة.

منذ أن عقدا قرانهما، وحتى قبل ذلك، منذ بدأا برؤية بعضهما، أدركت أنها إذا أغضبته فمن الممكن أن يؤدي ذلك إلى مقتلها. أصبح ذلك الأمر حقيقة فظّة في حياتها، وكان عليها أن تحافظ على سعادته. وعندما اعتُقلت زويا، جعلها مظهره - بذلته، وحديثه عن الدولة - تستشيط غضباً، حتى أضحى مستحيلاً أن تتحدث إليه أكثر من بضع كلمات. في النهاية، بدا السؤال بسيطاً جداً: هل تريد أن تعيش؟ كانت ناجية؛ إن حقيقة نجاتها، وحقيقة كونها الفرد الوحيد الباقي من أسرتها، توضحان ذلك. كان السخط من اعتقال زويا ترفاً لا يحقق شيئاً، وهكذا ذهبت إلى سريره وطهت له العشاء.

جلست خلال الأسابيع القليلة الماضية مسترخية في شقتهما، وهي تعرف تماماً أنه يفكّر ملياً إن كان سيتخذ القرار المناسب أم لا: هل يجب أن يحافظ على حياتها؟ هل تستحق المخاطرة؟ هل هي جميلة كفاية، ولطيفة كفاية، وجيدة كفاية؟ إذا لم تسعده كل إشارة ونظرة، فستتعرض لخطر مميت. حسناً، لقد انتهى ذلك الوقت، وتشعر بالاشمئزاز من عجزها واعتمادها على إرادته الطيبة. مع ذلك، بدا أن لديه انطباعاً بأنها تدين له. كان قد فسّر ما هو واضح: لم تكن جاسوسة دولية، وإنما معلّمة في مدرسة ثانوية، ومقابل ذلك يريد إعلاناً عن حبها له، لكن ذلك بدا مهيناً. لم يعد في وضع يمكّنه من طلب أي شيء، ولم يعد له نفوذ عليها كما لم يكن لها سلطة عليه قط. أصبح كلاهما في المأزق العصيب نفسه: اختُصرت مقتنيات حياتيهما إلى صندوق واحد لكل منهما، ونُفيا إلى بلدة نائية. كانا ندّين على نحو لا مثيل له من قبل، وإذا أراد أن يسمع عن الحب، فعليه أن يشدو أول شطرٍ من بيت الشعر.

أمعن ليو التفكير في ملاحظات ريزا، وبدا أنها قد منحت نفسها حق

الحكم عليه، وأن تنظر إليه بازدراء، في حين تتظاهر أن يديها نظيفتان. لكنها تزوّجته وهي تعرف ما يفعله لكسب رزقه، وقد استمتعت بميزات موقعه: تناولت الأطعمة النادرة التي يستطيع جلبها إلى المنزل، واشترت ملابس من سبتز تورغي، والمخازن المخصصة لمسؤولي الدولة. وإذا كانت قد انزعجت كثيراً من عمله، فلماذا لم تعترض على تلك الميزات؟ كان الجميع يفهمون أنه من الضروري التوصل إلى تسويات من أجل النجاة. وقد فعل أشياء كريهة؛ مرفوضة أخلاقياً. كان الضمير الواعي، بالنسبة إلى معظم الناس، ترفاً مستحيلاً، ولهذا لا يمكن لريزا أن تدّعي لنفسها الحق في ذلك. هل علّمت صفوفها وفقاً لآرائها تلك؟ من الواضح أن ذلك لم يحدث، مع الأخذ في الحسبان سخطها على جهاز أمن الدولة. لكن، في المدرسة لا بد من أنها قد عبّرت عن دعمها إياه، وشرحت لتلاميذها كيف تُدار دولتهم، واستحسنت عمله، ولقّنتهم الموافقة عليه، وربما تكون قد شجّعتهم على انتقاد بعضهم بعضاً. لو أنها لم تفعل ذلك لكان أحد تلاميذها قد أدانها بالتأكيد. لم يكن عملها يقتضي الالتزام تماماً بسياسة محددة فقط، وإنما القضاء على قدرات تلاميذها على طرح أسئلة أيضاً، وستكون وظيفتها فعل ذلك مجدداً في بلدتهما الجديدة. وفي ما يخص ليو، كان وزوجته شعاعين في العجلة نفسها.

توقف القطار في موتافا ساعة، وكسرت ريزا الصمت بينهما الذي استمر اليوم كله:

- يجب أن نأكل شيئاً.

كانت تعني أن عليهما الالتزام بترتيبات عملية؛ كانت أساس علاقتهما آنذاك. أصبحت النجاة من أي تحدّيات قادمة هي ما يربطهما معاً وليس الحب. خرجا من العربة، وشاهدا امرأة تسير على الرصيف حاملة سلّة مصنوعة من الخيزران. اشتريا بيضاً مسلوقاً، وكمية من الملح موضوعة داخل ورقة، وأرغفة خبز جاودار قاسية. جلسا جنباً إلى جنب على مقعد

خشبي، وقشّرا البيض، ووضعا القشور في حجريهما، وتشاطرا الملح لكنهما لم ينبسا بكلمة.

* * *

خفّت سرعة القطار حين صعد نحو الجبال، ومرّ عبر غابات الصنوبر. ومن بعيد، فوق قمم الأشجار، كان من الممكن رؤية الجبال المتطاولة إلى الأعلى مثل سنٍّ بارزة في فكٍّ سفلي.

وصل خط السكك الحديدية إلى فسحة، فرأيا أمامهما مصنع تجميع ضخماً، ومداخن طويلة. وظهرت فجأة مبانٍ متصلة تشبه المستودعات في وسط البراري. كانت تلك أول لمحة عن مسكنهما الجديد.

جاءت معرفة ليو لتلك البلدة من الدعاية والكتيبات. لم تكن سابقاً أكثر من مصانع أخشاب ومجموعة من الأكواخ الخشبية للناس الذين يعملون فيها، لكن تلك المستوطنة المتواضعة في ما مضى، والتي لم يكن عدد سكانها يزيد على عشرين ألف نسمة، أثارت اهتمام ستالين. وبعد التفحص الدقيق لمصادرها الطبيعية والصناعية، أعلن أن إنتاجيتها غير كافية. يجري نهر أوفا قربها، وهناك مصانع فولاذ وحديد في سفردلوفسك على بعد مئة وستين كيلومتراً فقط إلى الشرق منها، كما هناك مناجم ذهب في الجبال، وتستفيد من مرور خط السكك الحديدية عبر - سيبيريا فيها. قاطرات ضخمة تعبر تلك البلدة كل يوم، ولا شيء يُضاف إليها باستثناء الألواح الخشبية. كان قد قرّر أن ذلك سيصبح موقعاً مثالياً لتجميع مركبة غاز - 20؛ وهي سيارة معدّة لمنافسة المركبات المنتجة في الغرب، المبنية وفقاً لأفضل المواصفات. كان من المتوقع من خليفتها فولغا غاز - 21، قيد التصميم آنذاك، أن تصبح جوهرة الهندسة السوفييتية، وهي مصممة للعمل في مناخٍ قاسٍ وتضاريس صعبة، ومزوّدة بنظام تعليق فريد، ومحرك مضاد للرصاص، وهيكل مقاوم للصدأ على نطاق لم يُسمع به في الولايات المتحدة الأميركية. لم تكن لدى ليو طريقة ليتأكد إن كان ذلك صحيحاً أم لا. وكل ما يعرفه هو

telegram @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

أنها سيارة لا تستطيع إلا نسبة ضئيلة جداً من المواطنين السوفييتيّين تحمّل تكلفتها، وهي خارج متناول الرجال والنساء الذين يعملون على تجميعها.

بدأ بناء المصنع في وقت ما عقب الحرب، وبعد ثمانية عشر شهراً وقف مصنع تجميع فولغا في وسط غابات الصنوبر. لم يتذكر ليو رقم السجناء الذين قيل إنهم قد ماتوا في أثناء تشييده، ولم تكن الأرقام موثّقة على أيّ حال. لم تكن لليو أي علاقة تُذكر بالمصنع إلا بعد اكتماله، فقد فُحص آلاف العمّال الأحرار، ونُقلوا بموجب أوامر إلزامية من مدن منتشرة في كل أرجاء البلاد لملء ثغرة العمالة المحدثة؛ فازداد عدد السكان خمسة أضعاف في خمس سنوات. كان ليو قد تأكد من خلفية بعض عمّال موسكو المنقولين إلى ذلك المكان. إذا تجاوزوا الفحوص، يجري تجميعهم ونقلهم خلال أسبوعٍ. وإذا فشلوا فيها، كانوا يُعتقلون. كان ليو أحد بوّابي تلك البلدة، وشعر واثقاً أن ذلك أحد الأسباب التي جعلت فاسيلي يختار هذا المكان، فالمفارقة ستسعده بالتأكيد.

غابت عن ريزا تلك اللمحة الأولى لبلدتهما الجديدة، فقد كانت نائمة وهي متدثرة بمعطفها، ورأسها يستند إلى النافذة، ويهتز قليلاً مع حركة القطار. انتقل ليو إلى المقعد بجانب زوجته وواجه الاتجاه الذي يقصدانه، ورأى كيف أن البلدة الرئيسة قد تداخلت مع طرف مصنع التجميع الكبير؛ وكأنها اختلاجٍ في عنق كلب. أولاً، وقبل كل شيء، كان ذلك موقع إنتاج صناعيًّا. وثانياً، كان مكاناً للعيش. توهّجت أضواء المباني السكنية بلون برتقالي باهت تحت سماء رمادية. وكز ليو ريزا، فاستيقظت، ونظرت إليه، ثم إلى خارج النافذة.

- لقد وصلنا.

توقف القطار في المحطة، فحملا صندوقيهما، ونزلا إلى الرصيف. كان الجو أبرد من موسكو؛ فالحرارة أقل بدرجتين على الأقل. وقفا مثل طفلين جرى إجلاؤهما عن منطقتهما، ووصلا إلى بلد يريانه للمرة الأولى،

telegram @ktabpdf

مكتبة الرمحي أحمد

ووقفا محدقين إلى البيئة غير المألوفة المحيطة بهما. لم يكونا قد حصلا على أي تعليمات. كما أنهما لم يعرفا أحداً. وليس لديهما رقم يتصلان به، ولم يكن أحد ينتظرهما.

بدا مبنى المحطة خالياً إلا من رجل يجلس في كشك التذاكر. بدا الرجل يافعاً، لا يزيد عمره على العشرين سنة، وراقبهما بعناية حين دخلا المبنى. اقتربت ريزا منه:

- مساء الخير. نريد الوصول إلى مقر قيادة المليشيا.

- هل أنتما من موسكو؟

- هذا صحيح.

فتح الرجل باب كشك التذاكر، وخرج إلى الباحة، وأشار إلى خارج الأبواب الزجاجية نحو الشارع.

- إنهم ينتظرونكما.

شاهدا على بعد مئة خطوة من مدخل المحطة سيارة مليشيا.

تجاوز ليو وريزا نقشاً حجرياً يغطيه الثلج ويمثّل صورة جانبية لستالين منحوتةً على لوح صخري. تحركا نحو السيارة، غاز - 20، التي كانت من دون شك إحدى المركبات التي تنتجها تلك البلدة. عندما اقتربا منها استطاعا رؤية رجلين يجلسان في المقدمة. فُتح الباب، وخرج أحد الرجلين من السيارة، وتبين أنه في منتصف العمر وعريض المنكبين.

- ليو دميدوف؟

- نعم.

- أنا الجنرال نستروف، قائد مليشيا فوالسك.

تساءل ليو لماذا أزعج نفسه للقائهما. هل أصدر فاسيلي تعليمات لجعل تجربتهما مريرة قدر المستطاع؟ لكن، لم يكن ما قاله فاسيلي لهم مهمًّا، فقد كان وصول عميل إ.أ.د. سابق من موسكو سيجعل أفراد المليشيا على أهبة الاستعداد، ولن يصدّقوا أنه جاء إلى ذلك المكان للانضمام إلى

صفوفهم فقط، وسيتنابهم الشك بكل تأكيد في وجود جدول أعمال خفي، وسيفترضون - لأي سبب - أنه سيقدّم تقاريره إلى موسكو. ولا بد من أنه كلما حاول فاسيلي إقناعهم بالعكس، كلما أصبحوا أكثر تشككاً. لماذا سيسافر عميل مئات الكيلومترات للانضمام إلى فرقة مليشيا صغيرة؟ لم يكن ذلك يبدو منطقياً. ففي مجتمع يخلو من الطبقات تتواجد المليشيا قرب قاع الكومة.

كان كل تلميذ يتعلّم أن القتل، والسرقة، والاغتصاب تشير إلى مجتمع رأسمالي، ودور المليشيا محدّد سلفاً وفقاً لذلك. لم تكن هناك حاجة إلى السرقة أو العنف بين المواطنين بسبب المساواة، ولا حاجة إلى قوة شرطة في الدولة الشيوعية. ولهذا السبب، لم تكن المليشيا أكثر من مجرد قسم متواضع من وزارة الداخلية: فالأجور هزيلة، وهي تفتقر إلى الاحترام. إنها عبارة عن قوة مؤلفة من متسربين من المدارس الثانوية، وعمال زراعيين مطرودين من كولخوز، وأفراد مسرّحين من الجيش، ورجال يمكن شراء قرارهم بنصف قارورة شراب. رسمياً، كانت نسبة الجريمة في اتحاد الجمهوريات السوفييتية قريبة من الصفر، وقد أشارت الصحف تكراراً إلى أن أموالاً طائلة تُنفق في الولايات المتحدة الأميركية لمنع الجريمة؛ نظراً إلى حاجتها إلى سيارات شرطة تومض، وضباط شرطة يرتدون بذلات نظيفة وأنيقة ويمكن رؤيتهم عند زاوية كل شارع، وسينهار مجتمعها من دونهم. وظّف الغرب عدداً من أشجع رجاله ونسائه لمحاربة الجريمة؛ مواطنين يمكن أن يمضوا وقتهم في بناء شيء آخر. لم تكن أي من تلك القوة البشرية تُبدَّد هنا. كل ما يحتاجون إليه هو مجموعة رعاع من الرجال الأقوياء وعديمي الفائدة، الذين لا يصلحون لشيء إلا لفضّ مشاجرات السكارى. كانت تلك هي النظرية، ولم تكن لدى ليو فكرة عن إحصائيات الجريمة الحقيقية، أو الرغبة في اكتشاف ذلك؛ لأن أولئك الذين يعرفون يلقون حتفهم على الأرجح. ملأت أرقام إنتاج المصنع الصفحة الأولى من «البرافدا»، والصفحات الداخلية

telegram @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

والأخيرة أيضاً. ولم يكن هناك ما يستحق النشر إلا الأخبار الجيدة: معدلات الولادة العالية، وخطوط القطار في أعالي الجبال، والقنوات الجديدة.

كان وصول ليو أمراً غريباً على نحو يثير الانتباه عند أخذ ذلك في الحسبان؛ لأن منصباً في إ.أ.د. يمنح صاحبه احتراماً ونفوذاً وفائدة مادية أكثر من أي عمل آخر تقريباً، ولم يكن أي ضابط ليتخلّى عن ذلك طواعية. وإذا سُرّح من الجهاز، فلماذا لم يُعتقل ببساطة؟ لأنّه إذا طُرد من إ.أ.د، فسيبقى أسير طيفه، ومصدر قوة ثميناً ومحتملاً.

حمل نستروف صندوقيهما إلى السيارة من دون جهد يذكر؛ وكأنهما فارغان، ووضعهما في الصندوق قبل أن يفتح الباب الخلفي لهما. في الداخل، راقب ليو الضابط القائد الجديد حين صعد إلى مقعد الراكب في الأمام. كان ضخماً، حتى في تلك المركبة الكبيرة، ووصلت ركبتاه إلى ذقنه. كان ضابط شاب يجلس خلف المقود، ولم يزعج نستروف نفسه بتعريفهما به. وعلى غرار ما يحدث في إ.أ.د، كان هناك سائق مسؤول عن كل مركبة، ولا يُمنح الضباط سياراتٍ خاصة بهم أو يقودون بأنفسهم. عشّق السائق علبة التروس، وقاد السيارة على طريق خالٍ لم يشاهدوا عليه أي سيارة أخرى في مرمى البصر.

انتظر نستروف قليلاً، غير راغب من دون شك في أن يبدو وكأنه يستجوب مرؤوسه الجديد، قبل أن ينظر إلى ليو عبر المرآة الداخلية ويسأل:

- قيل لنا قبل ثلاثة أيام إنك قادم إلى هنا. إنه نقل غير معتاد.

- يجب أن نذهب إلى حيث تبرز حاجة إلينا.

- لم يُنقل أحد إلى هنا منذ بعض الوقت، ولم أقدم بالتأكيد طلباً للحصول على أيّ رجال إضافيين.

- يُعدُّ إنتاج المصنع أولوية قصوى. ولا يمكن أن تحصل قط على عددٍ كافٍ من الرجال الذين يعملون لضمان أمن هذه البلدة.

استدارت ريزا نحو زوجها، وخمّنت أن أجوبته الغامضة متعمّدة.

فبالرغم من إنزال رتبته، وطرده من إ.أ.د، كان لا يزال يستفيد من الخوف الذي تمثّله في الأذهان. وفي ظروفهما المضطربة بدا فعل ذلك منطقياً. سأل نستروف:

- أخبرني، هل ستكون سيشكك، محققاً؟ أصابتنا الأوامر بالحيرة. قالوا لا، وإنك ستكون أوشاستكوفي، وفي ذلك حظٌّ كبير من مسؤولية رجل في مثل مكانتك.

- أوامري هي أن أقدم تقاريري لك. أترك رتبتي بين يديك.

أطبق الصمت عليهم، وافترضت ريزا أن الجنرال لم يحب أن تعاد المسألة إليه، فأضاف بفظاظة وهو غير مرتاحٍ للوضع:

- ستبقى حالياً في مسكن الضيوف، وعندما نعثر على شقة سيجري تخصيصها لك. يجب أن أحذّرك أن هناك لائحة انتظار طويلة، ولا يمكنني فعل شيء حيال ذلك. ليست هناك أفضليات حين تكون فرداً من المليشيا.

توقفت السيارة خارج ما بدا أنه مطعم، وفتح نستروف الصندوق الخلفي، وحمل الصندوقين ووضعهما على الرصيف. وقف ليو وريزا بانتظار التعليمات. قال نستروف مخاطباً ليو:

- بعد أن تنقل الصندوقين إلى غرفتكما، عد إلى السيارة من فضلك. لا داعي أن تأتي زوجتك.

كتمت ريزا غضبها بعد الحديث عنها وكأنها ليست موجودة، وراقبت ما يجري حين حمل ليو، مقلداً نستروف، كلا صندوقيهما. دُهشت من ذلك التبجح لكنها قرّرت ألاّ تحرجه، فقد كان بمقدوره حمل صندوقها إذا أراد ذلك. مشت أمامه وفتحت الباب، ثم دخلت المطعم.

كان الجو مظلماً في الداخل. فقد كانت مصاريع النوافذ مغلقة، والهواء يعبق بدخان خانق، والكؤوس المتسخة من الليلة الماضية متراكمة على الطاولات. وضع ليو الصندوقين أرضاً، وقرع على إحدى الموائد الملوثة بالشحم، فظهر خيال رجل عند الباب.

- المكان مغلق.

- اسمي ليو دميدوف وهذه زوجتي ريزا. لقد وصلنا من موسكو للتّو.

- دانيال باساروف.

- قال لي الجنرال نستروف إن لديك مسكناً لنا.

- أتعني الغرفة في الأعلى؟

- لا أعرف. نعم كما أفترض.

حكّ باساروف بطنه.

- دعني أرشدك إلى غرفتك.

كانت الغرفة صغيرة. فيها سريران مفردان متلاصقان، وتظهر فجوة في منتصفهما، وكلتا الفرشتين باليتان. بدا ورق الجدران متورماً مثل جلد مراهق، ومدهوناً بنوعٍ من الدهن الذي بدا لزجاً عند مسّه. تصوّر ليو أنه زيت طهي، نظراً إلى أن غرفة النوم تقع فوق المطبخ مباشرة، والذي يمكن رؤيته عبر شقوق في ألواح الأرضية، وشروخٍ تمرّر إلى الغرفة روائح كل ما يُطبخ: فضلات ذبيحة مسلوقة، وغضاريف، ودهن حيواني.

كان باساروف قد أغلق المكان بناءً على طلب من نستروف. وتلك الغرفة تُستخدم من قبل موظفاته؛ أي النساء اللواتي يخدمن زبائنه. على أيّ حال، لم يستطع رفض الطلب لأنه لا يمتلك المبنى، وهو بحاجة إلى تعاون المليشيا من أجل إدارة عمله. كانوا يعرفون أنه يجني أرباحاً ولا مشكلة لديهم في ذلك ما داموا يحصلون على حصة. لم يكن ذلك معلناً، أو رسمياً؛ بل كان نظاماً مغلقاً. إذا كان ما قيل له حقيقياً، فعليه أن يشعر ببعض العصبية من ضيفيه، بعد أن سمع أنهما من إ.أ.د، وقد منعه ذلك من أن يكون فظاً جرياً على عادته. أشار عبر الرواق نحو باب مفتوح جزئياً.

- ذلك هو الحمّام. لدينا واحد داخلي.

حاولت ريزا فتح النافذة، لكنها كانت موصدة بمسامير، فحدّقت إلى المشهد. منازل متداعية، وثلج متسخ؛ أصبحت تلك بلدتهما.

شعر ليو بالتعب. كان قد استطاع التعامل مع إذلاله حين كان لا يزال فكرة. لكن، الآن، وبعد أن اتخذ شكلاً مادياً - هذه الغرفة - فإنّ كل ما أراده هو النوم؛ أن يغمض عينيه ويبتعد عن العالم. ملزماً بالعودة إلى الخارج، وضع صندوقه على السرير وهو غير قادر على النظر إلى ريزا، لم يكن غاضباً بل كان خجلاً. ثم خرج من دون أن ينبس بكلمة.

* * *

نُقل ليو بالسيارة إلى مركز هاتف البلدة، واصطُحب إلى الداخل ليجد صفاً طويلاً من عدّة مئات من الأشخاص الذين كانوا ينتظرون الوقت المخصص لهم؛ دقيقتين. ونظراً إلى أن معظمهم أُرغموا على ترك أسرهم خلفهم من أجل العمل هناك، فقد قدّر ليو أن تينك الدقيقتين ثمينتان جداً. لم يكن نستروف بحاجة إلى الانتظار في الصف الطويل، بل توجه إلى مقصورة صغيرة.

عندما أجرى الاتصال الذي يتضمن حديثاً يستطيع ليو سماعه، ناوله السمّاعة، فوضعها ليو على أذنه وانتظر.

- كيف المسكن؟

كان فاسيلي، هو المتحدث، وتابع:

- تريد إنهاء المكالمة، أليس كذلك؟ لكنك لا تستطيع. لا يمكنك فعل ذلك.

- ماذا تريد؟

- أن أبقى على اتصال بك حتى تخبرني عن حياتك هناك وأخبرك عن حياتي هنا. قبل أن أنسى، استرُدّت الشقة الجميلة التي خصَّصتَها لوالديك. لقد عثرنا لهما على مكان آخر أكثر ملاءمة لمكانتك. إنه بارد قليلاً، ومكتظ ربما؛ وهو قذر بالتأكيد. إنهما يشتركان فيه مع أسرة من سبعة أفراد كما أظن، من بينهم خمسة أطفال. بالمناسبة، لم أكن أعرف أن والدك يعاني ألماً فظيعاً في الظهر. أمر مؤسف أن عليه العودة إلى طابق خط التجميع قبل سنة فقط

telegram @ktabpdf

مكتبة الرمحي أحمد

من تقاعده: سنة واحدة يمكن أن تبدو مثل عشر سنوات حين لا تستمتع بعملك. لكنك ستعرف قريباً كل شيء عن ذلك.

- والداي شخصان طيبان. لقد عملا بجد، ولم يؤذياك.

- لكنني سأؤذيهما بالرغم من ذلك.

- ماذا تريد مني؟

- أريد اعتذاراً.

- فاسيلي، أنا آسف.

- أنت لا تعرف حتى لماذا تعتذر.

- عاملتك على نحو سيئ، وأنا آسف.

- ما الذي تأسف عليه؟ حدّد. والداك يعتمدان عليك.

- ما كان يجب أن أضربك.

- أنت لا تحاول بما فيه الكفاية.

يائساً، أخذ صوت ليو يرتعش:

- لا أفهم ما تريده. لديك كل شيء، ولا أملك شيئاً.

- الأمر بسيط، أريد أن أسمعك وأنت تتوسل.

- أتوسل إليك يا فاسيلي، أصغِ إلى صوتي. أتوسل إليك، اترُك والديّ وشأنهما، أرجوك...

كان فاسيلي قد أنهى المكالمة.

telegram @ktabpdf

مكتبة الرمحي أحمد

فوالسك

17 آذار

بعد أن مشى ليو طوال الليل، وبعد أن تورّمت قدماه، وابتل جوربه بالدم، جلس على مقعد في متنزه، واضعاً رأسه على يديه وبدأ بالبكاء.

لم يكن قد نام، أو أكل. وفي الليلة الماضية، عندما حاولت ريزا أن تتكلم معه، تجاهلها. وعندما أحضرت له طعاماً من المطعم تجاهل ذلك أيضاً. لم يستطع البقاء في غرفتهما الصغيرة النتنة وقتاً أطول، فنزل إلى الأسفل، وشق طريقه عبر الحشد إلى خارج المكان. كان قد مشى من دون أي إحساس بالاتجاه، محبطاً جداً، ويستشيط غضباً، ولا يستطيع أن يجلس ساكناً أو يفعل شيئاً؛ بالرغم من إدراكه أن تلك بالضبط طبيعة ورطته؛ فهو لا يستطيع أن يفعل شيئاً. ومرة أخرى واجه ظلماً، لكن هذه المرة لم يكن بإمكانه أن يتدخل. لن يتلقى كل من والديه رصاصة في الرأس؛ لأن ذلك سيكون سريعاً جداً، وشيئاً يشبه الرحمة. وبدلاً من ذلك، سيُعدمان شيئاً فشيئاً. وتخيّل مجموعة الخيارات المتاحة لذهنٍ منهجي وسادي وضيق الأفق. في المصنع الذي يعمل فيه كل منهما، ستُخفّض منزلتهما، وسيُمنحان أقسى وظيفة وأوسخها، وسيُطلب منهما عمل يثقل كاهل شاب أو شابة. سيسمعان قصصاً عن منفى ليو المثير للشفقة، والخزي والإذلال اللذين يلحقان به، وربما سيُقال لهما إنه في غولاغ، ومحكوم عشرين سنة بالأعمال الشاقّة. وفي ما يخص الأسرة التي أُرغم والداه على مشاركتها الشقة، لم يكن هناك شك في أنهم سيصبحون مزعجين وبغيضين إلى أقصى حدٍّ ممكن. سيتلقى الأولاد وعداً بالحصول على الشوكولا إذا أصدروا

ضوضاء عالية، فيما سيتلقى الراشدون وعداً بالحصول على شقتهم الخاصة إذا سرقوا الطعام، وتجادلوا معهما وجعلوا حياتهما المنزلية - بكل الوسائل المتوافرة - لا تُطاق. لم يكن بحاجة إلى تخمين التفاصيل؛ لأن فاسيلي سيستمتع بنقلها إليه، مدركاً أن ليو لن يجرؤ على إنهاء المكالمة؛ لأنه يخشى من مضاعفة أي مشقّة يعانيها والداه نتيجة ذلك. سيحطّمه فاسيلي من بعيد وسيضغط عليه على نحو منتظم في نقطة ضعفه؛ أسرته. لم يكن هناك دفاع. كان بمقدور ليو اكتشاف عنوان والديه بجهد بسيط. لكن، كل ما يستطيع فعله، إذا لم تُعترض رسائله وتُحرق، هو طمأنتهما بأنه بخير. كان قد جعل حياتهما مريحة فقط لينتزعها من تحت أقدامهما في وقت لا يستطيعان فيه تحمّل التغيير.

نهض مرتعشاً من شدّة البرد، ومع بعض الصعوبة، ومن دون أي فكرة عمّا سيفعله لاحقاً، شرع بالعودة إلى منزله الجديد.

* * *

كانت ريزا في الأسفل تجلس إلى طاولة، منتظرة إيّاه طوال الليل. وكانت تعرف - كما توقع فاسيلي - أن ليو نادمٌ على قراره بعدم إدانتها، فقد تبين أن الثمن باهظٌ جداً. لكن، ماذا كان يفترض بها أن تفعل؟ هل كان يجدر بها أن تتظاهر بأنه قد خاطر بكل شيء من أجل حبٍّ مثالي؟ لم يكن ذلك شيئاً تفعله؛ حتّى لو طُلِب منها. وإذا أرادت أن تتظاهر بذلك، فهي لا تعرف كيف: لا تعرف ماذا يجب أن تقول، أو المشاعر التي يجب إظهارها. كان بمقدورها أن تسهّل عليه الأمر. وفي الحقيقة، لا بد من أن جزءاً منها قد استساغ الحطّ من قدره، ليس حقداً أو انتقاماً، وإنما لأنها أرادت أن يعرف:

هذا هو شعوري كل يوم.

العجز، والخوف. أرادت أن يشعر بذلك أيضاً. أرادت أن يفهم، ويختبر ذلك بنفسه.

بدت مرهقة، وكانت عيناها مثقلتين بالنعاس، لكنها نظرت إلى ليو حين دخل المطعم، ثم وقفت، واقتربت من زوجها، ولاحظت عينيه المحتقنتين. لم تكن قد رأته يبكي من قبل. استدار وسكب لنفسه شراباً من أقرب قارورة. وضعت يدها على كتفه. حدث ذلك في جزء من الثانية؛ فقد استدار ليو سريعاً، وأمسك بها من عنقها وضغط عليه.

- أنتِ السبب في هذا!

ضاقت عروقها، وتورّد وجهها، ولم تستطع التنفّس، وبدأت تختنق. رفعها ليو إلى الأعلى، فأصبحت واقفة على أطراف أصابع قدميها، تحسّست يداها قبضته، لكنه لم يتركها، ولم تستطع التخلص من قبضته.

مدّت يدها إلى سطح طاولة، وكافحت أصابعها للوصول إلى كأس، ونظرها مشوّش. استطاعت أن تلمس كأساً وتقلبها، وصارت في متناول يدها. أمسكت بها، ثم استدارت وضربته على جانب وجهه. تحطّمت الكأس في يدها، وجرحت كفّها، فأفلتها ليو وكأن التعويذة قد تحطّمت. وقعت إلى الخلف وهي تسعل، وتمسك رقبتها. حدّقا إلى بعضهما كغريبين، وكأن تاريخهما كله قد تلاشى في ذلك الجزء من الثانية. كانت قطعة من الزجاج مغروزة في وجنة ليو، فسحبها إلى الخارج، ونظر إليها حين وضعها في راحة كفه. ومن دون أن تدير ظهرها، تحركت نحوِ السلالم، وأسرعت بالصعود إلى الأعلى، وتركته هناك.

بدلاً من اللحاق بزوجته، تجرّع ليو الشراب الذي سكبه، ثم سكب كأساً ثانية وثالثة. وفي الوقت الذي سمع فيه سيارة نستروف في الخارج، كان قد تجرّع معظم القارورة. لم يكن ثابتاً على قدميه، ولم يغتسل أو يحلق. كان ثملاً وشرساً وعنيفاً على نحو أحمق. استغرق منه الأمر أقل من يوم لينزل إلى المستوى المتوقع من المليشيا.

لم يذكر نستروف الجرح البليغ في وجه ليو في أثناء رحلتهما في السيارة، وتكلم بجمل قصيرة عن البلدة. لم يكن ليو يستمع، بل كان بالكاد

يعي ما يحيط به، ومشغولاً بما قد فعله سابقاً. هل حاول خنق زوجته، أم كانت تلك خدعة ما من دماغه المحروم من النوم؟ مسّ الجرح في وجنته، ورأى دماً على طرف إصبعه. كان ذلك حقيقياً. لقد فعل ذلك، وكان قادراً على فعل المزيد. بضع ثوانٍ أخرى، مع زيادة ضغط قبضته على عنقها قليلاً، كانت ستلقى حتفها. استفزّه أنه قد تخلّى عن كل شيء - عن والديه، ومهنته - من أجل حجّة واهية؛ وعد بالأسرة، وفكرة أن هناك رابطة بينهما. لقد خدعته، وأوقعته في مكيدة، وبدّلت قراره. وعندما أصبحت بأمان، وبدأ والداه يعانيان أقرّت أن الحمل كذبة، ثم مضت إلى أبعد من ذلك، وقالت صراحة إنها تحتقره. لقد تلاعبت بعواطفه ثم بصقت في وجهه. ومقابل تضحيته، وغضّه الطرف عن الدليل الجرمي الذي يدينها، لم يحصل على شيء.

لكن ليو لم يصدّق ذلك. وقد انتهى وقت تبرير الذات. لم يكن ما فعله يُغتفر، وكانت محقة في ازدرائها إياه. كم عدد الأشقاء والشقيقات، الأمهات والآباء الذين اعتقلهم؟ كم كان مختلفاً عن الرجل الذي يعتبره نقيضه الأخلاقي، فاسيلي نيكتين؟ هل كان الخلاف بينهما في أن فاسيلي قاسٍ على نحو أحمق، في حين أنه قاسٍ على نحو مثالي. كان أحدهما يمثّل قسوة حمقاء غير مبالية، فيما الآخر يمثّل قسوة تتباهى بأنها ذات مبادئ، وتظن نفسها معقولة وضرورية. لكن، في الواقع، وبمعايير التخريب، لم تكن هناك أشياء كثيرة تميز بين الرجلين. هل كان ليو يفتقر إلى الخيال كي يدرك ما هو متورط فيه؟ أم أنّ الأمر أسوأ من ذلك؟! هل اختار ألاّ يتخيل؟ كان قد أوصد الباب على تلك الأفكار، ونحّاها جانباً.

لم تبقَ إلا حقيقة واحدة بين أنقاض يقينه الأخلاقي. لقد ضحّى بحياته من أجل ريزا؛ فقط ليحاول قتلها بعدئذ. كان ذلك جنوناً. وبذلك المعدّل لن يبقى لديه شيء، حتى المرأة التي تزوجها؛ وأراد أن يقول المرأة التي أحبها. هل أحبها؟ لقد تزوجها، ألم يكن الأمر سيّان؟ لا، ليس حقاً. لقد تزوجها

لأنها جميلة، وذكية، ويشعر بالفخر حين تكون إلى جانبه، الفخر لأنها له. كانت تلك خطوة أخرى نحو الحياة السوفييتية المثالية: عمل، أسرة، أطفال. كانت بطرائق عديدة نكرة، ومسنناً في عجلات طموحه، والخلفية الأسرية الضرورية لمهنته الناجحة، ومكانته كمواطن نموذجيّ. هل كان فاسيلي محقاً حين قال إنه يستطيع أن يستبدلها بامرأة أخرى؟ كان قد طلب منها على متن القطار أن تعلن حبها له، وتسترضيه، وتكافئه بخيال رومانسي يكون البطل فيه، وقد تبين له أن ذلك مثير للشفقة. أطلق ليو تنهيدة مسموعة، وفرك جبينه. كان يخسر. وذلك بالضبط ما يريده فاسيلي؛ لعبة أجزاؤها وحدات من البؤس. وبدلاً من قيام فاسيلي بضرب زوجته، وإيذائها، كان ليو قد فعل ذلك له، ونفّذ كل جزء من خطته.

كانوا قد وصلوا، وتوقفت السيارة، ووقف نستروف خارجها بانتظاره. ومن دون أي فكرة عن المدة التي بقي فيها جالساً هناك، فتح ليو باب السيارة، وخرج منها، وتبع الضابط القائد إلى مقر قيادة المليشيا ليبدأ أول صباح له في العمل. جرى تعريفه إلى الموظفين، فصافحهم وأومأ إليهم، لكنه لم يستطع استيعاب أي شيء. فالأسماء، والتفاصيل مرّت في ذهنه مرور الكرام. ولم يبدأ بالتركيز مجدداً على الحاضر حتى أصبح وحيداً في غرفة الخزائن؛ حيث كانت هناك بزّة معلّقة أمامه. خلع حذاءه، وزوج الجوارب عن أصابعه الملطخة بالدماء، ووضع قدميه تحت الماء البارد، وشاهد الماء وهو يتحول إلى اللون الأحمر. ونظراً إلى أنه لم يكن يمتلك زوجاً جديداً من الجوارب، ولا يمكنه أن يطلب واحداً، اضطر إلى ارتداء زوج الجوارب المتسخ، وفزع لدى شعوره بالألم حين شدّ القماش فوق جلده المتورم. تعرّى، وترك ثيابه المدنية في كومة أسفل الخزانة، وأغلق أزرار بذلته الجديدة، المؤلفة من سروال خشن ذي حاشية حمراء وسترة عسكرية ثقيلة. نظر إلى نفسه في المرآة، ورأى دائرتين سوداوين حول عينيه، وجرحاً عميقاً على وجنته اليسرى. ألقى نظرة على الشارة المعلقة على سترته، وأدرك أنه

أوشاستكوفي، نكرة.

كانت جدران مكتب نستروف مزّينة بشهادات مؤطرة. وعندما قرأها ليو اكتشف أن رئيسه قد فاز بمسابقات مصارعة هواة، ومنافسات في الرماية بواسطة البندقية، وقد تلقى ثناءً بوصفه ضابط الشهر في عدّة مناسبات هناك، وفي مكان سكنه السابق روستوف. كان عرضاً للتباهي، ومفهوماً نظراً إلى أن مكانته لم تكن موضع تقدير كبير.

أمعن نستروف النظر إلى موظفه الجديد، وهو غير قادر على فهم ما جرى. لماذا كان هذا الرجل، الضابط السابق رفيع المستوى في إ.أ.د، الذي تقلّد وساماً في أثناء الحرب في مثل هذه الحالة المزرية؟! أظفاره متسخة، ووجهه ينزف، وشعره غير مغسول، وتفوح منه رائحة الشراب، ويبدو غير مبالٍ لخفض رتبته! ربما كان على النحو الذي وُصف عليه بالضبط: غير كفوء إطلاقاً أو غير مؤهل لتحمّل المسؤولية. بدا مظهره متوافقاً بالتأكيد مع الوصف، لكن نستروف لم يقتنع. ربما كان ذلك المظهر الأشعث خدعة، وقد أُصيب بالقلق منذ اللحظة التي سمع فيها عن ذلك النقل. يستطيع ذلك الرجل إلحاق ضرر بالغ به وبرجاله، وكل ما سيتطلّبه الأمر تقرير واحد. كان نستروف قد قرّر أن أفضل ما يفعله هو مراقبة ذلك الرجل، واختباره، وإبقاؤه قريباً منه؛ وسيكشف ليو في نهاية المطاف عن نواياه.

قدّم نستروف ملفاً إلى ليو، فحدّق إليه هذا الأخير للحظة، محاولاً اكتشاف ما هو متوقع منه. لماذا كان يُعطى ذلك؟ لم يكن يكترث؛ أياً يكن الأمر. تنهّد، وأرغم نفسه على إمعان النظر في الملف، ورأى في الداخل صوراً بالأبيض والأسود لفتاة يافعة مستلقية على ظهرها، ومحاطة بثلج أسود. ثلج أسود... أسود؛ لأنه مشبع بالدم. بدا أن الفتاة تصرخ، وبعد أن نظر عن قرب تبين أن هناك شيئاً داخل فمها. شرح نستروف:

- كان فمها محشواً بالتراب، ولهذا لم تستطع أن تصرخ طلباً للعون.

اشتدت أصابع ليو على الصورة، وتبخّرت كل أفكاره عن ريزا،

ووالديه، ونفسه حين ركّزت عيناه على فم الفتاة الذي كان مفتوحاً ومحشواً بالتراب. ألقى نظرة على الصورة التالية. كانت الفتاة عارية. جلدها - غير المتضرر - أبيض مثل الثلج. أمّا حجابها الحاجز فكان متضرراً وممزقاً. قلب إلى الصورة الأخرى التي تليها، ولم يرَ فتاة، وإنما بدلاً من ذلك رأى ابن فيودور الصغير، فتى لم يُجرّد من ملابسه، أو يُشقّ بطنه، فتى لم يُحشَ فمه تراباً؛ فتى لم يُقتل. وضع ليو الصور على الطاولة ولم يقل شيئاً، وإنما حدّق إلى الشهادات المعلّقة على الجدار.مكتبة الرمحي أحمد

اليوم نفسه

لم تكن للحادثتين أي علاقة ببعضهما بالتأكيد. أيعقل أن تكون هناك علاقة بين وفاة ابن فيودور الصغير ومقتل تلك الفتاة اليافعة؟! بدا ذلك مستحيلاً. وقعتا بعيداً عن بعضهما مسافة مئات الكيلومترات، وفي ذلك مفارقة قاسية؛ ليس أكثر. لكن ليو كان مخطئاً في غض الطرف عن ادّعاءات فيودور، فها هو الآن قد شاهد فتاة لقيت حتفها كما وصف. لم يكن مثل ذلك الأمر ممكناً، وليست هناك طريقة لمعرفة ما قد حدث حقاً لابن فيودور، أركادي؛ لأن ليو لم يزعج نفسه قط بفحص جثة الفتى بنفسه. ربما كانت تلك الوفاة حادثاً، أو ربما جرى التعتيم على القضية. إذا كان الرأي الأخير صحيحاً، فقد كان ليو أداة في كتمان سر، وقد فعل ذلك على نحو أعمى، وسخر من أسرة حزينة، ووبّخها، وأخيراً هدّدها.

كان الجنرال نستروف صريحاً بشأن تفاصيل تلك الجريمة، ولم يدعها بأي اسم آخر أو تصدر عنه إشارة بأنّه يريد تصويرها على أنها شيء آخر. فهي ليست إلاّ جريمة وحشية ومروّعة. أقلقت صراحته ليو. كيف استطاع الحفاظ على رباطة جأشه؟ كان يفترض أن تتطابق الإحصائيات السنوية لإدارته مع أنماط محددة سلفاً: معدلات جريمة منخفضة، وانسجام اجتماعي متزايد. وبالرغم من أن البلدة قد شهدت زيادة كبيرة في عدد السكان إثر تدفق ثمانين ألف عامل اقتُلعوا من جذورهم إليها، إلا أن الجريمة يجب أن تتراجع؛ لأن النظرية تفيد بأن العمل قد ازداد، والعدالة قد تحققت، والاستغلال قد انخفض.

telegram @ktabpdf

مكتبة الرمحي أحمد

كان اسم الضحية لاريسا بتروفا، وقد عُثر عليها في الغابة قبل أربعة أيام، غير بعيدة عن محطة القطار. لم تكن التفاصيل المتعلقة باكتشاف الجثة واضحة، وعندما طلب ليو معرفتها بدا نستروف متشوّقاً إلى تنحية القضية جانباً. كل ما استطاع ليو معرفته هو أن رجلاً وامرأة ثملين ذهبا إلى الغابة لإقامة علاقة، وحينها اكتشفا الجثة. فقد تعثرا بالفتاة الصغيرة، التي كانت تستلقي في الثلج منذ بضعة شهور، وجسدها محفوظ تماماً في البرد القارس. كانت تلميذة، عمرها أربع عشرة سنة، ومن المعروف عنها أن حياتها منافية للأخلاق ليس مع الفتيان في مثل عمرها فقط، ولكن مع رجال أكبر سناً. وأنه يمكن شراؤها مقابل قارورة من الشراب. كانت لاريسا قد تشاجرت مع والدتها يوم اختفائها، ولم يؤخذ غيابها على محمل الجد لأنها هدّدت بالهروب، وبدا أنها قد نفّذت وعيدها، ولهذا لم يبحث أحد عنها. ووفقاً لنستروف، كان والداها عضوين محترمين في المجتمع؛ فوالدها محاسب في مصنع التجميع. شعر الوالدان بالعار من ابنتهما ولم يرغبا في أن تكون لهما أي علاقة بالتحقيق الذي يجب إبقاؤه سراً. لا ينبغي إخفاؤه فقط، وإنما عدم إظهاره إلى العلن أيضاً. وافق الوالدان على عدم إقامة جنازة لابنتهما، وأبديا استعداداً للتظاهر بأنها مفقودة فقط. لم يكن هناك داعٍ لأن يعرف المجتمع كله ذلك الأمر. وقد عرف عدد من الأشخاص خارج المليشيا بأمر الجريمة؛ ليس أكثر. كان أولئك الأشخاص، ومن بينهم الثنائي الذي عثر على الجثة، قد عرفوا بوضوح عواقب التكلم. وبدا أن القضية ستعالج بسرعة؛ لأن لديهم سلفاً رجلاً محتجزاً.

كان ليو يدرك أن المليشيا لا تستطيع التحقيق في قضية جنائية إلا إذا فُتحت، وأن أي قضية جنائية لا تُفتح إلا إذا كانوا واثقين بأنها ستكلل بالنجاح. لم يكن الفشل في إدانة مشتبه فيه مقبولاً؛ إذ ستكون العواقب وخيمة. كان نقل القضية إلى المحكمة يعني شيئاً واحداً؛ أي أن المشتبه فيه مذنب. إذا كانت القضية صعبة، ومعقدة، وغامضة، فإنها ببساطة لا تُفتح.

وهدوء نستروف ومرؤوسيه الشديد يعني أنهم مقتنعون بأنهم عثروا على القاتل، وأن عملهم قد أُنجز. كان الجهد الذهني الذي ينبغي أن يبذل في التحقيقات، وتقديم الأدلّة، والاستجواب، وفي نهاية المطاف المقاضاة نفسها من واجبات فريق التحقيق الحكومي، ومكتب المدّعي العام وفريقه من سلدوفاتيل، والمحامين. لم يُطلب من ليو تقديم يد العون، بل تم اصطحابه في جولة، متوقعين منه الإشادة بكفاءتهم.

كانت الزنزانة صغيرة وتفتقر إلى أيٍّ من التعديلات الإبداعية النموذجية في زنزانات لوبيانكا. كانت الجدران والأرضية إسمنتية، وكان المشتبه فيه جالساً ويداه مقيدتان بالأصفاد خلف ظهره، وهو شاب يافع، ربما لا يتجاوز عمره ست عشرة سنة أو سبع عشرة سنة. بنيته قوية مثل راشد لكن وجهه طفولي. بدا أن عينيه هائمتان ولا تستقران على شيء، لكنه لم يكن خائفاً، بل هادئاً وإنما ليس بطريقة عقلانية، ولم تظهر عليه أي علامات تشير إلى تعرضه لتعذيب جسدي. بالطبع كانت هناك وسائل لإلحاق إصابات به من دون أن تظهر عليه علامات تشير إلى ذلك. لكن، تكوّن انطباع لدى ليو بأن الفتى لم يتعرض لأذى. أشار نستروف إلى المشتبه فيه:

- هذا فار لام بابينيتش.

عندما سمع اسمه، حدّق الشاب إلى نستروف كما يحدّق كلب إلى مالكه. تابع نستروف:

- لقد عثرنا على خصلة من شعر لاريسا كانت في حوزته. لديه تاريخ في ملاحقتها، والتسكع خارج منزلها، واعتراض طريقها في الشارع. تتذكر والدة لاريسا رؤيته في عدّة مناسبات، وتتذكر أن ابنتها قد اشتكت منه، إذ كان دوماً ما يحاول أن يمسّ شعرها.

استدار نستروف إلى المشتبه فيه، وتكلم ببطء:

- فار لام، أخبرنا عمّا حدث. أخبرنا كيف حصلت على خصلة من شعرها.

- لقد قصصتها. كان ذلك خطئي.
- أخبر هذا الضابطَ لماذا قتلتها.
- أحببتُ شعرها، وأردته. لدي كتاب أصفر، وقميص أصفر، وعلبة صفراء، وخصلة شعر صفراء. لهذا السبب قصصت خصلة من شعرها، وأنا آسف. كان يجب ألاّ أفعل ذلك. متى يمكنني الحصول على البطانية؟
- لنتكلم عن ذلك لاحقاً.
قاطعهما ليو:
- أي بطانية؟
- اختطف قبل يومين طفلاً كان متدثراً ببطانية صفراء. لديه هوس باللون الأصفر. لحسن الحظ لم يتعرض الطفل للأذى. على أيّ حال، ليس لديه إدراك للصواب والخطأ. وهو يفعل ما يرغب في فعله من دون تفكير في العواقب.
اقترب نستروف من المشتبه فيه قائلاً:
- عندما وجدتُ شعر لاريسا في كتابك، لماذا ظننتَ أنك في ورطة؟ أخبر هذا الرجلَ بما قلته لي.
- لم تحبني قط، وكانت تطلب مني باستمرار الابتعاد عنها لكنني أردت شعرها، أردت ذلك كثيراً. وعندما قصصت شعرها لم تقل شيئاً على الإطلاق.
استدار نستروف إلى ليو، ناقلاً الاستجواب إليه:
- هل لديك أي أسئلة؟
ما الذي كان متوقعاً منه؟ فكّر ليو قليلاً قبل أن يسأل:
- لماذا حشوت فمها بالتراب؟
لم يجب فارلام فوراً، وبدا مشوشاً.
- نعم، كان هناك شيء في فمها. أتذكر ذلك الآن. لا تضربني.
أجاب نستروف:

- لن يضربك أحد، أجب عن السؤال.

- لا أعرف. أنسى الكثير من الأشياء. كان هناك تراب في فمها، نعم.

تابع ليو:

- اشرح ما حدث حين قتلتها.

- قطعته.

- هل قطعت جسدها أم قصصتَ شعرها؟

- آسف، قطعته.

- أصغِ إلي جيداً. هل قطعت جسدها أم قصصت شعرها؟

- وجدتها وقصصته. كان يجب أن أخبر أحداً بذلك لكنني خفت. لم أرغب في التورط في مشكلة.

بدأ فارلام يبكي.

- أنا في ورطة كبيرة. آسف، كل ما أردته هو شعرها.

تقدم نستروف إلى الأمام وقال:

- يكفي هذا الآن.

توقف فارلام عن البكاء حين سمع كلمات نستروف المطمئنة تلك، وأصبح هادئاً مجدداً. كان من المستحيل أن يعرف المرء لدى النظر إلى وجهه أنه رجل متورط في جريمة.

خرج ليو ونستروف من الزنزانة، وأغلق نستروف الباب:

- لدينا دليل على وجوده في مسرح الجريمة. تتطابق الآثار التي عثرنا عليها على الثلج مع حذائه تماماً. إنه من إنترنات؟ إنه ساذج.

فهم ليو آنذاك سبب شجاعة نستروف في معالجة تلك القضية، فقد كان لديهم مشتبه فيه يعاني اضطراباً ذهنياً. كان فارلام خارج المجتمع السوفييتي، والشيوعية، والسياسة؛ حالة يمكن تعليلها. لم تكن أفعاله تؤثر في الحزب، أو تغير الحقيقة البديهية عن الجريمة؛ لأن المشتبه فيه لم يكن سوفييتياً حقيقياً، وإنما كان شاذاً. أضاف نستروف:

- يجب ألاّ يدفعك ذلك إلى التفكير في أنه غير قادرٍ على القيام بأي أمر عنيف. لقد اعترف بأنه قتلها. لديه دافع غير عقلانيٍ، لكنه حافز في نهاية المطاف. أراد شيئاً لا يمتلكه؛ شعرها الأشقر. لديه تاريخ في ارتكاب الجرائم حين لا يحصل على ما يريده. فهو متّهم بالسرقة والاختطاف، وقد تحول الآن إلى القتل. بالنسبة إليه، لم يكن قتل لاريسا يختلف عن سرقة طفل، فأخلاقه لم تتطور. هذا محزن، وكان يجب أن يُسجن قبل وقت طويل. هذه قضية تخص سلدوفاتيل الآن.

فهم ليو أن التحقيق قد انتهى، وأن الشاب سيموت.

اليوم نفسه

كانت غرفة النوم خالية، فخرّ ليو على ركبتيه، ووضع رأسه على ألواح الأرضية. لم يكن صندوقها موجوداً. نهض، وخرج مسرعاً من الغرفة، ونزل السلالم إلى مطبخ المطعم. كان باساروف يقطّع شرائح سميكة من قطعة لحم صفراء غير معروفة.

- أين زوجتي؟

- ادفع ثمن القارورة وسأخبرك.

أشار إلى القارورة الفارغة، قارورة الشراب الرخيصة التي كان ليو قد شربها كلها في الساعات الأولى من الصباح، وأضاف:

- لا أهتم إن كنت أنت من شربها أو زوجتك.

- أرجوك، أخبرني فحسب أين هي.

- ادفع ثمن القارورة.

لم يكن لدى ليو أي مال، وكان لا يزال مرتدياً بذلة المليشيا. وقد ترك كل شيء في غرفة الخزائن.

- سأدفع لك لاحقاً أيَّ ثمن تريده.

- لاحقاً، بالتأكيد، ستدفع لي لاحقاً مليون روبل.

تابع باساروف تقطيع اللحم، في إشارة إلى رفضه ذلك العرض.

جرى ليو صعوداً على السلالم، وبحث في صندوقه، وأفرغ منه كل شيء. كان لديه في الغلاف الخلفي لكتاب الدعاة أربع ورقات نقدية من فئة الخمسة والعشرين روبلاً مخبأة لحاجة ملحّة. نهض على قدميه، واندفع

خارجاً من الغرفة، ونزل على السلالم، وتوجّه إلى المطعم. دفع إحدى الأوراق النقدية في يد الرجل، وكانت أكثر بكثير من ثمن قارورة واحدة.

- أين هي ؟

- غادرت قبل ساعتين، وكانت تحمل صندوقها.

- إلى أين ذهبت؟

- لم تتكلم معي، أو أتكلم معها.

- كم مضى على مغادرتها؟ أقصد منذ متى بالضبط ؟

- منذ ساعتين أو ثلاث...

ثلاث ساعات. ذلك يعني أنها لم تغادر المطعم فقط، وإنما على الأرجح البلدة أيضاً. لم يستطع ليو أن يخمّن المكان الذي قد تقصده، أو الاتجاه الذي قد تسافر فيه.

شعر باساروف بالسعادة بعد حصوله على تلك المكافأة المجزية، فتطوّع للإدلاء بمزيد من المعلومات.

- لن تصل على الأرجح في الوقت المناسب لتغادر على متن قطار العصر. ووفقاً لما أتذكره ليس هناك قطار آخر حتى هذا الوقت تقريباً.

- أي وقت؟

- السابعة والنصف...

كان لدى ليو عشر دقائق.

تجاهل ليو تعبه، وجرى بأقصى سرعته، لكن اليأس خنقه. لهث ولم تكن لديه فكرة واضحة عن مكان المحطة. كان يجري على نحو أعمى، وهو يحاول أن يتذكر الطريق الذي سلكته السيارة. تشبّعت بذلته برذاذ الوحل الذي يغطي الشارع، وأصبح القماش الرخيص أثقل وأثقل. شعر بحكّة حيث كانت قدماه متقرّحتين، وأخذت أصابع قدميه تنزف مجدداً، وامتلأ حذاؤه بالدم، وأصبحت كل خطوة تسبب له ألماً مبرّحاً في ساقيه.

استدار حول زاوية ليواجه طريقاً مسدوداً؛ صفًّا من منازل خشبية. ضلّ

telegram @ktabpdf

مكتبة الرمحي أحمد

طريقه، والوقت قد فات. لقد رحلت زوجته، ولم يكن في وسعه فعل شيء. انحنى إلى الأمام، وهو يحاول التقاط أنفاسه، وتذكر تلك المنازل الخشبية المتداعية، ورائحة مياه الصرف الصحي الكريهة. كان قريباً من المحطة، وكان واثقاً بذلك. وبدلاً من العودة من حيث أتى جرى إلى الأمام، ودخل من الجزء الخلفي لأحد الأكواخ، ورأى أسرة يجلس أفرادها على الأرض، ويتناولون وجبة طعام، متجمعين حول موقد، فنظروا إليه بصمت، خائفين من بذلته. ومن دون أن ينطق بكلمة، خطا بين الأطفال وخرج من المنزل، فوصل إلى الشارع الرئيس؛ إلى الطريق الذي سلكوه لدى وصولهم. أضحت المحطة في مرمى البصر، وحاول أن يزيد سرعته لكنه تباطأ. لم يعد الأدرينالين يعوّضه عن الإرهاق، ولم تعد لديه طاقة مدّخرة.

مشى متثاقلاً نحو أبواب المحطة، التي فتحها بكتفه. أظهرت الساعة أن الوقت السابعةُ وخمس وأربعون دقيقة. كان متأخراً خمس عشرة دقيقة. بدأ يبرز في ذهنه إدراك أنها رحلت، إلى الأبد على الأرجح، لكن ليو تشبث بأمل لا مبرر له أنها ستكون بطريقة ما على الرصيف، ولم تستطع الصعود إلى متن القطار. خرج إلى الرصيف وهو ينظر يميناً ويساراً. لم يرَ زوجته أو القطار، فشعر بالضعف، وانحنى إلى الأمام، ويداه على ركبتيه، والعرق يسيل على جانب وجهه. رأى بطرف عينه رجلاً يجلس على مقعد خشبي. لماذا بقي ذلك الرجل على الرصيف؟ هل كان ينتظر قطاراً؟ شدّ ليو قامته.

كانت ريزا تقف في الطرف البعيد من الرصيف، يخفيها الظلام. تطلب منه الأمر جهداً كبيراً كي لا يركض ويمسك يديها. التقط ليو أنفاسه، وأخذ يحاول التفكير في ما سيقوله. نظر إلى نفسه؛ كان في حالٍ يرثى لها. فقد كان يتصبب عرقاً، ومتسخاً. لكنها لم تكن تنظر إليه حتى. كانت تنظر فوق كتفه، فاستدار ليو إلى الخلف ليرى أعمدة دخان كثيفة ترتفع فوق قمم الأشجار، وأدرك أن القطار المتأخر يقترب.

كان ليو قد تخيّل أن لديه وقتاً للاعتذار، والعثور على الكلمات

telegram @ktabpdf

مكتبة الرمحي أحمد

المناسبة، والتحدث بفصاحة. على أيّ حال، لم يعد لديه الآن إلا ثوانٍ فقط ليقنعها، فخرجت كلماته متلعثمة.

- آسف، لم أكن أفكّر. أمسكت بك لكن ذلك الشخص لم يكن أنا. أو لم يكن الشخص الذي أريده.

كان عليه أن يقدم عذراً أفضل. أبطأ، وركّز؛ فهو سيحظى بفرصة واحدة.

- ريزا، أنت تريدين أن تهجريني. أنت محقة إذا أردت أن تهجريني. يمكن أن أخبرك أن الأمر سيكون صعباً حين تكونين وحدك، وأنه سيجري إيقافك، واستجوابك، واعتقالك، لا سيما وأنك تفتقرين إلى الوثائق المناسبة. ستصبحين متشردة، لكن ذلك ليس سبباً للبقاء معي. أعرف أنك ربما تفضلين تجربة حظك.

- يمكن تزوير الوثائق يا ليو، وسأفضّل تزويرها على هذا الزواج.

إذاً، هكذا؟ كان الزواج خدعة. اختفت كل كلمات ليو، وتهادى القطار بجانبهما. كان وجه ريزا خالياً من أي تعبير، فابتعد ليو عن طريقها، وتحركت نحو العربة. هل يسمح لها بالذهاب؟ رفع ليو صوته فوق أزيز المكابح الحاد:

- لم يكن السبب الذي دفعني إلى عدم إدانتك هو أنني صدّقت أنك حامل. ولا علاقة له بكوني شخصاً طيباً. فعلت ذلك لأن أسرتي هي الجزء الوحيد في حياتي الذي لا أخجل منه.

لدهشة ليو، استدارت ريزا إلى الخلف قائلة:

- من أين جاء هذا التنوّر المفاجئ؟ يبدو رخيصاً. بعد أن جُرّدت من بذلتك، ومنصبك، وسلطتك، تريد الآن أن تتوافق معي. أليس كذلك؟ أصبح شيء لم يكن بالغ الأهمية بالنسبة إليك من قبل - نحن - مهماً؛ لأنك وجدت أنك لا تملك شيئاً آخر.

- أنت لا تحبينني، أعرف ذلك. لكن، كان هناك سبب لزواجنا. كان هناك شيء بيننا، علاقة ما. لقد فقدنا ذلك، أنا فقدت ذلك، ويمكننا إيجاد

ذلك الرابط مجدداً.

بدأت أبواب العربات تُفتح، وخرج عدد من الركاب منها، وبدا أن الوقت ينفد. نظرت ريزا إلى العربة، وهي توازن بين خياراتها، التي كانت بائسة. لم يكن لديها أصدقاء تهرب إليهم، أو أسرة تحتمي بها، أو مال أو وسائل لتعيل بها نفسها. لم تكن لديها حتى تذكرة، وبدا ليو محقاً في تحليله. إذا غادرت، فستعتقلها السلطات على الأرجح. شعرت بالإرهاق من التفكير في ذلك، ونظرت إلى زوجها. لم يكن لديهما شيء إلا بعضهما بعضاً، سواء أأحبّا ذلك أم لا.

وضعت ريزا صندوقها أرضاً، فابتسم ليو وهو يظن على ما يبدو أنهما قد تصالحا. انزعجت من ذلك التفسير الأبله، فرفعت يديها مما جعله يبتلع ابتسامته.

- تزوجتك لأنني كنت خائفة، ومذعورة من أنني إذا رفضت عرضك فسأُعتقل. ربما ليس فوراً، ولكن في وقت ما لاحقاً، بذريعة ما. كنت شابة يا ليو، وأنت صاحب نفوذ؛ ذلك سبب زواجنا. أتذكر تلك القصة التي كنت تخبرني إيّاها عن تظاهري بأن اسمي لينا؟ أتجد تلك القصة ممتعة، ورومانسية؟ أعطيتك اسماً مستعاراً لأنني كنت قلقة من ملاحقتك إياي. لقد بُنيت علاقتنا على الخوف. ربما ليس من وجهة نظرك، فليس لديك سبب لتخاف مني. فما السلطة التي أملكها؟ ما السلطة التي امتلكتُها يوماً؟ طلبت مني الزواج بك وأنا قبلت لأن ذلك ما يفعله الناس. إنهم يتلاءمون مع الظروف، ويتحمّلون من أجل النجاة. لم تضربني أو تصرخ في وجهي قط من قبل، ولم تثمل قط. لهذا، بالمقابل، أقرّ بأنني كنت أوفر حظاً من كثيرات. عندما أمسكت عنقي يا ليو، ألغيتَ السبب الوحيد الذي يجعلني أبقى معك.

تحرك القطار، وشاهده ليو وهو يبتعد، محاولاً أن يستوعب ما قد قالته، لكنها لم تمنحه أي فرصة، فقد تحدّثت وكأن تلك الكلمات قد تكوّنت في رأسها بمرور سنين عديدة، ثم أخذت تتدفق بحرية آنذاك حين

telegram @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

حانت الفرصة المناسبة.

- المشكلة حين يصبح المرء ضعيفاً، كما هي حالك الآن، هي أن الناس يبدأون بإخباره الحقيقة، التي لا يكون معتاداً عليها، فقد عاش في عالم يحميه الخوف الذي يمثّله. لكن، إذا كنا سنبقى معاً، فَلنوقف تلك الرومانسية المخادعة. الحالة الراهنة هي الرابط بيننا، أنت لي وأنا لك، وليس لدينا شيء آخر. وإذا كنا سنبقى معاً، فسأخبرك الحقيقة منذ الآن فصاعداً. لن تكون هناك أكاذيب مريحة. نحن متساويان كما لم نكن متساويين من قبل. يمكن أن تقبل ذلك أو سأنتظر القطار التالي.

لم يكن لدى ليو رد، ولم يكن مستعداً لذلك، ووجد نفسه في موقف دفاعي وهو يسمع كلاماً صريحاً. كان قد استفاد في الماضي من منصبه للحصول على سكن وطعام أفضل، ولم يتخيل قط أنه قد استفاد منه للحصول على زوجة أيضاً. رقّ صوتها قليلاً:

- هناك أشياء كثيرة أخشى منها، ولا يمكن أن تكون أنت أحدها.

- لن أفعل ذلك أبداً مجدداً.

- أشعر بالبرد يا ليو. لقد بقيت واقفة على هذا الرصيف ثلاث ساعات. سأعود إلى غرفتنا، هل أنت قادم؟

لا، لم يكن يشعر برغبة في العودة. لم يكن يشعر بالرغبة في المشي بجانبها، وهناك هاوية بينهما.

- سأبقى هنا لبعض الوقت، وأراك هناك.

حملت ريزا صندوقها، وعادت إلى بناء المحطة. جلس ليو على مقعد خشبي وهو يحدّق إلى الغابة. استعاد ذكريات علاقتهما، وأمعن التفكير في كلامها مجدداً، عدّل فهمه إياها، وأعاد كتابة ماضيه.

كان جالساً هناك من دون أن يشعر بالوقت الذي انقضى حين أدرك أن شخصاً ما يقف إلى جانبه. وحين نظر إليه رأى الرجل من مكتب التذاكر، الشاب اليافع، الرجل الذي التقياه عند وصولهما.

- سيدي، لم تعد هناك قطارات الليلة.
- هل لديك لفافة تبغ؟
- أنا لا أدخّن. يمكن أن آتيك بواحدة من شقتنا. إنها في الأعلى.
- لا، لا بأس بذلك. شكراً لك على أيّ حال.
- أنا ألكسندر.
- ليو. هل تمانع أن أبقى هنا لبعض الوقت؟
- لا، سأجلب لك لفافة التبغ تلك.

قبل أن يجب ليو، كان الشاب قد غادر مسرعاً.

جلس ليو مسترخياً وانتظر. رأى كوخاً خشبياً يبعد قليلاً عن السكك الحديدية، وعرف أنه المكان الذي عُثر فيه على جثة الفتاة. كان بمقدوره رؤية طرف الغابة؛ مسرح الجريمة، حيث الثلج الذي داسته أقدام المحققين، والمصورين، ومحامي التحقيق الذين أمعنوا النظر في جثة تلك الفتاة الميتة، بفمها المفتوح والمحشو تراباً.

خطرت لليو فكرة، فنهض وتقدم إلى الأمام مسرعاً، ثم نزل عن الرصيف، وتجاوز السكك الحديدية، واتجه نحو الأشجار. ناداه صوتٌ خلفه:

- ماذا تفعل؟

استدار إلى الوراء، ورأى ألكسندر واقفاً على حافة الرصيف، وهو يحمل لفافة تبغ، فأشار إليه أن يتبعه.

وصل ليو إلى المنطقة التي وطئتها الأقدام، وشاهد آثار أحذية متقاطعة في كل الاتجاهات. دخل الغابة، ومشى دقيقتين حتى وصل إلى المنطقة التي افترض أن الجثة كانت ممددة فيها. جثم أرضاً، وعندما لحق به ألكسندر، نظر ليو إليه.

- هل تعرف ما حدث هنا؟
- كنت الشخص الذي رأى إلينايا وهي تركض إلى المحطة. كانت

قد تعرّضت لضرب مبرّح، وترتعش. لم تستطع أن تتكلم لبعض الوقت. ثم استدعيت المليشيا.

- إلينايا؟

- هي التي عثرت على الجثة. لقد تعثرت بها. هي والرجل الذي كانت معه.

الثنائي في الغابة؛ شعر ليو أن هناك خطباً ما.

- لماذا تعرّضت لضرب مبرّح؟

بدا ألكسندر عصبياً.

- إنها ساقطة. الرجل الذي كانت معه في تلك الليلة مسؤول بارز في الحزب. أرجوك، لا تطرح علي المزيد من الأسئلة.

فهم ليو. أراد ذلك المسؤول عدم ذكر اسمه في أي وثيقة مكتوبة. لكن، هل يعقل أنه مشتبه فيه في جريمة قتل الفتاة اليافعة؟ أومأ ليو إلى الشاب محاولاً طمأنته، ثم قال:

- لن أذكر اسمك، أعدك بذلك.

اندفعت يد ليو عبر طبقة الثلج الرقيقة.

- كان فم تلك الفتاة مملوءاً تراباً وطيناً. تخيل أنني أتعارك معك هنا، وأنني مددت يدي لأمسك شيئاً أحشو به فمك؛ لأنني كنت خائفاً من أن تصرخ، وخائفاً من أن يسمعك شخص ما.

وصلت أصابع ليو إلى الأرض التي كانت قاسية مثل سطح حجر. حاول في مكان آخر، وآخر، وغيره. لم يكن هناك طين، وبدت الأرض صلبة ومتجمدة.

18 آذار

واقفاً خارج المستشفى 379، قرأ ليو تقرير التشريح مجدداً، الذي نسخ نقاطه الرئيسة من الوثيقة الأصلية:

جروحُ طعنات متعددة
طول النصل غير محدد
ضرر بالغ لحق بالجذع والأعضاء الداخلية
اغتصاب قبل الوفاة أو بعدها
كان فمها مملوءاً بالتراب لكنها لم تختنق،
وكان مجراها التنفّسي فارغاً.
استُخدم التراب لهدف آخر. هل استخدم لإسكاتها؟

كان ليو قد رسم دائرة حول النقطة الأخيرة. ونظراً إلى أن الأرض كانت متجمدة، فلا بد من أن القاتل قد أحضر التراب معه، وقد خطط للجريمة، وكانت لديه النية والاستعداد لتنفيذها. لكن، لماذا أحضر التراب أصلاً؟ إنه وسيلة مزعجة لإسكات أحدهم، وسيكون استعمال خرقة أو قطعة قماش أو حتى يد أسهلَ كثيراً. ومن دون أي أجوبة، كان ليو قد قرّر أن يعمل بنصيحة فيودور أخيراً، ويرى الجثة بنفسه.

عندما سأل ليو عن المكان الذي توجد فيه الجثة قيل له أن يذهب إلى المستشفى 379. كان يعرف أنه ليس هناك مختبرات شرعية، أو متخصصون بعلم الأمراض، أو مشرحة. ويعرف أنه ليس هناك من أدوات متخصصة

للتعامل مع وفاة حصلت نتيجة جريمة. كيف يمكن أن يكون هناك مثل تلك الأشياء إذا لم تكن هناك وفاة تحصل نتيجة جريمة؟ في المستشفى، وجد أفرادُ المليشيا أنفسهم مضطرين إلى التماس دقيقة فراغ من طبيب؛ مثل استراحة لتناول وجبة، أو عشر دقائق قبل جراحة. قام هؤلاء الأطباء، غير المدرّبين خارج نطاق مؤهلاتهم الطبية، بتخمين ما قد حدث للضحية. كان تقرير التشريح الذي قرأه ليو يستند إلى ملاحظات سُجّلت في أثناء إحدى تلك الجلسات الطارئة مع طبيب. ولقد طبعها شخص مختلف تماماً بعد عدّة أيام. كان هناك شك في أن يكون جزء كبير من الحقيقة قد ضاع في أثناء ذلك.

كان مستشفى 379 أحد أشهر المستشفيات في البلد، وواحداً من أفضل المستشفيات المجانية المتاحة للجميع في العالم، والذي يقع في نهاية شارع تشكالوفا، وينتشر على عدّة هكتارات تضم أراضيَ طبيعية تمتد حتى تصل إلى الغابة. استُثمرت أموال طائلة في تلك المرافق، وفهم ليو لماذا يسافر أصحاب المقام الرفيع كيلومترات كثيرة للاستشفاء في تلك البيئة البديعة. افترض أن القصد الرئيس من التمويل السخي هو ضمان صحة القوة العاملة في فولغا وإنتاجيتها.

سأل ليو عند مكتب الاستقبال إن كان بمقدوره التحدث إلى طبيب، وشرح أنه يحتاج إلى مساعدة في فحص ضحية جريمة، شابة يحتفظون بها في مشرحتهم. بدا عامل الاستقبال منزعجاً من ذلك الطلب، وسأل إن كان الأمر ملحاً، وإن كان يستطيع العودة في وقت أقل نشاطاً. فهم ليو أنه لم يرغب في أن تكون له أي علاقة بالقضية.

- الأمر عاجل.

تحرك الرجل على مضض ليرى إن كان أحد الأطباء متاحاً.

نقر ليو بأصابعه على النضد الأمامي، فقد كان يشعر بالقلق، ونظر من فوق كتفه إلى المدخل. لم تكن زيارته رسمية، وإنما مستقلة. ماذا كان يأمل

telegram @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

أن يحقق؟ كان يُفترضُ به العثور على دليل يؤكد ذنب المشتبه فيه، وليس التشكيك في الذنب نفسه. وبالرغم من نفيه من عالم الجريمة السياسية المهيب إلى عالم الجريمة التقليدية السري والقذر، إلا أن العملية كانت نفسها تقريباً. كان قد اعتبر وفاة ابن فيودور الصغير حادثة؛ ليس بسبب أي دليل، وإنما لأن سياسة الحزب تستلزم ذلك، ونفّذ اعتقالاتٍ بناءً على لائحة أسماء أُعطيت له؛ أسماء حُبست خلف أبواب موصدة. كانت تلك طريقته، ولم يكن ليو ساذجاً ليظنّ أن بمقدوره تغيير اتجاه التحقيق؛ لأنه لا يتمتع بأي سلطة. وحتى إذا كان أعلى الضباط رتبة فإنه لا يستطيع عكس الإجراءات المتخذة. لقد رُسم المسار، واختير المشتبه فيه. بدا محتّماً أنه سيموت، ولم يكن النظام يسمح بأي انحراف أو اعتراف بالخطأ. كانت الكفاءة الواضحة للعيان أكثر أهمية من الحقيقة.

ما علاقته بذلك على أيّ حال؟ لم تكن هذه بلدته، أو هؤلاء قومه، ولم يكن قد تعهد لوالدي الفتاة بأنه سيجد القاتل، ولم يكن يعرف الفتاة أو متأثراً بقصة حياتها. الأهم من ذلك أن المشتبه فيه خطر على المجتمع؛ فلقد اختطف طفلاً. كانت هناك أسباب ممتازة لعدم القيام بشيء، إضافة إلى سبب آخر:

ما الفرق الذي يمكنني إحداثه؟

عاد عامل الاستقبال برفقة رجل في بداية العقد الرابع من عمره، د. تيابكين، الذي وافق على اصطحاب ليو إلى المشرحة ما دام ذلك لا يتضمن أي أعمال ورقية، وبشرط ألاّ يظهر اسمه في أي وثائق.

عندما مشيا عبّر الطبيب عن شكوكه في شأن ما إذا كانت جثة الفتاة لا تزال هناك.

- لا نحتفظ بالجثث طويلاً إلا إذا طُلب منا ذلك. تكوّن لدينا انطباع بأن المليشيا قد حصلت على كل المعلومات التي تريدها.

- هل قمت بالفحص الأوّلي؟

- لا، لكنني سمعت عن الجريمة. ظننت أنكم قد أمسكتم بالرجل المسؤول عنها.

- نعم، ذلك ممكن.

- آمل ألاّ تمانع سؤالي، لكنني لم أرك من قبل.

- وصلت حديثاً.

- من أين أنت؟

- من موسكو.

- هل نُقلت إلى هنا؟

- نعم.

- أرسلت أنا إلى هنا قبل ثلاث سنوات، من موسكو أيضاً. لا شك في أنك محبط لوجودك هنا؟

بقي ليو صامتاً.

- نعم، لا تجِب. أُصبت أنا بالإحباط في ذلك الوقت. كانت لدي سمعتي، ومعارفي، وأسرتي. كنت صديقاً حميماً للأستاذ فوفسي. شعرت بأن المجيء إلى هنا تخفيض لمنزلتي. وبالطبع، تبين أنّه نعمة.

عرف ليو الاسم. كان الأستاذ فوفسي أحد الأطباء البارزين الذين اعتُقلوا بأمر من ستالين. كانت هناك خطط قد رُسمت. ورأى ليو الوثائق التي تؤكد أن إبعاد شخصيات رئيسة عن مناطق النفوذ ستتبعه عملية تطهير أوسع نطاقاً تستهدف أي مواطنين؛ سواء أكانوا بارزين أم لا، وهي خطط توقفت بموت ستالين.

تابع تيابكين كلامه غافلاً عن استغراق مرافقه في التفكير:

- انتابني قلق من أن يرسلوني إلى عيادة طبية ريفية. لكن مستشفى 379 كان قد أصبح موضع حسد في المنطقة، وهو مشروع ناجح تماماً. يفضل كثير من عمّال المصانع تمضية ليلة على أسرّتنا النظيفة بوجود المراحيض

telegram @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

الداخلية والماء المتدفق على المبيت في منازلهم. انتبهنا إلى حقيقة أنّه ليس الجميع مرضى كما يدّعون. يغالي بعضهم إلى درجة أنهم يبترون جزءاً من إصبع من أجل تمضية أسبوع هنا. كان الحل الوحيد هو جعل ضباط إ.أ.د. ينظمون الأجنحة. ولم يكن ذلك يعني أننا لا نتعاطف مع عمال المصانع، فقد رأينا جميعاً منازلهم. لكن، إذا انخفضت الإنتاجية الإجمالية بسبب المرض فستتّهم عندها بالإهمال. كان الحفاظ على صحة الناس قد أصبح قضية حياة أو موت؛ ليس للمرضى فقط، وإنما للأطباء أيضاً.

- أفهم.

- هل كنت أحد أفراد مليشيا موسكو ؟

هل يجب على ليو أن يعترف بأنه كان عضواً في إ.أ.د، أم أن يكذب ويتظاهر بأنه أحد أفراد المليشيا فقط؟ كانت الكذبة أسهل، ولم يرغب في إفساد مزاج الطبيب المهذار.

- نعم، كنت كذلك.

كانت المشرحة في القبو. وكانت مشيّدة عميقاً في الأرض حتى تتجمد في الشتاء الطويل. ونتيجة لذلك، كانت الأروقة باردة على نحو طبيعي. قاد تيابكين ليو إلى غرفة كبيرة أرضيتها آجرّية وسقفها منخفض، وفي أحد جانبيها حوض مستطيل الشكل يبدو مثل بركة سباحة، وفي الطرف البعيد من الغرفة باب فولاذي يقود إلى المشرحة نفسها.

- إذا لم يستطع الأقرباء إجراء الترتيبات اللازمة، تُحَرق الجثث بعد اثنتي عشرة ساعة، ويُحرق ضحايا السل بعد ساعة. لذا، لا نحتاج إلى مساحة كبيرة للتخزين. انتظر هنا، وسأعود إليك.

فتح الطبيب الباب الفولاذي ودخل المشرحة. اقترب ليو في أثناء انتظاره من الحوض، ونظر من فوق الحافة، ليشاهد أنه مملوء سائلاً هلامياً داكناً، لكنه لم يستطع رؤية أي شيء إلا انعكاس صورته. كان السطح ساكناً وأسود، واستطاع عبر البقع الموجودة على الجوانب الإسمنتية أن يرى أن

اللون في الواقع برتقالي داكن. شاهد على جانب الحوض خطّافاً، وعموداً معدنياً طويلاً مع شوكة في طرفه؛ فأمسك به وحرّك السطح متردداً، فتحلّل مثل الشراب، ثم تكوّن مجدداً، وأصبح راكداً مرة أخرى. غمس ليو الخطّاف إلى مكان أعمق، وشعر هذه المرة بشيء يتحرك؛ شيء ثقيل. دفع إلى الأسفل بقوة أكبر، فارتفع جسدٌ عارٍ إلى السطح، واستدار ببطء مئة وثمانين درجة، قبل أن يغرق مجدداً. خرج تيابكين من المشرحة وهو يدفع عربة أمامه.

- ستُغلّف تلك الجثث بالجليد وتُشحن إلى سفردلوفسك لتشريحها. توجد كلية طب هناك. لقد عثرت على فتاتك.

كانت لاريسا بتروفا مسجّاة على ظهرها، وقد شحب جلدها، وظهرت عليها شبكة من العروق الزرقاء الرفيعة مثل خيوط العنكبوت. وبدا واضحاً أنّ هناك خصلة كبيرة قد قُصَّت من شعرها الأشقر على نحوٍ غير منتظم؛ الجزء الذي كان فارلام قد أخذه. لم يعد فمها محشواً تراباً، فقد أُزيل التراب، لكن فمها لا يزال مفتوحاً، وثابتاً على تلك الوضعية. بدا لسانها وأسنانها متسخة، وملطخة بلون بني من بقايا التراب الذي دُفع في فمها.

- كان هناك تراب في فمها.

- حقاً؟ آسف، هذه أول مرة أرى فيها جثتها.

- كان فمها محشواً تراباً.

- ربما غسله الطبيب من أجل فحص حلقها.

- ألم يجرِ الاحتفاظ به؟

- أظن أنَ ذلك غير مرجح إطلاقاً.

كانت عينا الفتاة مفتوحتين، وزرقاوين. ربما نُقلت والدتها من بلدة قرب الحدود الفنلندية، من إحدى مناطق البلطيق. تذكر ليو قولاً خرافيًّا سمعه مرة، وهو أن وجه القاتل ينطبع على حدقة عين الضحية. انحنى مقترباً منها، وأمعن النظر إلى عينيها الزرقاوين الفاتحتين، لكنه شعر بالإحراج فجأة، فشد قامته فوراً. ابتسم تيابكين.

- نتأكد جميعنا من ذلك؛ الأطباء والمحققون على حدٍّ سواء. حتى إذا كانت أدمغتنا تخبرنا أنه لا شيء هناك، فنحن نرغب في أن نتأكد. بالطبع سيجعل ذلك عملك أسهل كثيراً إذا كان صحيحاً.

- إذا كان ذلك صحيحاً فسيفقأ القتلة دائماً عيون ضحاياهم.

لم يكن ليو قد فحص جثة من قبل، على الأقل من الناحية الشرعية، ولهذا لم يكن يعرف ما يفعله. كان التشويه برأيه مسعوراً مما يدل على أن من قام به شخص مجنون. بدا جذعها ممزقاً، وقرر ليو أنه قد رأى الجثة بما فيه الكفاية. كان فارلام بابينيتش مشتبهاً فيه مناسباً. ولقد أحضر من دون شك التراب لأسبابٍ مبهمةٍ تتعلق به.

كان ليو يستعد للمغادرة لكن تيابكين، الذي اجتاز كل الطريق نزولاً إلى القبو، لم يبدُ على عجلة من أمره. فقد انحنى مقترباً من الجثة، وهو يحدّق إلى ما بدا أنه فوضى عارمة من اللحم والأنسجة. وباستخدام طرف قلمه وخز الحجاب الحاجز المشوّه، وفحص الجروح.

- هل يمكن أن تخبرني بما ذُكِر في التقرير؟

أخرج ليو ملاحظاته وقرأها بصوتٍ عالٍ، في حين تابع تيابكين فحصه:

- فشل التقرير في ذكر أن معدتها مفقودة، وأنها استؤصلت، وفُصلت عن المريء.

- ما مدى دقة ذلك؟ أعني بمعايير...

- أتعني إن كان من المحتمل أن يكون من فعل ذلك طبيباً؟

ابتسم الطبيب، وعلّق:

- ذلك محتمل. لكنِ الجروح مثلّمة، وليست جراحية، ولم تقم بها أيدٍ ماهرة؛ بالرغم من أنني سأدهش إذا كانت تلك المرة الأولى التي يستخدم فيها القاتل سكيناً، على الأقل لقطع اللحم. فالجروح ليست دقيقة ولكنها تدل على أن من قام بها كان واثقاً. إنها منظّمة وليست عشوائية.

- ربما ليست تلك الفتاة هي الأولى.

- سيدهشني ذلك.

مسّ ليو جبينه ووجد أنه يتصبب عرقاً بالرغم من البرد. كيف يمكن لحادثتي الوفاة - ابن فيودور الصغير وهذه الفتاة - أن تكونا على علاقة ببعضهما؟

- كم مضى على انتزاع معدتها؟

فوق جذع الفتاة، أشار تيابكين إلى خط خشن على شكل معدة بطرف قلمه، ثم سأل:

- هل عُثر عليها قربها؟

- لا.

كانت إما قد فُقدت في البحث، وهو أمر بدا مستبعداً، أو أن القاتل قد أخذها.

التزم ليو الصمت قليلاً ثم سأل:

- هل اغتُصبت؟

فحص تيابكين مهبل الفتاة ثم قال:

- لم تكن عذراء.

- لكن ذلك لا يعني أنها اغتُصبت.

- هل سبق لها أن قامت بعلاقات جنسية؟

- هذا ما قيل لي.

- ليست هناك رضوض على أعضائها التناسلية، أو كدمات، أو شقوق. لاحِظ أيضاً أن أعضاءها لم تصب بأذى. ليست هناك جروح على نهديها أو وجهها. كان الرجل الذي فعل ذلك مهتماً بجزء صغير موجود تحت قفصها الصدري وفوق مهبلها، وأحشائها؛ كان مهتماً بجهازها الهضمي. يبدو الأمر وحشياً لكنه في الواقع فائق الدقّة.

كان ليو قد استنتج متسرّعاً أن ذلك اعتداء مسعور، وأثار منظر الدم والتشويه الفوضى في ذهنه، لكن الأمر لم يكن على تلك الحال. كانت

الحادثة منظّمة، ودقيقة، وقد خُطّط لها بعناية.

- هل تضعون لصاقات على الجثث حين تحضرونها إلى هنا؛ بهدف تحديد هويتها؟

- ليس وفقاً لما أعرفه.

- ما هذا؟

كان حول كاحل الفتاة عروة من حبل، مربوطة على شكل أنشوطة محكمة وجزء صغير منها يتدلّى من العربة. بدت مثل خلخال قديم. كانت هناك علامات حروق حيث احتك الحبل بالجلد.

رآه تيابكين أولاً. كان الجنرال نستروف واقفاً عند الباب، ولم يكن من الممكن تحديد المدة التي بقي فيها واقفاً هناك وهو يراقبهما. ابتعد ليو عن الجثة.

- جئت إلى هنا لأعوّد نفسي على الإجراءات.

خاطب نستروف تيابكين:

- هل بإمكانك أن تعذرنا؟

- نعم، طبعاً.

نظر تيابكين إلى ليو وكأنه يتمنى له حظاً طيباً، قبل أن يبتعد. اقترب نستروف من ليو، وبدأ هذا الأخير يلخّص ما توصّل إليه كطريقة فظّة لتشتيت الانتباه:

- لم يُذكَر في التقرير الأصلي أن معدتها قد انتُزعت. لدينا سؤال محدد نطرحه على فارلام: لماذا انتزع معدتها؟ وما الذي فعله بها بعد ذلك؟

- ما الذي تفعله في فوالسك؟

كان نستروف يقف آنذاك قبالة ليو، وجثة الفتاة بينهما.

- لقد نُقلتُ إلى هنا.

- لماذا؟

- لا يمكنني القول.

- أظن أنك لا تزال في إ.أ.د.

بقي ليو صامتاً، وتابع نستروف:

- لا يفسر ذلك سبب اهتمامك الشديد بهذه الجريمة. أطلقنا سراح ميكويان من دون أن نوجّه إليه أي تهمة، تماماً كما طُلب منا.

لم تكن لدى ليو فكرة عمّن يكون ميكويان.

- نعم، أعرف.

- ليس له أي علاقة بمقتل هذه الفتاة.

بالتأكيد، كان ميكويان اسم مسؤول الحزب الذي جرت حمايته. لكن، هل كان الرجل الذي ضرب الساقطة الشخص نفسه الذي قتل تلك الفتاة اليافعة؟ لم يكن ليو يظن أن ذلك محتمل. تابع نستروف:

- لم أعتقل فارلام لأنه قال شيئاً خاطئاً، أو نسي حضور مسيرة في الساحة الحمراء، وإنّما لأنه قتل تلك الفتاة، ويمثّل خطراً، ولأن هذه البلدة أكثر أمناً حين يكون في السجن.

- هو لم يفعل ذلك.

حكّ نستروف جانب وجهه.

- أياً يكن الأمر الذي أُرسلت لتنفيذه هنا، تذكر أنك لم تعد في موسكو. هنا، لدينا ترتيبات، ورجالي بأمان. لم يُلقَ القبض على أحد منهم قط من قبل، ولن يُعتقل أحدهم مستقبلاً. وإذا فعلت أي شيء يعرّض فريقي للخطر، أو قدّمت تقريراً يقوّض سلطتي، أو عصيت أوامري، أو حرفت قضية عن مسارها، أو وصفت جنودي بعدم الكفاءة، أو اتهمت أياً من رجالي بأي شيء؛ إذا فعلت أياً من تلك الأشياء، فسأقتلك.

20 آذار

لمست ريزا إطار النافذة. كانت المسامير التي دُقّت لإبقاء نافذة غرفة النوم مغلقة قد انتُزعت. استدارت إلى الخلف، وتحركت نحو الباب وفتحته. استطاعت أن تسمع في الرواق ضجيجاً في الأسفل. لكن، لم يكن هناك أثر لباساروف. كان الوقت متأخراً في المساء؛ وهو الوقت الأكثر ازدحاماً. أغلقت ريزا الباب وأوصدته، ثم عادت إلى النافذة، وفتحتها ونظرت إلى الأسفل. رأت تحتها مباشرة سطحاً مائلاً، يشكّل جزءاً من المطبخ، وقد أُزيح الثلج عنه حيث خرج ليو. شعرت بالغضب، فبعد أن نجت بشق الأنفس، كان يغامر بحياتيهما معاً.

كان ذلك ثاني أيام ريزا في المدرسة الثانوية 151، وقد بدا المدير فيتالي كوزلوفيتش كابلر، وهو رجل في أواخر العقد الرابع من عمره، أكثرَ من سعيد بانضمامها إلى موظفيه؛ لأنها ستتولى مسؤولية عدد من صفوفه، مما يمكّنه - كما ادّعى - من التفرّغ لأعماله المكتبية. لم تكن ريزا واثقة إذا كان وصولها يحرّره من القيام بأعماله، أو يسمح له بالتخفيف من عبء عمله فقط. ووفقاً للانطباعات الأولى، بدا رجلاً يفضل العمل المكتبي على التعليم، لكنها شعرت بسعادة غامرة للبدء بالعمل فوراً. وبعد تعليمها عدداً من الصفوف حتى ذلك الوقت، وجدت أن الأولاد أقل وعياً سياسياً من التلاميذ في موسكو. فلم يكونوا يصفّقون عند ذكر شخصيات الحزب الرئيسة، أو يتنافسون بقوة لإظهار ولائهم للحزب، بل كانوا يبدون عموماً أكثر شبهاً بالأطفال. فهم يمثّلون مزيجاً من خلفيات مختلفة، من أسر

telegram @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

اقتُلعت من كل أصقاع البلاد، وتجاربهم الجماعية تختلف كثيراً. كان الأمر نفسه ينطبق على الموظفين، وقد نُقل كل المعلّمين تقريباً إلى فوالسك من مناطق مختلفة. ونظراً إلى اختبارهم التجربة نفسها التي خضعت لها، فقد عاملوها بلطف كبير، بالرغم من شكوكهم بشأنها طبعاً: من كانت؟ لماذا جاءت إلى هنا؟ هل هي حقاً كما تبدو؟ لكنها لم تمانع ذلك، فقد بدت تلك أسئلة يطرحها الجميع عن الآخرين. استطاعت ريزا أن تتخيل للمرة الأولى منذ وصولها إلى تلك البلدة أن بمقدورها أن تعيش فيها.

كانت قد تأخرت في المدرسة حتى المساء، وهي تقرأ، وتحضّر دروسها. وتبين لها أن المدرسة 151 أكثر راحة من غرفة يصدح فيها الضجيج فوق مطعم كريه الرائحة. كان القصد من الظروف السيئة أن تصبح عقوبة. وبالرغم من أنها أزعجت ليو، إلا أنها غدت سلاحاً غير فاعل ضدها، فقد كانت تتمتع بقدرة كبيرة على الانسجام. فهي لم يكن لديها ارتباط وثيق بالمباني أو المدن أو المقتنيات، فقد انتُزعت تلك العواطف منها؛ جُرّدت منها في اليوم الذي شاهدت فيه منزل طفولتها يُدمَّر. وفي أثناء الأعوام الأولى من الحرب، حين كانت في السابعة عشرة، كانت تجمع الثمار في الغابة حين بدأت القذائف تسقط، ليس قربها بل على مكان بعيد. تسلقت أطول شجرة، وشعرت بالاهتزازات عبر الجذع، وجثمت على أعلى غصن فيها مثل الطائر وهي تراقب بلدتها الأم من على مسافة عدّة كيلومترات وقد تحوّلت إلى أنقاض ودخان، بلدة تناثرت أشلاؤها نحو السماء. كان الأفق قد اختفى تحت ضباب من صنع الإنسان. وحين تلاشى الضباب بدا الدمار سريعاً جداً، وواسع النطاق، وكاملاً، حيث لم يعد لديها أي أمل في نجاة أسرتها. بعد توقف القصف، نزلت عن الشجرة، وعادت مشياً عبر الغابة وهي مصدومة، وجيبها الأيمن يقطر عصيراً من التوت المسحوق. لم تفِض عيناها بدموع الحزن؛ لأنها لم تبكِ آنذاك - أو منذ ذلك الوقت - وإنما تحسساً من الغبار. سعلت بسبب سحابة خانقة هي كل ما تبقّى من منزلها

وأسرتها، وأدركت أن القذائف لم تُطلق من الجانب الألماني من الجبهة، فقد أزّت فوق الرؤوس، وجاءت من خط الجبهة الروسي مباشرة. لاحقاً، بعد أن أصبحت لاجئة، سمعت تأكيداً أن جيش بلادهم قد تلقى تعليمات بتدمير أي بلدات وقرى ربما تقع في أيدي الألمان. كانت الإبادة الكاملة لموطن طفولتها:

إجراءً احترازياً.

بدا تبرير أي وفيات بتينك الكلمتين أمراً ممكناً. وكانت إبادة المرء شعبَه أفضل من منح جنديّ ألماني الفرصة للعثور على رغيف خبز. لم يكن هناك تأنيب ضمير، أو اعتذار، أو إمكانية لطرح أسئلة؛ والاعتراض على القتل خيانة. تراجعت الدروس التي كان والداها قد علّماها إياها عن الحب والعاطفة إلى قعر ذهنها؛ الدروس التي يتعلّمها طفل لدى مشاهدته شخصين يحبان بعضهما، وإصغائه إليهما، والعيش معهما. كان ذلك السلوك ينتمي إلى وقت مختلف: امتلاك منزل، وإحساس بالمكان. وحدهم الأطفال يتعلّقون بمثل تلك الأحلام.

تراجعت ريزا خطوة إلى الوراء بعيداً عن النافذة، وهي تكافح للاحتفاظ برباطة جأشها. كان ليو قد توسل إليها لتبقى معه، وشرح لها مخاطر المغادرة، وقد وافقت لهذا السبب بالذات. فهذه أفضل فرصة لها، من دون أن يعني ذلك أن لديها خيارات كثيرة، لكنّ البقاء معه بدا أفضل الخيارات المتاحة لها. كان ليو يعرّض آنذاك فرصتهما الثانية للخطر، وإذا كانا يريدان أن ينجوَا في تلك البلدة الجديدة فيجب أن يلتزما الهدوء، وألاّ يفعلا شيئاً غير اعتيادي؛ يجب ألاّ يقولا شيئاً أو يستفزّا أحداً. كانا يخضعان بالتأكيد للمراقبة، وبدا أن باساروف مخبر من دون شك تقريباً. سيكون لدى فاسيلي على الأرجح عملاء في البلدة يتجسسون عليهما، وينتظرون سبباً للانتقال إلى المرحلة الثانية، وتبديل عقوبتهما من النفي إلى الاعتقال، ثم

telegram @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

إلى الإعدام.

عتّمت ريزا الغرفة، ووقفت في الظلام محدّقةً إلى خارج النافذة، لكنها لم تستطع رؤية أحد في الخارج. إذا كان هناك عملاء يراقبون، فسيكونون بالتأكيد في الطابق السفلي، وربما جرى تثبيت النافذة لهذا الغرض. كان يجب عليها أن تتأكد من قيام ليو بجلب المسامير ليعيد تثبيتها في مكانها، فقد يتفقّدها باساروف حين يكونان في العمل. ارتدت قفازها ومعطفها وخرجت من النافذة، تدلّت نحو السطح المغطّى بالجليد، وهي تحاول عدم إصدار أي صوت. أغلقت النافذة خلفها ونزلت إلى الأرض. كانت قد جعلت ليو يقسم على الالتزام بشرط واحد؛ ألا وهو أنهما سيصبحان ندّين، فهما لم يكونا متساويين من قبل، لكنه تراجع عن وعده. إذا كان يظن أنها ستقف إلى جانبه بصمت - الزوجة المطيعة والمساندة - في حين يعرّض حياتها للخطر لأسبابٍ تخصه، فسيكون مخطئاً.

اليوم نفسه

فُتّشت منطقة شعاعها نحو خمسمئة متر من النقطة التي عُثر فيها على جثة لاريسا بوصف ذلك جزءاً من تحقيق رسمي، وبدت تلك المساحة صغيرة بالنسبة إلى ليو حتى من دون أي خبرة في التحقيقات الجنائية. لم يُكتشف شيء باستثناء ملابس الفتاة التي كانت ملقاة في الغابة، وتبعد عن الجثة مسافة أربعين خطوة أو نحو ذلك. لماذا كانت ملابسها - قميصها، تنورتها، سترتها، قفّازها - موضوعةً في كومة مرتّبة بعيدة جداً عن جثتها؟ لم يكن على الثياب أي أثر للدماء، ولم تظهر عليها أي علامات تشير إلى استخدام سكين، أو إلى جروح أو طعنات. كانت لاريسا بتروفا إما قد جُرّدت من ملابسها أو خلعتها بنفسها. ربما كانت قد حاولت الهرب نحو طرف الغابة، فأمسك بها مطاردها قبل وصولها. إذا صحَّ ذلك، فلا بدّ من أنها جرت عارية، بعد أن أقنعها القاتل بمرافقته. وربما عرض عليها مالاً مقابل فعل شيء ما؛ وعندما تواريا عن الأنظار في عمق الغابة، وخلعت ملابسها، هاجمها. لكن ليو وجد صعوبة في إسقاط المنطق على تلك الجريمة. بدت التفاصيل المبهمة - التراب، انتزاع المعدة، الحبل - غريبة بالنسبة إليه، ولم يستطع التوقف في الوقت نفسه عن التفكير فيها.

لم تكن هناك فرصة كبيرة للعثور على أي شيء جديد يتعلق بموت لاريسا، حتى مع الأخذ في الحسبان عدم الكفاءة والإهمال. ولهذا السبب، وجد ليو نفسه في موقف معقد في ما يخص العثور على جثة ثانية. تصبح تلك الغابات مهجورة خلال الشتاء، ويمكن لجثة أن تبقى هناك طوال شهور

محفوظة، مثل جثة لاريسا. كان لدى ليو سبب للاعتقاد أنها ليست الضحية الأولى، فقد اقترح الطبيب أن القاتل كان يعرف ما يفعله، وأنه يتمتع بالكفاءة والثقة بالنفس التي تُكتسب من الممارسة. أشارت الطريقة إلى نمط أشار بدوره إلى سلسلة متعاقبة. وهناك بالطبع وفاة أركادي؛ حقيقة نحّاها ليو جانباً في ذلك الوقت.

بالاستفادة من ضوء القمر وضوء كشّافه الذي استخدمه بحذر، بحث ليو في الغابة، حريصاً على ألاّ يكتشف أحد ما يفعله لأنّ حياته تعتمد على ذلك، فقد صدّق من دون شك تهديد الجنرال بقتله. على أيّ حال، كانت حاجته إلى السرية قد أُصيبت بنكسة حين شاهده الرجل الذي يعمل في محطة القطار، ألكسندر، وهو يمشي نحو الغابة. وعندما ناداه، لم يستطع ليو التفكير في كذبة معقولة، ووجد نفسه مضطراً إلى إخباره الحقيقة، وأن يقول له إنه يجمع أدلّة تتعلق بجريمة قتل الفتاة اليافعة. كان قد طلب من ألكسندر عدم ذكر تلك المعلومة لأيّ شخص، مدّعياً أن ذلك قد يعرّض التحقيق للخطر، فوافق ألكسندر، وتمنّى له حظاً طيباً، وقال له إنّه افترض دائماً أن القاتل كان على متن إحدى رحلات القطار. وإلاّ لماذا كانت الجثة قريبة جداً من المحطة؟ سيعرف أي شخص يعيش في البلدة مناطق أكثر عزلة في الغابة. وافق ليو على أن الموقع مكشوف، وسجل ملاحظة في ذهنه ليتوثق من ذلك الرجل، الذي وإن كان يبدو لطيفاً جداً، إلا أن مظهر البراءة قد يكون خادعاً، والبراءة نفسها - كما فكّر ليو - لا يُعتدُّ بها كثيراً.

باستخدام خريطة سرقها من مكتب المليشيا، قام ليو بتقسيم الغابة التي تحيط بمحطة السكك الحديدية إلى أربع مناطق. لم يجد شيئاً في المنطقة الأولى، التي عُثر فيها على جثة الضحية، وداست تربتها مئات الأحذية. حتى إنّ الثلج الملطخ بالدماء لم يكن موجوداً، فقد نُقل من دون شك على اعتبار أنه جزء من الجهد الذي بذل لإزالة كل دليل عن تلك الجريمة. ووفقاً لما كان ليو يعرفه، لم يجرِ تفتيش المناطق الثلاث الباقية؛ لذا بقي الثلج على

telegram @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

حاله، ولم يمسّه أحد. استغرق منه الأمر ساعة أو نحو ذلك ليغطي المنطقة الثانية، وأصبحت أصابعه خدرة من البرد. على أيّ حال، كان الثلج مفيداً لأن بمقدوره التحرك بسرعة نسبياً، وتفتيش مساحات كبيرة من الأرض بحثاً عن آثار أقدام، واستخدام آثاره لتحديد القطاعات التي انتهى منها.

توقف حين كاد أن ينتهي من المنطقة الثالثة تقريباً، فقد سمع وقع خطوات؛ أقدام تسحق الثلج تحتها. أوقف الكشّاف عن العمل، واختبأ خلف شجرة، وجثم أرضاً. لكنه لم يستطع الاختباء؛ فقد بدا أنهم يلحقون بآثاره. هل يجب أن يهرب؟ كانت تلك فرصته الوحيدة.

- ليو ؟

وقف، وشغّل كشّافه. كانت ريزا.

أبعد ليو شعاع الضوء عن وجهها.

- هل تبعكِ أحد؟

- لا.

- لماذا أنت هنا؟

- أنا هنا لأطرح عليك السؤال نفسه.

- أخبرتك. قُتلت فتاة يافعة، لديهم مشتبه فيه لكنني لا أظن...

قاطعته ريزا بنفاد صبر وفظاظة:

- لا تظن أنه مذنب؟

- لا.

- ومنذ متى يهمّك ذلك؟

- ريزا، أحاول فقط...

- توقف يا ليو، لأنني لا أظن أنني أطيق سماعك وأنت تخبرني أنك هنا لتفعل الصواب، أو تحفّزك مبادئ العدالة، أو الشرف. سأكون فظّة. سينتهي هذا الأمر على نحو سيئ، وعندما ينتهي بأن يكون سيئاً لك، فسينتهي سيئاً لي.

مكتبة الرمحي أحمد
telegram @ktabpdf

- هل تريدين مني أن أقف مكتوف اليدين؟

استشاطت ريزا غضباً:

- هل يفترض بي أن أنحني إجلالاً لهذا التحقيق الشخصي الذي تقوم به؟ هناك أشخاص أبرياء يعانون في كل أنحاء البلاد، ولا شيء يمكنني فعله بشأن ذلك إلا محاولة ألاّ أكون واحدة منهم.

- أتظنين أن عدم تدخلنا في شيء، أو عدم قيامنا بأي شيء، سيحمينا؟ لم تفعلي شيئاً خاطئاً من قبل، وأرادوا إعدامك بوصفك خائنة. إن عدم القيام بشيء ليس ضمانة لعدم اعتقالنا. على أيّ حال، لقد تعلّمتُ ذلك الدرس.

- لكنك مثل طفل يعرف حقيقة جديدة. يعلم الجميع أنه ليس هناك من ضمانات. يتعلق الأمر بالخطر، وهذا غير مقبول. هل تظن أنك إذا استطعت إلقاء القبض على شخص مذنب واحد، فسيختفي كل أولئك الرجال والنساء الأبرياء الذين اعتقلتهم؟ هذا لا يتعلّق بأيّ فتاة صغيرة، وإنما بك أنت.

- تكرهينني حين أتجاوز الخط، وتكرهينني حين أفعل الصواب.

أوقف ليو الكشّاف عن العمل لأنه لم يكن يرغب في أن تراه منزعجاً. بالطبع كانت محقّة، وكل ما قالته صحيح. كان مصيراهما مرتبطين معاً، وليس لديه الحق للقيام بذلك التحقيق من دون موافقتها. ولم يكن في موقف يسمح له بمجادلتها أخلاقياً.

- ريزا، لا أظن أنهم سيدعوننا وشأننا أبداً. أخمّن أنهم سينتظرون بضعة شهور، وربما سنة، بين وصولنا إلى هنا واعتقالي.

- أنت لا تعرف ذلك.

- إنهم لا يتركون الناس وشأنهم. ربما يحتاجون إلى بناء قضية ضدي، أو ربما يرغبون في أن أتعفّن في مكان ناءٍ قبل أن يجهزوا علي، لكن ليس لدي وقت طويل. وأريد تمضية الوقت المتبقي لي على هذا النحو؛ وأنا أحاول العثور على الرجل الذي فعل ذلك. يجب أن يُلقى القبض عليه، لكنني أقدّر أن ذلك لا يساعدك. على أيّ حال، هناك طريقة لتنجي بحياتك.

سيضاعفون المراقبة قبل اعتقالي بقليل، وعندما يحدث ذلك يجب أن تذهبي إليهم، وتخبريهم قصة ما عني، وتقنعيهم بأنك تخونينني.

- ماذا يفترض بي أن أفعل حتى ذلك الوقت؟ هل أجلس في تلك الغرفة وأنتظر؟ هل أكذب عليك؟ هل أتسترّ عليك؟

- آسف.

هزت ريزا رأسها، ثم استدارت ومشت نحو البلدة. وعندما أصبح ليو وحيداً، شغّل الكشّاف. كانت طاقته قد استُنزفت، وحركاته بطيئة، ولم تعد أفكاره تدور حول القضية. هل كانت تلك مغامرة أنانية لا طائل منها؟ لم يكن قد مشى مسافة طويلة حين سمع مرة أخرى وقع خطوات فوق الثلج. لقد عادت ريزا.

- هل أنت واثق من أن هذا الرجل قد قتل من قبل؟

- نعم، وإذا عثرنا على ضحية أخرى فسيعاد فتح القضية. الدليل ضد فارلام بابينيتش مرتبط بهذه الفتاة تحديداً. وإذا كانت هناك جريمة أخرى، فستنهار القضية ضده.

- قلتَ إن هذا الفتى فارلام يعاني صعوبات في التعلّم. يبدو شخصاً مناسباً لإلقاء اللوم عليه في أي جريمة. ربما سيتهمونه بارتكاب كلتا الجريمتين.

- أنت محقة. هناك مخاطرة. لكن العثور على جثة ثانية هو فرصتي الوحيدة لإعادة فتح هذه القضية.

- إذاً، إذا عثرنا على جثة أخرى، فستفتح تحقيقاً. وإذا لم نجد شيئاً، فهل تعدني بأنك ستتخلى عن الأمر.

- نعم.

- حسناً، تقدم وأنا سأتبعك.

انطلقا متثاقلين ومترددين إلى أعماق الغابة.

بعد نحو ثلاثين دقيقة أمضياها وهما يمشيان بجانب بعضهما، أشارت

ريزا إلى الأمام، وتبين أن مجموعتين من آثار الأقدام تعترض طريقهما، واحدة لراشد والأخرى لفتًى يافع، جنباً إلى جنب. لم يكن هناك ما يشير إلى حصول أي عراك، ولم يُجرّ الفتى على طول الطريق. كانت آثار حذاء الراشد ضخمة وعميقة، وبدا أنه رجل طويل وثقيل الوزن، في حين أن آثار أقدام الفتى باهتة، وتدل على أنه صغير الجسم ويافع.

استدارت ريزا نحو ليو:

- قد تستمر تلك الآثار كل الطريق إلى قرية ريفية ما.

- ذلك محتمل.

فهمت أن ليو سيتبعها حتى النهاية.

كانا يمشيان منذ بعض الوقت وهما يتبعان الآثار، من دون وجود أي علامة تشير إلى حدوث أي شيء خطأ. كان ليو قد بدأ يتساءل إن كانت ريزا محقة. ربما هناك تفسير بسيط. توقف فجأة عن السير حين رأى أمامه منطقة من الثلج قد مُهّدت؛ وكأن شخصاً ما قد تمدّد عليها. تحرك ليو إلى الأمام، لكن الآثار تداخلت؛ وكأن صراعاً قد حدث هناك. كان الراشد قد ابتعد عن منطقة العراك، في حين أن آثار الفتى ذهبت في الاتجاه المعاكس. تباعدت خطواته على نحو غير منتظم، أو متقن؛ كان الفتى يركض. تبين من الآثار التي رآها على الثلج أن الفتى قد تعثر؛ نظراً إلى وجود أثر يدٍ واحدة، لكنه نهض وتابع الجري قبل أن يقع مجدداً. كان الفتى قد قاوم مرة أخرى على الأرض بالرغم من استحالة معرفة هوية من تعارك معه، أو من أجل ماذا. لم تكن هناك آثار أقدام أخرى. وبغض النظر عمّا حدث هناك، استطاع الفتى النهوض والجري مرة أخرى، وبدا يأسه ظاهراً على الثلج. على أيّ حال، لم يعد من الممكن رؤية آثار أقدام الراشد في أي مكان، ثم على بعد عدّة أمتار إلى الأمام ظهرت مجدداً، وانبثقت آثار حذاء من بين الأشجار. كان هناك شيء غريب. بدا أن الراشد قد جرى في مسار متعرج، في هذا الاتجاه وذاك، يموّه على نحو غير دقيق مكان الفتى. لم يبدُ أيٌّ من ذلك منطقياً. فبعد أن

مشى مبتعداً عن الفتى بدّل الرجل رأيه، وجرى كيفما اتفق نحوه، وتبين من زوايا آثار الخطوات أنه قد لحق به عند نقطة ما خلف الشجرة التالية.

توقفت ريزا وهي تحدّق أمامها إلى النقطة التي التقت فيها الآثار. مسّ ليو كتفها:

- ابقي هنا.

تحرك ليو إلى الأمام، ودار حول الشجرة، ورأى الثلج الملطخ بالدماء أولاً، ثم الساقين العاريتين، والجذع المشوّه. كان فتى يافعاً، ربما لا يتجاوز عمره ثلاث عشرة سنة أو أربع عشرة. كان ضئيل الحجم ونحيلاً، ممدداً على ظهره؛ تماماً كما كانت الفتاة ممدّدة على ظهرها. كان يحدّق إلى السماء، ويوجد شيء في فمه. استطاع ليو أن يرى بطرف عينه حركة، فاستدار ليشاهد ريزا تقف خلفه، وتحدّق إلى الأسفل؛ إلى جثة الفتى.

- هل أنتِ بخير؟

رفعت ريزا يدها إلى فمها ببطء، وأشارت إلى ليو بأصغر إيماءة ممكنة.

جثم ليو بجانب الفتى، ورأى أن هناك حبلاً رُبط حول كاحله، لكنه قُطع، وهناك قطعة صغيرة منه فقط تتدلى فوق الثلج. كان جلد الفتى أحمر حيث احتك به الحبل، وحزّ لحمه. شدّ ليو من أزره، واستدار لينظر إلى وجه الفتى، وشاهد أن فمه كان محشواً بالتراب، مما منحه مظهر شخص يصرخ. وبخلاف لاريسا لم تكن هناك طبقة من الثلج فوق جسده. لقد قُتل بعدها، وربما في الأسبوعين الماضيين. انحنى ليو فوقه، ومدّ يده نحو فم الفتى، وأخذ حفنة من التربة الداكنة، وفركها بين سبابته وإبهامه. كانت المادة خشنة وجافة، ولا تشبه التراب العادي، وقد حَوَت قطعاً كبيرة غير منتظمة الشكل. تفتّتت القطع تحت ضغط إصبعيه، وتبين أنها لم تكن تراباً على الإطلاق، وإنما لحاءً من جذع شجرة.

22 آذار

لم يكن ليو قد أبلغ عمّا وجده بعد نحو ست وثلاثين ساعة من اكتشافه وريزا جثة الفتى. كانت ريزا محقة، فبدلاً من فتح القضية، سيُلقى اللوم في الجريمة الثانية على فارلام بابينيتش. لم يكن الفتى يتمتع بالوعي والإدراك اللذين يسمحان له بحماية نفسه، فهو منفتحٌ على أي اقتراح؛ اهمس شيئاً في أذنه وسيقول على الأرجح إنه فعله. كان يمثّل حلاً سريعاً ومناسباً لجريمتين مروّعتين. لماذا البحث عن مشتبه فيه ثانٍ حين يكون لديك واحد معتقل؟ لم يكن من المرجّح أن تكون لدى بابينيتش حجة غياب؛ نظراً إلى أن الموظفين الذين يعملون في إنترنات لن يتذكروا حركاته أو يكونوا مستعدين للإدلاء بشهادة لمصلحته، وبالتأكيد سيتحول اتهامه بارتكاب جريمة واحدة إلى اتهامه بارتكاب اثنتين.

لم يستطع ليو ببساطة الإعلان عن اكتشافه جثة الفتى اليافع. إذ يجب عليه أوّلاً أن يثبت أن فارلام بابينيتش لا يعرف شيئاً عن الأمر، وتلك هي الطريقة الوحيدة لإنقاذه؛ عن طريق إسقاط الدعوى القضائية ضد المتهم الرئيس لدى المليشيا؛ المشتبه فيه الوحيد. على أيّ حال، كان ذلك بالضبط ما حذّر نستروف ليو من فعله. إذ سيعني ذلك أن قضية جنائية ستُفتح من دون وجود أي مشتبه فيه: قضية جنائية ضد أشخاص مجهولين. تفاقمت المشكلة لأنّ بابينيتش قد اعترف سلفاً، وسيتدخل عملاء إ.أ.د. المحليون بالتأكيد إذا سمعوا أن المليشيا قد دحضت اعترافاً، فقد كانت الاعترافات أساس النظام القضائي الذي يجب حماية شرعيته مهما كلف الأمر. إذا

عرف أي شخص آخر بشأن الجثة الثانية قبل أن يتمكن ليو من إثبات جهل بابينيتش، فلربما سيقررون أن الأمر الأسهل للجميع، والأبسط، والأكثر أماناً هو تعديل الاعتراف، وتلقين المشتبه فيه التفاصيل الضرورية: فتى في الثالثة عشرة من عمره طُعن في الغابة، في الطرف الآخر من السكة الحديدية، قبل بضعة أسابيع. كان ذلك الحل أنيقاً وفاعلاً ولا يزعج أحداً، حتى بابينيتش نفسه؛ لأنه لن يفهم على الأرجح ما يجري. لم تكن هناك إلا طريقة واحدة لضمان عدم تسرب نبأ اكتشاف الجثة الثانية، وهي أن يلتزم ليو الصمت. لذا، عندما عاد إلى محطة القطار لم يطلق إنذاراً، أو يستدعي الضباط القادة، أو يبلّغ عن الجريمة أو يعزل مسرح الجريمة، لم يفعل شيئاً، ولدهشة ريزا فقد طلب منها ألاّ تنبس بكلمة، وشرح أنه لن يستطيع لقاء بابينيتش حتى صباح اليوم التالي، مما يعني ترك الجثة في الغابة تلك الليلة. إذا كان الفتى سيحظى بفرصة لتحقيق العدالة، فليس لديه أيّ خيار آخر.

لم يعد بابينيتش تحت رعاية المليشيا فقد سُلِم إلى المحامين لدى مكتب النائب العام. كان فريق من سلدوفاتيل قد حصل آنذاك على اعتراف منه بقتل لاريسا بتروفا، وقد قرأ ليو الوثيقة، ووجد اختلافات بين الاعتراف أمام المليشيا وذاك الذي حصلت عليه سلدوفاتيل، لكن ذلك لم يكن مهماً على الإطلاق. كانا متطابقين تقريباً؛ المشتبه فيه مذنب. على أيّ حال، لم تكن وثيقة المليشيا رسمية، ولن يؤخذ بها في المحكمة. فقد كانت مهمتهم أن يحدّدوا فقط المشتبه فيه المحتمل. بحلول الوقت الذي قدّم فيه ليو طلبه للحديث إلى السجين كان التحقيق قد انتهى، وأصبحوا مستعدين للذهاب إلى المحكمة.

وجد ليو نفسه مضطراً إلى القول إن المشتبه فيه ربما يكون قد قتل المزيد من الفتيات، ويجب على المليشيا وسلدوفاتيل أن يستجوباه معاً قبل أن يؤخذ إلى المحاكمة؛ لمعرفة إن كان هناك المزيد من الضحايا. وافق نستروف على ذلك بحذر؛ فقد كان ذلك شيئاً يجب أن يفعلوه سابقاً. أصرّ

على الانضمام إلى الاستجواب، ووجد ليو ذلك مناسباً تماماً، فكلما ازداد عدد الشهود أصبح الأمر أفضل. كان بابينيتش قد أنكر بحضور شخصين من سلدوفاتيل وضابطي ميليشيا معرفةَ أي شيء عن أي ضحايا آخرين. وقد اتفق الفريق بعد ذلك على أن المتهم لم يقتل على الأرجح أي شخص آخر. ووفقاً لما يعرفونه، لم تكن هناك فتيات مفقودات أخريات شعرهن أشقر؛ وهو الأمر الذي كان دافع بابينيتش لارتكاب الجريمة في تلك القضية. وبعد الاتفاق على أن بابينيتش لم يكن قد قتل على الأرجح أي شخص آخر، تظاهر ليو بالشك؛ مدّعياً أن عليهم تفتيش الغابة تحسباً فقط، وتوسيع نطاق البحث ليتضمن أي جزء من الغابة ضمن مسيرة ثلاثين دقيقة من البلدة. شعر نستروف أن ليو لديه برنامجاً ما، وبدا الانزعاج على محيّاه. في ظروف عادية، لو أن ليو لم يكن ضمن إ.أ.د، لكان طلبه سيلقى الرفضَ. كان تبديد موارد المليشيا في بحثٍ حثيث عن جريمةٍ فكرةً سخيفةً. لكن، بالرغم من أن نستروف كان يفتقر إلى الثقة بليو إلا أنه بدا خائفاً من معارضة الاقتراح، ويخشى من أن القيام بذلك قد يكون خطراً؛ لأن الأمر ربما جاء من موسكو. نُظّم الأمر للقيام بعملية البحث في ذلك اليوم؛ أي بعد ست وثلاثين ساعة من عثور ليو وريزا على جثة الفتى.

كانت صورة الفتى المستلقي على الثلج قد هيمنت على أفكار ليو في أثناء الساعات الماضية. وقد رأى كوابيس يسأل فيها فتى عارٍ في وسط الغابة، وقد انتُزعت أحشاؤه عن سبب تخلّيهما عنه.

لماذا تركتني ؟

كان الفتى في الكابوس أركادي؛ ابن فيودور.

كانت ريزا قد أخبرت ليو أنها واجهت صعوبة في التركيز في المدرسة؛ لأنها تعرف أن هناك فتى ميتاً في الغابة، وأن التظاهر بعدم وجود شيء خطأٌ. شعرت برغبة ملحّة في تحذير التلاميذ، وتنبيه البلدة بطريقة ما. إذ لم يكن

الآباء يعرفون شيئاً عن ذلك الخطر، ولم يبلّغ أي منهم عن فقدان أحد أبنائه، ولم تُظهِر سجلات المدرسة أي غيابٍ غير مبرر. من هو ذاك الفتى الذي عثرا عليه في الغابة؟ أرادت أن تعرف اسمه، وتعثر على أسرته. كل ما استطاع ليو فعله هو أن يطلب منها الانتظار. وبالرغم من انزعاجها، إلا أنها أذعنت لرأي ليو لأنّ تلك هي الطريقة الوحيدة لتبرئة الشاب المتهم، والبدء بمطاردة الشخص المسؤول عن الجريمة. كانت غرابة ذلك المنطق قد جعلته مقبولاً تماماً.

* * *

بعد أن جنّد نستروف عمالاً من مصانع الأخشاب لتأليف فرق البحث، وزّع الرجال والنساء إلى سبع مجموعات، تضمّ الواحدة منها عشرة أشخاص. عُيّن ليو قائداً لمجموعة تتولى تفتيش الغابة بجانب المستشفى الحكومي 379، في الطرف الآخر من المكان الذي توجد فيه الجثة. بدا ذلك مثالياً؛ لأنه من الأفضل ألاّ يكون الشخص الذي يكتشف الجثة، إضافة إلى احتمال عثوره على مزيد من الجثث هناك. كان ليو مقتنعاً أن تينك الجثتين ليستا الأوليين.

انقسم الأفراد العشرة في فريق ليو إلى مجموعتين تضم كل منهما ثلاثة أفراد، ومجموعةٍ من أربعة أفراد. كان ليو يعمل مع نائب نستروف، وهو رجل تلقى من دون شك تعليمات بمراقبته، وانضمت إليهما امرأة؛ عاملة في مصنع. استغرق الأمر منهم النهار كلّه لإنهاء مهمتهم في عملية البحث، وتفتيش عدّة كيلومترات عبر كتل ثلجية صعبة كان يجب وخزها بالعصي للتوثق من عدم وجود شيء تحتها. لم يعثروا على جثة، وعندما تجمّعوا مجدداً في المستشفى، لم يكن أي من الفريقين الآخرين قد وجد شيئاً أيضاً. كانت تلك الغابة خالية، وشعر ليو أن صبره ينفد لمعرفة ما يحدث في الطرف الآخر من البلدة.

* * *

telegram @ktabpdf

مكتبة الرمحي أحمد

كان نستروف واقفاً في طرف الغابة، قرب كوخ صيانة السكة الحديدية الذي جرى الاستيلاء عليه وتحويله إلى مقر قيادة مؤقت. اقترب منه ليو، محاولاً أن يبدو متمهلاً وغير مبالٍ، وسأله نستروف:

- ماذا وجدتم؟

- لا شيء.

أضاف ليو بعد توقف متعمّد:

- ماذا عن هذا المكان؟

- لا، لا شيء على الإطلاق.

تلاشى تظاهر ليو بعدم الاكتراث الفاتر. وعندما أدرك أن ردّ فعله مراقب، استدار محاولاً فهم الخطأ الذي وقع. كيف لم يعثروا على الجثة؟ هل كانت لا تزال هناك؟ كانت الآثار ظاهرة للعيان على نحو واضح، وبدا أن نطاق البحث لم يوُسّع إلى مكان وجود الجثة، وأنه وصل إلى حيث آثار الأقدام فقط. هل يعقل أن الفريق لم يتبعها إلى نهايتها؟ إذا لم يكن هناك ما يحفّزهم، فلربّما توقفوا عن البحث حيث تجاوزت الآثار منطقة البحث المحدّدة لهم. كانت معظم الفرق تعود. لم يكن هناك وقت كثير قبل أن تنتهي العملية كلها وتبقى جثة الفتى في مكانها في الغابة.

بدأ ليو يستجوب الرجال العائدين. كان اثنان من أفراد المليشيا، لا يتجاوز عمر أي منهما ثمانية عشر عاماً، ضمن الفريق الذي يبحث في منطقة الغابة الأقرب إلى موقع الجثة. أقرّا أن هناك آثاراً لكنها تبدو بريئة نظراً إلى وجود أربع مجموعات منها وليس اثنتين. كانوا قد افترضوا أنها لا شيء أكثر من كونها آثار أقدام أسرة تقوم برحلة، وقد أهمل ليو أن يأخذ في الحسبان أنه وريزا قد أضافا مجموعة من الآثار تمتد بشكل موازٍ لآثار الضحية والقاتل. ونسي في غمرة محاولته السيطرة على غضبه أنه لَم تعد له أي سلطة فأمر الرجلين بالعودة إلى الغابة واللحاق بالآثار إلى نهايتها. لم يقتنع الرجلان بذلك لأن الآثار ربما تمتد مسافة كيلومترات. وأكثر من ذلك: من كان ليو

ليصدر الأوامر؟

لم يكن لدى ليو خيار إلا الذهاب إلى نستروف، وأوضح باستخدام خريطة أنه لا توجد قرى قريبة في ذلك الاتجاه، وجادل بأنّ الآثار تثير الشبهة، لكن نستروف اتفق مع الشابين. كانت حقيقة وجود أربع مجموعات من الآثار تجعل الدليل مستبعداً ولا يستحق المتابعة. قال ليو الذي لم يستطع إخفاء إحباطه:

- إذاً، سأذهب وحدي.

حدّق إليه نستروف.

- سنذهب كلانا.

كان ليو يتبع آثار خطواته إلى داخل الغابة، ولا يرافقه إلا نستروف، وأدرك متأخراً أنه معرّض للخطر، فقد كان أعزلَ ووحيداً مع ذلك الرجل الذي يريده ميتاً. إذا كان سيقتل، فإن هذا مكان مناسب. بدا نستروف هادئاً، وكان يدخن.

- أخبرني يا ليو، ما الذي سنجده عند نهاية هذه الآثار؟

- ليست لدي فكرة.

- لكن هذه آثار أقدامك.

أشار نستروف إلى الآثار أمامهما ثم إلى تلك التي أحدثها ليو آنذاك، وبدت متطابقة.

- سنجد جثة فتى ميت.

- التي اكتشفتها سابقاً؟

- قبل يومين.

- لكن، لماذا لم تبلّغ عنها؟

- أردت إثبات أن فارلام بابينيتش لا يعرف شيئاً عن هذه الجريمة.

- كنت قلقاً من أن نتهمه بهذه الجريمة؟

- ولا أزال قلقاً.

هل كان نستروف سيشهر مسدسه؟ انتظر ليو، فأنهى نستروف لفافة التبغ وتابع المشي. لم يقولا شيئاً آخر حتى وصلا إلى الجثة، ووجدا الفتى مستلقياً على ظهره كما يتذكره ليو تماماً، عارياً، وفمه مملوء لحاءً، وجذعه ممزق بشدّة. وقف ليو بعيداً وهو يراقب نستروف الذي كان يفحص الجثة، من دون استعجال، ورأى أن الضابط القائد قد استشاط غضباً من الجريمة، مما أثار بعض الارتياح في نفسه.

- أريدك أن تعود، وتستدعي مكتب النائب العام. سأبقى هنا مع الجثة.

تذكر نستروف مخاوف ليو، فأضاف:

- من الواضح أن فار لام بابينيتش لا علاقة له إطلاقاً بهذه الجريمة.

- أتفق معك.

- هاتان جريمتان منفصلتان.

حدّق إليه ليو ذاهلاً، ومحتاراً من التأكيد.

- لكن هاتين الضحيتين قُتلتا على يد الرجل نفسه.

- اعتُدي على فتاة جنسياً وقُتلت، واعتُدي على فتى جنسياً وقُتل. هاتان جريمتان منفصلتان. هاتان عمليتان فاسدتان مختلفتان.

- لا نعرف إن كان الفتى قد تعرض لاعتداء جنسي.

- انظر إليه!

- لا أظن، وكذلك الطبيب الذي تحدّثت إليه، أن الفتاة قد تعرضت لاعتداء جنسي.

- كانت عارية.

- لكن، كان فماهما كليهما محشوين لحاء؛ لحاء شجرة.

- كان فم لاريسا محشواً تراباً.

- ذلك خطأ.

- لقد اعترف فار لام بابينيتش أنه حشا فمها تراباً.

- لهذا السبب لا يمكن أن يكون قد قتلها. فالأرض متجمدة. وإذا كان

تراباً فمن أين حصل عليه؟ كان فمها محشواً بلحاء شجرة؛ تماماً كفم هذا الفتى المحشوّ لحاءً. لقد أُعِدَّ اللحاء سلفاً، لكنني لا أعرف السبب.

- لقد اعترف بابينيتش.

- سيوافق على أيّ شيء إن مُنح الوقت الكافي.

- لماذا أنت واثق تماماً بأنه القاتل نفسه؟ قُتل أحدهما قرب المحطة. عمل طائش، ومتهور، وبالكاد خارج مرمى البصر. كان بمقدور الركاب سماع الصرخات. إنها جريمة يرتكبها شخص أحمق، وقد اعترف أحمق بارتكابها. لكن هذا الفتى اقتيد في الغابة مسافة ساعة مشياً. كان القاتل حريصاً على ألاّ يمنعه أحد. القاتل مختلف.

- من يعرف ما حدث مع الفتاة؟! ربما أراد المشي إلى مسافة أبعد في الغابة لكنها بدّلت رأيها، ولهذا اضطر إلى قتلها هناك. لماذا هناك حبل حول كاحل كل منهما؟

- هذه جريمة مختلفة.

- أخبرني أنك لست في أمسّ الحاجة إلى إثبات ما تقوله ولا تصدق شيئاً سواه.

- أخبرني أنت أي نوع من الأشخاص يغتصب فتاة ويقتلها، ثم يغتصب فتًى يافعاً ويقتله؟ من هذا الشخص؟ لقد عملت في المليشيا عشرين سنة، ولم أواجه قط مثل ذلك الشخص، أو أسمع بمثله على الإطلاق. هل يمكنك تزويدي بمثال واحد؟

- الفتاة لم تُغتصب.

- أنت محق. كان هناك سبب لموت الفتاة؛ قُتلت بسبب شعرها الأشقر. قتلها رجل مريض. هناك سبب لقتل هذا الفتى، لكن الذي قتله شخص مختلف، شخص يعاني مرضاً مختلفاً.

23 آذار

أغلق ألكسندر كشك التذاكر، وأرخى الستائر، وجلس مسترخياً على كرسيه. بالرغم من أن المكتب كان صغيراً، لا تتعدى مساحته بضعة أمتار مربعة، إلا أنه أحب حقيقة أنه له، لا يشترك فيه مع أحد، وليس هناك شخص يراقب عمله. كان يتمتع بنوع من الحرية غير المثقلة بمراقبة كمية محددة أو إنتاجية معينة. لم تكن هناك إلّا سلبية واحدة في تلك الوظيفة؛ وهي أن جميع من يعرفه يفترض أنه محبط من الطريقة التي تحوّلت فيها حياته.

كان ألكسندر قبل خمس سنوات أسرع عدّاء في المدرسة الثانوية 151، وقد ظن الناس أنه سيحقق نجاحاً على المستوى القومي، وربما حتى الدولي إذا شارك الاتحاد السوفييتي في الألعاب الأولمبية. وبدلاً من ذلك، انتهى به الأمر في وظيفة ثانوية، وهو يدير مكتب تذاكر، ويراقب أشخاصاً آخرين يسافرون في رحلات في حين لا يذهب هو إلى أي مكان. كان قد أمضى سنوات وهو يتبع نظام تدريبٍ قاسٍ، ويفوز بمسابقات إقليمية. وماذا كانت النتيجة؟ كانت النتيجة جداولَ زمنيةً وتذاكر؛ عملاً يمكن أن يؤديه أي شخص. تذكر اللحظة التي أصبح فيها الحلم هباءً منثوراً. كان ووالده قد استقلا قطاراً إلى موسكو، وحضرا عملية الانتقاء في نادي الجيش الرياضي المركزي، سي. أس. كي. أيه؛ وهو قسم من وزارة الدفاع، ومعروفٌ بأنه مكان انتقاء أفضل الرياضيين من كل أنحاء البلاد، ودفعهم ليصبحوا استثنائيين. رُفض تسعون بالمئة من المتقدّمين. كان ألكسندر قد جرى حتى انهار على جانب المضمار، وبالرغم من أنه ركض أسرع من ذي قبل، وحطّم

telegram @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

أفضل رقم شخصي له، إلا أنه لم يجتز الاختبار. حاول والده إضفاء انطباع إيجابي علّى الرفض في رحلة عودتهما إلى المنزل، وقال إن ذلك سيحفّزه على التدرّب أكثر، وإنه سيجتاز الاختبار في السنة التالية بالتأكيد، وسيصبح أقوى؛ لأنه اضطر إلى الكفاح من أجل تحقيق حلمه. لكن ألكسندر كان قد أعطى أقصى ما عنده ولم يكن ذلك كافياً. أدرك أنه لن تكون هناك سنة قادمة. وبالرغم من أن والده استمر في الضغط عليه، إلا أن قلب ألكسندر لم يعد متعلقاً بالأمر وكذلك قلب والده. ترك ألكسندر المدرسة، وبدأ يعمل، واعتاد على الروتين السهل.

انتهى من عمله بحلول الساعة الثامنة، فغادر مكتب التذاكر، وأوصده خلفه. لم يكن عليه أن يجتاز مسافة طويلة؛ لأنه ووالديه يعيشون في ملحق فوق المحطة. من الناحية التقنية، كان والده مسؤولاً عن المحطة، لكن صحته متوعكة، ولم يستطع أحد في المستشفى أن يحدد مشكلته باستثناء أنه بدين ويفرط في احتساء الشراب. كانت صحة والدته جيدة، وكانت تبدو مرحة عادة إذا نحّت مرض زوجها جانباً، ولديها سبب لتشعر بالمرح؛ فهم أسرة محظوظة. كانت أجور العمل في السكك الحديدية الحكومية متواضعة، لكن الفائدة الحقيقية هي السكن. فبدلاً من مشاطرة المسكن مع أسرة أخرى، حصلوا على شقتهم الخاصة، وفيها شبكة أنابيب للمياه، وماء ساخن، وعزل حراري؛ وكانت جديدة مثل المحطة نفسها. بالمقابل، كان من المتوقع منهم البقاء على أهبة الاستعداد أربعاً وعشرين ساعة في اليوم. ولديهم جرس يمكن قرعه من المحطة ويتصل مباشرة بواسطة أسلاك مع الإدارة. وإذا جاء قطار في الليل أو الصباح الباكر، يجب أن يكونوا جاهزين. لكن تلك الأمور كانت مزعجة قليلاً فقط لأنّ أفراد الأسرة يتشاطرونها، وتعوّضها وسائل الراحة النسبية التي يتمتعون بها. فشقتهم كبيرة كفاية، وتتسع لأسرتين بسهولة. كانت شقيقة ألكسندر قد تزوجت عامل تنظيف يعمل في مصنع تجميع السيارات، حيث تعيش أيضاً، وقد انتقلا إلى شقة

جديدة في منطقة جيدة، وينتظران ابنهما البكر. كان ذلك يعني أنه ليس لدى ألكسندر، البالغ من العمر اثنتين وعشرين سنة، شيء يقلق بشأنه؛ لأنه سيتولى يوماً ما إدارة المحطة ويصبح الملحق له.

استبدل ببذلته ملابس عادية في غرفة نومه، وجلس ليأكل مع والديه: حساء البازيلاء والحدُّوق (سمك يشبه سمك القد) ويتبعه كاشا مقلي. كان والده يتناول قطعة صغيرة من كبد بقرة، وذلك التزاماً بتعليمات الأطباء - بالرغم من أنها غالية الثمن، والحصول عليها صعب على نحو استثنائي - فهو يخضع لحمية صارمة تتضمن عدم تناول الشراب، لكنه بدا مقتنعاً بأن ذلك يجعل حالته أسوأ. لم يتكلموا في أثناء تناولهم طعام العشاء، وبدا أن والده متعب قليلاً، ويأكل بصعوبة. اعتذر ألكسندر منهما بعد غسل الأطباق؛ كان سيذهب إلى دار العرض. بحلول ذلك الوقت، كان والده قد استلقى مجدداً، فقبّله ألكسندر متمنياً له ليلة سعيدة، وطلب منه ألاّ يقلق؛ لأنه سيستيقظ باكراً للإشراف على وصول أول قطار.

كانت هناك دار عرض واحدة في فوالسك، افتُتحت قبل ثلاث سنوات بعد أن حُوّلت دار عبادة إلى قاعة تتسع لستمئة مقعد، وتُعرض فيها مجموعة أفلام من إنتاج حكومي، والتي فوّت سكان البلدة فرصة رؤية عدد منها. من تلك الأفلام: المقاتلون، مذنب من دون ذنب، أسرار مكافحة التجسس، لقاء على الألب، وهي بعض أفضل الأفلام في السنوات العشر الماضية التي شاهدها ألكسندر كلها عدّة مرات. كانت دار العرض قد أصبحت بسرعة المكان المفضّل بالنسبة إليه لتمضية وقت فراغه منذ افتتاحها، وبسبب الجري لم يكن الشراب قد أثار اهتمامه مطلقاً، إضافة إلى أنه لم يكن اجتماعياً على نحو خاص. عندما وصل إلى الردهة، رأى أن فيلم نزابيمي يُعرض آنذاك، وكان قد سبق لألكسندر أن شاهد الفيلم منذ عدّة أيام، ومرات عديدة قبل ذلك. وجد الأمر رائعاً. ليس الفيلم نفسه على نحو خاص، وإنما فكرة قيام ممثل بأداء دور ستالين، وتساءل إن كان ستالين قد تدخل في ذلك؛

كيف يبدو الأمر حين تشاهد شخصاً آخر يتظاهر بأنه أنت، وتوجهه إلى أن ما يفعله صواب أو خطأ؟ تجاوز ألكسندر الردهة، ولم ينضم إلى الصف الطويل، بل اتجه بدلاً من ذلك إلى المتنزه.

في وسط متنزه النصر، كان هناك تمثال برونزي لثلاثة جنود، يرفعون قبضاتهم نحو السماء، وبنادقهم معلقة على أكتافهم. وبالرغم من إغلاق المتنزه رسمياً في الليل، إلا أنه ليس هناك سياج حوله، ولهذا لن تُطبّق تلك القاعدة أبداً. كان ألكسندر يعرف الطريق الذي يجب أن يسلكه: درب بعيد عن الشوارع وخارج مرمى البصر إلى حدٍّ كبير، تخفيه الأشجار والأجمة. شعر بأن خفقان قلبه يتسارع تحفّزاً - كما يحصل دائماً - حين دار ببطء حول المركز. بدا أنه كان وحيداً في تلك الليلة. وبعد الدورة الثانية، فكّر في الذهاب إلى المنزل.

حينها، شاهد ألكسندر رجلاً أمامه، فتوقف، واستدار الرجل ليواجهه. دلَّ توقف قصير شابه التوتر على أنهما كانا في المكان نفسه للسبب نفسه، فتابع ألكسندر طريقه إلى الأمام، فيما بقي الرجل في مكانه منتظراً أن يصل إليه. نظر كل منهما حوله حين أصبحا جنباً إلى جنب، وتأكّدا من أنهما بمفردهما، قبل أن ينظرا إلى بعضهما. كان الرجل أصغر من ألكسندر، وربما لا يتجاوز عمره تسع عشرة سنة أو عشرين سنة. وبدا متردداً، فافترض ألكسندر تخميناً أن تلك هي المرة الأولى بالنسبة إليه. حطم ألكسندر الصمت:

- أعرف مكاناً نذهب إليه.

نظر الشاب حوله مرة أخرى ثم أومأ، لكنه لم يقل شيئاً. تابع ألكسندر:

- اتبعني. لكن، ابقَ بعيداً قليلاً.

مشيا منفصلين. ألكسندر في الأمام متقدّماً عدّة مئات من الخطوات تقريباً. تمهل لينظر إلى الرجل الآخر، الذي كان لا يزال يلحق به.

وصل ألكسندر إلى محطة القطار، وتأكّد من أن والديه ليسا قرب نافذة

telegram @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

شقتهما، ودخل من دون أن يراه أحد مبنى المحطة الرئيس؛ وكأنه على وشك أن يلحق بقطار. فتح مكتب التذاكر من دون أن ينير المكان، وترك الباب مفتوحاً، ثم دفع الكرسي جانباً. وبالرغم من أن المساحة لم تكن كبيرة، إلا أنها كانت كافية. انتظر، ونظر إلى ساعته متسائلاً عن سبب تأخّر الرجل، قبل أن يتذكر أنه مشى مسرعاً. أخيراً، سمع شخصاً يدخل المحطة، وفُتح باب كشك التذاكر. دخل الرجل، ونظر كلاهما إلى بعضهما بإمعان للمرة الأولى. تراجع ألكسندر إلى الخلف ليغلق الباب، وأثاره صوت القفل الذي يعني أنهما بأمان.

طرق شخص على الباب بعنف، وكانت أول فكرة خطرت لألكسندر هي أنه والده من دون شك. لا بدّ من أنه قد رأى، وعرف كل شيء. لكنه أدرك بعدئذ أن الصوت لم يكن آتياً من الخارج، إنما من ذلك الرجل الذي كان يطرق على الباب، ويصرخ بصوتٍ عالٍ. هل غيّر رأيه؟ من الذي يتكلم معه؟ ارتبك ألكسندر، وسمع أصواتاً خارج المكتب. لم يعد الرجل خانعاً ومتوتراً، فقد حدث تحوّل ما، وبدا غاضباً ومشمئزاً. بصق على وجه ألكسندر، وعلقت كتلة البلغم على وجنته، لكنه مسحها. ومن دون أي تفكير، أو فَهِم ما يجري، لكم الرجل فألقاه أرضاً.

أصدر مقبض الباب صوتاً، ونادى صوت في الخارج:

- ألكسندر، أنا الجنرال نستروف، والرجل الذي معك جندي في المليشيا. آمرك أن تفتح الباب، فإما أن تطيع الأوامر، أو أستدعي والديك وأحضرهما إلى هنا ليشاهداني وأنا أعتقلك. والدك مريض، أليس كذلك؟ سيقتله اكتشاف جريمتك.

كان محقاً. سيقتل ذلك والده. حاول ألكسندر أن يفتح الباب بسرعة، لكن المكتب كان صغيراً جداً وجسد الرجل الملقى على الأرض يسد الطريق، فاضطر إلى سحبه جانباً قبل أن يستطيع التعامل مع القفل وفتح الباب. عندما فُتح الباب، امتدت أيدٍ نحوه، وأمسكته، ثم سحبته خارج

المكتب إلى الساحة.

نظر ليو إلى ألكسندر، أول شخص قابله بعد أن نزل من القطار القادم من موسكو، الرجل الذي قدّم له لفافة تبغ، الرجل الذي ساعده على التفتيش في الغابة. لم يكن هناك شيء يستطيع أن يفعله لمساعدته.

نظر نستروف إلى مكتب التذاكر، محدّقاً نحو الأسفل إلى الجندي الذي لا يزال مصاباً بدوار على الأرض، والمحرج من حقيقة أن شخصاً آخر قد تغلب عليه.

- أخرجوه من هنا.

دخل جنديان، وساعدا الرجل المصاب على الذهاب إلى سيارة في الخارج. عندما رأى نائب نستروف ما فعله ألكسندر بأحد رجاله، لطمه على وجهه. وقبل أن يتمكن من ضربه مجدداً، تدخّل نستروف قائلاً:

- هذا كافٍ.

دار حول المشتبه فيه، وهو ينتقي كلماته بعناية:

- خاب أملي لأنني أمسكت بك وأنت تفعل هذا. لم أكن أظن قط أنه أنت.

بصق ألكسندر دماً على الأرض لكنه لم يجب. فتابع نستروف:

- أخبرني لماذا.

- لماذا؟ لا أعرف لماذا.

- لقد اقترفتَ جريمة خطرة جداً. قد يحكم عليك قاضٍ بالسجن خمس سنوات على الأقل، ولن يهتم بعدد المرات التي تقول فيها إنك آسف.

- لم أقل إنني آسف.

- أنت شجاع يا ألكسندر. لكن، هل ستبقى شجاعاً جداً إذا اكتشف الجميع الأمر؟ ستتعرض للإذلال والخزي. حتى بعد تمضية خمس سنوات في السجن، فلن تستطيع العيش أو العمل هنا. ستخسر كل شيء.

تقدم ليو إلى الأمام.

- اسأله فحسب.

- هناك طريقة لتفادي هذا العار. نريد لائحة بأسماء كل رجل مثلك. ستساعدنا على وضع هذه اللائحة.

- لا أعرف أي أشخاص آخرين. هذه المرة الأولى لي...

- إذا قررت عدم التعاون معنا فسنعتقلك، وسنُخضعك للمحاكمة، وسندعو والديك إلى المحكمة. هل يستعدان ليخلدا إلى النوم الآن؟ يمكنني إرسال أحد رجالي لاكتشاف ذلك، وإحضارهما إلى هنا.

- لا.

- اعمل معنا، وربما لن نذكر أي شيء لوالديك. اعمل معنا وربما لن يجري إخضاعك للمحاكمة، وقد يبقى هذا الحوار سراً.

- ما الهدف من هذا؟

- جريمة قتل فتى صغير. ستقدم خدمة عامة وتكفّر عن جريمتك. هل ستعد تلك اللائحة؟

مسَّ ألكسندر الدم الذي ينزف من فمه.

- ماذا سيحدث للرجال الذين سأدوّن أسماءهم على تلك اللائحة؟

29 آذار

جلس ليو على حافة سريره وهو يفكر كيف تحولت محاولته إعادة فتح التحقيق إلى حملة على مستوى المدينة، فقد اعتقلت المليشيا في الأسبوع الماضي مئة وخمسين شخصاً. وفي ذلك اليوم وحده، ألقى ليو القبض على ستة رجال، رافعاً سجله إلى عشرين. اعتُقل بعضهم في أماكن عملهم، واقتيدوا مكبّلين بالأصفاد على مرأى من زملائهم. في حين اعتُقل آخرون من منازلهم، وشققهم، وانتُزعوا من بين أفراد أسرهم. كانت زوجاتهم يتوسلن مقتنعات أن هناك خطأ ما، ولا يستطعن فهم تلك الاتهامات.

كان لدى نستروف سبب للشعور بالسعادة، فقد عثر بمحض المصادفة على شخص ثانٍ غير مرغوب فيه: مشتبه فيه يمكن تسميته قاتلاً من دون إفساد النظرية الاجتماعية. كانت الجريمة انحرافاً. هؤلاء الرجال منحرفون. بدا التطابق مثالياً، وسيكون بمقدوره الإعلان أنهم ينفذون أكبر عملية مكافحة جريمة على الإطلاق بقيادة مليشيا فوالسك، وهو ادّعاء كان سيكلّفه منصبه لو أنه لم يستهدف مثل تلك المجموعات الثانوية غير المقبولة. ونظراً إلى ضيق المساحة، فقد حُوّلت المكاتب إلى زنزانات احتجاز، وغرف استجواب مؤقتة. حتى مع تلك الإجراءات المرتجلة، كان من الضروري حبس عدّة رجال في كل زنزانة مع حرّاس مزوّدين بتعليمات واضحة تقضي بمراقبتهم طوال الوقت. كان سبب ذلك احتمال وقوع حوادث تلقائية. لم يكن أحد يعرف تماماً ما يتعاملون معه، لكنهم كانوا واثقين أن حدوث مثل تلك الحوادث في مقر قيادة المليشيا سيقوّض المؤسسة، وسيمثّل تحدياً

telegram @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

لمبادئ العدالة. إضافة إلى ذلك المستوى العالي من التدقيق، وُضع جدول أعمال يسمح لكل ضابط بالعمل في مناوبات تمتد اثنتي عشرة ساعة، واستجواب المشتبه فيهم باستمرار أربعاً وعشرين ساعة في اليوم. وجد ليو نفسه مضطراً إلى طرح الأسئلة نفسها مراراً وتكراراً، والانتباه إلى أصغر الاختلافات في الأجوبة؛ وقد نفّذ هذه المهمة مثل دمية آلية، مقتنعاً حتى قبل أن ينفذوا عملية اعتقال واحدة أن هؤلاء الأشخاص أبرياء.

دُققت لائحة الأسماء التي قدّمها ألكسندر اسماً إثر آخر. وقد أوضح عند تقديمه إيّاها أنه يفعل ذلك بالرغم من أن صِلاته لم تكن متعددة. في الواقع، كان الكثير من الأسماء التي كتبت على اللائحة تعود لأشخاص لم يلتقِ بهم قط، وجاءت معلوماته من أحاديثه مع الرجال العشرة الذين أقام علاقة معهم. أقرَّ كل رجل بعلاقاته مع رجال مختلفين. وهكذا، أصبح من الممكن، عند تجميعها معاً، رسم كوكبة يعرف كل رجل فيها مكانه بالنسبة إلى الآخرين. كان ليو قد أصغى إلى هذا الإيضاح، وبدا ذلك عالماً مخفياً يُفتح أمامهم؛ كينونة مغلقة بإحكام، ومشيّدة ضمن المجتمع كلّه. كانت سلامة الإغلاق ضرورية، وقد وصف ألكسندر كيف التقى رجالاً وردت أسماؤهم في اللائحة مصادفة في مواقف روتينية. فقد كانوا إمّا واقفين في صفّ طويل لشراء الخبز، أو يأكلون إلى الطاولة نفسها في مطعم مصنع. كانت الأحاديث العادية ممنوعة في تلك البيئات اليومية، وأقصى ما يسمح به هو نظرة؛ وحتى تلك يجب إخفاؤها. ظهرت القواعد من دون اتفاق أو قرار، ولم يكن أحد بحاجة إلى سردها، فقد نشأت من ضرورة حماية الفرد نفسَه.

عندما بدأت الموجة الأولى من الاعتقالات، انتشرت أنباء عن عملية التطهير من دون شك بين صفوفهم، وهُجرت أماكن اللقاءات السرية التي لم تعد سرية، لكن هذا الإجراء المضاد بدا عديم الفائدة. كانت لديهم لائحة، وقد حُطّمت الأقفال حول ذلك العالم. لم يكن نستروف بحاجة إلى اعتقال

أحد وهو متلبّس. عندما رأوا أسماءهم في اللائحة، واحداً بعد الآخر، وأدركوا أن صفوفهم قد اختُرقت، استسلم معظم الرجال نظراً إلى ضغط تلك الخيانة. ومثل غواصات ألمانية بقيت غير مرئية تحت سطح الماء لوقت طويل، اكتشفوا فجأة أن كل مواقعهم قد حُدّدت. وبعد إرغامهم على الصعود إلى السطح لم يكن لديهم إلا خيار واحد، ليس خياراً بالمعنى الكامل للكلمة لكنه يبقى بالرغم من ذلك خياراً: يمكنهم إنكار الاتهام الأساسي والخضوع لمحاكمة علنية، حيث ستتم إدانتهم وسجنهم؛ أو تحديد المتهمين بينهم المسؤولين عن تلك الجريمة المروّعة: قتل الفتى اليافع.

وفقاً لما استطاع ليو التأكد منه، بدا أن نستروف يصدّق أن كل هؤلاء الرجال يعانون مرضاً من نوعٍ ما. وبالرغم من أن بعضهم كانوا مرضى نوعاً ما، إلا أن آخرين كانوا مرضى على نحو خطر، والقاتل أحد هؤلاء بالتأكيد.

عندما عرض ليو صوراً لمسرح الجريمة، صوراً للفتى اليافع الذي انتُزعت أحشاؤه، كان ردّ فعل كل المشتبه فيهم بالطريقة نفسها تقريباً - فقد أُصيبوا بالرعب - أو على الأقل هذا ما بدا عليهم. من كان بمقدوره فعل مثل ذلك الشيء؟ لم يكن واحداً منهم، أو شخصاً يعرفونه. لم يكن أي منهم مهتماً بالفتية، والعديدون منهم لديهم أولاد، وقد تكرّرت الأجوبة على ذلك المنوال. كان كل رجل منهم عاقد العزم؛ لا يعرفون بأن هناك قاتلاً بينهم، ولن يحموه إذا كان بينهم. كان نستروف قد توقع الحصول على مشتبه فيه رئيس خلال أسبوع، وبعد انقضاء المدة لم يكن لديهم شيء يعرضونه عن عملهم إلا لائحة أطول. أُضيفت أسماء أخرى، بعضها أُضيف بدافع الضغينة فقط. وأصبحت اللائحة سلاحاً فاعلاً على نحو قاسٍ. كان أفراد من المليشيا يضيفون أسماء أعدائهم إليها، ويدّعون أن اسم الشخص قد ذُكر في الاعتراف. وعندما يظهر الاسم على اللائحة، يصبح ادّعاء البراءة مستحيلاً، ولهذا ازداد عدد المساجين من مئة إلى نحو مئة وخمسين رجلاً.

كان عملاء إ.أ.د. المحليون، المحبطون من عدم إحراز أي تقدم، قد

telegram @ktabpdf مكتبة الرمحي أحمد

اقترحوا أن يتولوا عمليات الاستجواب، وهي كناية عن استخدام التعذيب؛ وقد وافق نستروف على ذلك مما أصاب ليو بالفزع. وبالرغم من تناثر الدم على الأرضيات، لم يجرِ التحقيق أيّ اختراق. لم يعد لدى نستروف خيار إلا البدء بإقامة دعاوى ضد كل الرجال المئة والخمسين، على أمل أن يدفع ذلك أحدهم إلى التكلم. لم يكن تعريضهم للإذلال والخزي والتعذيب كافياً، بل يجب أن يفهموا أنهم سيخسرون حياتهم. سيُحكم عليهم - إذا تلقى القاضي تعليمات بذلك - بالسجن لمدة خمس وعشرين سنة بتهمة التخريب السياسي، وليس خمس سنوات فقط نظراً إلى ما اقترفوه من أعمال مخزية. كان نشاطهم سيُعدُّ جريمة ضد نسيج الأمة ذاتها، ولدى مواجهتهم بهذا الاحتمال انهار ثلاثة رجال وبدأوا يوجّهون أصابع الاتهام. على أيّ حال، لم يختر أي منهم الشخص نفسه. رفض نستروف قبول أن طريقة التحقيق تلك خاطئة، واعتبر أنه يواجه نوعاً من التضامن الإجرامي الشرير؛ الذي كان بمثابة ميثاق شرف بين المشتبه فيهم.

كان ليو قد اقترب من رئيسه ساخطاً وقال:

- هؤلاء الرجال أبرياء.

حدّق إليه نستروف محتاراً.

- كل هؤلاء الرجال مذنبون. السؤال هو: أيهم مذنب أيضاً بجريمة القتل؟

* * *

راقبت ريزا ليو وهو يضرب نعلي حذائه معاً، فتسقط منهما قطع ثلج متسخة إلى الأرض. حدّق إلى الأسفل، غير مدرك أنها في الغرفة. وجدت خيبة أمله أمراً يستحيل تحمّله. لقد ظنَّ، بصدق، أن تحقيقه سيحظى بفرصة، وقد علّق آماله على حلم خيالي بالإصلاح؛ تنفيذ العدالة. كانت تلك فكرةً سخرت منها تلك الليلة في الغابة، لكن مجرى الأحداث جعل السخرية تصبح أكثر قسوة. كان قد أطلق رعباً في سعيه إلى إحقاق العدالة، وفي

حملة القبض على قاتل، إذ سيخسر مئة وخمسون رجلاً حياتهم، إن لم يكن بالمعنى الحرفي للكلمة، فعلى كل مستوى آخر. فهم سيخسرون أسرهم، ومنازلهم. وأدركت حين رأت انحناء كتفي زوجها ووجهه المتعب أنه لم يفعل شيئاً قط من دون أن يكون واثقاً به. لم يكن هناك جانب تهكمي أو ماكر فيه، وإذا كان ذلك صحيحاً، فلا بد من أنه قد صدّق أيضاً أن زواجهما قد بُني على الحب. كانت كل الأوهام التي نسجها - عن الدولة وعلاقتهما - قد تحطّمت تماماً. حسدته ريزا؛ لأنه حتى ذلك الوقت، وبعد كل ما جرى، كان لا يزال متمسكاً بالأمل، ولا يزال يرغب في أن يثق بشيء ما. تقدمت إلى الأمام، وجلست بجانبه على السرير، وأمسكت يده بتردد. نظر إليها مدهوشاً ولم يقل شيئاً، لكنه قَبِل المبادرة. وراقبا معاً الثلج حين بدأ بالذوبان.

30 آذار

كان الميتم 80 مبنى مؤلفاً من خمسة طوابق، كُتِبت على جانبه كلمات بلون أبيض باهت: اعمل بجد تعش طويلاً، ويبرز على سطحه صف طويل من أعمدة المداخن، فقد كان سابقاً مصنعاً صغيراً. شاهد ليو أسمالاً متسخة معلّقة على النوافذ المحمية بقضبان حديدية مما جعل رؤية ما في الداخل مستحيلاً. قرع ليو على الباب، لكنه لم يتلقَّ رداً، فحاول فتح الباب، لكنه وجده موصداً. انتقل إلى النوافذ، ونقر على الزجاج، فسُحبت الملابس الرثّة إلى الخلف، وظهر وجه فتاة يافعة لثوانٍ قليلة - والتي بدت مثل شبح قذر - قبل أن تعود الأسمال إلى مكانها مجدداً. كان مويسيف يرافق ليو، وهو ضابط مليشيا ظنَّ ليو أنه يبدو قاطع طريق ببذلة رسمية. فُتح الباب الرئيس بعد طول انتظار، وحدّق رجل عجوز تمتلئ قبضته بمفاتيح نحاسية إلى الضابطين، وتغير تعبير وجهه حين رأى بذلتيهما من السخط إلى الاحترام، فأومأ برأسه قليلاً.

- بمَ يمكنني أن أساعدكما؟

- نحن هنا بشأن الفتى القتيل.

كانت الحجرة الرئيسة في الميتم سابقاً أرض المصنع، الذي أُزيلت منه كل الآلات، وحُوّلت إلى غرفة طعام، ليس بوضع طاولات وكراسٍ فيها؛ لأنها لم تكن متوافرة، وإنما لأنّ الطابق برمّته يشغله أطفال يجلسون ساقاً على ساق، ويلتصقون ببعضهم بعضاً، ويحاولون تناول الطعام. كان كل طفل يمسك وعاءً خشبياً مملوءاً بما بدا أنه حساء ملفوف. على أيّ حال،

telegram @ktabpdf

مكتبة الرمحي أحمد

بدا أن الأطفال الأكبر سناً هم فقط الذين يحملون ملاعق، أمّا الباقون فكانوا إمّا جالسين بانتظار ملعقة أو يشربون من الوعاء مباشرة. وعند انتهاء طفل من تناول طعامه، كان يلعق الملعقة من الأعلى إلى الأسفل قبل أن يمرّرها إلى الطفل التالي.

كانت تلك أول تجربة لليو في ميتم حكومي، فتقدم قليلاً ليلقي نظرة شاملة على الغرفة. كان تحديد عدد الأولاد الموجودين هناك أمراً صعباً. إذ كان هناك نحو مئتين أو ثلاثمئة ولد، أعمارهم من الرابعة إلى الرابعة عشرة. لم يُعر أي من الأطفال ليو أي اهتمام، فقد كانوا مشغولين جداً بتناول طعامهم أو مراقبة رفاقهم بانتظار ملعقة. لم يكن أحد يتكلم، وكل ما يمكن سماعه أصوات كشط الزبادي والأكل. استدار ليو إلى الرجل العجوز:

- هل أنت مدير هذا المعهد؟

كان مكتب المدير في الطابق الأول، ويطل على أرض المصنع المغطاة بالأطفال؛ وكأنهم إنتاج ضخم. وفي المكتب نفسه، كان هناك عدّة مراهقين، أكبر سناً من الأطفال في الأسفل، ويلعبون الورق على طاولة المدير الذي صفق بيديه:

- تابعوا هذا في غرفتكم، من فضلكم.

حدّق الأولاد إلى ليو ومويسيف، ولم يسع ليو إلا أن يفترض أن انزعاجهم نابع من إخبارهم بما يجب عليهم القيام به. كانت عيونهم تنم عن ذكاء، وخبراتهم تتخطى أعمارهم. تحركوا معاً من دون أن ينبسوا بكلمة؛ وكأنهم قطيع من كلاب برية. جمعوا أوراقهم وعيدان الثقاب - التي يستخدمونها قطعاً - وغادروا المكان.

عندما خرجوا، سكب المدير لنفسه شراباً، وأشار إلى ليو ومويسيف ليجلسا على كرسيين، فجلس مويسيف لكن ليو بقي واقفاً وهو يمعن النظر في الغرفة. لم تكن هناك إلا خزانة ملفات واحدة، درجها السفلي منبعج نتيجة ركلة. أما الدرج العلوي فكان مفتوحاً جزئياً، وتبرز منه وثائق مجعدة

في كل الاتجاهات.

- لقي فتى يافع حتفه غيلة في الغابة. لقد سمعت عن هذا؟

- جاء بعض الضباط الآخرين إلى هنا، وعرضوا علي صورة الفتى، وسألوا إن كنت أعرف من هو. أخشى أنني لا أعرفه.

- لكنك لم تكن واثقاً من اختفاء أي طفل يعيش هنا؟

حكّ المدير أذنه.

- نحن أربعة أشخاص نعتني بثلاثمئة ولد أو نحو ذلك. الأولاد يأتون ويذهبون، ويصل أطفال جدد طوال الوقت. يجب أن تعذرنا على إهمالنا الأعمال الورقية.

- هل لجأ أي من الأولاد في هذه الدار إلى البغاء؟

- يفعل الكبار منهم ما يحلو لهم، ولا يمكنني مراقبتهم باستمرار. هل يثملون؟ نعم. هل يعرضون أنفسهم للبغاء؟ محتمل جداً، بالرغم من أنني لا أسمح بذلك، أو لا أتورّط فيه ولا أستفيد منه بالتأكيد. وظيفتي هي التأكد من توافر طعام يتناولونه، ومكان ينامون فيه. وبالنظر إلى مواردي، فإنني أفعل ذلك على خير ما يرام، ولا يعني هذا أنني أتوقع أي مديح بالمقابل.

قادهم المدير إلى الطابق العلوي نحو غرف النوم، وعلّق في أثناء تجاوزهم الحمّام:

- أتظنّان أنني لا أكترث بمصلحة الأولاد؟ لا أفعل، لكنني أبذل قصارى جهدي. فأنا أتأكد من اغتسالهم مرة في الأسبوع. ومن أنهم يحلقون ويتخلصون من القمل مرة في الشهر. أغلي كل ملابسهم، ولن أسمح بوجود قمل في ميتمي. اذهبا إلى أي ميتم آخر وستجدان أن شعر الأولاد مليء بها، حواجبهم تعج بها. هذا مثير للاشمئزاز، لكن ليس هنا، ولا يعني ذلك أنهم يشكرونني لأجل هذا.

- هل يمكن أن نتحدث إلى الأولاد وحدنا؟ ربما يشعرون بالخوف بسبب حضورك.

telegram @ktabpdf

مكتبة الرمحي أحمد

ابتسم المدير.

- لن يخافوا مني، لكن على أيّ حال...

أشار إلى السلالم.

- يعيش الأكبر سناً في الطابق العلوي، ويعتبرون أن المكان إقطاعية خاصة بهم.

لم تكن غرف النوم في الطابق العلوي، الكائن تحت السقف مباشرة، تضم هياكل أسرّة، وإنما "الفرشات" الرقيقة المعتادة التي كانت مبسوطة على الأرض. بدا واضحاً أن الأولاد الأكبر سناً يتناولون غداءهم في الوقت الذي يناسبهم، وقد أكلوا من دون شك آنذاك، وحصلوا على أفضل الطعام.

دخل ليو الغرفة الأولى الواقعة قرب السلالم، ولمح فتاة تختبئ خلف الباب، ورأى لمعان شيء معدني. كانت مسلّحة بسكين، لكنها عندما رأت بزّته أبعدت السكين عن الأنظار وأخفتها في طيات ثوبها.

- ظننا أنّ الصبيان قادمون. لا يُسمح لهم بالمجيء إلى هنا.

حدّقت نحو عشرين فتاة، تتراوح أعمارهن بين أربع عشرة سنة وست عشرة سنة تقريباً إلى ليو بوجوه قاسية، فعاد إلى ذهنه الوعد الذي قطعه لأناتولي برودسكي بأن تبقى الفتاتان بأمان وفي رعاية دار للأيتام في موسكو. كان ذلك تأكيداً من شخص جاهل. فهم ليو الأمر الآن. لقد كان برودسكي محقاً. كانت تانك الفتاتان ستصبحان أفضل حالاً إذا تُركتا وحدهما، تعتنيان ببعضهما بعضاً.

- أين ينام الصبيان؟

كان الصبيان الأكبر سناً الذين شاهد بعضهم في مكتب المدير، متجمّعين في نهاية غرفتهم، منتظرين ومتوقعين مجيئهم. دخل ليو الغرفة وجثم، ثم وضع ألبوم صور على الأرض أمامهم.

- أودُّ منكم النظر بإمعان إلى هذه الصور، وإبلاغي إذا كان أي من هؤلاء الرجال قد تكلم معكم من قبل، وعرض عليكم مالاً.

telegram @ktabpdf

مكتبة الرمحي أحمد

لم يتحرك أي من الصبيان أو تصدر عنه أي إيماءة تدل على أن افتراضه صحيح.

- لم تفعلوا أي شيء خاطئ. ونحن نحتاج إلى مساعدتكم فقط.

فتح ليو الألبوم، وقلّب صفحات الصور ببطء حتى وصل إلى النهاية. كان حشد من المراهقين قد حدّق إلى الصور، لكن لم يظهر عليهم أي ردّ فعل. قلّب الصفحات إلى الخلف، لكن لم يكن هناك ردّ فعل من الصبيان، وعندما أوشك أن يغلق الألبوم مدّ فتى من نهاية المجموعة يده ومسّ إحدى الصور.

- هل هذا الرجل عرض عليك مالاً؟

- ادفع لي.

- دفع لك؟

- لا، ادفع لي أنت وسأخبرك.

تعاون ليو وموريسيف معاً، وعرضا على الفتى ثلاث روبلات. قلّب الفتى الألبوم، وتوقف عند إحدى الصفحات، وأشار إلى إحدى الصور.

- كان الرجل يبدو مثل هذا.

- إذاً، لم يكن هذا الرجل؟

- لا، لكنه يشبهه.

- هل تعرف اسمه؟

- لا.

- هل يمكنك إخبارنا أي شيء عنه؟

- ادفع لي.

هزّ موريسيف رأسه، رافضاً دفع المزيد.

- يمكننا اعتقالك بتهمة الاستغلال.

مقاطعاً التهديد، أخرج ليو ما تبقّى من ماله، وأعطى الصبيَّ إياه.

- هذا كل ما أملكه.

- إنه يعمل في المستشفى.

اليوم نفسه

شهر ليو مسدسه. كانوا في الطابق العلوي من المبنى السكني 7، ويقصدون الشقة 14 في نهاية الـرواق. زوّدهم موظف في المستشفى بالعنوان. فقد حصل المشتبه فيه على إجازة مرضية منذ الأسبوع الماضي، وهي مدة طويلة تعني أنه لولا انشغال ضباط إ.أ.د. بعمليات الاستجواب، لكانوا قد حققوا معه بكل تأكيد تقريباً. تبين أن بداية مرضه تتطابق مع أول موجة اعتقالات ضد الرجال في البلدة.

قرع ليو الباب، لكنه لم يتلقَّ رداً. صرخ مبيناً اسميهما ورتبتيهما، لكن دون جواب. وعندما رفع مويسيف حذاءه استعداداً لركل القفل، فُتح الباب.

عندما رأى الأسلحة موجهة إليه، رفع د. تيابكين يديه، وتراجع إلى الخلف. تعرّف ليو إليه بصعوبة، وبدا أنه الرجل نفسه الذي ساعده على فحص جثة الفتاة؛ الطبيب المهيب الذي نُقل من موسكو. كان شعره أشعثَ، وعيناه محتقنتين، وقد انخفض وزنه، وملابسه مجعدة. كان ليو قد رأى رجالاً يعتصرهم القلق، ورأى كيف تفقد عضلاتهم شكلها وقوتها؛ وكأن الخوف قد تملّكهم.

دفع ليو الباب وفتحه بقدمه، ونظر في أرجاء الشقة.

– هل أنت وحدك؟

– ابني الأصغر هنا، لكنه نائم.

– كم عمره؟

– أربعة شهور.

مكتبة الرمحي أحمد

telegram @ktabpdf

تدخل مويسيف وضرب بأخمص مسدسه المعدني أنف تيابكين الذي خرّ على ركبتيه، والدم يسيل بين يديه المضمومتين. أمر مويسيف ليو:

- فتّشه.

بدأ مويسيف بتفتيش الشقة، في حين جثم ليو، وساعد تيابكين على النهوض على قدميه، واصطحبه إلى المطبخ، حيث أجلسه على كرسي.

- أين زوجتك؟

- تشتري طعاماً... ستعود قريباً.

- قيل لنا في المستشفى إنك مريض.

- هذا صحيح، بطريقة ما. سمعت عن الاعتقالات، وعرفت أنها مسألة وقت فقط قبل أن تأتوا إليّ.

- أخبرني عمّا حدث.

- كنت مجنوناً، وليس هناك تفسير آخر للأمر. لم أعرف عمره، لكنه بدا يافعاً، ربما خمس عشرة سنة أو ست عشرة. لم أرد شخصاً يمكن أن يتكلم معي أو شخصاً يمكن أن يخبر أحداً آخر عني. لم أكن أريد لقاءهم مجدداً، أو رؤيتهم، أو التكلم معهم. أردت أن أبقى مجهولاً، وحسبت أن لا أحد سيصغي إطلاقاً إلى يتيم. لم تكن كلمته تساوي شيئاً. كان بمقدوري منحه بعض المال وسيضع ذلك حداً للمسألة. أردت شخصاً خفيًّا. هل تفهم؟

بعد إنهائه تفتيشه السريع، دخل مويسيف الغرفة مجدّداً، ووضع مسدسه في قرابه. أمسك أنف تيابكين المكسور، وحرّك العظم المحطم يميناً ويساراً، وجعله يصرخ ألماً. استفاق طفل في الغرفة المجاورة وبدأ يبكي.

أفلت مويسيف أنف تيابكين، فخرّ الطبيب على الأرض، وتكوّر على نفسه. انقضى بعض الوقت قبل أن يستطيع التحدث.

- لم أقم بأي عمل معه، أو بالأحرى لم أكمل، ولم أستطع إنجاز ذلك.

telegram @ktabpdf

مكتبة الرمحي أحمد

طلبت منه، ودفعت له، لكنني لم أستطع فعل ذلك، وإنما مشيت مبتعداً.

- انهض على قدميك، سنغادر هذا المكان.

- يجب أن ننتظر عودة زوجتي. لا يمكننا ترك ابني وحيداً.

- سينجو الطفل. انهض على قدميك.

- على الأقل دعني أوقف النزيف.

أومأ مويسيف:

- اترك باب الحمّام مفتوحاً.

غادر تيابكين المطبخ مترنحاً إلى الحمّام، وترك أثر يد ملطخة بالدماء على الباب الذي بقي مفتوحاً كما أُمر. نظر مويسيف في أرجاء الشقة، وعرف ليو أنه يشعر بالغيرة، فقد كان منزل الطبيب جميلاً. فتح تيابكين الماء في المغسلة، ضغط منشفة على أنفه، وتكلم وهو يدير ظهره إليهما:

- آسف جداً على ما فعلته، لكنني لم أقتل أحداً قط. يجب أن تصدقاني. ليس لأنني أظن أنني أستطيع إنقاذ سمعتي، فأنا أعرف أنها ملطخة. ولكن، لست أنا القاتل. شخص آخر قتل ذلك الفتى، ويجب إلقاء القبض عليه.

كان صبر مويسيف قد بدأ ينفد.

- هيا بنا.

- أتمنى لكما حظاً طيباً.

جرى ليو عند سماعه تلك الكلمات إلى الغرفة، وأدار تيابكين، ليرى محقنة مغروسة في ذراعه. ارتخت ساقا تيابكين، وانهار، فالتقطه ليو ووضعه على الأرض، ثم أخرج المحقنة من ذراعه. تأكد من نبضه، لكن تيابكين كان ميتاً. حدّق مويسيف نحو الأسفل؛ إلى الجثة، ثم قال:

- ذلك يجعل عملنا أسهل.

نظر ليو إليه. كانت زوجة تيابكين قد عادت، وتقف عند مدخل الشقة، وهي تحمل كيس البقالة.

1 نيسان

أغلق ألكسندر مكتب التذاكر. ووفقاً لما كان يعرفه، وفى نستروف بالوعد الذي قطعه، وحُجب سر نشاطاته عن الآخرين. لم ينظر أي من الزبائن إليه على نحو غريب، أو يهمس أحدهم شيئاً عنه. لم يتجنّبه والداه - فلا تزال والدته تحبه، ولا يزال والده يشكره على عمله الدؤوب - فكلاهما فخوران به. كان ثمن حصوله على ذلك وضعه لائحة بأسماء أكثر من مئة رجل. رجال اعتُقلوا في حين تابع ألكسندر بيع التذاكر، والرد على استفسارات الركاب، والتعامل مع الشؤون اليومية لإدارة المحطة. كانت حياته قد عادت إلى طبيعتها، وروتينه نفسه تقريباً: يتناول العشاء مع والديه، يأخذ والده إلى المستشفى، ثم ينظّف المحطة، ويقرأ الصحف. على أيّ حال، لم يعد يذهب إلى دار العرض. في الواقع، لم يعد يذهب إلى مركز المدينة على الإطلاق، فقد كان يخشى من لقاء أحد؛ ربما ضابط مليشيا يبتسم له بتكلف. كان عالمه قد انكمش. لكن ذلك حدث من قبل حين تخلّى عن حلمه بأن يصبح رياضياً، وقال لنفسه إنه سيعتاد على ما تلاءم معه من قبل.

الحقيقة أنه أمضى كل دقيقة وهو يتساءل إن كان الرجال قد خمّنوا أنه خانهم. ربما يقال لهم ذلك؛ لأن العدد الكبير من الاعتقالات يعني أنهم سيوضعون على الأرجح في زنزانات مع بعضهم بعضاً. ماذا سيفعلون في الوقت الذي يمضونه معاً غير التفكير في الشخص الذي كتب اللائحة؟ كانت تلك أول مرة في حياتهم لا يضطرون فيها إلى إخفاء أي شيء. وعندما فكّر في أولئك الرجال وجد نفسه يتمنّى مقايضة حريته بالإذلال علانية في

إحدى تلك الزنزانات. على أيّ حال، لن يكون موضع ترحيب هناك، ولم يعد لديه مكان يذهب إليه، ليس في هذا العالم، أو في عالمهم.

أغلق باب مكتب التذاكر، وأوصده خلفه، ونظر إلى الساعة المعلّقة فوق الساحة. وضع المفاتيح في جيبه ومشى إلى الرصيف. كان هناك شخصان ينتظران القطار، تعرّف على شكليهما وليس على اسميهما، لوّحا له وردّ عليهما بالمثل، ثم مشى إلى آخر الرصيف، وهو يراقب القطار المقترب. وصل ذلك القطار في موعده، نزل ألكسندر عن الرصيف، وتمدّد على إحدى السكك، محدّقاً نحو الأعلى إلى سماء الليل.

تمنّى أن يصدّق والداه الرسالة التي تركها خلفه، والتي يشرح فيها أنه لم يستطع التعافي قط من خيبة الأمل التي أُصيب بها بعد فشله في أن يصبح عدّاء مسافات طويلة، وأنه لن يسامح نفسه أبداً لأنه خذل والده.

اليوم نفسه

كان نستروف قد أمضى السنوات الأربع الأخيرة وهو يَعِدُ أسرته بمكان أفضل تعيش فيه. وعدٌ اعتاد تكراره بانتظام حتى عهد قريب. لم يعد يصدّق أنهم سيحصلون على مسكن أفضل، أو أنه إذا عمل جاهداً، وعملت زوجته بجد، فسيُترجم جهدهما إلى منفعة مادية. كانوا يعيشون في شارع كروبوتكنسكي، على مشارف البلدة، قريباً من مصانع الأخشاب، وقد بُنيت المنازل في ذلك الشارع كيفما اتفق، وكلها مختلفة في الأشكال والأحجام. أمضى نستروف معظم وقتِ فراغه وهو يقوم بإصلاحات في منزله. كان نجّاراً ماهراً، وقد استبدل أُطر النوافذ والأبواب. لكن، بمرور السنين، كانت الأساسات قد غارت في الأرض، وبدأت واجهة المنزل تميل آنذاك إلى الأمام، وتنحدر بزاوية لا يمكن معها فتح الباب إلا قليلاً قبل أن ينحشر بالأرض. كان قد بنى قبل عدّة سنوات ملحقاً صغيراً استخدمه كورشة، وصنع مع زوجته إنسا، طاولاتٍ وكراسيَ، وأصلحا المنزل، وجهّزا كل ما يحتاجان إليه. فعلا ذلك للأسر في الشارع أيضاً، وليس لأسرتهما فقط. وكل ما كان على الشخص فعله هو أن يجلب لهما المواد الأولية وربما، بمبادرة منه، بعض الطعام أو الشراب.

في النهاية، لم يكن بمقدور أي صيانة إصلاح العيوب التي لحقت بالعقار. إذ لم يكن لديهم ماء متدفق، فأقرب بئر تبعد مسيرة عشر دقائق. وليس هناك تمديدات صحية؛ فالمرحاض خارجي ويقع خلف المنزل. عندما انتقلوا إلى هناك، كان المرحاض قذراً ومتهالكاً، والحفرة فيه ضحلة

جداً وبدا الدخول إليه مستحيلاً من دون أن يوشك المرء على التقيؤ بسبب الرائحة. شيّد نستروف مرحاضاً جديداً في موقع منفصل، وعمل في أثناء الليل حتى انتهى منه؛ وكانت جدرانه متينة، وحفرته عميقة جداً، وفيه برميل من نشارة الخشب لرميها فيه بعد الاستعمال. وبالرغم من ذلك، بقي نستروف قلقاً من عيش أسرته معزولة ومحرومة من وسائل الراحة والصحة، ومن دون وعد بمستقبل أفضل. كان في الأربعين من عمره، ورواتبه أقل من رواتب الكثير من العمال العشرين أو نحو ذلك الذين يعملون في مصنع تجميعِ السيارة. لقد أصبح طموحه - الحصول على منزل لائق - هباءً منثوراً.

سمع نستروف قرعاً على الباب الأمامي. كان الوقت متأخراً، لكنه لا يزال يرتدي بزّته الرسمية، وسمع إنسا وهي تفتح الباب، ثم ظهرت بعد لحظة في المطبخ:

- هناك شخص يريدك. قال إنه يعمل لديك، لكنني لم أعرفه.

مشى نستروف إلى الردهة، ورأى ليو يقف في الخارج، فاستدار إلى زوجته:

- سأتولى هذا الأمر.

- هل سيدخل إلى المنزل؟

- لا، لن يستغرق الأمر وقتاً طويلاً.

نظرت إنسا إلى ليو ثم ذهبت. خرج نستروف من المنزل وأغلق الباب خلفه.

كان ليو قد جرى كل الطريق إلى هناك، فقد أزال نبأ موت ألكسندر أي إحساس بالتعقّل. لم يعد يشعر بخيبة الأمل والكآبة اللتين ألمتا به طوال الأسبوع، بل شعر عوضاً من ذلك بأنّه مشوّش، وعضو في تمثيلية مروّعة منافية للعقل، وممثل في مسرحية غريبة. شعر بأنه الحالم الساذج، والمكافح من أجل العدالة الذي يترك دماراً في أعقابه. كان طموحه - إلقاء القبض على

قاتل - قد تحول إلى إراقة للدماء. كانت ريزا تعرف ذلك طوال الوقت، وقد عرفته في الغابة قبل يومين، وحاولت تحذيره، لكنه مضى قدماً، مثل طفل في مغامرة.

ما الذي يستطيع رجل واحد أن يحقّقه؟

كانت لديه إجابة خاصة به: القضاء على حياة مئتي شخص، وانتحار شاب، وموت طبيب. شطَرَ قطارٌ جثة الشاب إلى نصفين. كانت تلك ثمرة عمله، وما خاطر بحياته وحياة ريزا من أجله؛ تلك هي وصفته.

- مات ألكسندر. لقد انتحر بإلقائه نفسه تحت قطار.

طأطأ نستروف رأسه.

- آسف لسماع ذلك. منحناه فرصة لينجو بنفسه. لكن، ربما لم يستطع، أو ربما كان مريضاً جداً.

- نحن مسؤولون عن موته.

- لا، كان عليلاً.

- كان في الثانية والعشرين من عمره، لديه أم وأب ويحب الذهاب إلى دار العرض. إنه ميت الآن. لكن الشيء الجيد هو أننا إذا وجدنا فتًى آخر ميتاً، فباستطاعتنا إلقاء اللوم على ألكسندر، وحل القضية في زمن قياسي.

- يكفي هذا.

- لماذا تفعل هذا؟ لأنك لا تفعله من أجل المال أو الحصول على مخصصات إضافية!

حدّق ليو إلى منزل نستروف المائل، فأجابه نستروف:

- انتحر تيابكين لأنه مذنب.

- عندما بدأنا باعتقال هؤلاء الرجال، عرف أننا سنستجوب أولئك الأولاد، وعرف أننا سنقتفي أثره.

- يتمتع بالمهارة الجراحية اللازمة لاستئصال معدة طفل. أدلى بشهادة

زائفة أمامك في ما يتعلق بمقتل الفتاة لإرباكنا. كان مراوغاً وماكراً.

- أخبرَني الحقيقة؛ وهي أن معدة الفتاة قد استؤصلت. كان فمها محشواً لحاءً مثلما كانت معدة الفتى مستأصلة وفمه محشواً لحاءً. كان هناك حبل مربوط حول كاحلها وكذلك الأمر بالنسبة إلى الفتى. قتلهما الرجل نفسه، ولم يكن د. تيابكين أو ذلك المراهق فارلام بابينيتش.

- اذهب إلى منزلك.

- كانت هناك جثة في موسكو لفتى يافع يدعى أركادي، لم يبلغ الخامسة من عمره بعد. لم أرَ جثته. لكن، قيل لي إنه وُجد عارياً، وقد استؤصلت معدته، وكان فمه محشواً تراباً. أظن أن فمه كان محشواً لحاءً.

- فجأة، صار هناك فتى قتيل في موسكو؟ هذا مناسب جداً يا ليو، لكنني لا أصدق ذلك.

- لم أصدّقه أنا أيضاً. كان أفراد الأسرة الحزينة يخبرونني أن الفتى قد قُتل، ولم أصدق ذلك. أخبرتهم أن ذلك ليس صحيحاً. كم عدد الحوادث الأخرى التي جرى التعتيم عليها؟ ليست لدينا طريقة لنعرف ذلك، أو نكتشف ما جرى. نظامنا مصمم بإتقان ليسمح لهذا الرجل أن يقتل كما يحلو له، وسيقتل مراراً وتكراراً، وسنواصل اعتقال الناس الخطأ: الأشخاص الأبرياء، أو الأشخاص الذين لا يعجبوننا، أو الأشخاص الذين لا نحبّهم، فيما سيقدم القاتل على ارتكاب جرائمه مراراً وتكراراً.

لم يكن نستروف يثق بذلك الرجل، ولم يثق به قط، ولن ينجرَّ بالتأكيد إلى انتقاد الدولة. أدار ظهره إلى ليو، ومدّ يده نحو الباب الأمامي.

أمسك ليو كتفه، وأداره نحوه حتى أصبحا وجهاً لوجه مجدداً. كانت النية أن يحقق هدفاً آخر، أن يعود إلى منزله وقد زُوّدت حجّته بالبرهان والمنطق. لكن، بدلاً من أن تخرج كلمات من فم ليو، لكمه. كانت لكمة جيدة وقوية، جعلت رأس نستروف يتحرك إلى الجانب. بقي على تلك الحال، ورأسه إلى الجانب، ثم أدار رأسه ببطء إلى الضابط الأدنى رتبة.

telegram @ktabpdf

مكتبة الرمحي أحمد

حاول ليو إبقاء صوته ثابتاً:

- لم نحلّ شيئاً.

لكم نستروف ليو فأفقده توازنه، وسقط أرضاً على ظهره. لم تؤلمه الضربة، ليس آنذاك. حدّق نستروف إليه وهو يمسكُ فكه.

- اذهب إلى المنزل.

نهض ليو على قدميه.

- لم نحلّ شيئاً.

وجّه ليو لكمة أخرى إلى نستروف، لكنّ هذا الأخير صدّها وردّ عليه بواحدة مضادة، تفاداها ليو. كان مقاتلاً جيداً، مدرباً، وماهراً. لكن نستروف كان أضخمَ وأسرعَ بالرغم من حجمه. تلقى ليو ضربة على بطنه جعلته يتكوّر على نفسه. ثم وجّه إليه نستروف ضربة ثانية على الجانب المكشوف من وجهه، وجعله يخرّ على قدميه، وأصابه بجرح في وجنته. تشوّشت رؤية ليو، وتعثر إلى الأمام، ووقع، ثم استدار على ظهره لاهثاً، ووقف نستروف قربه.

- اذهب إلى المنزل.

رداً على ذلك ركله ليو بين فخذيه مباشرة، فتراجع نستروف إلى الخلف، وانحنى متألماً. نهض ليو وهو يترنح على قدميه.

- لم نحلّ...

وقبل أن يُنهي كلامه ركض نستروف إلى الأمام، ورمى بنفسه على ليو، فأوقعه أرضاً، وسقط فوقه. ضربه على بطنه، ووجهه؛ ثم على بطنه ووجهه مجدداً. استلقى ليو هناك، وهو يتلقى ضربة إثر أخرى، غير قادرٍ على تحرير نفسه. تلطّخت مفاصل نستروف بالدماء، ثم التقط أنفاسه وتوقّف. لم يكن ليو يتحرك، وكانت عيناه مغمضتين، وبركة من الدم تتجمع في عينه اليمنى، يغذيها الجرح في جبينه. نهض نستروف على قدميه، وهو يهز رأسه، وتحرك إلى الباب الأمامي ماسحاً الدم عن سرواله. وعندما مدّ يده إلى المقبض

سمع صوتاً خلفه.

استجمع ليو قواه ووقف مرتعشاً من شدّة الألم، ثم رفع يديه غير ثابت على قدميه؛ وكأنه مستعد للقتال. واهتز من جانب إلى آخر؛ وكأنه يقف على قارب في عرض البحر. لم تكن لديه فكرة واضحة عن مكان وقوف نستروف، وقال هامساً:

- لم... نحلَّ... شيئاً.

راقب نستروف ليو وهو يتمايل، ثم مشى نحوه، وهو يشد قبضتيه مستعداً للكمه مجدداً. سدّد إليه ليو ضربة بائسة ضعيفة تجنّبها نستروف، وأمسك بليو من إبطه حين فقد توازنه.

* * *

جلس ليو إلى طاولة المطبخ. كانت إنسا قد سخّنت بعض الماء على النار، وسكبته في وعاء. غمس نستروف قطعة قماش في الماء، ثم رفع وجه ليو لينظفه من الدماء. كانت شفته مشقوقة، وحاجبه ينزف، لكنه لم يعد يشعر بألم في بطنه. ضغط بإصبعه على صدره وأضلاعه، لكنه لم يحس بشيء مكسور. كانت عينه اليمنى متورّمة ولم يستطع فتحها، إلا أن ذلك كان ثمناً بسيطاً نسبياً لإثارة اهتمام نستروف. تساءل ليو إن كانت قضيته ستبدو أكثر إقناعاً في الداخل منه في الخارج. وإذا كان نستروف أكثر انفتاحاً أمام زوجته، وأولادهما النائمين في الغرفة المجاورة.

- كم ولداً لديكما؟

ردت إنسا:

- لدينا صبيان.

- هل يمشيان عبر الغابة في طريقهما إلى المدرسة؟

- كانا يسلكان ذلك الطريق.

- ولم يعودا كذلك؟

- نجعلهما يسيران عبر البلدة. الطريق أطول وهما يتذمران. يجب أن

أمشي معهما للتأكد من عدم دخولهما الغابة. في طريق عودتهما لا يسعنا فعل شيء إلا أن نثق بهما، فكلانا نكون في العمل.

- هل سيمشيان عبر الغابة غداً؟ بعد إلقاء القبض على القاتل الآن؟

نهض نستروف، وسكب شاياً، ثم وضع كوباً أمام ليو.

- هل تود شيئاً أقوى؟

- إذا كان لديك.

أخرج نستروف قارورة من الشراب نصف مملوءة، وسكب ثلاثة أكواب له ولزوجته ولليو.

لسع الشراب الجرح داخل فم ليو، وربما كان ذلك نافعاً له. جلس نستروف، وملأ كوب ليو مجدداً.

- لماذا أنت في فوالسك؟

غمس ليو قطعة القماش في وعاء الماء، ثم غسلها ووضعها على عينه.

- أنا هنا للتحقيق في جرائم قتل هؤلاء الأولاد.

- هذه كذبة.

كان على ليو أن يفوز بثقة ذلك الرجل؛ لأنه لا يستطيع فعل شيء من دون مساعدته.

- أنت محق. لكن، وقعت جريمة في موسكو، ولم يُطلب مني التحقيق فيها وإنما التعتيم على القضية، وقمت بواجبي في ما يتعلق بذلك الأمر. فشلت حين رفضت إدانة زوجتي بتهمة التجسّس، واعتُبرت متخاذلاً، وأُرسلت إلى هنا عقوبةً لي.

- إذاً، أنت ضابط أخفضت رتبته حقاً؟

- نعم.

- إذاً، لماذا تفعل هذا؟

- لأن ثلاثة أولادٍ لقوا حتفهم غيلة.

- أنت لا تظن أن فارلام قد قتل لاريسا لأنك واثق بأنها ليست أولى

ضحايا هذا القاتل. هل أنا محق؟

- لم تكن لاريسا أول ضحية، ولا يمكن أن تكون كذلك. لقد فعل ذلك من قبل، وهناك احتمال بألاّ يكون الفتى في موسكو أول ضحية أيضاً.

- لاريسا أول فتاة تُقتل في هذه البلدة. تلك هي الحقيقة، وأقسم على ذلك.

- القاتل لا يعيش في فوالسك. فقد وقعت الجرائم بجانب محطة القطار. إنه يسافر.

- يسافر؟ يقتل أطفالاً؟ أي نوع من الرجال هو؟

- لا أعرف. لكن، هناك امرأة في موسكو كانت قد رأته، شاهدته مع الضحية. يمكن لشاهدة عيان أن تصف هذا الرجل لنا، لكننا نحتاج إلى سجلات الجرائم من كل بلدة رئيسة من سفردلوفسك إلى لينينغراد.

- ليست هناك سجلات مركزية.

- لهذا يجب أن تزور كل بلدة وتجمع ملفاتهم الجنائية واحدة تلو أخرى. يجب أن تقنعهم، وإذا رفضوا، يجب أن تتحدث إلى الناس الذين يعيشون هناك. اكتشف ذلك منهم.

بدت الفكرة غريبة، وكان يجب على نستروف أن يضحك، أو أن يعتقل ليو، لكنه بدلاً من ذلك سأل:

- لماذا يجب أن أفعل ذلك لك؟

- ليس من أجلي. لقد رأيت ما فعله بالضّحيتّين. افعل ذلك من أجل الناس الذين نعيش معهم، جيراننا، الناس الذين نجلس بجانبهم في القطار؛ افعل ذلك من أجل الأولاد الذين لا نعرفهم ولم نلتقهم قطّ. لا أتمتع بالسلطة لطلب تلك الملفات، ولا أعرف أحداً في المليشيا. أنت لديك السلطة وتعرف أولئك الرجال. إنهم يثقون بك. يمكنك الحصول على تلك الملفات. ستبحث عن حوادث قتل الأولاد: قضايا إما حُلّت أو لم تُحل بعد. سيكون هناك نمط محدد: أفواههم محشوة بلحاء الأشجار، ومعداتهم

مستأصلة. عُثر على جثثهم على الأرجح في أماكن عامة: في غابات، أو قرب أنهار، وربما قرب محطات قطارات. ستكون هناك حبال ملتفة حول كواحلهم.

- ماذا إن لم أجد شيئاً؟

- إذا كانت هناك ثلاث حالات كنت قد اكتشفتها أنا مصادفة، فسيكون هناك المزيد.

- سأُقدم على مجازفة كبيرة.

- نعم ستفعل ذلك، وستضطر إلى الكذب؛ لأنك لا تستطيع أن تخبر أحداً بالسبب الحقيقي. لا يمكنك أن تخبر أياً من ضباطك، أو أن تثق بأحد. ومقابل شجاعتك، ربما ينتهي الأمر بأسرتك في غولاغ، وقد تقضي نحبك. هذا هو عرضي.

مدّ ليو يده عبر الطاولة.

- هل ستساعدني؟

تحرك نستروف إلى النافذة، ووقف بجانب زوجته، التي لم تنظر إليه، وإنما حرّكت الشراب في قاع كوبها. هل سيخاطر بأسرته، ومنزله، وكل ما عمل من أجله؟

- لا.

telegram @ktabpdf مكتبة الرمحي أحمد

نوب؛ شرق منطقة روستوف
غرب بلدة جوكوف

2 نيسان

أفاق بتيا قبل الفجر، وجلس على الدرجات الحجرية الباردة لمنزل مزرعتهم، وانتظر بنفاد صبر شروق الشمس حتى يستطيع أن يطلب من والديه الإذن للمشي إلى البلدة. بعد شهور من الادّخار، أصبح لديه مال كافٍ لشراء طابع بريدي آخر سيلصقه على آخر صفحة في ألبومه. كان والده قد أهداه في ذكرى ميلاده الخامسة أول مجموعة من طوابعه، وبالرغم من أنه لم يطلبها بنفسه إلا أنه تعلّق بتلك الهواية، بحذر في بادئ الأمر، ثم بعناد بعد ذلك حتى أصبحت هوساً. كان قد جمع بمرور السنتين الماضيتين طوابع من أسر أخرى تعمل في الكولخوز - المزرعة الجماعية 12 - التي عُيّن والداه فيها. أقام بتيا صداقات عابرة في جوكوف، وهي أقرب بلدة، على أمل الحصول على طوابع أولئك الأشخاص. عندما ازدادت مجموعته، اشترى ألبوماً ورقياً رخيصاً ألصق عليه الطوابع، وثبّتها في صفوف أنيقة، واحتفظ بألبومه داخل صندوق خشبي قام والده بصنعه له؛ بهدف حماية طوابعه من أي حادث مؤسف. كان مثل ذلك الصندوق ضرورياً؛ لأن بتيا لم يكن ينام في الليل، ويتأكد باستمرار من أن الماء لا يتسرّب من السقف، أو أن الجرذان لا تقضم الصفحات الثمينة. كانت أحب الطوابع في مجموعته إليه هي أول أربعة منها، تلك التي كان والده قد أهداه إياها.

كان والداه يعطيانه بين الحين والآخر كوبك من دون زيادة، فقد كان كبيراً كفاية ليدرك أنهم لا يمتلكون مالاً فائضاً عن حاجتهم. مقابل

telegram @ktabpdf مكتبة الرمحي أحمد

ذلك، تأكد دائماً من قيامه بعمل إضافي في المزرعة. كان الوقت يمر بطيئاً في الادخار، وتنقضي شهور لا يستطيع فيها إلا أن يفكّر في الطوابع التي سيشتريها لاحقاً. حصل في الليلة الماضية على كوبك آخر، في وقت اعتبرته والدته غير حكيم، ليس لأنها تعارض قيامه بشراء الطوابع، ولكن لعلمها أن ذلك يعني أنه لن يخلد إلى النوم في تلك الليلة، وقد كانت محقة.

عندما بدأت الشمس تشرق أسرع بتيا إلى الداخل، لكن والدته أصرّت على أن يتناول وعاءً من دقيق الشوفان قبل أن يذهب إلى أي مكان، فأكله بأقصى سرعته، متجاهلاً مخاوفها من أن يشعر بألم في معدته. أنهى تناول الطعام، وخرج مسرعاً من المنزل، ووصل إلى الدرب الذي يتلوّى عبر الحقول في طريقه نحو البلدة، وتحول إلى المشي السريع. لم تكن الحوانيت قد فتحت أبوابها بعد. لذا، كان يستطيع أيضاً الاستمتاع بترقّب ما هو آتٍ.

كان الكشك الذي يبيع الطوابع والصحف في جوكوف لا يزال مغلقاً. لم تكن في حوزة بتيا ساعة، ولا يعرف متى سيفتح بالضبط، لكنه لم يمانع الانتظار. كان الوجود في البلدة ممتعاً وهو يعرف أن لديه مالاً كافياً لشراء طابع جديد. تجول في الشوارع من دون أن يقصد أي وجهة محددة. وتوقف عند محطة إلكتريكا، فقد كان يعرف أن هناك ساعة داخلها، ورأى أنها تشير إلى السابعة وخمسين دقيقة. كان هناك قطار على وشك أن يغادر المحطة وقرر أن يراقبه، فمشى على الرصيف ثم جلس على مقعد. كان قد سافر على متن إلكتريكا من قبل، وهو قطار بطيء يتوقف في كل محطة على الطريق إلى مدينة روستوف. وبالرغم من أنه لم يصل إلى مكان أبعد من روستوف مع والديه، إلا أنه وبعض زملائه في المدرسة يركبون القطار أحياناً لسبب معين؛ وهو أنهم يعرفون أن بمقدورهم فعل ذلك مجاناً، فالتذاكر نادراً ما يتم التدقيق فيها.

كان مستعداً تقريباً للعودة إلى الكشك وشراء طابعه حين جلس رجل بجانبه. كان يرتدي ملابس أنيقة ويحمل حقيبة سوداء، وضعها على الأرض

بين ساقيه وكأنه يخشى أن يسرقها شخص ما ويفرَّ بها. نظر بتيا إليه، ورأى أنه يضع نظارة دائرية الشكل سميكة، وكان شعره أسودَ ومصففاً بعناية. لم يعرف بتيا عمر الرجل الذي لم يكن عجوزاً جداً، وبدا غير مهتم بوجوده. كان بتيا على وشك أن يقف ويغادر المكان حين استدار الرجل فجأة، وابتسم:

- إلى أين تسافر اليوم؟

- لست ذاهباً إلى أي مكان يا سيدي. أعني ليس على متن القطار. أنا أجلس هنا فحسب.

كان بتيا قد تعلّم أن يكون مؤدباً، وأن يُظهر الاحترام نحو الأكبر سناً.

- غريب أن تجلس في هذا المكان من دون سبب.

- أنتظر شراء بعض الطوابع، لكن الكشك لم يُفتح بعد. ربما يكون قد فُتح الآن، يجب أن أذهب وأتحقق من ذلك.

أدار الرجل عند سماعه ذلك جسده كله نحو بتيا:

- أنت تجمع الطوابع؟

- نعم يا سيدي.

- كنت جامع طوابعٍ حين كنت في مثل عمرك.

جلس بتيا مسترخياً، وأسند ظهره إلى المقعد. لم يكن يعرف أحداً آخر يجمع الطوابع.

- هل تجمع طوابع جديدة أم مستعملة؟ أنا أجمع كلا النوعين.

- كانت كل طوابعي جديدة، اشتريتها من كشك، مثلك تماماً.

- أتمنى لو كانت كل طوابعي جديدة، لكن معظمها مستعمل، وقد انتزعتها عن مغلّفات قديمة.

مدّ بتيا يده إلى جيبه، وأخرج مجموعته من الكوبك النحاسية وأراها للرجل.

- تطلّب مني ادخارها ثلاثة شهور.

ألقى الرجل نظرة على المبلغ الصغير من النقود، وقال:

- وقت طويل من أجل مبلغ قليل.

نظر بتيا إلى نقوده. كان الرجل محقاً، فهو لا يمتلك الكثير. أدرك أنه لم يحظَ بمبلغ كبير قط، وهدأت حماسته. لم يكن قد حظي قط بمجموعة رائعة، وسيكون لدى أشخاص آخرين أكثر منه دائماً. لم يكن مهماً كم يعمل جاهداً؛ لأنه لن يستطيع اللحاق بالآخرين أبداً. همدت حيويته، وأراد أن يغادر. وكان على وشك أن يقف حين سأله الرجلُ:

- هل أنت فتى مرتّب؟

- نعم يا سيدي.

- هل تعتني بطوابعك؟

- أعتني بها جيداً. أضعها في ألبوم، وقد صنع لي والدي صندوقاً خشبياً لأحافظ على سلامة الألبوم. يتسرب الماء من سقفنا أحياناً، وهناك جرذان أحياناً أيضاً.

- لديك إحساس بالمسؤولية يجعلك تضع ألبومك في مكان آمن. أنا فعلت شيئاً مماثلاً حين كنت في مثل عمرك، واحتفظت بمجموعتي في درج.

بدا أن الرجل يفكّر في شيءٍ ما.

- اسمع، لديّ ابنتان، لكنهما غير مهتمتين بالطوابع. إنهما فتاتان مهملتان. بالنسبة إليّ، لم يعد لدي وقت للطوابع، فأنا مشغول بعملي. هل تفهم هذا؟ أنا واثق أن والديك مشغولان أيضاً.

- طوال الوقت يا سيدي، وهما يعملان بجدٍّ.

- ليس لديهما وقت لجمع الطوابع، أليس كذلك؟

- لا يا سيدي.

- أنا في الموقف نفسه مثلهما. إليك فكرتي. أود أن تذهب مجموعتي إلى شخص يقدّرها، ويعتني بها؛ شخص مثلك تماماً.

فكّر بتيا في احتمال وجود دفتر كامل مملوء بطوابع جديدة، يعود

تاريخها إلى الوقت الذي بدأ فيه ذلك الرجل بجمعها. ستكون المجموعة التي حلم بها دائماً. لم يقل شيئاً. كان غير قادرٍ على تصديق حظه.

- هل يثير ذلك اهتمامك؟

- نعم يا سيدي. يمكنني وضعها في صندوقي الخشبي، وستكون بأمان.

لم يبدُ الرجل واثقاً تماماً، وهزّ رأسه.

- لكن دفتري مملوء بالطوابع، وقد يكون أكبر من صندوقك الصغير بكثير.

- عندها سيصنع لي والدي صندوقاً آخر، وهو بارع في ذلك ولن يمانع إطلاقاً. إنه يحب صنع أشياء، وهو ماهر أيضاً.

- وأنت واثق بأنك ستعتني بالطوابع؟

- نعم يا سيدي.

- عدني.

- أعدك يا سيدي.

ابتسم الرجل.

- لقد أقنعتنِي، يمكنك الحصول عليه. أعيش على بعد ثلاث محطات من هنا فقط. تعالَ معي، وسأشتري لك تذكرة.

كان بتيا على وشك أن يقول إن التذكرة غير ضرورية لكنه ابتلع كلماته. لم يكن يرغب في أن يعترف بخرقه القوانين. فيجب أن يبقى انطباع الرجل جيداً بشأنه إلى أن يحصل على الطوابع.

* * *

جالساً على أحد مقاعد إلكتريكا الخشبية، ومحدّقاً إلى الغابة، حرّك بتيا قدميه إلى الأمام والخلف، ونعلاه يكادان يمسّان الأرض. كان يفكّر ويتساءل إن كان يجب أن ينفق الكوبك الذي يحمله لشراء طابع جديد. بدا ذلك غير ضروري عند الأخذ في الحسبان كل الطوابع التي كان على

telegram @ktabpdf

مكتبة الرمحي أحمد

وشك الحصول عليها، فقرّر أن يعيد النقود إلى والديه. سيصبح الأمر لطيفاً إذا استطاعا مشاركته في حظّه الجيد. قاطع الرجل أفكاره بالنقر بلطف على كتفه.

- لقد وصلنا.

كان إلكتريكا قد توقف في محطة في وسط الغابة، قبل مسافة طويلة من بلدة شاختي. ارتبك بتيا، فقد كانت تلك محطة راحة للناس الذين يريدون الابتعاد عن البلدات، وفيها دروب عبر الأدغال، وطأتها أقدام المشاة، لكن ذلك لم يكن وقتاً مناسباً للمشي. كانت الثلوج قد ذابت حديثاً فقط، والغابة مقفرة وموحشة. استدار بتيا إلى مرافقه ونظر إلى حذائه الأنيق وحقيبته السوداء.

- هل تعيش هنا؟

هزّ الرجل رأسه.

- داشا (كوخ ريفي) الخاص بي هنا. لا يمكنني الاحتفاظ بطوابعي في المنزل. أقلق كثيراً من أن تعثر ابنتاي عليها وتمسّاها بأصابعهما المتسخة. لكنني سأضطر إلى بيع هذا الداشا، كما تعرف، لهذا لن يكون لدي مكان أحتفظ فيه بهذه المجموعة بعد الآن.

غادر القطار، وتبعه بتيا، الذي نزل إلى الرصيف. لم يكن أحد غيرهما قد ترجل من القطار.

مشى الرجل إلى الغابة، وبتيا خلفه تماماً. كان امتلاك داشا يبدو منطقياً نوعاً ما. لم يكن بتيا يعرف أحداً ثرياً كفاية حتّى يمتلك منزلاً صيفيًّا، لكنه يعرف أنه يُبنى غالباً في الغابة أو بجانب البحيرات أو على شاطئ البحر. تابع الرجل كلامه في أثناء سيرهما:

- سيكون الأمر لطيفاً بالطبع لو أن ابنتيّ تهتمان بالطوابع، لكنهما لا تكترثان بها.

فكّر بتيا في إبلاغ ذلك الرجل أن ابنتيه ربما تحتاجان إلى المزيد من

الوقت. تطلّب منه الأمر وقتاً ليصبح جامع طوابع حريصاً، لكنه كان حكيماً كفاية ليفهم أن مصلحته تكمن في عدم اهتمام ابنتي الرجل بالطوابع، ولهذا لم يقل شيئاً.

خرج الرجل عن الدرب، ومشى عبر الأدغال بسرعة، مما جعل بتيا يكافح للحاق به. سار الرجل بخطوات واسعة، جعلت بتيا يركض تقريباً.

- سيدي، ما اسمك؟ أود أن أخبر والديّ باسم الرجل الذي منحني الطوابع تحسباً من عدم تصديقهما إياي.

- لا تقلق بشأن والديك. سأكتب إليهما رسالة تشرح بالضبط كيف امتلكت الألبوم. وسأزوّدهما أيضاً بعنواني تحسباً؛ فربما رغبا في التأكد من الأمر.

- شكراً جزيلاً لك يا سيدي.

- ادعني أندريه.

توقف الرجل عن المشي بعد مضي بعض الوقت، وانحنى إلى الأسفل، ثم فتح حقيبته. توقف بتيا أيضاً، وهو ينظر حوله بحثاً عن أثر لذلك الداشا، لكنه لم يرَ واحداً، وظن أن عليهما ربما متابعة السير قليلاً. التقط أنفاسه، وحدّق نحو الأعلى إلى الأغصان العارية للأشجار الطويلة التي تتشابك تحت السماء الرمادية.

* * *

حدّق أندريه إلى جسد الفتى، ورأى الدم يسيل من رأسه، على جانب وجهه. جثا أندريه، وضع إصبعاً على عنق الفتى، وتحسّس وجود نبض، واكتشف أنه حي. كان ذلك جيداً. قَلَب الفتى على ظهره وبدأ يجرّده من ملابسه وكأنه دمية. ثم نزع معطف الفتى، وقميصه، ثم نعليه وجوربه. أخيراً خلع عنه سرواله وملابسه الداخلية. جمع الثياب في كومة، ثم حملها، وحمل حقيبته، ومشى مبتعداً عن الطفل، لكنه توقف بعد نحو عشرين خطوة بجانب شجرة ساقطة، وألقى الثياب التي كوّنت كومة صغيرة من أسمالٍ

زهيدة الثمن على الأرض. وضع حقيبته على الأرض، وفتحها، وأخرج قطعة طويلة من حبلٍ خشن. عاد إلى الفتى، وربط الحبل حول كاحله، وصنع عقدة محكمة، اختبرها بشده ساق الفتى، ووجد أنها قوية. تراجع إلى الوراء، وهو يمرّر الحبل بحرص وكأنه يمدد فتيلاً إلى كومة ديناميت. وصل إلى الشجرة الساقطة، واختبأ خلفها، وانبطح على الأرض.

كان قد اختار بقعة جيدة. فموقع الشجرة يعني أن الفتى لن يراه حين يستيقظ. لحق بصره الحبل من يده فوق الأرض إلى كاحل الفتى. كان باقي الحبل طويلاً في يده، وقسمٌ منه لا يزال رخواً، يمكن أن يمتد خمس عشرة خطوة أخرى على الأقل. جلس أندريه مستعداً، ولفرط إثارته أراد أن يتبول. لكن بسبب خشيته من تفويت لحظة استيقاظ الفتى، انقلب إلى جانبه، وفك أزرار سرواله وتبوّل وهو لا يزال مستلقياً على الأرض. وعندما انتهى من ذلك، ابتعد عن التربة الرطبة، وغيّر موقعه قليلاً. كان الفتى لا يزال فاقداً الوعي، وقد حان وقت الإعدادات الأخيرة. خلع أندريه نظارته، ووضعها في العلبة المخصصة لها، وأودعها جيب سترته. وحين نظر إلى الفتى بدا له غير واضح. ركّز أندريه بصره بقوة، لكن كل ما استطاع رؤيته هو كتلة، شكل غير واضح من جلد زهري يتميز عن الأرض. مدّ أندريه يده، وانتزع غصيناً من شجرة قريبة، وبدأ يلوك اللحاء، وأصبحت أسنانه ملوثة وبنية اللون.

* * *

فتح بتيا عينيه، وركّز نظره على السماء الرمادية وأغصان الأشجار العارية. كان رأسه دبقاً بسبب الدم، فمسّه ونظر إلى أصابعه، ثم بدأ يبكي. شعر بالبرد ووجد نفسه عارياً. ما الذي حدث؟ لم يجرؤ على الجلوس خوفاً من رؤية ذلك الرجل بجانبه، وشعر بالارتباك. كان واثقاً بأن الرجل قريب منه. كل ما استطاع رؤيته آنذاك هو السماء، لكنه لم يستطع البقاء هناك عارياً على الأرض. أراد أن يكون في المنزل مع والديه، فقد كان يحبهما كثيراً، وواثقاً بأنهما يحبانه. كانت شفتاه ترتعشان وكذلك جسده، فجلس، ونظر

telegram @ktabpdf

مكتبة الرمحي أحمد

يميناً ويساراً، وهو يكاد لا يجرؤ على التنفس. لم يستطع رؤية الرجل آنذاك، فنظر خلفه، وإلى الجانب، إلا أن الرجل كان قد اختفى. رفع بتيا نفسه إلى وضعية الجثو، وحدّق إلى الغابة، واكتشف أنه وحيد، وبمفرده. تنفّس بعمق مرتاحاً، بالرغم من أنه لم يفهم ذلك، لكنه لم يرغب في أن يفهم.

نظر حوله بحثاً عن ثيابه التي اختفت، لكن ذلك لم يكن مهماً. قفز وبدأ يجري، ويركض بأقصى سرعته، وقدماه تطآن أغصاناً متساقطة، والتربة الرطبة نتيجة هطول المطر وذوبان الثلج. كان صوت طقطقة يُسمع حين تدوس قدماه العاريتان على الأغصان. لم يكن واثقاً بأنه يجري في الاتجاه الصحيح، وكل ما يعرفه هو أن عليه الابتعاد عن ذلك المكان.

سُحبت قدمه اليمنى إلى الخلف فجأة؛ وكأن يداً قد أمسكت كاحله. لم يستطع الحفاظ على توازنه فوقع إلى الأمام، وسقط على الأرض. قلب نفسه على ظهره من دون أن يلتقط أنفاسه، ونظر خلفه، لكنه لم يستطع رؤية أحد. قال في قرارة نفسه إنه قد تعثر دون شك، وأوشك أن يقف مجدداً حين شاهد الحبل المربوط حول كاحله الأيمن، فتبعت عيناه أثره إلى الغابة حيث استطاع رؤيته ممتداً على الأرض مثل خيط صيد أسماك، حتى وصل إلى شجرة ساقطة على بعد نحو أربعين خطوة منه.

أمسك الحبل محاولاً سحبه من فوق كاحله إلى خارج قدمه، لكنه كان مربوطاً بإحكام حول كاحله. شُدَّ الحبل مجدداً، بقوة أكبر هذه المرة، فجُرَّ على الأرض، وغطّى الطين ظهره، قبل أن يتوقف مجدداً. نظر إلى الأعلى ورآه هناك، ذلك الرجل، واقفاً خلف الشجرة، وهو يسحبه إليه. أمسك بتيا بالأغصان، ثم قبض على التراب، لكن ذلك لم يجدِ نفعاً؛ كان يُسحب أكثر فأكثر. ركّز على العقدة، لم يستطع فكّها أو قطع الحبل، ولم يكن لديه خيار إلا أن يشدّها بقوة ويكشط الجلد حول كاحله. شُدَّ الحبل مجدداً، وانغرس هذه المرة في لحمه. صكّ أسنانه رافضاً أن يصرخ. وأمسك حفنة من طين لزج، وفرك بها الحبل. وعندما شدَّ الرجل الحبل مجدداً، حرّر بتيا نفسه من

الأنشوطة، ثم وثب على قدميه وهرب.

أصبح الحبل رخواً بين يدي أندريه، ولم يعد هناك شيء في طرفه. جذبه مجدداً، وشعر بأن وجهه يتورد غضباً. ركّز بصره لكن المسافة كانت بعيدة جداً، ولم يستطع رؤية شيء، فقد اعتمد على الحبل دائماً. هل يجب أن يضع النظارة؟ لا، لم يكن لديه ذلك الخيار من قبل حين كان فتيًّا.

كان قد بقي عالقاً على تلك الحال؛ أعمى تقريباً، ووحيداً، ومتعثّراً في الغابة.

إنه يتر كك خلفه.

وثب أندريه على قدميه، وتخطّى الشجرة الساقطة، وتبع الحبل وأنفه قريب من الأرض.

جرى بتيا كما لم يجرِ من قبل. سيصل إلى المحطة، وسيكون القطار هناك، وسيصعد على متنه، وسيتحرك مبتعداً قبل أن يصل الرجل؛ سينجو.

يمكنني فعل ذلك.

استدار حول نفسه، فرأى الرجل خلفه، لكن رأسه قريب من الأرض؛ وكأنه يبحث عن شيء أضاعه. الأفضل من ذلك أنه كان ذاهباً في الاتجاه الخاطئ، والمسافة بينهما تزداد. كان بتيا سينجح في ذلك، وسيولّي الأدبار.

وصل أندريه إلى نهاية الحبل، وجد الأنشوطة، وبدأ قلبه يخفق بقوة. وقف وحدّق إلى كل الاتجاهات، وهو ينظر شزراً. شعر بأنه على وشك البكاء، لكنه لم يستطع رؤيته. لقد اختفى الفتى. كان أندريه وحيداً بمفرده. ثم هناك، إلى اليمين، رأى حركة؛ رأى لوناً فاتحاً؛ لون جلد الفتى.

نظر بتيا خلفه متمنياً أن تكون المسافة بينهما قد اتسعت أكثر، لكنه رأى تلك المرة الرجل يجري بسرعة كبيرة ويتجه نحوه. كان يركض بخطوات واسعة، وسترته تخفق على جانبيه، ويبتسم بوحشية. استطاع بتيا أن يرى أن أسنانه بنية تماماً لسبب ما، فتوقف مدركاً أن لا مفر له. شعر بتيا بالضعف، وأن الدم قد هجر قدميه، فرفع ذراعيه إلى رأسه؛ وكأن ذلك قد يحميه،

وأغمض عينيه، وتخيل نفسه بين ذراعي والديه مجدداً.

اصطدم أندريه بالفتى بسرعة جعلت كليهما يسقطان أرضاً. كان أندريه فوق الفتى الذي تلوّى تحته، وهو يخدشه ويعض سترته. أبقى أندريه نفسه مستلقياً فوق الفتى لمنعه من الهروب، وتمتم:

- لا يزال حياً!

سحب سكين الصيد الطويلة المتصلة بحزامه، وأغمض عينيه، وطعن بالسكين الجسد تحته طعناتٍ حذرة في البداية، باستخدام رأس النصل فقط؛ طعنات صغيرة، وهو يستمع إلى صرخاته. انتظر، مستمتعاً بتلك اللحظة، وهو يشعر باهتزازات النزاع في بطنه. يا له من شعور! متحمساً، دفع النصل أعمق فأعمق في بطن الفتى، إلى أن انغرست السكين أخيراً حتى المقبض. ولم يعد الفتى يتحرك آنذاك.

telegram @ktabpdf مكتبة الرمحي أحمد

جنوب شرق منطقة روستوف
بحر آزوف

4 تموز

جلس نستروف وأصابع قدميه مطمورة في الرمل. كانت تلك البقعة من الشاطئ تمتلئ عادة بأشخاص يعيشون في مدينة روستوف - أون - دون القريبة، التي تبعد نحو أربعين كيلومتراً إلى الشمال الشرقي. ولم يكن ذلك اليوم استثناءً، فالشاطئ مزدحم. بدا أن سكان البلدة قد خرجوا من سباتهم، وأجسادهم تفتقر إلى اللون نتيجة الشتاء الطويل. هل يستطيع تخمين العمل الذي يقوم به الناس من أشكال أجسادهم؟ كان الرجال الأكثر بدانة مهمين بطريقة ما، ربما كانوا مديري مصانع، أو مسؤولين في الحزب، أو ضباطاً رفيعي المستوى في أمن الدولة؛ ليسوا من النوع الذي يقرع الأبواب وإنما الذي يوقّع الأوامر. حرص نستروف على عدم النظر إلى عيونهم، وركّز على أفراد أسرته. كان ابناه يلعبان في الماء الضحل، وزوجته تستلقي قربه على جانبها وعيناها مغمضتان، ويداها تحت رأسها. بدوا قانعين؛ أسرة سوفييتية مثالية. كان لديهم كل الأسباب للاسترخاء. فهم يمضون إجازة، وقد سُمح لهم باستخدام سيارة مليشيا رسمية مع قسيمة وقود حكومية كمكافأة على الإدارة الناجحة والحكيمة والفاعلة في تحقيقين جنائيين منفصلين. كان قد طُلب منه الاسترخاء قليلاً، وقيل له إنّ تلك أوامر. كرّر الكلمات في رأسه وهو يفكر ساخراً منها.

كانت محاكمة فارلام بابينيتش قد استمرت يومين، وقدّم محامي الدفاع الموكل به حجةَ الجنون. ووفقاً لأصول المحاكمات، كان الدفاع

ملزماً بالاعتماد على شهادات الخبراء أنفسهم الذين يقدّمهم الادّعاء، ولا يستطيع استدعاء شهودٍ مستقلين من طرفه. لم يكن نستروف محامياً أو بحاجة إلى أن يكون كذلك ليفهم الأفضلية الكبيرة التي يقدمها هذا الإجراء إلى جهة الادّعاء. في حالة بابينيتش، كان على الدفاع أن يثبت الجنون من دون أن يستطيع استدعاء شاهدٍ واحدٍ لم تستدعه جهة الادّعاء أولاً. ونظراً إلى عدم وجود أطباء في علم النفس يعملون في المستشفى 379، فقد انتقى الادّعاء طبيباً غير مختص واستدعاه للإدلاء برأيه. قال ذلك الطبيب إنه يظن أن فارلام بابينيتش يفهم الفرق بين الصواب والخطأ ويعرف أن الجريمة خطأ، وأنه بالرغم من أن ذكاء المتهم محدود بالتأكيد إلا أنه يكفي لاستيعاب مفاهيم مثل الجريمة؛ لأنه قال عند اعتقاله:

أنا في ورطة كبيرة.

عندها، لم يعد لدى الدفاع أي خيار إلا استدعاء الطبيب نفسه، ومحاولة نقاش وجهة نظر مخالفة. وُجد فالارم بابينيتش مذنباً، وتلقى نستروف رسالة مطبوعة تؤكد أن الفتى البالغ من العمر سبع عشرة سنة قد توفي وهو جاثٍ على ركبتيه، بعد أن تلقى رصاصة في قفا رأسه.

كانت قضية د. تيابكين قد استغرقت وقتاً أقل، يوماً تقريباً. شهدت زوجته بأنه عنيف، ووصفت أوهام مرضه، وادّعت أن السبب الوحيد الذي منعها من الإبلاغ عنه من قبل هو خوفها على حياتها وحياة ابنها. كانت قد أخبرت القاضي أيضاً أنها لم تعد يهودية. كانت ستربي أولادها ليكونوا شيوعيين مخلصين، وفي مقابل شهادتها ستُنقل إلى شاختي، بلدة في أوكرانيا، حيث يمكنها متابعة حياتها من دون الوصمة التي لحقت بها بسبب جريمة زوجها. ونظراً إلى أن أحداً خارج فوالسك لم يسمع بالجريمة، فلم تكن هناك حتى أي حاجة إلى تغيير اسمها.

بعد إغلاق هاتين القضيتين، كانت المحكمة قد نظرت في نحو مئتي قضية ضد رجال متهمين بانتهاج سلوك معادٍ للسوفييتية، وحُكم على هؤلاء

telegram @ktabpdf مكتبة الرمحي أحمد

الشواذّ بالأشغال الشاقة بين خمس سنوات وعشرين سنة. ومن أجل التعامل مع العدد الكبير من القضايا بسرعة، كان القاضي قد استنبط قاعدة لإصدار الأحكام تستند إلى سجلات أعمالهم، وعدد أولاد كل منهم، وأخيراً عدد اللقاءات المنحرفة التي اتُّهموا بإجرائها. واعتُبرت العضوية في الحزب نقطة ضد المتهمين لأنهم لطخوا سمعته التي كان يجب أن يحافظوا عليها، وجُرّدوا منها. وبالرغم من الطبيعة الحافلة بالتكرار لتلك الجلسات، إلا أن نستروف حضرها كلها؛ فلقد حضر مئة وخمسين جلسة أو نحو ذلك. بعد إصدار الحكم على آخر رجل، غادر قاعة المحكمة ليجد نفسه يتلقى التهاني من مسؤولي الحزب المحليين. كان قد أبلى حسناً، وأصبح من المؤكد تقريباً حصوله على شقة جديدة في الشهرين القادمين، أو بحلول نهاية السنة إذا لم يحصل ذلك الآن.

كانت زوجته قد أخبرته بعد عدّة ليالٍ من انتهاء المحاكمات، وهو يستلقي مستيقظاً، أنها كانت مسألة وقت فقط قبل أن توافق على مساعدته، وأنها قد تمنّت أن يمضي قدماً ويفعل ذلك. هل كان ينتظر إذنها؟ ربما. لم يكن يجازف بحياته فقط وإنما بحياة أفراد أسرته أيضاً. وبالرغم من أنه لم يقترف شيئاً خطأً من الناحية التقنية بطرح أسئلة والقيام بتحرّيات، إلا أنه كان يتصرف من تلقاء نفسه. كان التصرف المستقل ينطوي دائماً على مجازفة؛ لأنه يدل على أن الأنظمة التي وضعتها الدولة قد فشلت: إذ يستطيع الفرد بطريقة ما تحقيق شيء تعجز عنه الدولة. ومع ذلك، كان واثقاً أن بمقدوره البدء بنوع هادئ من التحقيق، تحقيق غير رسمي لن يبدو أكثر من أحاديث بين زملاءَ. إذا اكتشف أنه ليس هناك من قضايا مماثلة – أولاد قتلى آخرون – فعندها سيضمن أن العقوبات القاسية التي ساعد على إقرارها كانت محقّة وعادلة ومناسبة. وبالرغم من عدم ثقته بليو وامتعاضه من الشك الذي أثاره، إلا أن الرجل قد طرح سؤالاً بسيطاً جداً: هل كان لعمله معنى أم أنه مجرد وسيلة للعيش؟ لم يكن هناك شيء معيب في محاولة العيش؛ وهو الشغل

الشاغل للأغلبية. على أيّ حال، هل كان العيش في البؤس كافياً، وألاّ يُكافأ المرء حتى بأن يشعر بالفخر، وألاّ ينتابه إحساس بأن ما فعله قد خدم هدفاً ما؟

كان نستروف قد عمل في الأسابيع العشرة الماضية وحده من دون أي نقاش أو تعاون مع ليو. ونظراً إلى خضوع ليو بكل تأكيد لرقابة صارمة، فقد كان الوضع أفضل عندما كان التواصل بينهما أقل. كل ما فعله هو أنه كتب ملاحظة قصيرة لليو - سأساعد - تتضمن تعليمات بإتلاف الملاحظة فوراً.

لم تكن هناك طريقة سهلة للحصول على ملفات جنائية إقليمية، وقد أجرى اتصالات هاتفية، وبعث رسائل مكتوبة، وذكر في كلا شكلي الاتصال الموضوع على نحو عابر، ومدَح كفاءة قسمه لتوصله بسرعة إلى حلّ القضيتين في محاولة منه لإثارة تباهٍ مماثل من قِبل الطرف الآخر. عندما بدأت الردود تصل، وجد نفسه مضطراً إلى القيام بعدّة رحلات على متن القطار خارج أوقات دوامه، والذهاب إلى بلدات مختلفة للقاء زملائه، واحتساء الشراب معهم، ومناقشة قضايا مماثلة مدة لا تزيد على جزءٍ من الدقيقة قبل أن يتباهى بأشياء أخرى. كانت تلك وسيلة غير فاعلة على نحو استثنائي للحصول على معلومات، وربما لا ينجم عن ثلاث ساعات من احتساء الشراب أكثر من دقيقتين من الحديث المفيد. لم يكن نستروف قد اكتشف بعد ثمانية أسابيع جريمة واحدة لم تُحلَّ، وعند ذلك استدعى ليو إلى مكتبه.

كان ليو قد دخل المكتب، وأغلق الباب وجلس، وتأكّد نستروف مرتين من الأروقة قبل أن يعود، ويوصد باب المكتب، ويمد يده تحت طاولته. كان قد أخرج خريطة للاتحاد السوفييتي، نشرها على طاولته، وثبّت الزوايا بواسطة كتب، ثم أمسك حفنة من الدبابيس، ثبّت اثنين منها في موقع فوالسك على الخريطة، واثنين على مولوتوف، واثنين على فياتكا، واثنين على غوركي، واثنين على كازان. شكّلت تلك الدبابيس صفاً من البلدات

التي تقع على مسار خط القطار غرباً باتجاه موسكو. لم يذهب نستروف إلى موسكو، وتفادى متعمداً ضباطَ المليشيا فيها الذين خشي أن تثير شكوكُهم أيَّ استفسارات. إلى الغرب من موسكو، لم يحالف نستروف النجاح في جمع المعلومات، لكنه وجد حادثة واحدة محتملة في تفير. ثم انتقل جنوباً، فثبّت ثلاثة دبابيس على موقع مدينة تولا، واثنين على بلدة أورل، واثنين على بلغورود. عندما انتقل بعد ذلك إلى أوكرانيا، حمل علبة الدبابيس، وهزّها فوق كفه لتخرج منها عشرون قطعة على الأقل. تابع وضع الدبابيس، فوضع ثلاثة على بلدتي خاركوف وغورلوفسكا، وأربعة على مدينة زابوروشي، وثلاثة على بلدة كراماتورسك، وواحداً على كييف. انتقل إلى خارج أوكرانيا، ووضع خمسة دبابيس على تاغانروغ، وأخيراً ستة دبابيس على مدينة روستوف وحولها.

فهم نستروف ردّ فعل ليو الذي كان صامتاً ومذهولاً. بطرائق عديدة، كان قد جمع تلك المعلومات وقارنها في ذهنه. في البداية، حاول إبعاد أوجه الشبه: المادة النباتية المحشوة في أفواه الأولاد، سواء أَدَعَاها الضباط تراباً أم رملاً، الجذوع المشوّهة؛ لكن أوجه التشابه بدت صارخة. وكذلك هناك الحبل الذي كان يربط حول الكاحل، والأجساد العارية دائماً، والثياب الموضوعة في كومة بعيدة قليلاً، ومسارح الجرائم في غابات أو متنزهات، وغالباً قرب محطات القطارات، ولم تحدث الجرائم في المنازل أو داخل أماكن مغلقة قط. لم تتحدث بلدة واحدة إلى أخرى بالرغم من أن بعض الجرائم قد وقعت على بعد مسافة تفصلها عن بعضها أقل من خمسين كيلومتراً، ولم يجرِ اقتفاء دليل يربط بينها، أو ما يشير إلى ارتباط تلك الدبابيس ببعضها. حُلّت الجرائم بإلقاء اللوم على سكارى أو لصوص أو مغتصبين مدانين سابقاً؛ أشخاص غير مرغوب فيهم ويمكن لصق أي تهمة بهم.

وفقاً لما رآه ليو، كانت هناك ثلاث وأربعون حالة إجمالاً. مدّ نستروف

telegram @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

يده، وأخرج دبوساً آخر من العلبة وثبّته في وسط موسكو، مما جعل أركادي الفتى الرابع والأربعين.

* * *

استيقظ نستروف ووجد أن جانب وجهه يضغط على الرمل، وفمه مفتوح. جلس، وأبعد الرمل عنه. كانت الشمس قد اختفت خلف طبقة من الغيوم. نظر بحثاً عن ولديه، وجال ببصره على امتداد الشاطئ فشاهد أشخاصاً يلعبون. كان ابنه البكر إيفيم، وعمره سبع سنوات، يجلس قرب حافة الماء، لكنه لم يستطع رؤية ابنه الأصغر الذي يبلغ من العمر خمس سنوات فقط في أي مكان. استدار نستروف إلى زوجته التي كانت تقطّع شرائح لحم مقدد لتحضير وجبة الغداء، وسألها:

- أين فاديم؟

جالت إنسا ببصرها، وعثرت عيناها فوراً على ابنهما البكر، ولكنها لم تعثر على الأصغر. وقفت وهي لا تزال تحمل السكين، ثم استدارت ونظرت إلى الخلف، لكنها لم تستطع رؤيته، فألقت السكين. وتحرك كلاهما إلى الأمام، وصلا إلى إيفيم، وجثما بجانبه، كل منهما على طرف.

- أين شقيقك؟
- قال إنه سيعود إليكما.
- متى؟
- لا أعرف.
- فكّر.
- لم يمضِ وقت طويل. لست واثقاً.
- قلنا لكما أن تبقيا معاً.
- قال إنه سيعود إليكما!
- ألم يذهب إلى الماء؟
- ذهب في ذلك الاتجاه، نحوكما.

وقف نستروف مجدداً، وحدّق إلى الماء. لم يكن فاديم قد خاض في البحر، أو أبدى رغبته في السباحة. كان على الشاطئ، في مكان ما بين مئات الأشخاص هؤلاء. ظهرت صور من ملفات القضايا في ذهنه. كانت إحدى الفتيات اليافعات قد قُتلت قبالة موقع شعبي على ضفة نهر، في حين لقيت فتاة يافعة أخرى حتفها في متنزه، خلف صرحٍ، على بعد مئة ياردة عن منزلها. ربض بجانب ابنه:

- عُد إلى البطانيات، وابق هناك أياً يكن الشخص الذي يتحدث إليك، أو ما يقوله لك، حتى إذا كان من الكبار في السن وطلب منك احترامه، ابق في المكان نفسه.

تذكر أن عدداً كبيراً من الأولاد قد غُرّر بهم للذهاب إلى الغابة، فبدّل رأيه وأمسك يد ابنه.

- تعال معي. سنبحث كلانا عن شقيقك.

سارت زوجته على الشاطئ، في الاتجاه المعاكس، في حين اتخذ نستروف سبيلاً متعرجاً بين الناس، مشى بنشاط وسرعة كبيرة بالنسبة إلى إيفيم، ولهذا رفع ابنه عن الأرض وحمله. وصل إلى نهاية الشاطئ، الذي تحول تدريجياً إلى منطقة أعشاب وعيدان قصب طويلة، لكنه لم يرَ فاديم في أي مكان.

لم يكن إيفيم يعرف الكثير عن عمل والده، لكنه يعرف بشأن الفَتَيَين القتيلين في بلدته؛ لأن والديه أخبراه عنهما، بالرغم من أنهما جعلاه يقسم ألاّ يذكر الجريمتين لأحد. لم يكن يفترض أن يقلق أحد بشأنهما، خاصة بعد أن حُلّتا. عرف إيفيم أن شقيقه الأصغر في خطر، فقد كان صبياً مهذاراً وودوداً، ويجد صعوبة في أن يكون فظاً مع أي شخص. شعر إيفيم أنه كان عليه أن يراقبه على نحو أفضل وأدرك أن اللوم يقع عليه فبدأ يبكي.

في الطرف الآخر من الشاطئ، نادت إنسا ابنها. كانت قد قرأت الوثائق التي تخص تحقيق زوجها، وتعرف بالضبط ما قد حدث لأولئك الأولاد

telegram @ktabpdf

مكتبة الرمحي أحمد

المفقودين. ذُعرت وألقت اللوم كله على نفسها. كانت قد طلبت من زوجها مساعدة ليو، وشجّعته، ونصحته باتخاذ إجراءات الحيطة والحذر لإبقاء التحقيق سراً، خاصة وأنه بطبيعته فظ وعمله يتطلب حرصاً شديداً. كانت قد قرأت رسائله قبل بعثها عبر البريد، واقترحت إدخال عبارات معينة تحسباً لاعتراضها. عندما عرض عليها الخريطة التي تحمل الدبابيس، مسّت كل منها على حدة. لم يكن العدد عادياً، وقد نامت تلك الليلة في السرير نفسه مع ابنيها. كان ربط عطلتهما بالتحقيق فكرتَها، ونظراً إلى وقوع العدد الأكبر من الجرائم في جنوبي البلاد، أصبحت الطريقة الوحيدة التي يستطيع نستروف القيام بها بتحقيق مكثّف من دون أن يلحظه أحد هي الاستفادة من عطلته الأسرية كغطاء لعمله. فهمت تماماً الآن فقط أنها قد عرّضت أسرتها للخطر، وأنها قد أخذتهم إلى قلب منطقة ذلك الشرير الغامض. لقد قلّلت من قوة ذلك الشخص الذي يبحثون عنه، ولم يكن أي ولدٍ بأمان. كانوا يؤخذون على ما يبدو بمحض إرادتهم، ويُقتلون على بعد أمتارٍ فقط من منازلهم، وقد أُخذ ابنها الأصغر منها الآن.

امتلأت عيناها دموعاً، وبدأت تلهث، وتصرخ منادية ابنها، وهي تمرّ بين المستجمّين. نظر إليها الناس بعيون صامتة غير مبالية. فتوسّلت إليهم أن يساعدوها.

- عمره خمس سنوات فقط، وقد أُخذ منّا. يجب أن نعثر عليه.

حاولت امرأة ملامحها قاسية أن تهدِّئ من روعها.

- سيكون هنا في مكان ما.

- أنت لا تفهمين: إنه في خطر داهم.

- مِمَّ؟

دفعت المرأةَ بعيداً عن طريقها، واستدارت في كل الاتجاهات، وهي تنادي اسمه. شعرت فجأة بيدي رجل قويتين على ذراعها.

- لقد أُخذ ابني الصغير، ساعدوني أرجوكم على البحث عنه.

telegram @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

- لماذا لا تهدئين؟
- لا، سيُقتل، سيُذبح. يجب أن تساعدوني على العثور عليه.
ضحك الرجل.
- لن يُقتل أحد. إنه بأمان تام.
بدأت تكافح للتخلص منه لكن الرجل لم يفلتها. أحاطت بها وجوه مشفقة، وحاولت أن تتحرر من قبضته.
- دعني وشأني! يجب أن أعثر على ابني.
اندفع نستروف عبر الحشد، وشق طريقه إلى زوجته. كان قد وجد ابنه الأصغر وهو يلعب بين عيدان القصب الطويلة، فعاد وهو يحمل ابنيه معاً. أفلت الرجل ذراع إنسا، فحملت فاديم، وأمسكت رأسه وكأنه هشٌ وقد يتحطّم. وقفوا معاً كأسرة، محاطين بوجوه عدائية من كل الجوانب. لماذا تصرفوا على ذلك النحو؟ ما خطبهم؟ همس إيفيم:
- لنذهب.
ابتعدوا عن الحشد، وجمعوا أغراضهم على عجل، واتجهوا إلى السيارة. لم تكن هناك إلا أربع سيارات أخرى متوقفة بجانب الطريق الترابي، فقد وصل باقي المستجمّين على متن القطار. شغّل نستروف المحرك، وانطلق مبتعداً.

* * *

على الشاطئ، راقبت امرأةٌ نحيلة في شعرها مسحة من الشيب السيارةَ وهي تختفي. كانت قد حفظت رقم اللوحة، وقرّرت أن تلك أسرة يجب التحقيق بشأنها.

telegram @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

موسكو

5 تموز

حتى الأمس، لو اعتُقل ليو لما كان هناك شيء يربط ريزا مباشرة بتحقيقه غير الرسمي. وهكذا تستطيع إدانته، وأن تحظى بفرصة للنجاة، لكن ذلك لم يعد صحيحاً. فقد أصبح سفرهما على متن قطار قرب موسكو، بوثائق مزوّرة، كلاًّ لا يتجزأ.

لماذا ركبت ريزا القطار ورافقت ليو؟ كان ذلك ضد مبدئها الرئيس؛ النجاة. كانت تُقدم على مخاطرة غير محسوبة، في حين أن هناك خياراً آخر يقدّم لها نفسه: كان بمقدورها البقاء في فوالسك وعدم القيام بشيء. أو لتكون أكثر أماناً، يمكنها أن تخون ليو وتأمل أن تؤمّن لها تلك الخيانة مستقبلها. كانت تلك استراتيجية بغيضة باسم النجاة تتضمن الزواج من ليو، رجل تشمئز منه: ما الذي تغير؟ لم يكن ما تغيّر شيئاً يتعلق بالحب، فقد أضحى ليو شريكها الآن؛ وليس بالمعنى المباشر للزواج. كانا شريكين في ذلك التحقيق، وهو يثق بها ويصغي إليها، ليس كمجاملة، وإنما كندٍّ له. أصبحا فريقاً، وهما يسعيان إلى تحقيق هدف مشترك، متّحدين بسبب غاية أكثر أهمية من حياة أي منهما. شعرت بنشاطٍ وإثارة، ولم ترغب في العودة إلى حياتها السابقة، وتساءلت عن مقدار الكمية من روحها التي يجب أن تقتطعها وتبيعها من أجل أن تنجو بحياتها.

توقف القطار في ياروسلافسكي فوكزال، وكان ليو يدرك تماماً أهمية العودة إلى ذلك المكان، والسفر على خط السكة الحديدية الذي وُجدت عليه جثة أركادي. كانا يعودان إلى موسكو للمرة الأولى منذ نفيهما قبل أربعة

telegram @ktabpdf

مكتبة الرمحي أحمد

شهور، من دون أن يكون لديهما عمل رسمي هناك وحياتاهما وتحقيقهما تعتمد على عدم اكتشافهما. إذا أُلقي القبض عليهما فسيموتان. كان سبب مغامرتهما امرأة تدعى غالينا شابورينا التي رأت القاتل، وهي شاهدة عيان يمكنها وصف ذلك الرجل، وتحديد عمره، وشكله؛ أي جعله حقيقياً. لم تكن لدى ليو أو ريزا آنذاك أي فكرة عن الرجل الذي يبحثان عنه، أو ما يشير إلى أنه عجوز أو شاب، نحيل أو بدين، يرتدي ملابس رثّة أو أنيقة. باختصار، قد يكون أي شخص.

إضافة إلى الحديث إلى غالينا، كانت ريزا قد اقترحت التكلم مع إيفان، زميلها من المدرسة، الذي يقرأ كثيراً مواد غربية مراقبة، ويمكنه الاطلاع على منشورات ومقالات في مجلات وصحف محظورة، وترجمات غير مسموح بها، وربما يعرف دراسات قضايا عن جرائم مقارنة من الخارج: جرائم عشوائية، ومتعددة، وذات طقوس محددة. كانت ريزا تعرف تفاصيل مبهمة عن مثل تلك الجرائم، وقد سمعت عن أميركي - ألبرت فيش - قتل أولاداً وأكلهم؛ وقد سمعت قصصاً عن صيّاد، د. بيتيوت، أغوى يهوداً في أثناء الحرب الوطنية العظمى بالمجيء إلى قبو منزله التماساً للأمان، ثم قتلهم وأحرق جثثهم. لم تكن لديها فكرة إن كانت تلك المعلومات مجرد دعاية سوفييتية عن انحطاط الحضارة الغربية، وتصوير القتلة على أنهم نتاج مجتمع سيئ وسياسات فاسدة أم أنها حقيقية. بدت نظرية الحتمية عديمة الجدوى من وجهة نظر تحقيقهما، وكانت تعني أن المشتبه فيه الوحيد الذي يمكن أن يبحثا عنه أجنبي؛ شخص كُوّنت شخصيته بالعيش في مجتمع رأسمالي. لكن، أضحى من الواضح أن القاتل يتحرك في أرجاء البلاد بسهولة، ويتكلم الروسية ويفتن الصغار. كان ذلك قاتلاً يعمل ضمن نسيج ذلك البلد، وكل ما عرفوه أو قيل لهم عن ذلك النوع من الجرائم إما زائف أو غير ذي صلة بالموضوع، ولهذا عليهم نسيان كل افتراض والبدء من جديد. ظنّت ريزا أن امتلاك إيفان معلومات حسّاسة أمر حاسم ليعيدا تثقيف نفسيهما مجدداً.

قدّر ليو أن مثل تلك المعلومات ستكون مفيدة، لكنه بدا مهتماً بالقدر نفسه أيضاً بخفض تفاعلهما مع الناس إلى أقل عددٍ ممكن من الأشخاص. كان هدفهما الرئيس الحديث إلى غالينا شابورينا، في حين أن إيفان ثانوي. ولم يكن ليو مقتنعاً تماماً بأنه يستحق المخاطرة. على أيّ حال، كان يدرك أن تقويمه تشوبه عوامل شخصية: هل كان غيوراً من علاقة إيفان بزوجته؟ نعم بالتأكيد. هل أراد أن يشارك إيفان في تحقيقهما؟ كلا، ولو لثانية واحدة.

نظر ليو إلى خارج النافذة، وهو ينتظر أن يترجل الجميع، فقد كانت دوريات من عملاء متخفّين يرتدون ملابس مدنية تجوب محطات القطارات، وكل مرافق النقل تُعَدُّ نقاط تسلل محتملة. كانت هناك نقاط تفتيش مسلّحة على الطرقات، في حين أن المطارات والمرافئ تخضع لمراقبة مستمرة. لم يكن هناك مكان يتمتع بمستويات حماية أكثر من موسكو، وكانا يحاولان التسلل إلى المدينة التي فيها أكبر عدد من رجال الشرطة في البلاد، وأفضليتهما الوحيدة هي أن فاسيلي ليس لديه سبب للاعتقاد أنهما متهوران كفاية للقيام بمثل تلك المغامرة. عندما كانا على وشك أن يغادرا القطار، استدار ليو إلى ريزا:

- إذا نظرتِ إلى عين أحدهم مصادفة، سواء أكان حارساً أم أي شخص آخر، حتى إذا بدا أنه مدني، فلا تشيحي ببصرك بعيداً فوراً. لا تبتسمي أو تقومي بأي إيماءات. تابعي التواصل البصري قليلاً ثم انظري إلى شيء آخر.

نزلا إلى الرصيف، وهما لا يحملان أمتعة كثيرة؛ لأن الحقائب الكبيرة ستثير على الأرجح الانتباه. مشيا بنشاط، لكنهما اضطرا إلى إيقاف نفسيهما عن الاندفاع بسرعة. كان ليو شاكراً لأن المحطة مزدحمة، وشعر في الوقت نفسه بأن ياقة قميصه تصبح رطبة نتيجة العرق. حاول أن يطمئن نفسه أنه ليست هناك فرصة تقريباً لأن يكون أحد العملاء هناك يبحث عنهما. وقد توخيا الحرص كي يتخلصا من أي مراقبة محتملة في فوالسك، وقالا إنهما ذاهبان في عطلة تخييم في الجبال. كان يجب تقديم طلبات لتمضية

العطلات. وبسبب وضعهما، لم يستطيعا الحصول إلا على يومين. انطلقا تحت ضغط ضيق الوقت إلى الغابة، وسلكا مساراً دائرياً، وتأكدا أن لا أحد يتبعهما. عندما اطمأنا إلى أنهما وحدهما عادا إلى الغابة قرب المحطة، وبدّلا ملابسهما المتسخة بالطين، وطمراها مع معدّات التخييم الخاصة بهما، وجلسا ينتظران وصول القطار الذي سيقلّهما إلى موسكو، ثم صعدا على متنه في الدقيقة الأخيرة. إذا سار كل شيء وفقاً للخطة، فسيحصلان على تقرير شاهدة العيان، وسيعودان إلى فوالسك، ويتسللان إلى الغابة، ويستعيدان معدّاتهما ويرتديان ثيابهما المتسخة بالطين مجدداً، وسيدخلان البلدة من أحد طرقات الغابة الشمالية.

وصلا تقريباً إلى المخرج حين صرخ رجل خلفهما:

- الأوراق.

استدار ليو من دون تردد، ولم يبتسم أو يحاول أن يبدو مسترخياً. كان الضابط الذي يتعاملان معه من أمن الدولة، لكن ليو لا يعرفه، وذلك من حسن حظهما. أعطاه أوراقه، وأعطته ريزا وثائقها.

أمعن ليو النظر إلى وجه الرجل الذي كان ضخماً ومربوعاً، وبدت عيناه بطيئتين وحركاته كسولة. لم تكن تلك أكثر من عملية تفتيش روتينية. على أيّ حال، روتينية أم لا، كانت الوثائق التي يفحصها آنذاك مزيفة وتقليدها مقبول في أحسن حال. لم تكن تلك الأوراق لتخدع ليو قطّ في أيامه السابقة بصفته عميلاً. كان نستروف قد ساعد على تقديمها لهما، وعدّلها بمساعدة ليو. وبالرغم من أنهما بذلا جهداً كبيراً عليها، إلا أنهما كلما عملا أكثر، كلما امتلأت الوثائق بالخدوش والنقاط التي تسرب منها الحبر، والخطوط المضاعفة حيث خُتمت مرتين. تساءل ليو الآن كيف استطاع أن يضع مصيره في تلك الوثائق؟ وأدرك أنه لم يفعل ذلك؛ فقد تمنّى ألاّ يتم التدقيق فيها.

راقبت ريزا العميل وهو يحدّق إلى الكتابة، وأدركت أن الرجل يقرأ بصعوبة، ويحاول إخفاء تلك الحقيقة بالتظاهر بأنه دقيق جداً؛ لكنها

telegram @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

كانت قد رأت صغاراً كثيرين يعانون المشكلةَ نفسها ولا يستطيعون تمييز الحروف. تحركت شفتا الرجل حين جال ببصره على السطور، وعندما أدركت أنه إذا صدرت عنها أي إشارة تدل على معرفتها نقطة ضعفه فإنه سيوبّخهما، حافظت على نظرة الخوف. عرفت أنه سيُعجب بخوفهما منه، وسيهدّئ ذلك أي قلق ربما يشعر به. كان من الواضح تماماً أن العميل قد تأكد من تعبيري وجهيهما؛ ليس لأن بعض الشكوك قد راودته في ما يتعلق بالوثائق، ولكن لأنه خشي من زوال قلقهما منه. راضياً عن أنه لا يزال رجلاً يخشاه الآخرون، طقطق الوثائق على راحة كفّه، مما أوضح بجلاء أنه يمعن التفكير في الأمر، ولا يزال يتمتع بسلطة على حياتهما.

- دعاني أرى حقيبتيكما.

فتح ليو وريزا حقيبتيهما الصغيرتين، ولم يكونا يحملان شيئاً أكثر من قطعة ملابس واحدة لكل منهما وبعض الأشياء الأساسية الضرورية. بدا أن الضابط أُصيب بالملل، فهزّ كتفيه؛ وبالمقابل أومأ توقيراً إليهما، فتحركا نحو المخرج، محاولَين ألاّ يمشيا بسرعة كبيرة.

اليوم نفسه

بعد أن ألغى ليو تحقيق فيودور الخاص بشأن جريمة قتل ابنه، وتملّقه، وأمره بالتزام الصمت، كان على وشك أن يطلب مساعدته على الموضوع نفسه. وكان بحاجة إلى فيودور ليأخذه إلى شقة غالينا شابورينا لأنه لم يستطع العثور على العنوان. بالفعل، كان من الممكن ألاّ يتذكر حتى اسمها على نحو صحيح؛ لأنه لم يُعر الأمر اهتماماً كبيراً آنذاك، وقد وقعت حوادث كثيرة منذ ذلك الوقت. بدا الأمل في العثور على تلك الشاهدة ضئيلاً جداً من دون فيودور.

كان ليو جاهزاً للتّذلل، وإراقة ماء الوجه، ومستعداً لتحمّل الاحتقار والازدراء ما دام ذلك يضمن له الحصول على تفاصيل عنوان شاهدة العيان تلك. وبالرغم من أن فيودور كان عميل إ.أ.د، إلا أن ليو اعتمد على حقيقة أن ولاءه سيكون لذكرى ابنه. وبغض النظر عن الكراهية التي يشعر بها فيودور نحو ليو، فستدفعه رغبته في تحقيق العدالة إلى التحالف معه بالتأكيد. ربما تبين لفيودور أن تقويم ليو قبل أربعة شهور كان صحيحاً، وأن أي تحقيق غير رسمي في وفاة ابنه سيعرض أسرته كلّها للخطر. ربما استطاع أن يتعايش مع ذلك الأمر، واكتشف أن أفضل ما يفعله هو حماية الأحياء وتسليم ليو إلى الدولة، وسيحقق في تلك الحال الأمان والانتقام. ماذا سيقرر؟ قرع ليو الباب وهو على وشك أن يعرف ذلك.

فتحت امرأة عجوز الباب في الطابق الرابع من المبنى السكني 18. المرأة التي واجهته، وتجرأت على تسمية الجريمة باسمها.

telegram @ktabpdf مكتبة الرمحي أحمد

- اسمي ليو، وهذه زوجتي ريزا.

حدّقت المرأة العجوز إلى ليو بكره بعد أن تذكّرته، وألقت نظرة على ريزا.

- ماذا تريدان؟

أجابت ريزا بصوت خافت:

- نحن هنا بشأن جريمة قتل أركادي.

أطبق الصمت لوقت طويل، وأمعنت المرأة العجوز النظر إلى وجه كليهما قبل أن تجيب:

- لقد جئتما إلى العنوان الخطأ. لم يُقتل أي فتى هنا.

وعندما حاولت إغلاق الباب، دفع ليو قدمه إلى الأمام قائلاً:

- لقد كنت محقة.

* * *

توقع ليو غضباً. لكن، بدلاً من ذلك، بدأت المرأة العجوز تبكي.

وقف فيودور، وزوجته، والمرأة العجوز والدة فيودور، معاً يكوّنون ترويكا مدنية - محكمة مواطنين - ويراقبون، في حين خلع ليو معطفه، وألقاه على كرسي، ثم نزع كنزته وبدأ يفك أزرار قميصه. كان قد ثبّت تحت قميصه بشريط لاصق تفاصيل عمليات القتل: الصور، الأوصاف، الإفادات، الخرائط التي توضح الانتشار الجغرافي للجرائم؛ أهم الأدلّة التي كانا قد جمعاها.

- كان يجب أن أتخذ إجراءات حيطة معينة في نقل هذه المواد. إنها تفاصيل أكثر من أربعين جريمة أدت إلى مقتل صغارٍ، صبيان وبنات، في النصف الغربي من بلادنا. لقد لقوا مصرعهم بالطريقة نفسها تقريباً، الطريقة نفسها التي أظن الآن أن ابنكم قد قُتل بها.

حرّر ليو الأوراق، وأبعدها عن صدره. كانت الصور الأقرب إلى جلده رطبة من العرق. أمسكها فيودور، وألقى عليها نظرة سريعة. تقدمت

telegram @ktabpdf

مكتبة الرمحي أحمد

زوجته إلى الأمام، وكذلك والدته. وسرعان ما أصبح الثلاثة يقرأون الوثائق، ويمررونها إلى بعضهم بعضاً. تكلمت زوجة فيودور أولاً:

- وإذا أمسكت به، فماذا ستفعل؟

كانت تلك هي المرة الأولى التي يُطرح فيها ذلك السؤال على ليو، وقد ركّزا حتى ذلك الوقت على إمكانية القبض عليه.

- سأقتله.

عندما شرح ليو طبيعة تحقيقه الشخصي، لم يُضِع فيودور وقته في توجيه الإهانات أو الاتهامات إلى أحد، وبدا واضحاً أنه لم يخطر بباله رفض مساعدتهما أو التشكيك في صدقهما أو القلق بشأن الآثار التي ربما تنشأ عن ذلك. لم تخطر تلك الأفكار أيضاً لزوجة فيودور أو والدته؛ على الأقل ليس بأي طريقة مهمة. كان فيودور سيصطحبهما إلى شقة غالينا فوراً.

كان أقصر طريق يتطلب اجتياز مسار السكة الحديدية حيث وُجد أركادي. وهناك خطوط قطار عديدة تمتد متوازية، في منطقة واسعة، تحدّها أجمة وأشجار. مع تلاشي ضوء الغروب، أدرك ليو إغراء تلك الأرض المنعزلة التي لا تطأها قدم إنسان، والتي بدت خاوية على نحو مخيف في قلب المدينة. هل جرى الفتى فوق تلك العوارض الخشبية، وذلك الرجل يطارده؟ هل وقع على الأرض وهو يحاول يائساً الابتعاد عن المكان؟ في الظلام، هل مرّ قطار بجانبه وسائقه غير مبالٍ؟ كان ليو سعيداً بالابتعاد عن خط السكك الحديدية.

عندما اقتربوا من الشقة، قال فيودور إن ليو يجب أن يبقى في الخارج، فقد شعرت غالينا برعب شديد منه سابقاً، ولا يمكنهم المخاطرة بأن تخاف منه وتصمت مجدداً. وافق ليو، فاتجهت ريزا وفيودور فقط إلى هناك.

تبعت ريزا فيودور على السلالم، ووصلا إلى باب الشقة وقرعاه. واستطاعت ريزا سماع أصوات أولاد يلعبون في الداخل مما أسعدها. بالطبع، لم تكن تظن أن المرأة يجب أن تكون أمّاً لتقدّر خطورة تلك القضية،

telegram @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

لكن حقيقة أن أولاد غالينا كانوا في خطر ستجعلها تتعاون معهما.

فتحت امرأة في العقد الثالث من عمرها الباب، وهي تتدثر بغطاء سميك وكأن الوقت في منتصف الشتاء، وبدت مريضة. كانت عيناها قلقتين، وتنظران بإمعان إلى كل تفاصيل مظهري ريزا وفيودور الذي بدا أنه يعرفها.

- غالينا، هل تتذكرينني؟ أنا فيودور، والد أركادي، الفتى الصغير الذي قُتل. هذه صديقتي ريزا، وهي تعيش في فوالسك، في قرية قرب الأورال. غالينا، إن سبب وجودنا هنا هو أن الرجل الذي قتل ابني يقتل أولاداً آخرين في بلدات أخرى، ولهذا سافرت ريزا إلى موسكو، حتى نستطيع العمل معاً. نحتاج إلى مساعدتك.

كان صوت غالينا خافتاً، وبالكاد كانت تهمس:

- كيف يمكنني أن أساعد؟ لا أعرف شيئاً.

متوقعة مثل ذلك الجواب، بيّنت ريزا:

- فيودور ليس هنا بصفته ضابط إ.أ.د. نحن مجموعة مكوّنة من آباء وأمهات، وأيٍّ مواطنين يغضبون من مثل تلك الجرائم. لن يظهر اسمك في أي وثائق؛ لأنها ليست موجودة أصلاً. لن تري أو تسمعي أيّ شيء منا مجدداً. كل ما نريد معرفته هو كيف يبدو؟ كم عمره؟ هل هو طويل؟ ما لون شعره؟ هل كانت ملابسه غالية الثمن أم رخيصة؟

- لكن الرجل الذي رأيته لم يكن مع فتًى، وقد أخبرتكم ذلك.

أجاب فيودور:

- أرجوك يا غالينا، اسمحي لنا بالدخول. لنتكلم بعيداً عن الرواق.

هزّت رأسها.

- لا يمكنني مساعدتكما، ولا أعرف شيئاً.

بدأ فيودور يغضب، فمسّت ريزا ذراعه وجعلته يصمت. يجب أن يبقيا هادئين حتى لا يرهباها. كان الصبر هو المفتاح.

- حسناً، لا بأس يا غالينا. أنت لم تري رجلاً بصحبة فتًى. أوضح

فيودور أنكِ رأيت رجلاً يحمل صندوق أدوات، هل هذا صحيح؟

أومأت.

- هل يمكن أن تصفيه لنا؟

- لكن، لم يكن معه فتًى.

- نفهم ذلك. لم يكن معه فتًى، وقد أوضحت ذلك تماماً. لم يكن معه إلا صندوق أدوات. لكن كيف كان يبدو؟

فكّرت غالينا. حبست ريزا أنفاسها، وشعرت بأنها على وشك أن تفضي بمكنونات نفسها. لم يكونا بحاجة إلى المعلومات مكتوبة، أو إفادة موقعة، إنما يحتاجان إلى وصف يقال شفهيًا، ويمكن إنكاره. ثلاثون ثانية ذلك كل ما يتطلبه الأمر.

حطم فيودور الصمت فجأة قائلاً:

- لا ضرر في إخبارنا كيف يبدو رجل يحمل صندوق أدوات. لا يقع أحد في ورطة حين يصف عامل سكك حديدية.

حدّقت ريزا إلى فيودور، الذي كان قد ارتكب خطأ. يمكن أن يواجه الناس مشكلات إذا وصفوا عامل سكك حديدية، وأن يقعوا في ورطة من أجل شيء أقل من ذلك بكثير. كان الفعل الأكثر أماناً دائماً ألاّ يفعل المرء شيئاً. هزّت غالينا رأسها، وتراجعت إلى الخلف مبتعدة عنهما.

- أنا آسفة، كان الظلام حالكاً. لم أره. كان يحمل صندوقاً، وذلك كل ما أتذكره.

وضع فيودور يده على الباب.

- لا يا غالينا، أرجوك...

هزّت غالينا رأسها.

- اذهبا.

- أرجوك، أرجوك...

أصبح صوتها حاداً من شدّة القلق، مثل حيوان مذعور:

- اذهبا!

أطبق الصمت مجدداً، وتوقفت ضوضاء الأولاد الذين يلعبون، وظهر زوج غالينا.

- ماذا يجري؟

فُتحت أبوابٌ في رواق الشقق، وأخذ الناس يحدّقون، ويراقبون، ويشيرون، مما زاد قلق غالينا. شعرت ريزا بأنهما يفقدان السيطرة على الوضع، وأنهما على وشك أن يخسرا شاهدة العيان، فتقدمت إلى الأمام، وعانقت غالينا وكأنها تودّعها.

- كيف كان يبدو؟

انتظرت ريزا وهي تغمض عينيها، ووجنتها تلامس وجنة غالينا. وشعرت بأنفاس غالينا، لكنها لم تتلقَّ جواباً منها.

telegram @ktabpdf مكتبة الرمحي أحمد

روستوف - أون - دون

اليوم نفسه

جثم الهر على رف النافذة، وذيله يتحرك من جانب إلى آخر، وعيناه الخضراوان الصافيتان تتابعان ناديا في أرجاء الغرفة؛ وكأنه يفكر في الانقضاض عليها، وكأنها ليست أكثر من مجرد جرذ كبير الحجم. كان الهر أكبر منها. فهي تبلغ من العمر ست سنوات، أما الهر فعمره ثماني سنوات أو تسع، وهي حقيقة قد تفسر بطريقة ما موقفه المتعالي منها. وفقاً لوالدها، كانت المنطقة التي يعيشون فيها تعاني مشكلة مع الجرذان، ولهذا أصبحت القططة ضرورية. حسناً، بدا ذلك صحيحاً جزئياً. كانت ناديا قد رأت الكثير من الجرذان الكبيرة والجريئة أيضاً، لكنها لم ترَ قط ذلك الهر يفعل شيئاً مفيداً بشأنها. كان هراً كسولاً، أفسده دلال والدها له. كيف يمكن لهر أن يظن نفسه أهم منها؟ لم يسمح لها أن تمسّه قط. مرة، عندما مرّ بجوارها، داعبت ظهره، لكنه رد عليها بأن دار حول نفسه، وهسّ قبل أن يندفع إلى الزاوية وفروه منتصب وكأنها قد اقترفت جريمة من نوعٍ ما. تخلت بعد ذلك عن محاولة التودد إليه، وقرّرت أنه إذا أراد الهر أن يكرَهها، فإنها ستكرهه بمقدار الضعف.

خرجت ناديا من المنزل، بعد أن شعرت بأنها غير قادرة على البقاء فيه وقتاً أطول والهر يحدّق إليها، بالرغم من أن الوقت متأخر، وباقي أفراد أسرتها في المطبخ، يحضّرون أوزن. كانت تعرف أنها لن تحصل على إذنٍ للخروج في نزهة، ولهذا لم تزعج نفسها بطلب ذلك. انتعلت حذاءها بهدوء، وانسلّت خلسة من الباب الأمامي.

telegram @ktabpdf

مكتبة الرمحي أحمد

كانوا يعيشون على ضفة نهر دون، هي وشقيقتها الصغرى ووالدتها ووالدها، في أحد أحياء الضواحي الذي تمتلئ شوارعه حفراً، ويتكون من أكواخٍ مبنية من الآجر. كانت مجاري المدينة وفضلات المصنع تُلقى في النهرَ. وكانت تجلس ليلاً أحياناً لتراقب بقع الزيت والأوساخ والمواد الكيميائية على سطح الماء. وصلت ناديا إلى درب ممهد جيداً يمتد على طول ضفة النهر في الاتجاهين، واستدارت في اتجاه مجرى الماء نحو الريف. وبالرغم من عدم وجود ضوءٍ قوي إلا أنها بدت واثقة من الطريق. كانت تتمتع بحس جيد بالاتجاهات ولم تته قط، وفقاً لما تتذكره، ولا مرة واحدة. تساءلت عن نوع العمل الذي يمكن لفتاة تتمتع بحس جيد بالاتجاهات أن تحصل عليه حين تكبر. ربما ستصبح قائدة مقاتلة. لم تكن هناك فائدة من أن تصبح سائقة قطار؛ لأن سائقي القطارات لا يضطرون أبداً إلى التفكير في الاتجاه الذي يسلكونه. لا يمكن أن يضيع القطار بسهولة. كان والدها قد أخبرها قصصاً عن نساءٍ قدن قاذفات في أثناء الحرب. بدا ذلك جيداً لها، وأرادت أن تصبح واحدة منهن، وأن يظهر وجهها على الصفحة الأولى لإحدى الصحف، وتنال وسام لينين. سيلفت ذلك انتباه والدها، وسيجعله فخوراً بها؛ وسيبعده عن هرّه الغبي.

كانت تمشي منذ بعض الوقت، وهي تهمهم لنفسها، مسرورة بأنها خارج المنزل وبعيداً عن ذلك الهر، حين توقفت فجأة. لقد رأت أمامها شكل رجل يسير نحوها، وقد بدا طويلاً لكنها لم تستطع تبيّن أي شيء آخر يتعلق به بسبب الظلام. كان يحمل حقيبة من نوع ما. عادةً، لم تكن رؤية شخص غريب تزعجها مطلقاً. لماذا ستنزعج؟ لكن والدتها فعلت شيئاً غريباً مؤخراً. فقد أجلست ناديا وشقيقتها وحذّرتهما من التكلم مع أي غرباء، ومضت قدماً لتخبرهما أن الوقاحة أفضل من إطاعة طلب شخص غريب. نظرت ناديا إلى الخلف نحو منزلها، وتبين لها أنها ليست بعيدة عنه جداً؛ وإذا ركضت، فستعود في أقل من عشر دقائق. كانت تريد أن تمشي

إلى شجرتها المفضلة الواقعة في مكان أبعد باتجاه مجرى النهر. فهي تحب أن تتسلقها وتجلس عليها وتحلم. إذا لم تفعل ذلك، ولم تصل إلى تلك الشجرة، فلن تشعر بأن نزهتها ناجحة. تخيّلت أن تلك هي مهمتها العسكرية؛ أي الوصول إلى الشجرة. لذا، لا يمكن أن تفشل في ذلك. حسمت أمرها بسرعة، وقرّرت ألاّ تتحدث إلى ذلك الرجل. ستمشي قربه، وستتجاوزه، وإذا تكلم معها، فستقول عمتَ مساءً لكنها لن تتوقف للحديث إليه.

تابعت طريقها على طول الدرب والرجل يقترب منها. هل كان يمشي بسرعة أكبر؟ بدا أنه يفعل ذلك. كان الظلام حالكاً، ولم تستطع رؤية وجهه، لكن بدا أنه يعتمر قبعة من نوعٍ ما. تحركت وأفسحت له مجالاً واسعاً ليمر بجوارها. لم يعد بينهما إلا بضعة أمتار، وشعرت ناديا بالخوف، وبدافع لا يمكن تفسيره لتجاوزه بسرعة. لم تفهم السبب، وألقت اللوم على والدتها؛ لأن قائدات القاذفات لا يخفن أبداً. انطلقت تجري، وعندما ظنّت أن ذلك سيعتبر إهانة للرجل، صرخت:

– عمتَ مساءً.

أمسك أندريه بذراعه الحرّة خصرها، ورفع جسدها الصغير عن الأرض، وقرّب وجهها من وجهه، وحدّق إلى عينيها. شعرت برعب شديد، فحبست أنفاسها، وتصلّب جسمها الضئيل من شدّة التوتر.

ثم بدأت تضحك، واختفت دهشتها، ووضعت ذراعيها حول عنق والدها واحتضنته.

– لقد أخفتني.

– لماذا خرجت في هذا الوقت المتأخر؟

– أردت أن أمشي.

– هل تعرف والدتك أنك في الخارج؟

– نعم.

– أنتِ تكذبين.

- لا، لا أكذب. لماذا أنت قادم من هذا الاتجاه؟ لم تأتِ قط من هذا الاتجاه. أين كنت؟

- لقد كنت أعمل. كان لدي عمل في إحدى القرى خارج المدينة. لم تكن هناك وسيلة للعودة باستثناء المشي، والمكان يبعد ساعتين فقط.

- لا بد من أنك متعب.

- نعم، أنا كذلك.

- هل يمكنني حمل صندوقك؟

- لكنني أحملك. ولهذا، حتى إذا أعطيتك صندوقي فسأبقى أحمل وزنه.

- يمكنني أن أمشي وأحمل صندوقك.

- أظن أنني أستطيع تدبّر ذلك.

- أبي، أنا سعيدة بعودتك إلى المنزل.

استخدم قاعدة صندوقه لفتح باب منزلهم وهو لا يزال يحمل ابنته. دخل المطبخ، ورأى حباً من ابنته الصغيرة التي ركضت نحوه لترحّب به. شاهد سعادة أفراد أسرته بعودته. إذ كانت عودته بعد ذهابه بعيداً أمراً مسلّماً به.

نظرت ناديا إلى الهر الذي بدا واضحاً أنه يشعر بالغيرة من الاهتمام الذي تلقاه من والدها، فقفز عن حافة النافذة إلى الأسفل، وانضم إلى لمّ شمل الأسرة، وهو يحك نفسه بساق والدها. عندما أنزلها أندريه على الأرض، وضعت مصادفة قدمها على كف الهر، مما جعله يموء بقوة ويندفع مبتعداً. وقبل أن تستمتع بأي إحساس بالرضا أمسك والدها بمعصمها، وجثم أرضاً، وهو يحدّق إليها عبر نظارته المدوّرة السميكة، ووجهه يختلج غضباً.

- لا تمسّيه أبداً.

أرادت ناديا أن تبكي، لكنها عضّت شفتها بدلاً من ذلك، فقد تعلّمت

سلفاً أن البكاء لا يؤثر في والدها.

أفلت أندريه معصم ابنته، ووقف. شعر بارتباك وحرارة، ونظر إلى زوجته التي لم تكن قد تقدمت نحوه، ولكنها تبتسم له.

- هل أكلت؟

- يجب أن أضع أغراضي في مكانها. لا أريد شيئاً آكله.

لم تحاول زوجته أن تعانقه أو تقبّله، ليس أمام الفتاتين. كان صارماً بشأن تلك الأمور، وهي تفهم ذلك.

- هل كان عملك ناجحاً؟

- يريدون مني الذهاب بعيداً مجدداً بعد يومين. لا أعرف المدة تحديداً.

من دون أن ينتظر رداً، شعر آنذاك برهاب الاحتجاز، فتحرّك إلى الباب المؤدي إلى القبو، وتبعه الهر، وهو يرفع ذيله عالياً.

أوصد الباب خلفه، ونزل السلالم، وشعر فوراً أنه في حال أفضل حين أصبح وحده. كان زوجان عجوزان قد شغلا سابقاً هذه المساحة في الأسفل، لكن المرأة قد توفيت، فيما انتقل الرجل إلى شقة ابنه، ولم يرسل مكتب الإسكان زوجين آخرين مكانهما. لم تكن غرفة مريحة؛ فالقبو يغوص في ضفة النهر. كان الآجر رطباً دائماً، والغرفة في الشتاء باردة جداً، فيها بورزهويكا (موقد حطب) يضطر الزوجان العجوزان إلى تشغيله ثمانية شهور في السنة. وبالرغم من سلبيات القبو العديدة إلا أنه يتمتع بإيجابية واحدة؛ وهي اتساع مساحته، وفيه كرسي في إحدى الزوايا وسرير صغير كان يخص الزوجين العجوزين، ينام هو عليه بين الحين والآخر حين تكون الظروف مقبولة. أشعل مصباح الغاز، وقبل مضي وقت طويل دخل هر آخر عبر الشق في الجدار حيث تمتد أنابيب بورزهويكا إلى الخارج.

فتح صندوقه، وكان بين أوراقه وبقايا غدائه "مرطبان" زجاجي ذو غطاء محكم الإغلاق قام بفتحه. كان قد وضع داخل المرطبان معدة الفتاة

التي قتلها قبل ساعات مضت، ملفوفةً بعدد قديم من بر\افدا\ مبلل بالدم. نزع الأوراق عنها، حريصاً على ألاّ تلتصق الأوراق باللحم. وضع المعدة على طبق معدني، وقطعها إلى شرائح ثم إلى مكعبات. وعندما انتهى من ذلك، أشعل الفرن. وبحلول الوقت الذي أصبح فيه حاراً كفاية لطهي اللحم كانت هناك ستةُ هررةٍ تحوم حوله. قلى اللحم، وانتظر حتى تحول لونها إلى البني قبل أن يضعها على الطبق المعدني مجدداً. وقف أندريه وهو يراقب الهررة تحوم حول قدميه، مستمتعاً بمنظر جوعها، فيما كان يمسك الطعام، ويعذّبها، ويشاهدها وهي تموء. كانت جائعة جداً، ومسعورة بعد أن شمّت رائحة اللحم المطهي.

بعد أن اكتفى من تعذيبها وضع الطعام أرضاً، فتدافعت الهررة معاً في حلقة حول الطبق، وبدأت تأكل وتقرقر بسعادة.

* * *

في الأعلى، حدّقت ناديا إلى باب القبو متسائلة عن نوع الآباء الذين يفضلون الهررة على الأولاد. لم يكن سيبقى في المنزل أكثر من يومين. لا، كانت مخطئة في غضبها من والدها، ولم تُلقِ اللوم عليه، وإنما على الهررة. خطرت لها فكرة. لم يكن قتل هرٍ أمراً بالغ الصعوبة، وسيكون الجزء الصعب الإفلات من ذلك.

اليوم نفسه

انضم ليو وريزا في شارع فوروفسكي إلى نهاية صفٍّ يقف في متجر البقالة الطويل، وستنقضي عدّة ساعات قبل أن يصلا إلى الداخل، حيث سيحدد كل شخص طلبه قبل أن ينتظر في صفٍّ ثانٍ ليدفع ثمن مشترياته، ثم هناك صفّ ثالث بعد هذين الصفَّين لأخذ الأغراض. كان من الممكن أن يبقيا بسهولة في تلك الصفوف المختلفة لمدة تصل إلى أربع ساعات، وهما ينتظران - من دون أن يلفتا الانتباه - عودةَ إيفان إلى المنزل.

بعد أن فشلا في إقناع غالينا شابورينا بالحديث إليهما، أحدق بهما خطر أن يخرجا من موسكو خاليي الوفاض. كانت ريزا قد دُفعت إلى خارج الشقة، وأُغلق الباب في وجهها. وقفا في الرواق، محاطين بجيران يحدّقون إليهما، وربما يكون الكثيرون منهم مخبرين. لذا، لم تكن هناك طريقة للمحاولة مجدداً. كان من المحتمل أن غالينا وزوجها قد أعلما قوات أمن الدولة بما حصل، لكن ليو ظن أن ذلك ليس مرجحاً. بدا واضحاً أن غالينا تظن أن القيام بأقل ما يمكن هو الفعل الأكثر أماناً، وإذا حاولت الإبلاغ عنهما، فستكون عُرضة لاحتمال أن تجرّم نفسها، وتلفت الانتباه إلى نفسها. لكن، لم يكن في تلك الفكرة عزاء كبير. كان إنجازهما الوحيد حتى ذلك الوقت هو انخراط فيودور وأسرته في تحقيقهما، وقد طلب ليو من فيودور إرسال أي معلومات قد يتمكن من اكتشافها إلى نستروف؛ لأن البريد الموجّه إلى ليو مُراقب. وبالرغم من ذلك، لم يكونا قد اقتربا من تحديد هوية الرجل الذي يبحثان عنه.

telegram @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

في تلك الظروف، ضغطت ريزا على ليو بقوة للتحدث إلى إيفان. ما الخيارات الأخرى المتاحة لهما باستثناء ترك المدينة خاليي الوفاض؟ وافق ليو بتردد. لم تستطع ريزا إيصال خبر إلى إيفان، ولم تكن هناك طريقة يستطيعان فيها إرسال رسالة أو إجراء اتصال هاتفي. كانت قد أقدمت على مجازفة محسوبة، على أمل أن يكون متواجداً هناك، لكنها تعرف أنه لا يغادر موسكو إلا نادراً، وليس لوقت طويل بالتأكيد. لم يكن يخرج في عطلات، وليس لديه أي اهتمام بالريف. السبب الوحيد الذي استطاعت التفكير فيه لعدم تواجده في المنزل هو أن يكون معتقلاً، وفي ما يتعلق بهذا الأمر تمنّت أن يكون بأمان. وبالرغم من أنها كانت تتطلع قدماً إلى رؤيته مجدداً، إلا أنها لم تكن تفكر في أي أوهام؛ سيكون لقاءً غير متوقع. كانت مع ليو، وهو رجل يكرهه إيفان كما يكره كل ضباط إ.أ.د، وهي قاعدة من دون استثناءات بالنسبة إليه؛ إذ ليس هناك أشخاص طيبون بينهم. على أيّ حال، لم يكن بغضه ليو هو أكثر ما يقلقها، وإنما شعورها تجاهه. فبالرغم من أنها لم تخن ليو جنسياً قط، إلا أنها خانته مع إيفان بكل طريقة أخرى تقريباً؛ فقد خانته فكرياً، وعاطفياً، وبانتقاده من خلف ظهره. كانت قد كوّنت صداقة مع رجل يُعرف أنه النقيض تماماً لكلّ ما يمثّله ليو. كان هناك شيء مريع في جمع هذين الرجلين معاً. أرادت إخبار إيفان في أسرع وقت ممكن أن ليو لم يعد الرجل نفسه، وأنّه قد تغير، وأن ثقته العمياء بالدولة قد تداعت وتحطّمت، وأرادت أن تشرح له أنها كانت مخطئة بحق زوجها، وأنها تريد من كليهما أن يريا أن الفوارق بينهما أقل مما يدركان؛ لكن لم يكن هناك أمل كبير في ذلك.

لم يكن ليو يتطلع قدماً إلى لقاء إيفان؛ توأم روح ريزا. كان سيضطر إلى رؤية الشرارة بينهما، وإلى مشاهدة الرجل الذي كانت ريزا ستتزوجه لو أتيحت لها حرية الاختيار، وقد بقي ذلك يؤلمه أكثر من فقدانه مكانته، وأكثر من خسارته ثقته بالدولة. كان قد صدّق مشاعر الحبّ على نحو أعمى. وربما تعلّق بالفكرة لأنها طريقة لمقاومة طبيعة عمله، أو ربما كان عقله الباطن

telegram @ktabpdf مكتبة الرمحي أحمد

بحاجة إلى تصديق تلك المشاعر بوصف ذلك طريقة لإضفاء صفة بشرية على نفسه. سيفسّر ذلك المبررات المتطرفةَ التي ابتكرها لتسويغ برودها تجاهه، وسيرفض التفكير في احتمال أنها تكرهه. بدلاً من ذلك، سيغمض عينيه ويهنّئ نفسه على امتلاكه كل شيء. سيخبر والديه أنها الزوجة التي حلم بها دائماً. كان محقاً؛ ذلك ما هي عليه؛ إنها حلمٌ، ووهمٌ، وقد وافقت بدهاء على أن تتظاهر بذلك، خائفة طوال الوقت على سلامتها، في حين أنها كانت تستودع إيفان مشاعرها الحقيقية.

كان ذلك الوهم قد تحطم قبل عدّة شهور، لكن لماذا لم تلتئم الجروح؟ لماذا لا يستطيع تخطي ذلك كما تجاوز إخلاصه لأمن الدولة؟ لقد تمكّن من تحويل إخلاصه لأمن الدولة إلى قضية أخرى؛ إخلاصه لهذا التحقيق. لكن، لم يكن لديه أحد آخر يحبه، ولن يكون لديه أحد آخر. كانت الحقيقة أنه لا يستطيع التخلي عن الأمل الصغير، عن الفكرة الخيالية بأنها ربما، وربما فقط، تحبه فعلاً. بالرغم من تردّده في الثقة بمشاعره؛ لأنه كان مخطئاً تماماً من قبل، فقد شعر أنه وريزا أقرب مما كانا عليه سابقاً. هل كان ذلك نتيجة عملهما معاً؟ صحيح أنهما لم يعودا يقبّلان بعضهما أو يقيمان علاقة؛ لأن ذلك لم يبدُ مناسباً منذ أخبرته ريزا الحقيقة بشأن تاريخهما. وجد نفسه مضطراً إلى قبول أن كل تجاربهما الجسدية السابقة لم تعنِ لها شيئاً؛ والأسوأ من ذلك أنها كانت غير ممتعة. وبعيداً عن الحال التي بدت الشيء الوحيد الذي يجمعهما - أنا لك، وأنت لي - كان ليو يفضّل التفكير في أن تلك الحال تجعلهما متباعدين. كان ليو رمزاً للدولة تشمئز منه ريزا، لكنه لم يعد يمثّل أي شيء إلا نفسه، وقد جُرّد من السلطة وأُخرج من النظام الذي تبغضه.

أصبحا عند باب المتجر تقريباً حين شاهدا إيفان يقترب من الطرف الآخر للشارع. لم يصرخا أو يثيرا الانتباه إليهما، أو يتحركا ويبتعدا عن الصفّ، وراقباه وهو يدخل المبنى الذي تقع فيه شقته. أوشكت ريزا أن

تغادر الصفّ حين مسَّ ليو ذراعها، موقفاً إياها. كانا يتعاملان مع منشَقّ ربما يخضع للمراقبة. خطر لليو أن تكون قطعة النقود المجوّفة تخص إيفان: ربما كان هو الجاسوس. ماذا كانت تفعل بين ثياب ريزا؟ هل نزعت ملابسها في شقة إيفان، والتقطت قطعة النقود عن طريق الخطأ؟ نحّى ليو تلك الأفكار جانباً، مدركاً أن غيرته تجعله يتخيل أشياء غير صحيحة.

تأكد ليو من الشارع، لكنه لم يرَ أي عملاء يتخذون مواقع حول الشقة. كانت هناك عدّة أماكن واضحة: ردهة دار العرض، وهذا المتجر، ومداخل محمية. وبغض النظر عن براعة العملاء، كانت مراقبة بناء صعبة؛ لأنها عمل غير طبيعي؛ أي بقاء العميل ساكناً وحده من دون أن يفعل شيئاً على الإطلاق. أصبح واثقاً بعد عدة دقائق أن لا أحد يلحق بإيفان، ومن دون أن يزعجا نفسيهما بشرح السبب أو التظاهر بأنهما نسيا المحفظة، تركا الصفّ في الوقت الذي أوشكا فيه على الدخول أخيراً إلى المتجر. كان ذلك مثيراً للشبهات، لكن ليو اعتمد على حقيقة أن معظم الناس أذكياء كفاية ليهتموا بشؤونهم الخاصة.

دخلا المبنى السكني، وصعدا السلالم، وقرعت ريزا على الباب. سمعا وقع خطوات في الداخل، وصوتاً متوتراً يسأل من خلف الباب:

- نعم؟

- إيفان، أنا ريزا.

سُحب رتاج إلى الخلف، وفتح إيفان الباب بحرص. عندما رأى ريزا تلاشت شكوكه وابتسم، فابتسمت بالمقابل.

على بعد خطوات إلى الخلف شاهد ليو لقاءهما مجدداً من حيث يقف في عتمة المدخل. كانت سعيدة برؤيته، وكانا منسجمين معاً. فتح إيفان الباب، وتقدم إلى الأمام، وعانقها مرتاحاً لأنها لا تزال حية.

لاحظ إيفان وجود ليو، فتلاشت ابتسامته مثل صورة تسقط عن جدار. أفلت ريزا فجأة غير واثق مما يفعله، ونظر إلى تعبير وجهها، ليتأكد من أن

تلك ليست خيانة من نوع ما. شعرت ريزا بعدم ارتياحه، فعلّقت:

- لدينا أشياء كثيرةً نوضّحها.

- لماذا أنتما هنا؟

- الأفضل أن نتكلم في الداخل.

لم يبدُ إيفان مقتنعاً، فمسّت ريزا ذراعه.

- أرجوك، ثق بي.

كانت الشقة صغيرة، ومؤثثة جيداً، وأرضيتها من الخشب المصقول. شاهدا كتباً. من نظرة بدا أنها كلها نصوص مجازة لغوركي، وكرّاسات سياسية للينين. كان الباب المؤدي إلى غرفة النوم مغلقاً وليس هناك سرير في الحجرة الرئيسة. سأل ليو:

- هل أنت وحدك؟

- أولادي مع والديّ، وزوجتي في المستشفى فهي تعاني مرضَ السل.

مسّت ريزا ذراعه مجدداً.

- إيفان، أنا آسفة جداً.

- ظننا أنكِ اعتُقلت. لقد خشيت الأسوأ.

- كنا محظوظَين. لقد نُقلنا إلى بلدة غربي الأورال تماماً. رفض ليو إدانتي.

لم يستطع إيفان إخفاء دهشته التي ظهرت واضحة على وجهه؛ كأن ذلك شيئاً غير متوقع. أمسك ليو لسانه عن الكلام منزعجاً حين حدّق إليه إيفان وهو يقوّمه:

- لماذا رفضت؟

- إنها ليست جاسوسة.

- منذ متى تردعك الحقيقة؟

قاطعتهما ريزا:

- دعونا لا نناقش ذلك الآن.

telegram @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

- لكن الأمر مهم: هل لا تزال تعمل مع إ.أ.د؟
- لا، نُقلتُ إلى المليشيا.
- نُقلت؟ لقد نفذت بجلدك.
كان ذلك سؤالاً ينطوي على اتهام.
- إنه مجرد إجراء مؤقت، نقل، نفي؛ عقوبة طويلة في مكان مجهول.
أضافت ريزا في محاولة لجعله يهدأ:
- لم يتبعنا أحد إلى هنا، ونحن واثقان من ذلك.
- لقد قطعتما كل تلك المسافة إلى موسكو؟ لماذا؟
- نحتاج إلى مساعدة.
بدا محتاراً آنذاك.
- كيف يمكنني أن أساعدكما؟
خلع ليو معطفه، ثم كنزته، ثم قميصه، وأخرج الملفات المثبتة بشريط لاصق على جسده. لخّص القضية، وأعطى إيفان الأوراق، فأمسكها هذا الأخير لكنه لم ينظر إليها، وإنما بقي جالساً على كرسي، ووضع الدليل على طاولة بجانبه. نهض مجدداً بعد لحظة، وأمسك غليوناً، وملأه بحرص.
- أظن أن المليشيا نفسها لا تحقق في هذه الجرائم؟
- لقد حُلّت كل تلك القضايا على نحو غير صحيح، أو عُتّم عليها، أو أُلقي اللوم فيها على مجنون، أو عدو سياسي، أو سكّير، أو متشرّد. لم يثبت أحد وجود صلة بينها.
- وأنتما الاثنان تعملان معاً الآن...؟
تورّدت ريزا.
- نعم، نحن نعمل معاً.
- هل تثقين به؟
- نعم، أثق به.
اضطر ليو إلى التزام الصمت حين استجوب إيفان زوجته، ليتأكد من

telegram @ktabpdf

مكتبة الرمحي أحمد

سلامة علاقتهما أمامه.

- وخططتما معاً لحل هذه الجريمة؟

أجاب ليو:

- إذا لم تفعل الدولة ذلك، فعلى الشعب أن يقوم به.

- تتكلم مثل ثائر حقيقي، باستثناء أنك أمضيت حياتك كلها يا ليو وأنت تقتل من أجل الدولة. سواء أكان ذلك في الحرب أم السلم، سواء أكانوا ألماناً أم روساً، أم أي شخص آخر تقول الدولة لك إنها تكرهه. يُفترض بي الآن أن أصدّق أنك تتجاوز الخط الرسمي وتفكر من تلقاء نفسك؟ لا أصدق ذلك، وأظن أنها مكيدة. آسف يا ريزا، أظن أنه يحاول العودة إلى إ.أ.د. لقد خدعك، ويريد الآن أن يسلّمني إليهم.

- إنه لا يحاول ذلك يا إيفان. انظر إلى الدليل. هذا حقيقي، وليس خدعة ما.

- لم أعد أثق بدليل ورقي منذ وقت طويل، وعليك ألاّ تثقي به أنتِ أيضاً.

- لقد رأيت إحدى تلك الجثث، فتى صغير، استؤصلت معدته، ومُلئ فمه لحاءً. لقد رأيته يا إيفان، وكنت هناك. فعل أحدهم ذلك بفتًى صغير، وهو يستمتع بفعل ذلك ولن يتوقف، ولم تقبض الميليشيا عليه. أعرف أن لديك كل الحق في التشكيك فينا، لكنني لا أستطيع إثبات ذلك لك. إذا لم تكن تثق بي، فسأكون آسفة لأنني جئت إلى هنا.

تقدم ليو إلى الأمام مستعداً لجمع الملفات، لكن إيفان وضع يده على أعلاها.

- سألقي نظرة. أغلقا الستائر واجلسا لأنكما تجعلانني أتوتر.

بعد عزل الغرفة عن العالم الخارجي، جلس ليو وريزا بجانب إيفان وسردا تفاصيل القضية، وزوّداه بأكبر قدر من المعلومات ظنّا أنه مفيد، ثم لخص ليو استنتاجاته:

- يُقنَع هؤلاء الصغار بالذهاب معه. كانت آثار الأقدام في الثلج جنباً إلى جنب، مما يشير إلى أنّ الفتى قد وافق على المشي إلى داخل الغابة. وبالرغم من أن هذه الجريمة تبدو جنونية، إلا أن تواجد رجل مجنون يتجول في تلك الأماكن يبدو غير منطقي، ويجب أن يخيف مثل ذلك الرجل هؤلاء الصغار.

أومأ إيفان.

- نعم، أتفق معك.

- نظراً إلى صعوبة التحرك في هذا البلد من دون سبب وجيه، فلا بد من أن لديه عملاً يتطلب منه السفر. ويجب أن تكون لديه أوراق ووثائق، وأن يكون مندمجاً في مجتمعنا، ومقبولاً فيه، ويحظى بالاحترام. السؤال الذي لا يمكننا الإجابة عنه...

- لماذا يفعل ذلك؟

- كيف يمكنني إلقاء القبض عليه إذا لم أفهم السبب؟ ليست لدي صورة له في ذهني. أي نوع من الرجال هو؟ هل هو شاب أم عجوز؟ غني أم فقير؟ ليست لدينا ببساطة أي فكرة عن الشخص الذي نبحث عنه؛ باستثناء الأساسيات: أن لديه عملاً ويبدو، من الخارج على الأقل، سليم العقل. لكن ذلك يشمل كل شخص تقريباً.

كان إيفان يدخّن غليونه، واستوعب كل ما قاله ليو.

- أخشى أنني لا أستطيع مساعدتكما.

مالت ريزا إلى الأمام.

- لكن، لديك مقالات غربية عن ذلك النوع من الجرائم؛ عمليات القتل التي لا تحفّزها دوافع تقليدية؟

- بم ستفيدكما؟ ربما أستطيع أن أجمع بعض المقالات، لكنها لن تكون كافية لمنحكما صورة عن هذا الرجل. لا يمكنكما بناء صورة له من خلال مقالتين مثيرتين أو ثلاث من الصحافة الغربية.

استرخى ليو إلى الخلف. كانت تلك رحلة من دون طائل. وهناك شيء آخر يبعث على القلق أكثر من ذلك: هل أسندا إلى نفسيهما مهمة مستحيلة؟ كانا يفتقران على نحو كبير إلى الموارد المادية والفكرية لحل تلك الجرائم.

سحب إيفان نفساً من غليونه، وهو يراقب ردّ فعلهما.

- على أيّ حال، أعرف رجلاً قد يستطيع المساعدة. اسمه الأستاذ زاوزايز، وهو عالم نفس متقاعد، ومحقق سابق في إ.أ.د. فقد بصره، وأدّت إصابته بالعمى إلى تغيير آرائه؛ لقد أصابه تجلٍ، مثلك تماماً يا ليو. إنه الآن فاعل جداً في الدوائر السرية. يمكن أن تخبره بما قلته لي، وربما يستطيع مساعدتك.

- هل يمكننا الوثوق به؟

- كما تثقان بي.

- ماذا يستطيع أن يفعل بالضبط؟

- ستقرأ له هذه الوثائق، وتصف له الصور. ربما يستطيع إلقاء بعض الضوء على نوع الشخص الذي يفعل هذا: عمره، خلفيته؛ ذلك النوع من الأشياء.

- أين يعيش؟

- لن يسمح لكما بالذهاب إلى شقته. إنه شديد الحرص. سيأتي إلى هنا، إذا جاء أصلاً. سأبذل قصارى جهدي لإقناعه، لكنني لا أستطيع تقديم أي ضمانات.

ابتسمت ريزا.

- شكراً لك.

شعر ليو بالسعادة. كانت الاستعانة بخبير أفضل بالتأكيد من ترّهات صحفي ما. نهض إيفان، ووضع غليونه جانباً، وتحرك إلى الخزانة الجانبية حيث الهاتف.

كان لدى ذلك الرجل هاتف، في شقته، في منزله المرتب والمؤثث

telegram @ktabpdf

مكتبة الرمحي أحمد

جيداً. نظر ليو إلى تفاصيل الغرفة بإمعان، وشعر بأن هناك خطباً ما. لم تكن تلك شقة أسرة. لماذا يعيش في مثل تلك الرفاهية النسبية؟ وكيف استطاع الإفلات من الاعتقال؟ كان يجب أن يُلقى القبض عليه بعد نفيهما، وبالمحصلة، لدى إ.أ.د. ملف عنه. كان فاسيلي قد عرض الصور على ليو. كيف تفادى السلطات؟

تم إجراء الاتصال، وأخذ إيفان يتكلم آنذاك عبر الهاتف:

- أستاذ زاوزايز، أنا إيفان زوكوف. لديّ مهمة مثيرة للاهتمام وأحتاج إلى مساعدتك. لا يمكنني الحديث عنها عبر الهاتف. هل أنت جاهز الآن؟ هل يمكنك المجيء إلى شقتي؟ نعم، فوراً إذا كان ذلك ممكناً.

توتر جسد ليو. لماذا ناداه بالأستاذ إذا كانا مقرّبين جداً؟ لماذا يناديه بذلك اللقب إن لم يكن لأجلهما؟ كان ذلك خطأ، وكل شيء غلطة.

وثب ليو من مكانه، فتراجع كرسيه إلى الخلف، وأصبح في الطرف الآخر من الغرفة قبل أن تسنح لإيفان فرصة الرد، ثم أمسك بالهاتف ولفَّ شريطه حول عنق إيفان. وقف ليو خلف إيفان وهو يشدّه إلى الخلف، إلى زاوية الغرفة، ويخنقه، ويضيّق الشريط حول عنقه. أخذت ساقا إيفان تنزلقان فوق الأرضية المصقولة، ولهث وهو غير قادر على الكلام. نهضت ريزا عن الكرسي ذاهلة:

- ليو!

رفع ليو إصبعه، مشيراً لها أن تلتزم الصمت. مع بقاء الشريط ملتفاً حول عنق إيفان، رفع ليو السمّاعة إلى أذنه:

- أستاذ زاوزاير؟

كان هناك صمت في الجهة الأخرى، وأدرك ليو أنهم أنهوا المكالمة. كانوا في طريقهم إليهم.

- ليو، اتركه!

لكن ليو شدّ الشريط أكثر، وأصبح لون وجه إيفان أحمر.

- إنه عميل، يعمل متخفياً. انظري كيف يعيش. انظري إلى منزله. ليس هناك أستاذ زاوزايز. كان ذلك اتصالاً بأمن الدولة، وسيقومون باعتقالنا.

- ليو، أنت تقترف خطأ. أعرف هذا الرجل.

- إنه منشق زائف، مزروع في الدوائر السرية، ليكشف الأشخاص الآخرين المعادين للسلطة، ويجمع أدلّة ضدهم.

- ليو أنت مخطئ.

- ليس هناك أستاذ. إنهم في طريقهم إلينا. ليس لدينا وقت طويل يا ريزا!

كانت أصابع إيفان تمسك على نحو مسعور بالشريط. هزّت ريزا رأسها، ودفعت أصابعها تحت الشريط، وخففت الضغط عن عنقه.

- ليو، اتركه. اسمح له أن يثبت صدقه.

- ألم يجرِ اعتقال كل أصدقائك، كل واحدٍ منهم، باستثنائه هو؟ تلك المرأة زويا، من أين تظنين أن إ.أ.د. حصلت على اسمها؟ لم يعتقلوها على أساس صلواتها. كان ذلك عذرهم فقط.

غير قادر على تحرير نفسه، بدأت قدما إيفان تنزلقان على الأرضية، مما أرغم ليو على تحمّل ثقله كله، ولهذا لن يستطع أن يمسك به وقتاً طويلاً.

- ريزا، لم تتكلمي معي قط عن أصدقائك. لم تثقي بي من قبل. من الذي استودعته أسرارك؟ فكّري.

حدّقت ريزا إلى ليو ثم إلى إيفان. كان ذلك صحيحاً. كل أصدقائها إما موتى أو معتقلون، باستثنائه. هزّت رأسها، وهي ترفض أن تصدّق ذلك. كان ذلك جنون الارتياب السائد في تلك الأيام؛ الشك الذي تغذّيه الدولة بأن أي ادّعاء بغض النظر عن تماسكه كافٍ لقتل إنسان. رأت يد إيفان تمتد إلى درج الخزانة، فأفلتت السلك.

- ليو، انتظر!

- ليس لدينا وقت!

- انتظر!

فتحت الدرج، وبحثت فيه، فوجدت في الداخل أداة فتح رسائل حادّة؛ الأداة التي كان إيفان يمد يده إليها ليدافع عن نفسه. لم يكن بمقدورها لومه على ذلك. لكن، خلفها كان هناك كتاب، نسخته من لمن تقرع الأجراس. لماذا لم تكن مخبأة؟ رفعته لتكتشف ورقة في داخله، كتبت عليها لائحة بأسماء أشخاص أعارهم الكتاب، وبعض الأسماء مشطوبة، ومن بينها اسمها. رأت على الجهة الأخرى من الورقة لائحة بأسماء أشخاص ينوي إعارتهم الكتاب.

استدارت إلى إيفان، ورفعت الورقة إلى وجهه بيدٍ ترتعش. هل كان لديه تفسير بسيط؟ لا، كانت تعرف سلفاً أنه ليس لديه مثل ذلك التفسير. لن يكون أي منشق أحمق كفاية ليكتب لائحة بالأسماء. كان يعير الكتاب ليجرّم من يأخذه منه.

كان ليو يكافح للإمساك بإيفان.

- ريزا، استديري.

أطاعت، ومشت إلى الطرف الآخر من الغرفة، هي لا تزال تحمل الكتاب في يدها، وتصغي إلى ساقي إيفان وهما تركلان الأثاث.

مكتبة الرمحي أحمد

اليوم نفسه

نظراً إلى أنه عميل في أمن الدولة، كانت وفاة إيفان ستُعتبر فوراً جريمة؛ اعتداء اقترفه من دون شك شخص معارض للنظام، أو عنصر معاد للسوفييت؛ وسيُعتبر الجاني دخيلاً، مما سيؤدي إلى إطلاق تحقيق شامل. لم يكن هناك داعٍ إلى التعتيم على القضية. ولحسن حظ ليو وريزا بدا أن إيفان لديه أعداء كُثر من دون شك. فقد كان رجلاً عاش حياته وهو يغدر بمواطنين أبرياء، ويغويهم بوعده إياهم بإطلاعهم على مواد محظورة كما قد يجذب مفترسٌ ضحيته بطُعم مغرٍ. كانت الدولة تقدم له هذه المواد المحظورة.

قبل أن يغادرا الشقة، كانت ريزا قد أخذت لائحة الأسماء، وجعّدت الورقة ووضعتها في جيبها، في حين جمع ليو ملف القضية بسرعة. لم تكن لديهما فكرة عن الوقت الذي سيمضيه عملاء أمن الدولة في الاستجابة لاتصال إيفان. فتحا الباب، ونزلا جرياً على السلالم قبل أن يتظاهرا بالهدوء ويمشيا مبتعدين. عندما وصلا إلى نهاية الشارع نظرا إلى الخلف وشاهدا عملاء يدخلون المبنى.

لم يكن أحد في موسكو لديه أي سبب للاعتقاد بأن ليو وريزا قد عادا إليها، ولن يكونا موضع شبهة فوراً. سيتأكد الضباط المسؤولون عن التحقيق من إ.أ.د. في فوالسك إذا خطر لهم ذلك الاحتمال، وسيكتشفون أنهما كانا في عطلة تخييم. سيصمد عذرهما ذاك إلا إن قال شاهدٌ ما إن رجلاً وامرأة دخلا المبنى السكني، وإذا حدث ذلك فستخضع حجة غيابهما إلى تمحيص شديد. لكن ليو كان يعرف أن كل تلك الحقائق ليست ذات شأنٍ كبير. فحتى

في غياب أي دليل، يمكن الاستفادة من تلك الوفاة كذريعة لاعتقالهما وإن كانا في عطلة تخييم حقاً. لم تكن قوة الدليل مهمة.

كانت محاولته رؤية والديه في مأزقهما آنذاك عملاً وقحاً جداً. لكن، لم يكن هناك قطار يعود إلى فوالسك حتى الخامسة صباحاً، والأهم أن ليو يعرف تماماً أن تلك ستكون فرصته الأخيرة للحديث إليهما. وبالرغم من منعه من الاتصال بهما منذ مغادرته موسكو وجهله تفاصيل مكانهما، إلا أنه استطاع الحصول على العنوان قبل عدّة أسابيع. كان يعرف أن أقسام أمن الدولة تنزع إلى العمل باستقلالية، ولهذا شعر بأن هناك فرصة بألاّ يثير سؤالٌ إلى وزارة الإسكان عن ستيفان وآنا الشك تلقائياً ويُمرّر إلى إ.أ.د. كان قد زوّدهم باسم مزيف كتدبير احترازي، وحاول جعل طلبه يبدو شأناً رسمياً، فسأل عن مجموعة من الأسماء، ومن بينهم غالينا شابورينا. وبالرغم من أنه لم يحصل على أي معلومة مفيدة بشأن كل الأسماء الأخرى، إلا أنه استطاع تحديد مكان والديه. ربما كان فاسيلي يتوقع مثل تلك المحاولة. وبالفعل، ربما يكون قد أصدر أوامره بالكشف عن العنوان، فهو يعرف أن نقطة ضعف ليو في المنفى ستكون والديه، وإذا أراد القبض عليه لخرقه الأوامر فسيكون والداه الفخ المثالي. لكن، بدا مستبعداً أن يكون والداه تحت مراقبة دائمة منذ أربعة شهور، والأكثر ترجيحاً أن يكون أفراد الأسرة الذين أُرغموا على مشاركتهم المنزل مخبرين. كان عليه الوصول إلى والديه من دون أن يراه أفراد الأسرة الأخرى أو يسمعوه أو يعرفوا ذلك؛ لأن سلامة والديه وسلامته أيضاً تعتمدان على هذه السرية. إذا أُلقي القبض عليهما، فستظهر علاقتهما بمقتل إيفان، وسيموت أفراد أسرة ليو كلهم، ربما قبل انقضاء الليلة. كان ليو مستعداً للمجازفة، ويريد أن يودّعهما.

وصلا إلى أوليتسا فورونتسوفسكايا، وكان المنزل المقصود في مبنى قديم مبني قبل الثورة، من النوع الذي قُسّم إلى مئة شقة صغيرة فُصلت بملاءات متسخة تتدلى من حبال طويلة. لم تكن هناك خدمات، أو ماء

telegram @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

متدفق، أو مراحيض داخلية. رأى ليو أنابيب تبرز من النوافذ لإخراج الدخان من مواقد الحطب، وهو أرخص أشكال التدفئة المتوافرة وأكثرها تلويثاً. انتظرا على بعد مسافة آمنة وراقبا العقار ووقف البعوض على عنقيهما ما أرغمهما على ضرب جلديهما باستمرار حتى تلطخت يداهما بدم البعوض. كان ليو يعرف أنه بغض النظر عن المدة التي يقف فيها هناك، فليست هناك طريقة يتحقق بها من وجود فخٍّ لهما، وأن عليه دخول المبنى. استدار إلى ريزا التي قالت قبل أن يتكلم:

- سأنتظر هنا.

شعرت ريزا بالخجل، فقد وثقت بإيفان، ورأيها به استند فقط إلى زخارف كتبه وأوراقه، وتأملاته في الثقافة الغربية، وخططه المزعومة لمساعدة كتّاب منشقين بارزين على تهريب أعمالهم إلى الغرب. كلها أكاذيب. كم عدد الكتّاب والمناهضين للنظام الذين أوقعهم في الفخ؟ كم عدد المخطوطات التي أُحرقت وخسرها العالم؟ كم عدد الفنانين والمفكرين الأحرار الذين وجّه شيكا إلى اعتقالهم؟ كانت قد أُعجبت به بسبب اختلافاته الواضحة عن ليو. كان الفرق مقنّعاً، فالمنشقّ شرطيّ، في حين أصبح الشرطي داعماً للثورة. لقد خانها المنشق، وأنقذها الشرطي. لم يكن بمقدورها توديع والدي ليو، جنباً إلى جنب مع زوجها؛ وكأنها زوجة محبّة ووفية. أمسك ليو بيدها.

- أودّ أن تأتي معي.

لم يكن باب المبنى موصداً، وكان الهواء في الداخل حاراً وخانقاً وبدأا يتعرّقان فوراً. التصقت ثيابهما بظهريهما. وجدا باب الشقة 27 موصداً. كان ليو قد دخل عنوةً إلى عدّة عقارات، والأقفال القديمة أصعب عادة من الحديثة. باستخدام طرف نصل سكين، فكَّ براغي اللوحة، وكشف عن ميكانيكية القفل، وأدخل النصل إليها، لكن القفل لم يُفتح. مسح العرق عن وجهه، وتوقف لحظة، ثم تنفس بعمق، وأغمض عينيه. جفف يديه بسرواله،

telegram @ktabpdf مكتبة الرمحي أحمد

متجاهلاً البعوض. فتح عينيه، وركّز. فطقطق القفل حين فُتح.

جاء الضوء الوحيد من النافذة المتواجدة قبالة الشارع، وشمّا رائحة أجساد نائمة في الغرفة. انتظر ليو وريزا بجانب الباب، حتى اعتادت عيونهما الظلام، ثم استطاعا تمييز شكل ثلاثة أسرّة: سريران يحمل كل منهما زوجاً راشداً، فيما بدا أن سريراً أصغر حجماً يضم ثلاثة أطفال ينامون عليه، في حين ينام في منطقة المطبخ طفلان صغيران على بساطٍ على الأرض مثل كلبين. تحرك ليو نحو الراشدين النائمين، لكن لم يكن أي منهما والديه. هل حصل على العنوان الخطأ؟ كان الافتقار إلى الكفاءة مألوفاً. ربما زُوّد بالعنوان الخطأ عمداً؟

رأى ليو شكل باب آخر فتحرك نحوه، وصرّت ألواح الأرضية تحت وقع خطواته. كانت ريزا خلفه مباشرة، تسير بخطواتٍ أخف كثيراً. بدأ الزوجان في السرير الأقرب يتحرّكان، فتوقف ليو، وهو ينتظر أن يهدأا. بقي الزوجان نائمين، فتابع ليو طريقه، وتبعته ريزا. مدّ يده وأمسك مقبض الباب.

لم تكن هناك نوافذ في تلك الغرفة، أو ضوء من أي مصدر. اضطر ليو إلى إبقاء الباب مفتوحاً؛ كي يتمكن من الرؤية. استطاع أن يميز وجود سريرين تفصلهما مسافة صغيرة فقط، وليست هناك حتى ملاءة متسخة بينهما. كان على أحد السريرين طفلان، وعلى الآخر زوجان راشدان. اقترب أكثر وتبين له أنهما والداه، وأنهما ينامان متلاصقين في سرير مفرد ضيق. توقف ليو، وعاد إلى ريزا وهمس:

- أغلقي الباب.

مرغماً على التحرك في ظلام دامس، تحسس ليو طريقه إلى السرير حتى جثم على الأرض بجانب والديه. أصغى إليهما وهما نائمان، مسروراً لأن المكان معتم، ثم بدأ يبكي. كانت الغرفة التي أُرغما على العيش فيها أصغر من حمّام شقتهما السابقة، لم يكن لديهما حيّز خاص بهما أو طريقة يعزلان بها نفسيهما عن باقي أفراد تلك الأسرة. شعر أنهما قد أُرسلا إلى

ذلك المكان ليموتا ذليلين.

وضع يديه فوق فميهما في الوقت نفسه بالضبط، وشعر بهما يستيقظان، وهما يشعران بالفزع والتوتر. همس ليمنعهما من الصراخ:

- هذا أنا ليو. لا تصدرا صوتاً.

اختفى التوتر عن جسديهما، فرفع يديه عن فميهما. استطاع سماعهما وهما يجلسان، وشعر بيدي والدته على وجهه، فقد كانت تلامسه من دون أن تراه في الظلام. توقفت أصابعها عن الحركة حين أحسّت بدموعه، وسمع صوتها وهي بالكاد تهمس:

- ليو...

انضمت يدا والده إلى يديها، ووضع ليو أيديهما على وجهه. كان قد أقسم على العناية بهما وفشل في ذلك، وكل ما استطاع فعله هو أن يتمتم:

- أنا آسف.

رد والده:

- لا شيء تعتذر عنه. كنا سنعيش على هذه الحال طوال عمرنا لو لاك أنت.

قاطعته والدته، وقد تذكر ذهنها كل الأسئلة التي أرادت أن تطرحها:

- ظننا أنك ميت. قيل لنا إن كليكما قد اعتُقلتُما.

- كذبوا. لقد أُرسلنا إلى فوالسك. أُخفضت رتبتي، لكنني لم أُسجن. وأنا الآن أعمل مع المليشيا. كتبت إليكما عدّة مرات، وطلبت إيصال الرسائل إليكما، لكن لا بد من أنهم قد اعترضوها وأتلفوها.

تحرّك الطفلان في السرير القريب، وطقطق هيكل سريرهما. أطبق الصمت على الجميع، وانتظر ليو حتى استطاع سماع أنفاس الطفلين البطيئة والعميقة.

- ريزا هنا.

نقل أيديهما إليها، وأمسك الأربعة أيدي بعضهم بعضاً. سألت والدته:

telegram @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

- الطفل؟

- لا.

أضاف ليو، وهو لا يريد أن يعقّد لمَّ الشمل ذاك:

- إجهاض.

تكلمت ريزا مجدداً، وصوتها يجيش عاطفة:

- آسفة.

- هذا ليس خطَأَكِ.

أضافت آنا:

- إلى متى ستبقى في موسكو؟ هل يمكننا أن نلتقي غداً؟

- لا، يجب ألاّ نكون هنا أصلاً. إذا أُلقي القبض علينا فسنُسجن، وأنتما أيضاً. سنغادر في الصباح الباكر.

- هل يجب أن نخرج حتى نستطيع أن نتكلم؟

فكّر ليو في ذلك. لم تكن هناك طريقة يغادرون بها الشقة من دون أن يوقظوا بعض أفراد الأسرة.

- لا يمكن أن نخاطر بإيقاظهم. يجب أن نتكلم هنا.

لم يتكلم أحد لبعض الوقت، أربعة أزواجٍ من الأيدي تتشابك معاً في الظلام. قال ليو أخيراً:

- يجب أن أعثر لكما على مكان أفضل لتعيشا فيه.

- لا يا ليو. أصغِ إلي. لقد تصرّفت دائماً وكأن حبنا لك يعتمد على الأشياء التي يمكن أنَ تفعلها لنا؛ حتى حين كنت طفلاً. ذلك ليس صحيحاً. يجب أن تركز على حياتك. نحن عجوزان، ولم يعد مكان إقامتنا مهماً. الشيء الوحيد الذي أبقانا على قيد الحياة هو انتظار نبأ ما منك. يجب أن نقبل أن هذه هي المرة الأخيرة التي نلتقي فيها، وألاّ نضع خططاً لا طائل منها. يجب أن نودّع بعضنا بعضاً ما دامت الفرصة سانحة. ليو، أحبك وأنا فخورة بك، وأتمنى أن نحظى بحكومة أفضل نخدمها.

كان صوت آنا هادئاً آنذاك:

- لديكما بعضكما بعضاً، وأنتما تحبان بعضكما. ستحظيان بحياة جيدة، أنا واثقة من ذلك. ستكون الأوضاع مختلفة لكما ولأولادكما. ستكون روسيا مختلفة؛ آمل ذلك.

كان ذلك خيالاً، لكنها استمتعت بتصديقه، ولم يقل ليو شيئاً ليعارضه.

أمسك ستيفان يد ليو، ووضعها على مغلف.

- هذه رسالة كتبتها إليك قبل عدّة شهور. لم تسنح لي قط فرصة إعطائك إياها؛ لأنك أبعدت عن هذا المكان. لم أرغب في إرسالها عبر البريد. اقرأها حين تصبحان بأمان على متن القطار. عدني ألاّ تقرأها قبل ذلك. عدني.

- ما هذا؟

- فكّرتُ ووالدتك ملياً في مضمون هذه الرسالة. إنها تضم كل ما أردنا قوله لك، لكننا لم نستطع ذلك لسبب أو لآخر. تضم كل الأشياء التي كان يجب أن نتكلم عنها قبل وقت طويل.

- أبي...

- خذها يا ليو، من أجلنا.

قبل ليو الرسالة، وتعانق الأربعة في الظلام للمرة الأخيرة.

telegram @ktabpdf

مكتبة الرمحي أحمد

6 حزيران

اقترب ليو من القطار، وريزا بجانبه. هل كان هناك جنود أكثر من المعتاد على الرصيف؟ هل كان من الممكن أنهم يبحثون عنهما آنذاك؟ كانت ريزا تمشي بسرعة كبيرة، فأمسك ليو يدها لوقت قصير فأبطأت. كانت الرسالة التي كتبها والداه مخفية مع ملف القضية المثبّت على صدره. وصلا تقريباً إلى عربتهما.

صعدا على متن القطار المزدحم، وهمس ليو في أذن ريزا:

- ابقي هنا.

أومأت. دخل المرحاض الضيق، وأوصد الباب خلفه، وأنزل غطاء الكرسي ليخفف من الرائحة، ثم خلع سترته، وفك أزرار قميصه، ونزع الكيس القطني الرقيق الذي خاطه لوضع ملف القضية، واكتشف أنه مبلل بالعرق والحبر من الوثائق المطبوعة التي تركت أثراً على جلده، وكتابة ظاهرة على صدره.

وجد الرسالة، فقلبها في يده. لم يكن هناك اسم على المغلف الذي كان مجعداً ومتّسخاً. تساءل كيف استطاع والداه إبقاءها سراً عن باقي أفراد الأسرة الذين بحثوا بالتأكيد في مقتنياتهما. لا بد من أن أحدهما قد احتفظ بالرسالة معه طوال الوقت، صباحاً ومساءً.

بدأ القطار يتحرك مغادراً موسكو. كان سيفي بوعده، ولم يكن من المفترض أن يقرأها الآن. انتظر حتى غادروا المحطة قبل أن يفتح المغلف، ويفض الرسالة التي كانت بخط يد والده.

telegram @ktabpdf

مكتبة الرمحي أحمد

ليو، ليست لدينا أنا وأمك أي دواعٍ للأسف. نحبك. توقعنا دائماً أن يأتي يوم نتكلم فيه معك عن هذه القضِية. لكن، لدهشتنا لن يحلّ ذلك اليوم أبداً. ظننا أنك ستثير المسألة حين تصبح مستعداً، لكنك لم تفعل قط، وتصرفت دائماً وكأن شيئاً لم يحدث. ربما كان الأسهل أن تعلّم نفسك النسيان؟ لهذا السبب لم نقل شيئاً. ظننا أن تلك هي طريقتك في التعامل مع الماضي، وكنا نخشى أن تكون قد محوتها من حياتك وألاّ تسبب إثارتها مجدداً إلا الألم والأذى. باختصار، كنا سعيدين معاً ولم نرغب في إفساد ذلك. كان ذلك جُبناً منا.

أقول مرة أخرى، كلانا - أنا وأمك - نحبك كثيراً، وليس لدينا ما نندم عليه.

ليو.

توقف ليو عن القراءة، وأدار رأسه بعيداً. نعم، كان يتذكر ما قد حدث، ويعرف ما سيُذكَر في الرسالة. ونعم، لقد أمضى حياته كلها وهو يحاول نسيان ذلك. طوى الرسالة قبل أن يمزّقها بعناية إلى قطع صغيرة. ثم نهض، وفتح النافذة الصغيرة، ورمى القطع الممزّقة، فارتفعت مربعات الورق غير المنتظمة في الهواء، واختفت عن الأنظار.

telegram @ktabpdf مكتبة الرمحي أحمد

جنوب شرقي منطقة روستون
ستة عشر كيلومتراً شمالي
روستوف - أون - دون

اليوم نفسه

كان نستروف قد أمضى يومه الأخير في المنطقة وهو يزور بلدة جوكوف. وها هو يستقل الآن \الإلكتريكا\ عائداً إلى روستوف. وبالرغم من أن الصحف لم تأتِ على ذكر تلك الجرائم، إلا أن حوادث قتل الصغار قد دخلت نطاق العامة على شكل همسات وإشاعات. كانت المليشيا في مراكزها المحلية قد أصرّت حتى ذلك الوقت على أن تنظر إلى كل جريمة بوصفها حادثة معزولة، لكن الناس خارج المليشيا، غير المثقلين بأي نظرية تتعلق بطبيعة الجريمة، شرعوا يربطون تلك الوفيات ببعضها، وبدأت تفسيرات غير رسمية تنتشر بينهم. سمع نستروف أحدهم يقول إن هناك وحشاً برياً يقتل الأولاد في الغابات حول شاختي، وظهرت في مناطق مختلفة وحوش مختلفة، وتكرّرت تفسيرات خارقة للطبيعة من نوعٍ أو آخر في كل أنحاء المنطقة. وتناهى إلى مسامعه أن أماً خائفة زعمت أنَ الوحش كان نصف إنسان ونصف حيوان، طفلاً ربّته الدببة وأصبح يكره آنذاك كل الأولاد العاديين، ويجعلهم مصدراً لغذائه.

لم تكن لدى الناس الذين يعيشون في منطقة روستوف أي فكرة عن وقوع جرائم مماثلة على بعد مئات الكيلومترات. وكانوا يظنون أن تلك مصيبتهم وحدهم. وأنّ هناك شرًّا حلَّ بهم؛ وبطريقة ما اتفق نستروف معهم في ذلك. لم يكن هناك أي شك في ذهنه في أنه متواجد في قلب منطقة تلك

telegram @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

الجرائم، فتركيز عمليات القتل أعلى هناك من أي مكان آخر. وبالرغم من عدم وجود أي نزعة لديه لتصديق تفسيرات الظواهر الخارقة للطبيعة، إلا أنه صدّق نوعاً ما النظرية الأكثر إقناعاً وانتشاراً، وهي أن جنوداً نازيين بقوا هناك ليقوموا بآخر أفعال هتلر الانتقامية. فقد كانت آخر أوامرهم قتل صغار روس. كان هؤلاء الجنود النازيون مدرّبين على طريقة العيش الروسية، وعلى الاعتياد عليها والتأقلم معها، في حين يقتلون الأولاد على نحو منتظم، وفقاً لطقوس محددة سلفاً؛ مما يُفسِّر ذلك نطاق الجرائم، والتوزّع الجغرافي، والوحشية، وفي الوقت نفسه غياب أي اعتداء ذي طابع جسدي. لم يكن هناك قاتل واحد، وإنما عدّة قتلة. وربما يصل العدد إلى عشرة أو اثني عشر قاتلاً، يتصرف كل منهم باستقلالية، ويسافر إلى بلدات ويقتل من دون تمييز. كانت تلك النظرية قد اكتسبت زخماً دفع بعض أفراد المليشيا المحلية الذين زعموا مغالطةً أنهم قد حلّوا كل الجرائم، إلى استجواب أي شخص يتكلم الألمانية.

نهض نستروف، ومدّ ساقيه؛ فقد كان على متن إلكتريكا منذ ثلاث ساعات. كان القطار بطيئاً ومتعِباً ولم يكن نستروف معتاداً على الجلوس ساكناً لوقت طويل. مشى على طول العربة، وفتح النافذة، وشاهد أضواء المدينة تقترب. بعد أن سمع عن مقتل فتى يدعى بتيا كان يعيش في مزرعة جماعية قرب جوكوف، قرر السفر إلى هناك في صباح ذلك اليوم، ووجد من دون صعوبة تُذكَر والدي الفتى المعني. بالرغم من أنه قدّم اسماً زائفاً إلا أنه شرح بصدق أنه يعمل في التحقيق بشأن جرائم مماثلة تعرض لها عدد من الصغار. كان والدا الفتى مدافعين مخلصين عن نظرية الجنود النازيين، وشرحا أن الألمان ربما تلقوا عوناً أيضاً من قبل أوكرانيين خائنين، ساعدوهم على الاندماج في المجتمع قبل أن يقتلوا بشكل عشوائي. عرض والد الفتى على نستروف كتاب طوابع بتيا، الذي كان يحفظه في صندوق خشبي تحت سريرهما، وأصبح شيئاً مبجلاً مرتبطاً بابنهما المتوفَّى. لم يكن

telegram @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

بمقدور أي منهما النظر إلى الطوابع من دون أن يبكي، وقد رُفض طلب كلا الوالدين في الحصول على جثة ابنهما، لكنهما سمعا ما حدث له. بدا أنه قد تعرض لهجوم وحشي من حيوان، ومُلئ فمه تراباً ليزيد ذلك غيظهما. كان الوالد، الذي قَاتل في الحرب الوطنية العظمى، يعرف أن الجنود الألمان قد أُعطوا عقاقير ليكونوا أشراراً، وغير أخلاقيين، وعديمي الرحمة. وبدا واثقاً أن هؤلاء القتلة نتاج مثل ذلك العقار الذي ابتكره النازيون. ربما أصبحوا مدمنين على دم الأطفال، وسيموتون من دونه. كيف يمكن لهؤلاء الرجال أن يقترفوا تلك الجرائم لولا ذلك؟ لم تكن لدى نستروف كلمات عزاء باستثناء وعده بأنه سيُلقى القبض على الجاني.

وصل إلكتريكا إلى روستوف، فترجل منه نستروف، واثقاً فقط بأنه سيعثر على مركز تلك الجرائم. ونظراً إلى كونه عضواً في مليشيا روستوف في الماضي؛ قبل نقله إلى فوالسك منذ أربعة أعوام، لم يكن سيواجه صعوبة في جمع المعلومات. ووفقاً لأحدث إحصاء له، لقي سبعة وخمسون ولداً حتفهم غيلة في ظروف متشابهة. وقد وقع عدد كبير من تلك الجرائم في تلك المنطقة. هل من الممكن أن يكون هناك متسللون نازيون مختبئون على امتداد النصف الغربي من البلاد برمّته؟ كان الرايخ قد احتل مساحة شاسعة من البلاد. ولقد قاتل هو بنفسه في أوكرانيا، ورأى بأم عينيه جرائم السلب والقتل التي قام بها الجيش المهزوم. قرر ألاّ يلتزم بنظرية أو بأخرى، ونحّى تلك التفسيرات جانباً. كانت مهمة ليو في موسكو بالغة الأهمية؛ لإضفاء صبغة مهنية على تخمين هوية القاتل، في حين تولّى نستروف جمع الحقائق المتعلقة بمكان المجرم.

كانت أسرته تقيم في أثناء العطلة في شقة والدته في المستوطنة الجديدة التي بُنيت وفقاً لأحد برامج الإسكان بعد الحرب، وتتمتع بكل الخصائص المعتادة. فقد شُيّدت لتحقق رقماً معيناً، وليس للعيش فيها. كانت تلك الشقق في حالٍ يرثى لها آنذاك. فهي متهالكة قبل أن ينتهي بناؤها.

telegram @ktabpdf

مكتبة الرمحي أحمد

كانت تشبه منزله في فوالسك، وليس فيها ماء متدفق أو تمديدات صحية. وقد اتفق وإنسا على أن يكذبا على والدته، ويؤكدا لها أنهما يعيشان الآن في شقة جديدة. جعلت تلك الكذبة والدته تشعر بالارتياح، وكأنها هي التي تعيش في شقة جديدة. نظر نستروف إلى ساعته حين اقترب من منزل والدته. فقد غادر عند الساعة السادسة صباحاً، وها هو يعود عند التاسعة مساءً، وقد انقضت خمس عشرة ساعة من دون الحصول على معلومات حقيقية. كانت إجازته قد انتهت، وسيعودون غداً إلى منزلهم.

دخل الساحة، ورأى غسيلاً معلقاً على حبال تمتد من طرف إلى آخر. استطاع تمييز ثيابه بينها، فمسّها ليكتشف أنها جافة. تحرك بين الغسيل واقترب من باب شقة والدته، ثم دخل المطبخ.

كانت إنسا تجلس على مقعد خشبي، وجهها ملطخ بالدماء، ويداها موثقتان، فيما وقف خلفها رجل لم يعرفه. تقدم نستروف بخطوات واسعة إلى الأمام، وهو يستشيط غضباً من دون أن يعرف ما قد حدث، أو هوية ذلك الرجل، ومن دون أن يكترث ببزّته الرسمية؛ سيقتله أياً يكن. رفع قبضته، لكن قبل أن يقترب منه شلَّ الألم يديه، وعندما نظر إلى جانبه رأى امرأة تبلغ من العمر نحو أربعين سنة وهي تحمل هراوة سوداء. كان قد رأى وجهها من قبل، وتذكرها؛ كانت على الشاطئ، قبل يومين. كانت تحمل بيدها الأخرى مسدساً، وتستمتع بموقف القوة ذاك، وأشارت إلى الجندي الذي تقدم إلى الأمام ورمى مجموعة من الأوراق على الأرض. سقطت حول قدمي نستروف كل وثيقة كان قد جمعها في الشهرين الماضيين: الصور، والأوصاف، والخرائط؛ ملف قضية الأولاد المقتولين.

- جنرال نستروف، أنت رهن الاعتقال.

telegram @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

فوالسك

7 تموز

ترجل ليو وريزا من القطار، وانتظرا على الرصيف، وهما يتظاهران بأنهما يرتّبان حقيبتيهما حتى انتقل كل الركاب الآخرين إلى المبنى الرئيس. كان الوقت متأخراً لكن الظلام لم يحلّ بعد، وشعرا بأنهما مكشوفان فنزلا عن الرصيف، وأسرعا إلى الغابة.

عندما وصلا إلى البقعة التي كانا قد خبأا فيها أغراضهما، توقف ليو وهو يلتقط أنفاسه، ثم حدّق إلى الأشجار مستغرباً من تمزيقه الرسالة. هل سبّب أذًى لوالديه؟ كان يعرف سبب رغبتهما في كتابة أفكارهما ومشاعرهما؛ فقد أرادا أن يحققا سلامهما الداخلي، لكن ريزا كانت محقة بشأنه حين قالت:

هل تلك هي الطريقة التي تخلد فيها إلى النوم في الليل،
بأن تمحو كل شيء من ذهنك؟

كانت محقة أكثر مما يعرف.

مسّت ريزا ذراعه.

- هل أنت بخير؟

سألته عن مضمون الرسالة، وفكّر في الكذب عليها وإخبارها أنها تحتوي معلومات عن أسرته؛ تفاصيل شخصية كان قد نسيها. لكنها كانت ستعرف فوراً أنه يكذب. ولهذا بدلاً من ذلك، أخبرها أنه قد أتلف الرسالة، ومزّقها إلى مئة قطعة، ورماها خارج النافذة. لم يرغب في أن يقرأها، وكان بمقدور والديه أن يرتاحا لظنّهما أنهما قد حرّرا نفسيهما من عبء ثقيل. لم تناقش قراره أو تذكره بعد ذلك مما أثار ارتياحاً في نفسه.

استخدما أيديهما وحفرا تحت غطاء الأوراق والتراب، ثم نبشا أغراضهما. خلعا الثياب التي لبساها في المدينة، ليستبدلاها بالملابس التي كانا قد خرجا بها؛ وذلك جزء ضروري من تمويههما. كانا بمفردهما، وعاريين. حدّقا إلى بعضهما، وشعر ليو برغبة عارمة تجاهها ربما بسبب الخطر المحدق بهما، أو رغبة منه في انتهاز الفرصة، لكنه لم يكن واثقاً من مشاعرها نحوه، ولهذا لم يفعل شيئاً. كان خائفاً من القيام بالخطوة الأولى؛ وكأنهما لم يقيما علاقة من قبل، أو أن تلك هي المرة الأولى لكل منهما، وهما لا يعرفان الحدود أو ما يُعدُّ مقبولاً أو غير مقبول. مدّت يدها، ولامست يده، وكان ذلك كافياً. جذبها نحوه، وقبّلها. كانا قد قتلا معاً، وخدعا معاً، حاكا مكائد وخططا وكذبا معاً. إنهما مجرمان، كلاهما، ضد العالم، وقد حان وقت إكمال تلك العلاقة الجديدة. تمنيا لو أنهما يستطيعان البقاء هنا، والعيش هنا في هذه اللحظة بالضبط، مختبئين في الغابة، وهما يستمتعان بهذه المشاعر إلى الأبد.

* * *

عادا مجدداً إلى درب الغابة، ومشيا إلى البلدة، وعندما وصلا إلى مطعم باساروف، دخلا القاعة الرئيسة. كان ليو يلتقط أنفاسه، ويتوقع أن تمسك يدان كتفيه. لكن، لم يكن هناك أحد. لم يكن هناك عملاء أو جنود. كانا بأمان، على الأقل يوماً آخر. شاهدا باساروف في المطبخ لكنه لم يلتفت حين سمعهما يصلان.

في الأعلى، فتحا باب غرفتهما ووجدا رسالة دُفعت تحته. وضع ليو حقيبته على السرير، ثم أمسك الرسالة التي كانت من نستروف، بتاريخ ذلك اليوم.

ليو، إذا عدت اليوم كما هو مخطط، فلتقصدني الليلة في مكتبي عند الساعة التاسعة. تعال وحدك، وأحضر كل الوثائق المتعلقة بالقضية التي ناقشناها. ليو، مهم جداً ألاّ تتأخر.

نظر ليو إلى ساعته، ووجد أن لديه نصف ساعة فقط.

اليوم نفسه

لم يكن ليو ليقدم على أي مجازفات حتى بعد عودته إلى مقر قيادة المليشيا. لذا، أخفى الأوراق في وثائق رسمية. كانت ستائر مكتب نستروف مسدلة، وكان من المستحيل رؤية ما بداخله. نظر ليو إلى ساعته: كان متأخراً دقيقتين. لم يفهم أهمية ذلك الأمر على نحو خاص، لكنه قرع الباب الذي فُتح فوراً تقريباً؛ وكأن نستروف ينتظره خلفه. جُذب ليو إلى الداخل بحركة سريعة ومفاجئة على نحو لا يمكن تفسيره، وأُغلق الباب خلفه.

كان نستروف يتحرك كيفما اتفق بنفاد صبر، وطاولته مغطاة بوثائق من ملف القضية. أمسك بكتفي ليو وتكلم بصوت خافت وعلى عجل:

- أصغِ إلي جيداً ولا تقاطعني. لقد اعتُقلت في روستوف، وأُجبرت على الاعتراف. لم يكن لدي خيار، فقد احتجزوا أسرتي. أخبرتهم كل شيء. ظننت أنني أستطيع إقناعهم بمساعدتنا، إقناعهم بأن يرفعوا قضيتنا إلى مستوى رسمي. نقلوا ذلك إلى موسكو، لكنهم اتهمونا بإثارة قلاقل مناهضة للسوفييت. إنهم يظنون أن هذا ثأر شخصي قمتَ به ضد الدولة، وأنه عمل انتقام. لقد اعتبروا ما اكتشفناه شيئاً متقناً من الدعاية الغربية. إنهم واثقون أنك وزوجتك تعملان جاسوسين. وقدّموا لي خياراً؛ إنهم مستعدون لترك أفراد أسرتي إذا سلمتك وكل المعلومات التي جمعناها لهم.

انهار عالم ليو، فبالرغم من معرفته أن الخطر وشيك، إلا أنه لم يتوقع أن يعترض طريقه الآن.

- متى ؟

telegram @ktabpdf

مكتبة الرمحي أحمد

- الآن. المبنى محاصر، وسيدخل العملاء هذه الغرفة بعد خمس عشرة دقيقة. سيعتقلونك في هذا المكتب، وسيأخذون كل دليل حصلنا عليه. يُفترض بي أن أمضي هذه الدقائق في معرفة أي معلومات اكتشفتها في موسكو.

تراجع ليو إلى الخلف، ونظر إلى ساعته، ورأى أنها التاسعة وخمس دقائق.

- ليو، يجب أن تصغي إلي. هناك طريقة لتهرب بها. لكن، ليجدي هذا نفعاً، يجب ألاّ تقاطعني، أو تطرح أي أسئلة. لقد استنبطت خطة. ستضربني بمسدسك، وتجعلني أفقد الوعي، ثم ستغادر هذا المكتب. ستنزل طابقاً واحداً، وستختبئ في أحد المكاتب إلى يمين السلالم. ليو، هل تسمعني؟ يجب أن تركّز. الأبواب ليست موصدة. اذهب إلى هناك، لا تُضئ النور وأوصد الأبواب خلفك.

لكن ليو لم يكن يصغي، فكل ما استطاع التفكير فيه هو زوجته.

- وريزا؟

- إنها تُعتقل في أثناء حديثنا. آسف. لكن، لا يمكنك فعل شيء لها. يجب أن تركّز يا ليو، أو سينتهي هذا.

- لقد انتهى هذا. انتهى الأمر في اللحظة التي أخبرتَهم فيها كل شيء.

- لديهم كل شيء يا ليو. لديهم عملي، وملفي. ماذا كان يفترض بي أن أفعل؟ أأتركهم يقتلون أفراد أسرتي؟ كانوا سيعتقلونك بعد ذلك. ليو، يمكن أن تغضب مني، أو يمكنك أن تهرب.

حرّر ليو نفسه من قبضة نستروف، ومشى في مكتبه، وذهنه يحاول التفكير في ذلك. لقد اعُتقلت ريزا، وكان كلاهما يعرفان أن هذه اللحظة ستأتي، لكنها بدت بالنسبة إليهما مجرّد فكرة فقط، ولم يفكرا في معناها. جعل احتمال عدم رؤيتها مجدداً تنفّسه صعباً، فقد كانت علاقتهما المولودة حديثاً، قبل ساعتين فقط في الغابة قد انتهت.

- ليو!

ما الذي ستطلبه منه ريزا؟ لن ترغب في أن يكون عاطفياً، وإنما أن ينجح، ويهرب، ويصغي السمع.

- ليو!

- حسناً، ما خطتك؟

تابع نستروف، ملخِّصاً الجزء الأول:

- ستضربني بمسدسك، وتجعلني أفقد الوعي، ثم ستغادر هذا المكتب، وستنزل طابقاً واحداً وتختبئ في أحد المكاتب إلى يمين السلالم. اختبئ في أحد تلك المكاتب، وانتظر حتى يدخل العملاء المبنى. سيصعدون إلى هذا الطابق، وسيتجاوزونك، وعندما يفعلون ذلك، انزل إلى الطابق الأرضي، واخرج عبر إحدى النوافذ في الخلف. ستجد سيارة هناك، إليك المفاتيح، ستكون قد سرقتها مني. يجب أن تغادر البلدة، ولا تنظر إلى أي شخص أو تتوقف لأي سبب، تابع القيادة فقط. ستكون لديك أفضلية صغيرة، وسيظنون أنك تمشي سيراً على الأقدام، في مكان ما في البلدة. بحلول الوقت الذي يدركون فيه أنك قد أخذت سيارة، ستكون حراً.

- حراً لأفعل ماذا؟

- لتحل هذه الجرائم.

- لم تكن رحلتي إلى موسكو ناجحة، فقد رفضت شاهدة العيان أن تتكلم. ليس لدي حتى الآن أكثر من فكرة عن هذا الرجل.

أصاب ذلك نستروف بالدهشة.

- ليو، يمكنك فعل هذا. أعرف ذلك، وأصدّقك. يجب أن تتجه إلى روستوف - أون - دون، فتلك المنطقة هي مركز الجرائم، وأنا مقتنع بأنها المكان الذي يجب أن تركّز جهودك فيه. هناك نظريات عن الشخص الذي قتل هؤلاء الصغار، تتضمن إحداها مجموعة من النازيين السابقين...

قاطعه ليو.

- لا، إنه عمل فرد، إنّه يتصرف بمفرده. لديه عمل ويبدو طبيعياً. إذا

كنت واثقاً بأن مركز الجرائم هو روستوف، فإنه على الأرجح يعيش ويعمل هناك. عمله هو صلة الوصل بين كل تلك المواقع، مما يعني أنه يسافر، ويقتل في أثناء سفره. إذا استطعنا معرفة عمله، فسنصل إلى الرجل.

نظر ليو إلى ساعته، واكتشف أنه لم تعد هناك إلا دقائق قبل أن يضطر إلى المغادرة. وضع نستروف أصابعه على البلدتين موضع التساؤل.

- ما العلاقة بين روستوف وفوالسك؟ لم تقع جرائم في شرق هذه البلدة، أو هذا ما نعرفه على الأقل. يشير ذلك إلى أنها نقطة النهاية، والوجهة المقصودة.

وافق ليو.

- في فوالسك مصنع تجميع السيارات، وليست هناك أي صناعات مهمة أخرى باستثناء معامل الأخشاب. لكن هناك مصانع كثيرة في روستوف.

كان نستروف يعرف كلا الموقعين أفضل من ليو.

- هناك علاقات وثيقة بين مصنع السيارات وروستلماش؟

- ما هو روستلماش؟

- إنّه مصنع جرارات ضخم، الأكبر في اتحاد الجمهوريات السوفييتية.

- هل هناك أجزاء مشتركة بينهما؟

- تأتي إطارات غاز - 20 من هناك، في حين تُشحن قطع المحرك جنوباً بالمقابل.

هل تلك هي العلاقة؟ كانت الجرائم تقع بمحاذاة مسارات القطار من الجنوب إلى الغرب، نقطة بنقطة. فكّر ليو في تلك النظرية وعلّق:

- إذا كان مصنع السيارات يرسل شحنات إلى مصنع روستلماش، فلا بد من أنه يوظف شخصاً يسافر إلى هنا للتأكد من التزام مصنع السيارات بالحصص.

- لم تقع إلا جريمتا قتل هنا، ومنذ عهد قريب. المصنعان يعملان معاً منذ بعض الوقت.

- كانت الجرائم في شمالي البلاد هي الأحدث، وهذا يعني أنه قد

telegram @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

حصل على الوظيفة حديثاً، أو أنه قد عُيّن فيها منذ وقت قصير فقط. نحتاج إلى سجلات العاملين في روستلماش. إذا كنت محقاً، فسنعثر على الرجل لدى مطابقة تلك السجلات مع مواقع تلك الجرائم.

كانا قريبين من الهدف، وإذا لم يُعتقلا، وعملا بكل حريتهما، فسيتمكنان من اكتشاف اسم القاتل بحلول نهاية الأسبوع. لكن، لم يكن لديهما أسبوع، أو دعم الدولة. كان لديهما أربع دقائق فقط، فالساعة التاسعة وإحدى عشرة دقيقة، ويجب على ليو أن يغادر المكان. أخذ وثيقة واحدة: لائحة الجرائم المزوّدة بالتواريخ والمواقع، فهي كل ما سيحتاج إليه. بعد أن طواها ووضعها في جيبه تحرك إلى الباب، لكن نستروف أوقفه حاملاً سلاحه. أمسك ليو المسدس، وتأخر لحظة، وعندما رأى نستروف تردده، علّق:

- اضربني أو سيموت أفراد أسرتي.

ضربه ليو على جانب رأسه، فجُرح جلد نستروف مما جعله يخرُّ على ركبتيه. نظر نستروف إلى الأعلى وهو لا يزال صاحياً، وقال له:

- حظاً طيباً. اضربني الآن كما ينبغي.

رفع ليو المسدس، وأغمض نستروف عينيه.

أسرع ليو إلى الرواق، وعندما وصل إلى السلالم أدرك أنه قد نسي مفاتيح السيارة التي كانت موضوعة على الطاولة. استدار عائداً، وركض على طول الرواق إلى المكتب، وخطا فوق نستروف، وأمسك بالمفاتيح. لقد تأخر. فقد كانت الساعة تشير إلى التاسعة وخمس عشرة دقيقة، والعملاء يدخلون المبنى. كان ليو لا يزال في المكتب، حيث يريدونه بالضبط، لكنه خرج مسرعاً، وجرى في الرواق، ونزل السلالم. استطاع سماع وقع خطوات تصعد نحوه. وصل إلى الطابق الثالث، واندفع إلى اليمين، وأمسك مقبض أول باب وفتحه، ولم يكن موصداً كما وعده نستروف. دخل، وأوصد الباب خلفه في الوقت الذي صعد فيه العملاء جرياً على السلالم.

انتظر ليو في العتمة، ورأى أن كل مصاريع النوافذ مغلقة حتى لا

telegram @ktabpdf مكتبة الرمحي أحمد

يستطيع أحد في الخارج رؤية ما في الداخل. سمع وطء الخطوات، وعرف أن هناك أربعة عملاء على الأقل يصعدون تلك السلالم. شعر بالرغبة في البقاء في تلك الغرفة، خلف ذلك الباب الموصد، في أمانٍ مؤقت. كانت النوافذ تطل على الساحة الرئيسة، فألقى نظرة إلى الخارج، وشاهد طوقاً من الرجال خارج المدخل الرئيس، فابتعد عن النافذة. كان عليه أن يصل إلى الطابق الأرضي، إلى نهاية المبنى. فتح الباب، ونظر إلى الخارج، ورأى الممر خالياً. أغلق الباب خلفه، وتحرك نحو السلالم، واستطاع سماع صوت عميل تحته، فركض إلى السلالم المجاورة. لم يرَ أو يسمع أحداً، وعندما بدأ يركض انطلق الصراخ في الطابق الأعلى؛ لقد عثروا على نستروف.

دخلت مجموعة ثانية من العملاء المبنى، تحفّزهم صرخات زملائهم. كان في النزول على السلالم المتبقية مجازفة كبيرة، وإفسادٌ لخطة نستروف، ولهذا بقي ليو في الطابق الأول. لم تكن لديه إلا دقائق ارتباك قليلة ليستغلّها قبل أن ينظّم الرجال أنفسهم في فرق بحث. ولأنه لا يستطيع الوصول إلى الطابق الأرضي، فقد ركض في الرواق، ودخل المرحاض في نهاية المبنى. فتح النافذة التي كانت عالية وضيقة، والخروج منها لا يمكن أن يتم إلاّ بصعوبة، والطريقة الوحيدة لفعل ذلك هي بإخراجه رأسه أولاً. نظر إلى الخارج، لكنه لم يرَ أي جنود، وكان على ارتفاع خمسة أمتار تقريباً عن سطح الأرض. دفع جسده عبر النافذة، وتدلّى نحو الأرض مسنداً قدميه إلى الجدار. لم يكن هناك شيء يتمسك به، ويجب أن يترك نفسه يسقط، وأن يحمي رأسه بيديه.

ارتطمت راحتا كفيه بالأرض، وارتد معصماه إلى الخلف. سمع صرخة، فنظر إلى الأعلى ليرى عميلاً عند نافذة الطابق الأعلى، وعرف أنهم شاهدوه. تجاهل الألم في رسغيه، ونهض، ثم جرى نحو الشارع الجانبي حيث يفترض أن تكون السيارة متوقفة. دوّت أعيرة نارية، وثارت سحبٌ من غبار الآجر بجانب رأسه، فانحنى، وأخفض جسمه من دون أن يتوقف عن

الجري. دوّى المزيد من الرصاصات، لكنه دار حول الزاوية، وأصبح خارج مرمى النيران.

كانت السيارة هناك، مركونة وجاهزة. صعد إليها، وأدخل المفتاح، فدمدم المحرك وتوقّف عن العمل. حاول مرة أخرى، لكنه لم يعمل. حاول مجدداً - أرجوك - واشتغل المحرك في تلك المرة. عشّق علبة التروس، وانطلق بالسيارة، وزاد السرعة حريصاً على ألاّ يجعل العجلات تصرُّ على الإسفلت. كان من المهمّ بالنسبة إليه ألاّ يرى العملاء الذين يلاحقونه السيارة التي ستكون إحدى المركبات القليلة في الشوارع. ونظراً إلى أنها سيارة مليشيا، فسيفترض أي جنود يرونها أنه إلى جانبهم في حين يتابعون بحثهم عنه سيراً على الأقدام.

لم تكن هناك حركة سير، وقاد ليو السيارة بسرعة وتهور كبيرين في طريقه إلى خارج المدينة. كان نستروف مخطئاً. لا يستطيع قيادة السيارة كل الطريق إلى روستوف. أولاً، إن المدينة بعيدة عدّة مئات الكيلومترات، وليس لديه وقود كافٍ أو طريقة للحصول على المزيد منه. والأهم أنهم عندما يكتشفون أنه قد أخذ السيارة سيقطعون كل الطرقات. كان عليه أن يبتعد أكبر مسافة ممكنة ثم يهجر السيارة، ويخفيها عن الأنظار ويتجه إلى الريف قبل أن يصعد على متن قطار. وطالما أنهم لم يعثروا على السيارة المهجورة، فستكون فرصه أفضل كثيراً من دونها.

أسرع إلى العقدة الطرقية الرئيسة الوحيدة التي تؤدي إلى داخل البلدة وخارجها، واتجه غرباً بعد أن نظر إلى المرآة الداخلية. إذا كانوا سينظمون عملية بحث شاملة في المباني القريبة، ظناً منهم أنه يسير على قدميه، فعندها سيسبقهم بساعة أو أكثر. زاد السرعة، وأوصل السيارة إلى أقصى حدودها البالغة ثمانين كيلومتراً في الساعة.

رأى أمامه رجالاً يقفون على الطريق، متجمّعين حول سيارة متوقفة: سيارة مليشيا. لقد أقاموا حاجزاً على الطريق، ولن يجازفوا بأي شيء. وإذا

كان الطريق المتجه غرباً مقطوعاً، فسيكون الطريق المتجه شرقاً مقطوعاً أيضاً. كانوا قد أغلقوا المدينة برمّتها، وأمله الوحيد يتمثّل الآن باختراق الحاجز. كان سيزيد السرعة، ثم سيصطدم بالسيارة المتوقفة على الطريق، مما يجعلها تتحرك إلى الجانب. لكن، يجب عليه أن يتحكم بتأثير الصدمة. إذا تضررت سيارتهم، فلن يستطيعوا مطاردته فوراً. كان ذلك عملاً يائساً، يقلل أفضليته إلى دقائق فقط.

بدأ العملاء أمامه يطلقون النار، أصابت الرصاصات مقدمة السيارة، وأطلقت شرارات على المعدن. اخترقت رصاصة الزجاج الأمامي، فأخفض ليو نفسه خلف المقود، ولم يعد بإمكانه رؤية الطريق. كانت السيارة في مكانها. يجب أن يحافظ فقط على ثبات سيارته. استمرت الرصاصات في الانهمار على الزجاج الأمامي، ونزلت عليه شظايا منه. كان لا يزال على المسار، ويُحضّر نفسه للاصطدام.

مالت السيارة إلى الجانب، وحاول ليو أن يثبّتها لكنها انحرفت يساراً وفقد السيطرة عليها. كانت رصاصات قد أصابت العجلات، ولم يعد هناك شيء يمكن أن يفعله. انقلبت السيارة على جانبها، فتحطّمت النافذة، وارتطم بالباب على بعد ملليمترات عن الطريق. اصطدمت مقدمة السيارة الأخرى، مما جعل سيارة ليو تدور حول نفسها، ثم انقلبت على سقفها وخرجت عن الطريق. قُذف ليو من الباب إلى السقف حيث استلقى على ظهره بعد أن توقفت السيارة أخيراً.

* * *

فتح ليو عينيه، لكنه لم يكن واثقاً من قدرته على الحركة أو يستطيع استجماع قوته ليكتشف ذلك. أخذ يحدّق إلى سماء الليل، وأفكاره تتحرك ببطء. لم يكن في السيارة، وعرف أن أحداً ما قد سحبه بالتأكيد إلى خارجها. ظهر وجه فوقه، وحجب عنه النجوم. ركّز ليو على وجه الرجل.

كان فاسيلي.

روستوف - أون - دون

اليوم نفسه

تكوّن لدى آرون انطباع بأن وظيفة في المليشيا ربما تكون مثيرة أو على الأقل أكثر متعة من العمل في كولخوز، وقد عرف دائماً أن العائد الماديّ ليس جيداً جداً لكن الأفضلية تكمن في أن المنافسة ليست قوية. عندما كان الأمر يتعلق بالبحث عن عمل، لم يكن قط مرشحاً قوياً. لم يكن يعاني أيَّ خطب. وفي الواقع، لقد أبلى حسناً في المدرسة. على أيّ حال، لقد ولد وشفته العليا مشوّهة، وقد أخبره الطبيب بذلك؛ إنها مشوّهة ولا يمكنه فعل شيء بشأنها. بدا أن جزءاً من شفته العليا قد قُطع وخيطت الأجزاء المتبقية معاً فارتفعت الشفة في المنتصف، وكشفت عن قسم من أسنانه الأمامية، وأصبحت النتيجة النهائية تعبير سخرية دائماً. بالرغم من أن ذلك لم يشكل فرقاً بشأن قدرته على العمل، إلا أنه شكّل بالتأكيد فرقاً في قدرته على الحصول على وظيفة، وقد بدت المليشيا الحل المثالي، فقد كانوا بأمس الحاجة إلى موظفين. كانوا يهزأون منه، ويصدرون تعليقات عنه من خلف ظهره؛ وقد اعتاد على الأمر. سيتحمّل كل ذلك ما دام بمقدوره استخدام دماغه.

كان هناك في منتصف الليل، يجلس في أجمة، ويتعرّض للسعات البعوض، ويراقب موقف الحافلات بحثاً عن نشاط غير اعتيادي.

لم يخبر أحد آرون عن سبب جلوسه هناك أو ما قد يعنيه نشاط غير اعتيادي. وبصفته أحد أصغر الأعضاء في القسم، ويبلغ من العمر عشرين سنة فقط، فقد تساءل إن كان ذلك نوعاً من الشعائر الاستهلالية؛ اختبار ولائه

telegram @ktabpdf

مكتبة الرمحي أحمد

ليروا مدى التزامه بالأوامر. كانت الطاعة أكثر تقديراً من أي شيء آخر.

لم يرَ حتى ذلك الوقت إلا فتاة تجلس في موقف الحافلات القريب. كانت يافعة، ولا يتجاوز عمرها الأربع عشرة سنة أو الخمس عشرة، لكنها تحاول أن تبدو أكبر سناً. بدت ثملة، وقميصها غير مزرّر. شاهدها تشد تنورتها وتلعب بشعرها. ماذا كانت تفعل في موقف الحافلات؟ لم تكن هناك حافلات حتى الصباح.

اقترب منها رجل طويل، يعتمر قبعة ويرتدي معطفاً طويلاً. كانت عدستا نظارته سميكتين مثل قعر مرطبان زجاجي، وكان يحمل صندوقاً أنيقاً. وقف بجانب جدول المواعيد، وقرأه وهو يمرّر إصبعه عليه. نهضت الفتاة فوراً وكأنها نوع من العناكب الهزيلة التي تنتظر في الزاوية، وتحركت نحوه. تابع قراءة الجدول الزمني في حين دارت الفتاة حوله، ومسّت صندوقه، ويده، وسترته. بدا أن الرجل قد تجاهل تلك المقدّمات حتى أبعد ناظريه أخيراً عن الجدول، وأمعن النظر في الفتاة. تكلما، لكن آرون لم يسمع ما كانا يقولانه. عارضت الفتاة شيئاً بأن هزّت رأسها، ثم حركت كتفيها غير مبالية، في إشارة إلى أنهما قد اتفقا. استدار الرجل إلى الخلف، وبدا أنه يحدّق مباشرة إلى آرون، فقد كان ينظر إلى الغطاء النباتي بجانب الموقف. هل رآه ذلك الرجل؟ لم يبدُ ذلك مرجحاً؛ فقد كانا يقفان في الضوء، فيما جلس هو في الظل. بدأ كل من الرجل والفتاة يمشيان نحوه؛ مباشرة إلى المكان الذي يختبئ فيه.

ارتبك آرون، وتأكّد من موقعه. كان مختبئاً تماماً. لم يكن بمقدورهما رؤيته قطّ، وحتى إذا فعلا ذلك، فلماذا يمشيان نحوه؟ أصبحا على بعد أمتار منه فقط، واستطاع سماعهما يتكلمان. انتظر جاثماً في الأجمة، ليكتشف أنهما قد تجاوزاه، واتجها نحو الأشجار.

نهض آرون.

- توقفا!

telegram @ktabpdf

مكتبة الرمحي أحمد

تجمد الرجل، وتقوّست كتفاه، ثم استدار إليه. بذل آرون قصارى جهده ليبدو ذا سلطة.

- ماذا تفعلان أنتما الاثنان؟

أجابت الفتاة التي لم يبدُ عليها الخوف أو القلق:

- كنا ذاهبين في نزهة. ماذا حدث لشفتك؟ إنها بشعة حقاً.

تورد آرون خجلاً، فقد كانت الفتاة تحدّق إليها باشمئزاز واضح. سيطر آرون على نفسه وقال:

- كنتما ذاهبين لإقامة علاقة في مكان عام. أنتِ ساقطة.

- لا، كنا ذاهبيَن في نزهة.

أضاف الرجل، بصوت شجي، يُسمع بصعوبة:

- لم يفعل أحد شيئاً خاطئاً. كنا نتبادل أطراف الحديث فحسب.

- دعاني أرى أوراقكما.

تقدم الرجل إلى الأمام، وهو يبحث عن أوراقه في جيوب سترته، في حين تلكأت الفتاة في الخلف وهي غير مبالية. لا شك في أنها قد أُوقفت من قبل، ولكنها لم تبدُ منزعجة. تأكد آرون من أوراق الرجل، وتبين له أنه يدعى أندريه، ووثائقه لا غبار عليها.

- افتح صندوقك.

تردد أندريه، وبدأ يتصبب عرقاً، فقد افتُضح أمره. لم يتخيل قط أن ذلك سيحدث. لم يتصوّر قط أن خطته ستفشل. رفع الصندوق، وفتح القفل، فنظر الجندي الشاب إلى ما بداخله، ويده تفتشه بتردد. حدّق أندريه إلى حذائه منتظراً. وعندما نظر إلى الجندي، كان الأخير يمسك سكينه الطويلة ذات النصل المسنن، فشعر أندريه أنه على وشك أن يبكي.

- لماذا تحمل هذه؟

- أسافر كثيراً، وآكل غالباً على متن القطارات. أستخدم السكين لتقطيع السجق. إنه سجق رخيص وقاسٍ، لكن زوجتي ترفض أن تشتري

أي نوع آخر.

كان أندريه يستخدم السكين فعلاً في تناول غدائه وعشائه. وجد الجندي نصف قطعة من السجق، وكانت رخيصة وقاسية، وحافتها خشنة، وقد قُطعت بالسكين نفسها.

رفع آرون "مرطباناً" زجاجياً عليه غطاء محكم الإغلاق، وكان نظيفاً وفارغاً.

- لِمَ هذا؟

- إنني أضع فيه بعض أجزاء القطع التي أجمعها، كالعينات الهشّة أو القطع الوسخة. "المرطبان" مفيد لعملي. اسمع أيها الجندي، أعرف أنه ما كان يجب عليّ أن أذهب مع الفتاة، لكنني لا أدري ما اعتراني. كنت هنا، أتأكد من أوقات الحافلات غداً واقتربت هي مني. تعرف كيف هي الحال مع الرغبات. شعرتُ بإحداها. لكن، انظر إلى جيب صندوقي، وستجد بطاقة عضويتي في الحزب.

عثر آرون على البطاقة، ووجد أيضاً صورة زوجة الرجل وابنتيه.

- إنهما ابنتاي. لا داعيَ لأن نحمّل الأمر أكثر مما يحتمل، أليس كذلك أيها الجندي؟ اللوم يقع على الفتاة. كان يجب أن أكون في طريقي إلى منزلي الآن لو لاها.

مواطن محترم أفسدته فتاةٌ سكّيرة، فاسدة. لقد كان ذلك الرجل مهذّباً؛ فهو لم يحدّق إلى شفة ليو أو يطلق أي تعليقات ساخرة. لقد عامله وكأنه ندٌّ له بالرغم من أنه أكبر سناً، ووظيفته أفضل، وعضو في الحزب. كان هو الضحية، وهي المجرمة.

بعد أن شعر بأن الخناق يضيق عليه، أدرك أندريه أنه أصبح حراً تقريباً. كان قد ثبت له أن صورة أسرته لا تقدّر بثمن في مناسبات عديدة. فقد استخدمها أحياناً لإقناع أولادٍ مترددين بأنه رجل يمكنهم الوثوق به، فقد كان أباً. أحس بالحبل الخشن الموجود في جيب سرواله. ليس الليلة، وعليه أن

telegram @ktabpdf

مكتبة الرمحي أحمد

يتحلّى بالصبر في المستقبل؛ لأنه لم يعد يستطيع القتل في بلدته.

كان آرون على وشك أن يدع الرجل وشأنه، فأعاد البطاقة والصورة إلى مكانيهما، ثم رأى شيئاً آخر في الصندوق؛ ورقة من صحيفة مطوية من منتصفها، فأخرجها، وفتحها.

لم يستطع أندريه أن يراقب ذلك الأحمق ذا الشفة المقزّزة يمسّ تلك الورقة بأصابعه القذرة، وتمكن بصعوبة من ردع نفسه عن انتزاعها من بين يديه.

- هل يمكنني استعادة هذه من فضلك؟

كان صوت الرجل قد أصبح قلقاً للمرة الأولى. لِمَ كانت هذه الورقة مهمة جداً له؟ أمعن آرون النظر في الورقة، واكتشف أنها مأخوذة من صحيفة صدرت قبل عدّة سنوات، وقد تلاشى حبرها. لم يكن هناك نص، أو كتابة. كان كل ذلك قد اختفى، ولهذا كان من المستحيل بالنسبة إليه أن يعرف الصحيفة التي أُخذت منها. كان كل ما تبقى صورةً التقطت في أثناء الحرب الوطنية العظمى، ويظهر فيها حطام دبابة يحترق، وجنود روس يقفون وهم يحملون بنادق يرفعونها عالياً مبتهجين بالنصر، وجنود ألمان موتى عند أقدامهم. كانت صورة انتصار، ودعاية. فهم آرون جيداً سبب طباعة تلك الصورة في صحيفة. كان الجندي الروسي في وسط الصورة رجلاً وسيماً ترتسم على وجهه ابتسامة عريضة.

telegram @ktabpdf مكتبة الرمحي أحمد

موسكو

10 تموز

كان وجه ليو متورماً، ويؤلمه حين يلمسه، وبقيت عينه اليمنى مغمضة، ومتوارية تحت طيات جلده المنتفخ. شعر بألم فظيع في جانب صدره؛ وكأن عدة أضلاع قد كُسرت. كان قد حظي بمساعدة طبية أوّلية في موقع الحادث. لكن، عندما تبين أن حياته ليست في خطر، وُضع في شاحنة تحت حراسة مشددة. وأحس في طريق العودة إلى موسكو أن كل عقبة في الطريق مثل ضربة على بطنه، ومن دون مسكنات في رحلته تلك فقد الوعي عدّة مرات، فأيقظه حرّاسه بوخزه بفوهات بنادقهم، مخافة موته في أثناء مناوبتهم. أمضى ليو الرحلة وهو يتقلّب بين حمّى شديدة وبرودة كبيرة، وفهم أن تلك الجروح ليست إلا البداية فقط.

لم تفارق فكرة أن ينتهي الأمر به هناك - مثبتاً إلى كرسي في زنزانة استجواب في قبو لوبيانكا - مخيلته قطّ، وأن يصبح حارس الدولة سجينها، وهو تبدّلٌ في المواقف ليس غريباً. كان ذلك شعور من يصبح عدواً لبلده.

فُتح الباب، ورفع ليو رأسه. من كان ذلك الرجل ذو الجلد الشاحب والأسنان الصفراء؟ تذكر أنه زميل سابق، لكنه لم يتذكر اسمه.

- هل تذكرني؟

- لا.

- أنا د. زاروبين. لقد التقينا في عدّة مناسبات. زرتك حين كنت مريضاً قبل عدّة شهور. آسف لرؤيتك في هذه الورطة، ولا أقول ذلك انتقاداً للفعل الذي اتُّخذ ضدك؛ لأنه عادل ومنصف، وإنما أعني ببساطة أنني أتمنى لو

telegram @ktabpdf

مكتبة الرمحي أحمد

أنك لم تفعل ذلك.

- ماذا فعلت؟

- لقد خنت بلدنا.

تحسس الطبيب أضلاع ليو، وجعلته كل لمسة يصك أسنانه.

- أضلاعك ليست مكسورة كما قيل لي. أنت مصاب برضوضٍ. لا شك في أن ذلك مؤلم، لكنّ أياً من إصاباتك لا تتطلب جراحة. لقد أمرت بتنظيف الجروح وتغيير الضمادات.

- معالجة قبل التعذيب! هذا أمر غير مألوف في هذا المكان. أنقذت مرة حياة شخص فقط لأجلبه إلى هنا. كان يجب أن أترك برودسكي يغرق في ذلك النهر.

- لا أعرف الرجل الذي تتكلم عنه.

صمت ليو. كان يمكن لأي شخص أن يندم على أفعاله بعد أن تنقلب الطاولة. فَهِمَ - أكثر وضوحاً من ذي قبل - أن فرصته الوحيدة في تحقيق ما وعد به قد انسلّت من بين أصابعه، وأن القاتل سيستمر في ارتكاب جرائمه، ولن ينفعه في ذلك ذكاؤه الخارق، وإنما رفض بلاده الاعتراف بأن مثل ذلك الرجل متواجدٌ، مما يمنحه حصانة كاملة.

أنهى الطبيب تضميد جروح ليو، وبدا أن القصد من مثل تلك المساعدة ضمان شعوره بالألم عند تعذيبه إلى أقصى درجة لاحقاً. كان جعله في حالٍ أفضل ضرورياً لإيذائه إلى أقصى حدٍّ. انحنى الطبيب نحو الأسفل وهمس في أذن ليو:

- سأعتني الآن بزوجتك الفاتنة، المقيدة في الزنزانة المجاورة، التي لا حول لها ولا قوة، وكل ذلك بسببك. كل ما سأفعله بها خطؤك. سأجعلها تكره اليوم الذي أحبتك فيه، وأجعلها تقول ذلك بصوتٍ عالٍ.

استغرق الأمر من ليو بعض الوقت ليستوعب ما قيل له؛ وكأن الرجل يتكلم بلغة أجنبية. لم يكن يشعر بأي ضغينة تجاه ذلك الرجل، فهو لا يعرفه

telegram @ktabpdf مكتبة الرمحي أحمد

تماماً. لماذا كان يهدد ريزا؟ حاول ليو أن يقف، ويندفع نحو الطبيب، لكن كرسيه كان مثبتاً إلى الأرض وهو مثبّت إلى الكرسي.

تراجع د. زاروبين، مثل رجل كان قد قرّب رأسه كثيراً من قفص أسد. وشاهد ليو وهو يكافح مع قيوده، وأوداجه تنتفخ، ووجهه يصبح أحمر، وعينه تتورم على نحو يثير الشفقة. أثار ذلك اهتمامه مثل مشاهدة ذبابة محاصرة تحت كأس. لم يكن ذلك الرجل يفهم طبيعة ورطته.

لا حول له ولا قوة.

حمل الطبيب حقيبته، وانتظر أن يفتح له الحارس الباب. توقع أن يناديه ليو، وربما أن يهدد بقتله. لكن، في ما يتعلق بذلك الأمر على الأقل، أُصيب بخيبة أمل.

مشى زاروبين في رواق القبو بضعة أمتار فقط حتى وصل إلى زنزانة مجاورة بابها مفتوح، فدخلها. كانت ريزا تجلس مقيّدة مثل زوجها تماماً، وشعر الطبيب بالإثارة من احتمال معرفتها إياه، وإدراكها أنه كان يجدر بها أن تقبل عرضه، ولو أنها فعلت ذلك، لكانت بأمان الآن. بدا واضحاً أنها ليست ماهرة في النجاة بنفسها كما توقع. كانت تتمتع بجمال أخّاذ، شيء فشلت في الاستفادة منه، واختارت بدلاً من ذلك الإخلاص.

مقتنعاً أنه سيجدها نادمة على إثارته، توقع أن تتوسل إليه قائلة:

ساعدني.

كانت ستقبل أي شروط الآن. ويمكن أن يطلب منها أي شيء، وأن يعاملها وكأنها قذارة، وستكون مستعدة لقبول ذلك والتماس المزيد، وستخضع له تماماً. فتح الطبيب الكوة في الجدار، وبالرغم من أنها بدت جزءاً من نظام التهوئة، إلا أنها في الواقع كانت مصممة لتحمل الصوت من زنزانة إلى أخرى. أراد أن يسمع ليو كل كلمة.

حدّقت ريزا إلى زاروبين، وراقبته وهو يرمقها بنظرة حزن مصطنعة،

ويحاول من دون شك أن ينقل إليها إحساسه بالشفقة عليها؛ وكأنه يقول:

لو أنك قبلتِ عرضي.

وضع حقيبته أرضاً وبدأ يفحصها بالرغم من عدم إصابتها بأي شيء.

- أريد أن أفحص كل جزء منك، من أجل تقريري كما تعلمين.

كانت ريزا قد اعتُقلت من دون أي ضجة بعد أن جرى تطويق المطعم. فقد دخل العملاء وأخرجوها. وعندما كانوا يصطحبونها إلى الخارج، صرخ باساروف بخبث متوقعاً أنها تستحق أي عقوبة تنزل بها. قُيِّدت ووُضِعت في نهاية شاحنة، من دون أن تقال لها أي معلومة، ولم تكن لديها فكرة عمّا قد حدث مع ليو، حتى سمعت مصادفة جندياً يقول إنهم قبضوا عليه. خمّنت، من الرضا الذي بدا واضحاً في صوته، أن ليو قد حاول على الأقل أن يهرب.

حاولت أن تنظر إلى الأمام مباشرة في حين كانت يدا الطبيب تتحسّسان جسدها؛ وكأنه ليس بجانبها. لكن، لم يسعها إلا أن تختلس نظراتٍ إليه. كانت مفاصل أصابعه كثيفة الشعر، وأظفاره نظيفة تماماً ومقلّمة على نحو ممتاز. بدأ الحارس خلفها يضحك ضحكة طفولية. ركّزت على فكرة أن جسدها خارج متناول يده مهما حاول، ولن يستطيع أن يضع إصبعاً عليها. لكن، بدا أنه يستحيل عليها أن تتحمل حتى تلك الفكرة. تحركت أصابعه صعوداً على ساقها ببطء بغيض ومتعمّد، وشعرت بدموع في عينيها، فأغمضت جفنيها للتخلّص منها. اقترب زاروبين منها، وقرّب وجهه من وجهها. وقبّل وجنتها، ومصَّ جلدها بفمه؛ وكأنه على وشك أن يعضها.

فُتح الباب، ودخل فاسيلي، فتراجع الطبيب، وشدَّ قامته، ثم خطا إلى الخلف. بدا فاسيلي منزعجاً:

- إنها ليست جريحة، و لا داعيَ لأن تكون هنا.

- كنت أتأكد فحسب.

- يمكنك أن تغادر.

حمل زاروبين حقيبته وغادر. أغلق فاسيلي الكوة، ثم جثم بجانب ريزا، وراقب دموعها.

- أنتِ قوية، وربما تظنين أن بمقدورك الصمود. أفهم رغبتك في البقاء مخلصة لزوجك.

- حقاً؟

- أنت محقة، أنا لا أفهمها. من الأفضل لك أن تخبريني كل شيء فوراً. تظنين أنني وحش. لكن، هل تعرفين ممن تعلّمت ذلك؟ من زوجك. كان ذلك ما يقوله للناس قبل أن يُعذّبوا؛ بعضهم في هذه الغرفة تحديداً. كان يعني ذلك فعلاً، إن كان الأمر يهمك.

حدّقت ريزا إلى قسمات ذلك الرجل الوسيم وتساءلت، كما فعلت في محطة القطار قبل كل تلك الشهور الماضية، لماذا يبدو قبيحاً؟ كانت عيناه باهتتين. فهما لا تفتقران إلى الحيوية أو تشيان بالغباء، وإنما كانتا باردتين.

- سأخبرك كل شيء.

- لكن، هل سيكون ذلك كافياً؟

* * *

كان ليو يحتفظ من دون شك بقوته حتى تسنح له فرصة التصرف، لكن تلك اللحظة لم تأتِ بعد. فقد رأى عدّة سجناء يهدرون طاقتهم في الضرب بقبضاتهم على الأبواب، والصراخ، والتحرك باستمرار في زنزاناتهم الصغيرة. كان قد تساءل في ذلك الوقت لماذا لا يفهمون أن أفعالهم تلك لا طائل منها، لكنه أدرك الآن حين وقع في ورطتهم نفسها مشاعرهم. بدا الأمر وكأن جسده شديد الحساسية بسبب الحبس، ولم يكن لذلك علاقة بالمنطق أو الحجة، فهو ببساطة لا يستطيع أن يجلس مكتوف اليدين. بدلاً من ذلك، كافح مع قيديه حتى بدأ معصماه ينزفان، وصدّق جزء منه حقاً أن بمقدوره تحطيم تلك السلاسل بالرغم من أنه رأى مئة رجل وامرأة مثبّتين بها ولم تنكسر مرة واحدة. سيطرت عليه فكرة الهروب الكبير، وتجاهل حقيقة أن

ذلك النوع من الأمل خطر مثل أي تعذيب يمكن أن يتعرض له.

دخل فاسيلي، وأشار إلى الحارس ليضع له كرسياً قبالة ليو، فأطاع الحارس، ووضعه خارج متناول يد ليو. تقدم فاسيلي إلى الأمام، وحمل الكرسي، وقرّبه منه حتى كادت ركبهما تتلامس. حدّق إلى ليو، وأمعن النظر في الطريقة التي يكافح فيها جسده كله ضد قيوده.

- استرخِ، لم تصب زوجتك بأذى. إنها في الزنزانة المجاورة.

لوّح فاسيلي للحارس ففتح الكوّة. صرخ فاسيلي:

- ريزا، قولي شيئاً لزوجك. إنه قلق عليك.

كان صوت ريزا مسموعاً مثل صدى خافت:

- ليو؟

استرخى ليو إلى الخلف، وأراح جسده، وقبل أن يستطيع الرد أغلق الحارس الكوة، فنظر ليو إلى فاسيلي قائلاً:

- لا داعيَ لتعذيب أيٍّ منا. تعرف كم جلسة رأيت، وأعرف أنه لا فائدة من العناد. اسألني أي شيء، وسأجيب.

- لكنني أعرف كل شيء سلفاً. لقد قرأت الملفات التي جمعتها، وتكلمت مع الجنرال نستروف الذي بدا مهتماً جداً بألاّ يكبر ولداه في ميتم. لقد أكّدت ريزا كل معلوماته. لديّ سؤال واحد فقط لك، لماذا؟

لم يفهم ليو ما حصل لكن مقاومته تلاشت، وأراد أن يقول فقط ما يريد ذلك الرجل سماعه. تكلم مثل طفل يتحدث إلى معلّم:

- آسف، لا أقصد التقليل من احترامك، لكنني لا أفهم. تسأل لماذا...؟

- لماذا تخاطر بالقليل الذي لديك؛ الذي سمحنا لك بالاحتفاظ به، من أجل هذا الوهم؟

- أتسأل عن الجرائم؟

- لقد حُلّت كل الجرائم.

لم يجب ليو.

telegram @ktabpdf

مكتبة الرمحي أحمد

- أنت لا تصدّق. أليس كذلك؟ تظن أن شخصاً ما أو مجموعة أشخاص تقتل عشوائياً فتياناً وفتياتٍ روساً، وتخرّب هذا البلد من دون أي سبب على الإطلاق؟

- كنت مخطئاً. فكّرت في نظرية، لكنني أخطأت، وأسحبها تماماً. سأوقع على إبطالها، أو على إفادة، أو على اعتراف بالذنب.

- تدرك أنك مذنب بأخطر فعل معادٍ للروسية، الذي يبدو أنه دعاية غربية يا ليو، وأنا أفهم ذلك. إذا كنت تعمل لمصلحة الغرب، فأنت خائن. ربما وعدوك بالمال، أو السلطة، أو الأشياء التي خسرتها، ويمكنني أن أفهم ذلك على الأقل. هل تلك هي الحال؟

- لا.

- هذا ما يقلقني، فهو يعني أنك تصدّق تماماً أن تلك الجرائم متصلة ببعضها، وليست أفعال منحرفين ومتشردين وسكارى وأشخاص غير مرغوب فيهم. لأكون فظاً، هذا جنون. لقد عملت معك، ورأيت كم كنت منهجياً. وفي الواقع، لقد أُعجبت بك سابقاً؛ أي قبل أن تفقد رشدك بشأن زوجتك. ولهذا، عندما علمت بمغامراتك الجديدة، لم يبدُ الأمر منطقياً بالنسبة إليّ.

- كانت لدي نظرية، لكنني كنت مخطئاً. لا أعرف ماذا يمكن أن أقول غير ذلك.

- لماذا سيرغب أي شخص في قتل أولئك الأولاد؟

حدّق ليو إلى الرجل قبالته، الرجل الذي أراد قتل الفتاتين لأنّ والديهما على علاقة مع طبيب بيطري. الرجل الذي كان سيطلق النار على رأسيهما من دون أن يفكّر في ذلك. لكن فاسيلي طرح ذلك السؤال جاداً.

لماذا سيرغب أي شخص في قتل أولئك الأولاد؟

كان ليو قد قتل على نطاق يشبه ما يقوم به الرجل الذي يطارده، وربما

telegram @ktabpdf

مكتبة الرمحي أحمد

حتى أكثر، وقد أمعن التفكير في شأن منطق تلك الجرائم. ألم يفهم لماذا لم ينضم أي شخص يريد أن يقتل إلى إ.أ.د. أو يصبح حارس غولاغ؟ إذا كان ذلك قصده، فعندها سيفهم ليو الأمر. كانت هناك منافذ شرعية عديدة للوحشية والقتل، فلماذا اختار طريقاً غير رسمي؟ لكن، لم يكن ذلك قصده.

أولئك الأولاد.

احتار فاسيلي من حقيقة أن تلك الجرائم تفتقر إلى الحافز على نحو واضح. لم تكن القضية أنه لا يمكن تفسير قتل أولئك الأولاد، لكن، ما هي الغاية؟ لم تكن هناك حاجة رسمية إلى قتل أولئك الأولاد، أو فكرة أن ذلك يخدم هدفاً أسمى، أو يحقق فائدة مادية. كان ذلك اعتراضه.

كرّر ليو.

- كانت لديّ نظرية، لكنني كنت مخطئاً.

- ربما كان نفيك من موسكو، وإبعادك عن القوة التي خدمتها بإخلاص سنوات عديدة صدمتين أكبر مما توقعنا، فأنت رجل مغرور بالمحصلة. لقد عانت سلامتك العقلية على نحو واضح، ولهذا سأساعدك يا ليو.

نهض فاسيلي وهو يمعن التفكير في الأمر. كانت قد صدرت أوامر لأمن الدولة، بعد موت ستالين، بإيقاف كل استخدام للعنف ضد المعتقلين. وبصفته إنساناً يحب البقاء، فقد تلاءم فاسيلي مع ذلك فوراً. لكن، بالرغم من ذلك كان ليو في قبضته. هل يستطيع فاسيلي أن يبتعد عنه ويتركه ليواجه عقوبته؟ هل كان ذلك كافياً؟ هل سيرضيه؟ استدار نحو الباب مدركاً أن دوافعه نحو ليو قد أضحت آنذاك خطرة على كليهما بالقدر نفسه، وشعر أن حرصه المعتاد يفسح في المجال لشيء شخصي، شيء يشبه رغبة شديدة تتملّكه، ووجد أن مقاومتها مستحيلة. أشار إلى الحارس ليقترب منه:

- أحضر د. هفوستوف.

بالرغم من أن الوقت كان متأخراً، إلا أن هفوستوف لم يشعر بالانزعاج

telegram @ktabpdf

مكتبة الرمحي أحمد

من المكالمة المفاجئة التي تستدعيه إلى العمل، لكنه أُصيب بالفضول لمعرفة ذلك الأمر بالغ الأهمية. صافح فاسيلي، واستمع إلى شرحٍ موجز عن الوضع، ولاحظ أن فاسيلي قد أشار إلى ليو بوصفه مريضاً وليس سجيناً، وفهم أن ذلك كان ضرورياً للاحتراس من اتهامه بالتسبب بأذى جسدي. بعد أن سمع موجزاً عن أوهام المريض المفصّلة بشأن قاتل الأولاد، أمر الطبيبُ الحارسَ باصطحاب ليو إلى غرفة العلاج، وأحس بالإثارة لاكتشاف ما خلف تلك الفكرة الغريبة.

كانت الغرفة كما يتذكرها ليو بالضبط. فهي صغيرة ونظيفة، فيها كرسي جلدي أحمر مثبّت إلى أرضية من الآجر الأبيض، وهناك خزائن زجاجية مليئة بقوارير ومساحيق وأقراص دواء، ومصنّفة بلصاقات بيضاء مرتّبة كُتب عليها بخط أسود أنيق، ومجموعة من المعدات الجراحية الفولاذية، وتعبق منها رائحة مطهّر. وُضع على الكرسي نفسه الذي ثُبّت عليه أناتولي برودسكي، وقُيّد معصماه وكاحلاه وعنقه بالأشرطة الجلدية نفسها. ملأ د. هفوستوف محقنة بزيت الكافور، ثم شُقَّ قميص ليو، وعُثر على وريد في جسده. لم يكن هناك داعٍ لشرح أي شيء، فقد رأى ليو كل ذلك. فتح فمه، وهو ينتظر كعاماً مطاطياً.

نهض فاسيلي، وهو يرتعش إثارة حين شاهد الاستعدادات. حقن هفوستوف ليو بالزيت، وانقضت ثوانٍ. وفجأة، انقلبت عينا ليو إلى الخلف في رأسه، وبدأ جسمه يهتز. كانت تلك اللحظة التي حلم بها فاسيلي، لحظة خطط لها في ذهنه ألف مرة. بدا ليو سخيفاً وضعيفاً ومثيراً للشفقة.

انتظرا أن تهدأ ردود الفعل الجسدية الأكثر تطرفاً، ثم أومأ هفوستوف قائلاً:

- اسمع ماذا سيقول.

تقدم فاسيلي إلى الأمام وحلَّ الكعام المطاطي، فتقيأ ليو كتلاً من لعاب على حجره، وطأطأ رأسه إلى الأمام.

- كالعادة، ابدأ بطرح أسئلة بسيطة.

- ما اسمك؟

تحرك رأس ليو من طرف إلى آخر، وسال مزيد من اللعاب من فمه.

- ما اسمك؟

لم يحصل على ردّ.

- ما اسمك؟

تحركت شفتا ليو وقال شيئاً، لكن فاسيلي لم يسمعه، فاقترب منه:

- ما اسمك؟

بدا أن عينيه تركّزان، ونظر أمامه مباشرة وقال:

- بافل.

اليوم نفسه

ما اسمك؟

بافل.

عندما فتح ليو عينيه رأى أنه واقف في وسط الغابة، والثلج يطمر قدميه حتى الكاحلين، والقمر ساطع فوقه. كانت سترته مصنوعة من أكياس الخيش التي خيطت معاً بعناية؛ وكأنها مصنوعة من جلد فاخر. رفع إحدى قدميه فوق الثلج، ليكتشف أنه لا ينتعل حذاءً، بل كانت هناك أسمال وشريط مطاطي، مربوطة معاً وملتفة حول كل قدم. كانت يداه يدي فتًى صغير.

شعر أن أحداً يشدُّ سترته فاستدار، ورأى فتى يافعاً يقف خلفه ويرتدي النوع نفسه من أكياس الخيش، وحول قدميه النوع نفسه من أشرطة المطاط والأسمال المربوطة معاً. كان الفتى ينظر إليه شزراً، والمخاط يسيل من أنفه. ماذا كان اسمه؟ إنّه أخرق ومخلص وسخيف؛ اسمه أندريه.

بدأ هر هزيل أسود وأبيض يزعق خلفه، وهو يكافح في الثلج، تعذّبه قوة ما غير مرئية. كان يُسحب إلى قلب الغابة، وكان هناك حبل حول كف الهر، وهناك شخص يشدُّ الحبل ويجذبه فوق الثلج. جرى بافل خلفه، لكن الهر، الذي بقي يكافح، كان يُسحب أسرع فأسرع. زاد بافل سرعته، وعندما نظر إلى الخلف رأى أن أندريه، الذي لم يستطع مجاراته، قد بقي في الخلف.

توقف فجأة، وظهر أمامه والده ستيفان ممسكاً بطرف الحبل. لم يكن شاباً، وإنما رجلاً عجوزاً، الرجل الذي ودّعه في موسكو. حمل ستيفان الهر، ودق عنقه، ووضعه في كيس خيش كبير، ومشى بافل بجانبه.

- أبي ؟
- أنا لست والدك.

* * *

عندما فتح عينيه، وجد نفسه داخل كيس خيش، ورأسه ملطخ بالدماء، وفمه جاف مثل الرماد. كان محمولاً، ويهتز على ظهر رجل راشد، ورأسه يؤلمه كثيراً، ويشعر بالغثيان. كان هناك شيء تحته، فمدَّ يده إلى الأسفل، ومس الهر الميت، ثم أغمض عينيه مرهقاً.

شعر بحرارة نار مشتعلة، فاستيقظ. لم يعد في الكيس، وإنما على أرض طينية في دار مزرعة. كان ستيفان - الشاب آنذاك؛ الرجل في الغابة، الهزيل والمتجهم - يجلس بجانب النار ويحمل جثة فتى يافعٍ، وآنا إلى جواره. كانت شابة هي أيضاً. كان الفتى بين ذراعي ستيفان مزيجاً من إنسان، وشبح، وهيكل عظمي؛ كان جلده رخواً، وعظامه بارزة، وعيناه جاحظتين. كان ستيفان وآنا يبكيان، وداعبت آنا شعر الفتى الميت، ثم همس ستيفان أخيراً اسم الفتى:

- ليو.

كان الفتى الميت ليو ستيفانوفيتش.

استدارت آنا أخيراً، وعيناها حمراوان، وسألت:

- ما اسمك؟

لم يُجِب، فهو لا يعرف اسمه.

- أينَ تعيش؟

لم يكن يعرف ذلك أيضاً.

- ما اسم والدك؟

كان ذهنه فارغاً.

- هل تعرف طريق العودة إلى المنزل؟

لم يكن يعرف مكان المنزل، وتابعت آنا:

- هل تفهم لماذا أنت هنا؟

هزَّ رأسه.

- كنت ستموت، حتى يعيش هو. هل تفهم؟

لم يكن يفهم، وقالت:

- لكن، لا يمكن إنقاذ ابننا. مات حين كان زوجي يصطاد، ولأنه ميت، فأنت حر في المغادرة.

حرٌ في المغادرة إلى أين؟ لم يكن يعرف مكانه، أو من أين جاء. لم يكن يعرف شيئاً عن نفسه، وكان ذهنه خالياً.

نهضت آنا، ومشت نحوه، ومدّت له يدها، فكافح للوقوف على قدميه؛ إذ كان ضعيفاً ويشعر بالدوار. كم مضى عليه في ذلك الكيس؟ ما المسافة التي اجتازها وهو محمول في الكيس؟ بدا أن أياماً قد انقضت. إذا لم يأكل قريباً فسيموت. أعطته كوب ماء ساخن، وجعلته أول رشفة يشعر بالغثيان، لكن الثانية كانت أفضل. أخذته إلى الخارج حيث جلسا، وتدثرا معاً تحت عدة بطانيات. وسرعان ما خلد إلى النوم على كتفها وهو يشعر بالإرهاق. عندما استيقظ كان ستيفان قد خرج إليهما.

- إنه جاهز.

عندما دخلوا بيت المزرعة، كان الفتى قد اختفى، وعلى النار قدرٌ كبيرة، فيها يخنة تفور. ساعدته آنا على الجلوس قريباً من الحرارة، وتناول الطبق الذي ملأه ستيفان حتى حافته، وحدق إلى الحساء الذي يتصاعد منه البخار. قطع بلوط تطفو على السطح مع مفاصل ناصعة البياض وشرائح لحم. راقبه ستيفان وآنا، ثم قال ستيفان:

- كنت ستموت ليعيش ابننا، لكنه مات، ولهذا ستعيش.

كانا يقدمان له لحمهما ودمهما: يقدمان ابنهما. رفع الحساء إلى أنفه. لم يكن قد أكل منذ وقت طويل، وبدأ لعابه يسيل. تغلبت عليه غريزته ومدّ يده.

telegram @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

شرح ستيفان.

- سنبدأ غداً رحلتنا إلى موسكو. لا يمكن أن ننجو بحياتنا هنا بعد الآن. لدي عم في المدينة، ويستطيع مساعدتنا. كان يفترض أن تكون هذه وجبتنا الأخيرة قبل رحلتنا، وهي التي ستجعلنا نصل إلى المدينة. يمكن أن تأتي معنا، أو تبقى هنا وتحاول العثور على طريق عودتك إلى منزلك.

هل يجب أن يبقى هنا، من دون أي فكرة عن هويته، أو عن مكان تواجده؟ ماذا إن لم يتذكر شيئاً قطّ؟ ماذا إن لم يخطر له شيء؟ من سيعتني به؟ ماذا سيفعل؟ هل ينبغي له أن يذهب مع هذين الشخصين؟ كانا لطيفين، ولديهما طعام، وخطة، وطريقة للنجاة.

- أريد أن أذهب معكما.

- هل أنت واثق؟

- نعم.

- اسمي ستيفان، واسم زوجتي آنا. ما اسمك؟

لم يتذكر أي أسماء، باستثناء واحد، الاسم الذي سمعه سابقاً. هل يستطيع قول ذلك الاسم؟ هل سيغضبان منه؟

- اسمي ليو.

11 تموز

دُفعت ريزا إلى الأمام نحو صفٍّ من الطاولات، يجلس إلى كل منها ضابطان، أحدهما يتأكد من كومة وثائق في حين يفتش الآخر السجين. لم يكن هناك تمييز بين الرجال والنساء. كانوا يُفتَّشون كلهم معاً، جنباً إلى جنب بالطريقة القاسية نفسها. لم تكن هناك طريقة لمعرفة أي طاولة تحمل الوثائق الخاصة بها. اصطُحبت ريزا إلى إحدى الطاولات، ثم إلى أخرى، وانتهى استجوابها قبل أن تنتهي أوراقها. كان ذلك مزعجاً، واقتيدت جانباً من قبل الحارس الذي يرافقها بعد أن تجاوزت ذلك الجزء الأوّلي من العملية. كانت تلك الأوراق المفقودة تضم الإفادة عن جريمتها والحكم الذي سيصدر بحقها. أصغى كل السجناء حولها من دون أي انفعال حين قيل لهم إنهم مذنبون بما يلي: أيه. كيه. أيه، كيه. آر. آر. دي، بي. أس. إيتش، أس. في. بي. أس. إيتش، كيه. آر. أم، أس. أو. إي. أو أس. في. إي، وهي رموز يتعذر فك طلاسمها، وتحدد مصيرهم. نُطق بالأحكام بعدم اكتراث مهني:

خمس سنوات! عشر سنوات! خمس وعشرون سنة!

لكن، كان عليها أن تعذر هؤلاء الحراس على قسوتهم؛ فقد كان عملهم شاقاً، ولديهم أشخاص كُثر يتعاملون معهم، وسجناء عديدون ينقلونهم. عندما صرخوا بالأحكام رأت ردّ الفعل نفسه يصدر عن كل السجناء تقريباً: عدم التصديق. هل كان أيٌّ من ذلك حقيقياً؟ بدا الأمر مثل حلم؛ وكأنهم انتُزعوا من العالم الحقيقي وأُلقي بهم داخل عالم جديد تماماً؛ حيث لا أحد يثق بالقوانين. ما القوانين التي تحكم ذلك المكان؟ ماذا يأكل الناس؟

telegram @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

هل يُسمح لهم بالاغتسال؟ ماذا يلبسون؟ هل يتمتعون بأي حقوق؟ كانوا مولودين حديثاً ولا أحد يحميهم أو يعلّمهم القواعد.

اقتيدت ريزا إلى خارج غرفة الاستجواب نحو رصيف المحطة، والحارس يمسك ذراعها، لكنها لم تصعد على متنِ القطار. بدلاً من ذلك، انتظرت حتى صعد كل السجناء الآخرين إلى صفٍّ من العربات؛ عربات ماشية معدّلة تستخدم لنقل المساجين إلى غولاغ. كان الرصيف قد شُيّد، بالرغم من كونه جزءاً من محطة كازان، ليكون بعيداً عن أنظار الركاب العاديين. عندما نُقلت ريزا من قبو لوبيانكا إلى المحطة، وُضعت على متن شاحنة سوداء كُتبت عليها كلمتا فاكهة وخضار، وفهمت أن تلك ليست دعابة سمجة من قِبَل الدولة وإنما جزءاً من محاولة إخفاء نطاق الاعتقالات. هل كان هناك إنسان حيٌّ لا يعرف شخصاً اعتُقل؟ وبالرغم من الحفاظ على غطاء السرية بقوة، إلا أن تلك التمثيلية المتقنة لم تكن تقنع أحداً.

خمّنت وجود عدّة آلاف من السجناء على الرصيف، يُرغمون على الصعود إلى العربات بطريقة بدا معها أن الحراس يحاولون تحطيم رقم قياسي ما. فكان هناك المئات الذين يُدفعون بقسوة إلى مساحات لا تتسع - عند إلقاء نظرة عليها - لأكثر من ثلاثين أو أربعين شخصاً. لكنها كانت قد نسيت؛ لم تعد قوانين العالم القديم مطبقة. كان ذلك هو العالم الجديد بقوانينه الجديدة، والحيز الذي يتسع لثلاثين يصبح مخصّصاً لثلاثمئة. لم يكن الناس يحتاجون إلى هواء بينهم، والمساحة سلعة ثمينة في العالم الجديد، لا يمكن التفريط بها. لم تكن وسائل نقل الناس مختلفة عن وسائل نقل الحبوب؛ حيث يكدسون فوق بعضهم بعضاً مع توقّع فقدان خمسة بالمئة منهم.

لم يكن هناك أثر لزوجها بين هؤلاء الناس من كل الأعمار. بعضهم يرتدون ثياباً أنيقة، ومعظمهم يرتدون أسمالاً بالية. كان أفراد الأسرة يُبعدون عن بعضهم بعضاً في غولاغ على أنه إجراء روتيني، ويُرسلون إلى أنحاء

telegram @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

متفرقة في البلاد. كان النظام يفتخر بأنه يحطم الروابط والعلاقات، والعلاقة الوحيدة المهمة هي علاقة الشخص بالدولة. لقد علّمت ريزا تلاميذها ذلك الدرس. افترضت أن ليو سيُرسل إلى معسكر آخر، ولهذا أُصيبت بالدهشة عندما أوقفها حارسها على الرصيف، وأمرها أن تنتظر. لقد أُرغمت على الانتظار على الرصيف من قبل، حين نُفيا إلى فوالسك، وبدت تلك ميزة خاصة بفاسيلي، الذي كان يستمتع بمشاهدة إذلالهما. لم يكن كافياً أنهما يعانيان، وإنما أراد أن يراقب ذلك.

رأت فاسيلي قادماً نحوها، وهو يقود رجلاً أكبر سناً محنيّ الظهر. وعندما أصبحا على بعد أقل من خمسة أمتار عنها عرفت أن ذلك الرجل هو زوجها. حدّقت إلى ليو، مدهوشة من التغيير الذي طرأ عليه، فقد بدا ضعيفاً؛ وكأن العمر قد تقدم به عشر سنوات. ما الذي فعلوه به؟ عندما أفلته فاسيلي كاد يتعثر، لكن ريزا أمسكته، وحدّقت إلى عينيه. تعرّف إليها، فوضعت يدها على وجهه، وهي تتحسس جبينه:

- ليو؟

بذل جهداً كي يرد، وارتعش فمه حين حاول نطق الكلمة:

- ريزا.

استدارت نحو فاسيلي الذي كان يراقب كل ذلك. شعرت بالغضب، وتكوّنت الدموع في عينيها. كان يريد ذلك، فمسحتها، لكنها لم تتوقف.

لم يسع فاسيلي إلا أن يشعر بالإحباط. لم يكن سبب ذلك أنه لم يحصل بالضبط على ما أراده دائماً، فقد حدث ذلك وأكثر. لقد توقع بطريقة ما ذلك الانتصار، وكانت تلك لحظة التتويج. قال مخاطباً ريزا:

- فصل الأزواج عن الزوجات أمر معتاد، لكنني ظننت أنكما سترغبان في أن تذهبا في هذه الرحلة معاً، وهذا كرم مني.

قال الكلمات بسخرية وقسوة بالطبع، لكنها علقت في حنجرته ولم تجعله يشعر بالرضا. أدرك أن أفعاله مثيرة للشفقة، وتحدث في غياب أي

معارضة حقيقية. كان ذلك الرجل، الذي أصبح هدفاً له منذ وقت طويل ضعيفاً آنذاك، ومقهوراً ومحطّماً. وبدلاً من أن يشعر بأنه أقوى ومنتصر، أحس أن جزءاً منه قد تضرر. أوقف الحديث الذي كان قد خطط له وحدّق إلى ليو. ما هو شعوره؟ هل كان نوعاً من التعاطف مع ذلك الرجل؟ بدت الفكرة سخيفة؛ فهو يكرهه.

كانت ريزا قد رأت تلك النظرة من قبل على وجه فاسيلي. لم تكن كراهيته مهنية، وإنما كانت هوساً وولعاً مرضياً؛ وكأن حباً غير متبادل قد تحول إلى كراهية، وتبدّل إلى شيء قبيح. وبالرغم من أنها لم تشعر بأي شفقة نحوه، إلا أنها افترضت أنه ربما كان هناك شيء إنساني داخله في ما مضى. أشار إلى الحارس الذي دفعهما نحو القطار.

ساعدت ريزا ليو على الصعود إلى العربة، وكانا آخر سجينين يركبانها. أُغلق الباب خلفهما بعنف، وشعرت في العتمة بمئات العيون تحدّق إليهما.

وقف فاسيلي على الرصيف، ويداه خلف ظهره.

- هل تمت الترتيبات؟

أومأ الحارس.

- لن يصل أي منهما إلى وجهتهما حياً.

مئة كيلومتر شرق موسكو

12 تموز

جثمت ريزا وليو في مؤخر العربة؛ في المكان الذي شغلاه منذ أن صعدا على متنها في اليوم السابق. وبصفتهما آخر سجينين يركبان العربة، اضطرا إلى الانسجام مع المساحة الوحيدة المتبقية. كانت المواقع الفضلى، والمقاعد الخشبية الخشنة التي تمتد على طول الجدران عند ثلاثة ارتفاعات مختلفة محجوزة كلها، ويستلقي على تلك المقاعد، التي لا يزيد عرضها على ثلاثين سنتيمتراً، ثلاثة أشخاص جنباً إلى جنب، محشورين معاً؛ وكأنهم يقيمون علاقة، لكن لم يكن هناك شيء جنسي في تلك الألفة المريعة. كانت المساحة الوحيدة الفارغة التي وجدها ليو وريزا قرب ثقب بحجم قبضة في ألواح الأرضية؛ قرب مرحاض العربة كلها. لم يكن هناك حاجز، أو فاصل، أو خيار إلا التغوط والتبول على مرأى الجميع. وكان ليو وريزا على بعد أقل من قدم عن الثقب.

بدايةً، في ذلك الظلام النتن، شعرت ريزا بغضب لا يمكن التحكم به. لم يكن الإذلال جائراً ومروّعاً فحسب، وإنما غريباً وحقوداً ومتعمّداً. إذا كانوا سيذهبون إلى تلك المعسكرات للعمل، فلماذا يُنقلون وكأنهم يساقون ليُعدَموا؟ منعت نفسها عن متابعة ذلك النوع من الأفكار: لن ينجوَا هكذا، كانا يستشيطان غضباً من السخط. كان عليها أن تتلاءم مع الوضع، وبقيت تذكّر نفسها:

عالم جديد، قوانين جديدة.

telegram @ktabpdf

مكتبة الرمحي أحمد

لم تستطع مقارنة وضعها الحاليّ بالماضي، فالسجناء لا حقوق لهم، ويجب ألاّ تكون لديهما أي توقعات.

عرفت ريزا، حتى من دون ساعة أو رؤية العالم في الخارج، أن الوقت قد تجاوز منتصف النهار، فالسقف الفولاذي كان ساخناً من الشمس، والطقس يتعاون مع الحراس ويُلحق بهم عقوبة دائمة، وكانت الحرارة القاسية تلسع مئات الأجساد. تحرك القطار ببطء شديد، ولهذا لم يدخل أي نسيم عبر الشقوق الصغيرة في الجدران الخشبية، وكانت أي كمية هواء صغيرة تدخل من نصيب أولئك السجناء المحظوظين كفاية للجلوس على المقاعد الخشبية.

أرغمت ريزا نفسها على التنفيس عن غضبها، فأضحى احتمال درجات الحرارة والروائح التي لا تطاق ممكناً. كانت النجاة تعني الانسجام، لكن أحد السجناء اختار ألاّ يقبل تلك القوانين الجديدة. لم تكن لدى ريزا فكرة عن وقت وفاته بالضبط؛ كان رجلاً في منتصف العمر. لم يحدث ضوضاء، ولم يلحظه أحد، وحتى إذا لاحظه أحدهم، فلم يقل شيئاً. مساء أمس، عندما توقف القطار، وترجل منه الجميع لتناول كأس صغيرة من الماء، صرخ أحدهم أن هناك رجلاً قد مات. مرّت ريزا بجانبه، وظنّت أنه قد قرّر أن ذلك العالم الجديد لا يناسبه. لقد استسلم، وانغلق على نفسه، وتعطّل مثل آلة. سبب الوفاة يأس، وعدم اهتمام بالنجاة إذا كان هناك ما يستحق العيش من أجله. رُميت جثته من القطار، ووُضعت بجانب الطريق، بعيداً عن الأنظار.

استدارت ريزا إلى ليو الذي كان قد نام معظم الرحلة حتى ذلك الوقت مستنداً إليها، مثل طفل وديع. عندما استيقظ بدا هادئاً. لم يكن منزعجاً أو قلقاً. كان ذهنه وأفكاره في مكان آخر؛ كان جبينه يتقطب عبوساً وكأنه يحاول أن يفهم شيئاً. بحثت في جسده عن آثار تعذيب، ووجدت كدمة كبيرة على ذراعه، وعلامات حمراء حول كاحليه ومعصميه مما يدل على تقييده. لم تكن لديها فكرة عمّا مرّ به، لكن بدا أنه نفسي وكيميائي؛ فليست هناك جروح

وحروق ظاهرة للعيان. فركت رأسه، ثم أمسكت يده وقبّلته. كان ذلك هو الدواء الذي يمكن أن تقدمه له. استلمت حصته من الخبز الأسود وشريحة واحدة من السمك المملح المجفف؛ وجبتهما الوحيدة حتى ذلك الوقت. كانت السمكة، بعظامها البيضاء الهشة الصغيرة، متبلورة تماماً في الملح، وقد أمسك بعض السجناء حصصهم من السمك بأيديهم، وهم يتضورون جوعاً ولا يطيقون في الوقت نفسه احتمال تناولها من دون ماء، فقد كان العطش أسوأ من الجوع. قامت ريزا بنفض أكبر كمية ممكنة من الملح قبل أن تجزّئها إلى قطع صغيرة وتطعمها لليو.

جلس ليو، وتكلم للمرة الأولى منذ صعوده إلى القطار بكلمات تُسمع بصعوبة. انحنت ريزا نحوه، تحاول جاهدة أن تسمع.

- كانت أوكسانا والدة صالحة. أحبتني، لكنني تركتهما، واخترت عدم العودة. أراد شقيقي الأصغر أن يلعب الورق دائماً، وكنت أقول إنني مشغول جداً.

- من هما يا ليو؟ من أوكسانا؟ من شقيقك؟ ما الذي تتكلم عنه؟

- رفضت والدتي السماح لهم بأخذ جرس الكنيسة.

- آنا؟ هل تتكلم عن آنا؟

- آنا ليست والدتي.

احتضنت ريزا رأسه، وهي تتساءل إن كان قد جُنَّ، ثم نظرت إلى أرجاء العربة، وأدركت أن ضعف ليو يجعله هدفاً سهلاً.

كان معظم السجناء خائفين جداً ولا يمثلون تهديداً، باستثناء خمسة رجال يجثمون في الزاوية البعيدة على مقاعد مرتفعة. وبخلاف الركاب الآخرين لم يكونوا يشعرون بالخوف، وكانوا منسجمين بسهولة مع ذلك العالم، فخمّنت ريزا أنهم مجرمون محترفون متهمون بالسرقة أو الاعتداء، وهي جرائم صدرت بحقّ مرتكبيها أحكام أخفّ بكثير من تلك التي صدرت بحق السجناء السياسيين حولهم من معلمين وممرضين وأطباء وكتّاب

وراقصين. كان السجن مجالهم وعالمهم. وبدا أنهم يفهمون قوانينه على نحو أفضل من قوانين العالم الآخر. لم يكن تفوّقهم ينبع من قوتهم الجسدية الواضحة للعيان فقط، فقد لاحظت أن الحراس يمنحونهم سلطة أيضاً، ويتكلمون معهم كأنداد لهم، وإن لم يكن كذلك، فعلى الأقل كما يتكلم رجل مع رجل آخر. شعر سجناء آخرون بالخوف منهم، وأفسحوا لهم في المجال. استطاع هؤلاء مغادرة مقاعدهم، واستخدام المرحاض، وجلب الماء من دون أن يخشوا فقدان مواقعهم المميزة. لم يجرؤ أحد على احتلال أماكنهم. كانوا قد طلبوا سابقاً من أحد الرجال، الذي يبدو أنهم لا يعرفونه، أن يعطيهم حذاءه، وعندما سأل عن السبب، شرحوا له بنبرة واقعية أنه خسر حذاءه في رهان. شعرت ريزا بالارتياح لأن ذلك الرجل لم يشكك في منطق الأمر:

عالم جديد، قوانين جديدة.

أعطاهم الرجل حذاءه، واستلم زوجاً بالياً بالمقابل.

توقف القطار، فتعالت الصرخات طلباً للماء من كل مكان، ومن كل عربة، فجرى تجاهلها أو محاكاتها بسخرية:

ماء! ماء! ماء!

شعروا أن ذلك الطلب غريب بطريقة ما. بدا أن كل الحراس يتجمّعون حول عربتهما، فُتح الباب، وأُصدرت الأوامر للسجناء بالبقاء في أماكنهم. نادى الحراس الرجال الخمسة الذين نزلوا عن مقاعدهم مثل حيوانات الغابة، وشقوا طريقهم بين السجناء، وغادروا القطار.

شعرت ريزا أن هناك خطباً ما، فطأطأت ريزا رأسها، وهي تتنفس بسرعة. لم يمضِ وقت طويل قبل أن تسمع الرجال يعودون، فانتظرت، ثم رفعت رأسها ببطء، ورأت الرجال يصعدون مجدداً إلى العربة، وكلهم يحدّقون إليها.

اليوم نفسه

أمسكت ريزا رأس ليو.

- ليو.

سمعتهم يقتربون، ولم تكن هناك طريقة للتحرك في العربة المزدحمة من دون فتح طريق بين السجناء على الأرضية.

- ليو، أصغِ إلي، نحن في ورطة.

لم يتحرك، ولم يبدُ أنه يفهم ما تقوله أو يعي الخطر الذي يتعرضان له.

- أرجوك، أتوسل إليك.

لم يجدِ ذلك نفعاً. نهضت، ثم استدارت لتواجه الرجال القادمين نحوهما. ماذا كان بمقدورها أن تفعل غير ذلك؟ بقي ليو جاثماً على الأرض خلفها. كانت خطتها هي المقاومة بقدر ما تستطيع.

تقدم القائد، وهو أطول الرجال، إلى الأمام وأمسك ذراعها. كانت ريزا تتوقع مثل تلك الحركة، فضربته على عينه بيدها الحرة، وانغرست أظفارها، غير المقلّمة والمتسخة في جلده. كان يجب أن تفقأ عينه، وقد خطرت لها تلك الفكرة، لكن كل ما استطاعت القيام به هو إصابته بجرحٍ بليغ. ألقاها الرجل أرضاً، فوقعت على بعض السجناء الذين سرعان ما ابتعدوا عن طريقها. لم تكن تلك معركتهم، وهم لن يساعدوها، لذا، إنها بمفردها. حاولت ريزا أن تزحف مبتعدة عن مهاجميها، لكنها اكتشفت أنها لا تستطيع الحراك، فقد كان أحدهم يمسك كاحلها. أمسكتها العديد من الأيدي، ورفعتها وقلبتها على ظهرها. جثم أحد الرجال على ركبتيه ممسكاً ذراعيها،

telegram @ktabpdf مكتبة الرمحي أحمد

ومثبّتاً إياها، في حين أخذ القائد يركل ساقيها كي تباعد بينهما، وهو يحمل في يده قطعة فولاذية سميكة ومحزّزة، مثل سن ضخمة.

- بعد أن أعتدي عليك، سأضربك بهذه.

أشار إلى القطعة الفولاذية التي أدركت ريزا أن الحرّاس قد أعطوه إياها. لم تستطع تحريك جسدها، فاستدارت نحو ليو الذي كان قد اختفى.

كانت أفكار ليو قد ابتعدت عن الغابة، والهر، والقرية، وشقيقه، لأنّ زوجته في خطر. كافح في تقويمه الموقفَ، وتساءل لماذا تجاهلوه؟ ربما كان قد قيل لهؤلاء الرجال إنه فاقد الوعي ولا يمثّل تهديداً. وبغض النظر عن السبب، استطاع الوقوف من دون أن يثير ذلك أي رد فعل لديهم. كان القائد يفك أزرار سرواله، وبحلول الوقت الذي لاحظ فيه ليو واقفاً، كانت ذراع واحدة فقط تفصل بينهما.

جأر القائد، واستدار ثم لكمه على جانب وجهه. لم يصدَّ ليو الضربة أو يتفاداها، بل وقع على الأرض، ثم استلقى على الألواح الخشبية، وشفته ممزقة، وهو يصغي إلى أصوات الرجال وهم يضحكون. دعهم يضحكون. لقد نفعه الألم، وجعله يركّز. كانوا مفرطين في ثقتهم بأنفسهم، ويفتقرون إلى التدريب. كانوا أقوياء ولكنهم ليسوا ماهرين. تظاهر بأنه ضعيف وأخرق، ونهض ببطء مديراً ظهره إلى الرجال؛ وكأنه هدف سهل المنال. سمع شخصاً يتقدم نحوه؛ رجلاً قد وقع في الفخ، فنظر من فوق كتفه، ورأى القائد يندفع نحوه بالقطعة الفولاذية، وهو ينوي الإجهاز عليه.

تحرك ليو جانباً بسرعة مما أصاب الرجل بالدهشة. وقبل أن يستوعب القائد ما حدث، لكم ليو حنجرته، وجعله يختنق. لهث الرجل، وأمسك ليو يده، وانتزع القطعة الفولاذية منه، وغرزها في جانب عنقه. ضربه ليو بالقطعة مجدداً، ودفعها كلها داخل عنقه، فقطعت كل عصب وعرق وشريانٍ في طريقها. سحب السلاح فانهار الرجل وهو يمسك الجرح في عنقه.

تقدم أقرب عضو في جماعته إلى الأمام ماداً ذراعيه، وسمح له ليو أن

telegram @ktabpdf مكتبة الرمحي أحمد

يمسك عنقه، ولكنه دفع بالمقابل القطعة في بطنه عبر قميصه، ثم سحبها جانبياً. أخذ الرجل يقرقر، لكن ليو تابع تحريك القطعة الفولاذية وهو يقطع الجلد والعضلات. أفلت الرجل الجريح قبضته عن عنق ليو، ووقف وهو ينظر إلى بطنه الذي ينزف محتاراً من ذلك، قبل أن يخرَّ على ركبتيه.

استدار ليو إلى الرجال الثلاثة الباقين الذين فقدوا كل اهتمام بالعراك. لم يكن أي اتفاق عقدوه يستحق ذلك القتال، وربما كان كل ما وُعدوا به هو حصص طعام أفضل أو عملاً أسهل في المعسكر. تولى أحد الرجال القيادةَ، وربما انتهز تلك الفرصة للارتقاء ضمن جماعته:

- لا نريد الشجار معك.

لم يقل ليو شيئاً، وكانت يداه ملطختين بالدماء، وهو يحمل القطعة الفولاذية. تراجع الرجال، وتركوا الميت والجريح، متبرئين من الفشل بسرعة.

ساعد ليو ريزا على النهوض، وعانقها.

- أنا آسف.

قاطعهما الرجل الجريح وهو يطلب العون. كان الرجل الأول، ذاك الذي شُقَّ عنقه ميتاً آنذاك. لكن الرجل الذي جُرح بطنه كان لا يزال حياً، ويقوّم إصابته. كان موته سيستغرق وقتاً طويلاً، وسيكون مؤلماً وبطيئاً. لم يكن يستحق أي رحمة، لكن من الأفضل للسجناء الآخرين أن يموت بسرعة؛ فلم يكن أحد يرغب في الاستماع إلى صرخاته. جثم ليو أرضاً، وأمسك عنق الرجل بقبضته، وخنقه.

استدار ليو إلى زوجته التي همست:

- لقد أمر الحراسُ هؤلاء الرجال أن يقتلونا.

فكّر ليو في ذلك، ثم أجاب:

- فرصتنا الوحيدة هي الهروب.

كانت سرعة القطار تخف، وعندما سيتوقف أخيراً سيفتح الحراس

الأبواب، متوقعين أن يجدوا ليو وريزا ميتين. لكن، عندما يكتشفون أن اثنين من قاتليهما ميتان بدلاً من ذلك، فسيطلبون معرفة من قتلهما. سيتكلم بعض السجناء بكل تأكيد بدافع الخوف من التعذيب أو الرغبة في مكافأة. وستكون تلك ذريعة أكثر من كافية ليقوم الحراس بإعدام ليو وريزا.

استدار ليو ليواجه السجناء، ورأى أمهاتٍ حوامل، ورجالاً تقدم بهم العمر ولا يمكنهم النجاة في غولاغ، وآباء، وأشقاء، وشقيقات؛ رأى أشخاصاً عاديين لا يلفتون النظر، من النوع الذي اعتقلهم هو بنفسه وأخذهم إلى لوبيانكا. كان مرغماً الآن على طلب مساعدتهم.

– اسمي ليس مهماً. قبل اعتقالي، كنت أحقق في مقتل أكثر من أربعين ولداً، وهي جرائم امتدت من جبال الأورال إلى البحر الأسود، وقُتل فيها فتيان وفتيات. أعرف أنه من الصعب تصديق وقوع هذه الجرائم، وربما يكون الأمر مستحيلاً بالنسبة إلى بعضكم، لكنني رأيت الجثث بأم عيني وأنا واثق أنها من عمل رجل واحد. إنه لا يقتل هؤلاء الأولاد من أجل المال أو الجنس أو أي سبب يمكنني تفسيره. سيقتل أي ولد، من أي بلدة، ولن يتوقف. كانت جريمتي هي التحقيق في أمره، واعتقالي يعني أنه حرٌّ لمتابعة القتل. لا أحد آخر يبحث عنه، ويجب أن أهرب مع زوجتي لإيقافه. لكن، لا يمكننا الفرار من دون مساعدتكم. إذا استدعيتم الحراس، فسنموت.

أطبق الصمت على الجميع، وكاد القطار يتوقف. ستفتح الأبواب في أي لحظة، وسيدخل الحراس، وبنادقهم جاهزة للاستعمال. من بمقدوره أن يلومهم على قول الحقيقة في حين أنهم يواجهون فوهات البنادق؟ صرخت امرأة كانت تجلس على أحد المقاعد:

– أنا من روستوف، وقد سمعت بتلك الجرائم. أولاد تُستأصل معداتهم. إنهم يلقون باللوم على مجموعة من الجواسيس الغربيين الذين تسللوا إلى البلاد.

رد ليو:

- أظن أن القاتل يعيش في مدينتك ويعمل فيها، لكنني أشك في أنه جاسوس.

صرخت المرأة:

- عندما تجده هل ستقتله؟

- نعم.

توقف القطار، وسمعوا الحراس يقتربون، فأضاف ليو:

- لا سبب لدي لأتوقع مساعدتكم، لكنني أطلبها مع ذلك.

جثم ليو وريزا بين السجناء، ووضعت ريزا ذراعيها حوله لتغطي يديه الملطختين بالدماء. فُتحت الأبواب، وغمر ضوء الشمس العربة.

عثر الحراس على الجثتين، وصرخوا يطلبون تفسيراً.

- من قتلهما؟

لم يلقوا إلا الصمت. نظر ليو من فوق كتف زوجته إلى الحراس الذين كانوا يافعين وغير مبالين. كانوا سيطيعون الأوامر، لكنهم لن يفكروا من تلقاء أنفسهم. كانت حقيقة أنهم لم يقتلوا ليو وريزا بأنفسهم تدل على أنه ليس لديهم أوامر لفعل ذلك، ويجب أن يحدث ذلك سراً على يد شخص آخر. فهم ما كانوا ليتصرفوا من دون أمر واضح، فهؤلاء الحراس لا يتمتعون بأي مبادرة. على أيّ حال، ربما ينتهزون الفرصة إذا ظهر أي مبرر. كان كل شيء يعتمد على الغرباء الموجودين في العربة. أخذ الحراس يصرخون، وهم يدفعون البنادق نحو وجوه أولئك الأقرب إليهم، لكن السجناء لم يخبروهم شيئاً، فاختاروا زوجين عجوزين، وضعيفين، بدا واضحاً أنهما سيتكلمان.

- من قتل هذين الرجلين؟ ماذا حدث هنا؟ تكلما!

رفع أحد الحرّاس حذاءه المزوّد بقطعة فولاذية فوق رأس المرأة، فبكت، وتوسّل زوجها، لكن أياً منهما لم يجب عن أسئلتهم. تحرك حارس آخر نحو ليو. إذا جعله يقف، فسيرى قميصه الملطخ بالدماء.

telegram @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

نزل أحد أفراد الجماعة الباقين، وهو الرجل الذي أخبر ليو أنه لم يعد هناك نزاع بينهم، من مقعده واقترب من الحراس، وبدا واضحاً أنه سيطالب بالمكافأة التي وعدوهم بها. صرخ الرجل:

- اتركوهما وشأنهما. أعرف ما حدث، وسأخبركم به.

ابتعد الحراس عن الزوجين العجوزين، وعن ليو.

- أخبرنا.

- قتلا بعضهما بعضاً، بسبب لعبة ورق.

فهم ليو أن هناك منطقاً فاسداً في رفض الجماعة تسليمهما، فقد كانوا مستعدين للسلب والقتل من أجل منفعة صغيرة. ولكن، ليس ليكونوا مخبرين، أو وشاة للحراس. كانت تلك مسألة مكانة، وإذا اكتشف اليوركي الآخرون، الأعضاء في عصابتهم الإجرامية، أنهم يبيعون السجناء مقابل منافع لهم، فلن يسامحوهم أبداً، وسيُقتلون على الأرجح.

نظر الحراس إلى بعضهم بعضاً، غير واثقين مما يجب أن يفعلوه، لكنهم قرّروا ألاّ يفعلوا شيئاً. لم يكونوا على عجلة من أمرهم، فالرحلة إلى فتورايا ريشكا على ساحل الهادئ ستستغرق أسابيع، وستسنح لهم فرص عديدة. كانوا سينتظرون أوامر إضافية، وسيستنبطون خطة أخرى. خاطب أحد الحراس جميع مَن في العربة:

- لن نرمي هاتين الجثتين من العربة عقوبة لكم. قريباً، في هذه الحرارة، ستبدأان بالتحلل، وستفوح منهما رائحة كريهة، وستمرضون جميعاً، وعندها ربما ستتكلمون.

قفز الحارس إلى خارج العربة فخوراً بنفسه، وتبعه الحراس الآخرون، ثم أُغلق الباب.

بدأ القطار يتحرك بعد بعض الوقت. فهمس شاب يضع نظارة مكسورة، وهو يحدّق إلى ليو عبر عدستين متشققتين:

- كيف ستهرب؟

telegram @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

كان لديه الحق في أن يعرف، فهروبهما الآن يخصّ كل شخص في العربة، وهم جميعاً شركاء في ذلك. رداً على ذلك رفع ليو القطعة الفولاذية الملطخة بالدماء، والتي نسي الحراس أن يستعيدوها.

telegram @ktabpdf مكتبة الرمحي أحمد

مئتان وعشرون كيلومتراً
شرق موسكو

13 تموز

استلقى ليو على الأرضية، ومدّ ذراعه عبر الثقب الصغير الذي يستخدمه السجناء كمرحاض، وحكّ بالقطعة الفولاذية المسامير الحديدية التي تثبت اللوح الخشبي إلى أسفل العربة. لم يكن من الممكن الوصول إلى أي من المسامير من داخل العربة، فجميعها مثبتة من الطرف السفلي. كانت نقطة الوصول الوحيدة إليها من خلال ذلك الثقب الصغير الذي يتسع لمعصمه بصعوبة. كان ليو قد أخذ قميص الرجل الميت ونظّف الحفرة بأفضل ما يستطيع، لكن ذلك لم يكن أكثر من جهد رمزي. ومن أجل الوصول إلى المسامير الحديدية الثلاثة اضطر إلى وضع وجهه على المرحاض كريه الرائحة والخشب المشبع بالغائط، وتقيّأ في أثناء محاولته تحسس طريقه على نحو أعمى، معتمداً على حاسة اللمس وحدها. انغرست شظايا في جلده، وعرضت ريزا القيام بالعمل بدلاً منه لأن يديها ومعصميها أصغر حجماً. وبالرغم من صحة ذلك، كانت ذراع ليو أطول، ولا يمكن الوصول إلى كلٍّ من المسامير الثلاثة إلا إذا مدّها إلى أقصاها.

لفَّ ليو قطعة من القميص حول فمه وأنفه كحماية محدودة من الرائحة الكريهة، وتعامل مع المسمار الثالث والأخير، فكشطه، وحكَّ الخشب، ثم حفر لوح الأرضية، وأوجد لنفسه حيزاً كافياً ليحشر طرف القطعة الفولاذية تحت رأس المسمار ويفكّه. استغرق الأمر ساعتين لفك مسمارين؛ لأن أي سجين احتاج إلى المرحاض كان يقاطع العمل.

كان المسمار الأخير هو الأصعب، ويعزى الأمر إلى حدٍّ ما إلى التعب. فقد تأخر الوقت، وربما كانت الساعة الواحدة أو الثانية صباحاً. لكنّ شيئاً آخر لم يكن على ما يرام. فقد استطاع ليو إيصال أصابعه إلى تحت رأس المسمار، لكنه لم يتمكن من فكّه. فقد بدا معوجّاً؛ وكأنه دُقَّ في الخشب بزاوية حادة، فالتوى جسم المسمار نتيجة الضربات. لم يكن من الممكن سحبه من مكانه، ولهذا كان على ليو أن يحفر أكثر في الخشب، ربما حتى آخره. عندما أدرك ذلك، وأن الأمر ربما يستغرق ساعة أخرى، انتابته موجة من الإرهاق. كانت أصابعه تنزف وخشنة، فيما كانت ذراعه تؤلمه. لم يستطع إبعاد رائحة الغائط عن أنفه. اهتز القطار فجأة إلى الجانب، ففقد تركيزه، وانزلقت القطعة الفولاذية من بين أصابعه، وقعقعت على السكة في الأسفل.

أخرج ليو يده من الحفرة، وكانت ريزا بجانبه.

- هل انتهى الأمر؟

- لقد أوقعتها. سقطت القطعة الفولاذية مني.

استشاط غضباً من غبائه لرميه المسمارين الآخرين، وأدرك أنه لم يعد لديه أي أدوات.

نظرت ريزا إلى يدي زوجها الملطختين بالدماء، ثم أمسكت طرف اللوح الخشبي وحاولت سحبه إليها، فارتفع أحد طرفيه قليلاً، لكن ذلك لم يكن كافياً لمد يدٍ تحته ونزعه من مكانه. مسح ليو يديه، ونظر حوله بحثاً عن شيء يمكن أن يستخدمه.

- يجب أن أحفر الخشب وأصل إلى قاعدة ذلك المسمار الأخير.

كانت ريزا قد رأت كل سجين يُفتَّش بعناية شديدة قبل أن يُسمح له بالصعود إلى القطار، وشكّت في أن يكون لدى أحدهم أدوات معدنية من أي نوع. أمعنت التفكير في المشكلة، وانتقل بصرها إلى أقرب الجثتين. كان الرجل يستلقي على ظهره وفمه مفتوح، فاستدارت إلى زوجها:

- إلى أي حدٍّ يجب أن يكون طويلاً أو حاداً؟

- لقد أنجزت معظم العمل. أحتاج إلى شيء أقسى من إصبعي.

نهضت ريزا، ومشت إلى جثة الرجل الذي حاول أن يغتصبها ويقتلها، ومن دون إحساس بالإنصاف أو الرضا، وإنما بالاشمئزاز فقط، جعلت فك الرجل الميت يتجه إلى الأعلى، ثم رفعت حذاءها فوق فكّه، وترددت، ونظرت حولها. كان الجميع يراقبون ما يحدث، فأغمضت عينيها، ودفعت كعبها إلى الأسفل على أسنانه الأمامية.

زحف ليو نحو الرجل، وتحسس داخل فمه، وسحب سناً لا تزال ملتصقة بجذر لثّته ملطخة بالدماء. إنها سنّ قاطعة، ليست مثالية لكنها حادة وقاسية كفاية لمتابعة الكشط الذي أنجزه آنذاك. عاد إلى الثقب، وانبطح على الأرض، وهو يمسك السن، ثم مرّر ذراعه بصعوبة عبر الحفرة وعثر على المسمار الباقي، وتابع حكّ الخشب، وإزالة الشظايا التي تخرج منه.

أصبح المسمار مكشوفاً تماماً، فأطبق ليو على السن براحة يده، تحسباً من الحاجة إلى مزيد من الحفر، ثم أمسك رأس المسمار، لكن أصابعه كانت مجروحة ولم يستطع تثبيتها عليه. سحب ذراعه إلى خارج الثقب، ومسح العرق والدم عن أصابعه، ثم لفّها بقطعة ممزقة من القميص قبل أن يحاول مجدداً. كافح للتحلي بالصبر، وشد المسمار، وحرّره تماماً من اللوح الخشبي. انتهى الأمر: أنجز ما يريده، وأخرج المسمار الثالث من مكانه. تأكد من الخشب، وتحسس بحثاً عن مسامير أخرى. لكن لم يكن هناك غيرها، أو على الأقل لم تكن هناك مسامير يمكن أن يعثر عليها. جلس، ثم أخرج ذراعه من الحفرة.

دفعت ريزا كلتا ذراعيها عبر الحفرة وأمسكت باللوح الخشبي، ووضع ليو يديه معها. شدّ كلاهما، فارتفع أحد طرفي اللوح إلى أعلى، في حين بقي الطرف الثاني ثابتاً في مكانه. تحرك ليو إلى الخلف، وأمسك بطرف اللوح ورفعه إلى أعلى ما يستطيع، ثم نظر إلى الأسفل، ورأى سكة القطار تحت العربة. لقد نجحت الخطة، وظهرت فتحةٌ عرضها ثلاثون سنتيمتراً وطولها أكثر من متر، بالكاد تكفي لمرور شخص عبرها، لكنها كافية مع ذلك.

مكتبة الرمحي أحمد
telegram @ktabpdf

كان من الممكن انتزاع اللوح بمساعدة السجناء الآخرين، لكنّ ليو قرّر ألاّ يفعل ذلك نتيجة قلقه من أن ينبّه الصوت الحراس. استدار ليو إلى جمهوره:

- أريد أن يرفع بعضكم هذا اللوح الخشبي إلى الأعلى في حين نتسلل عبر الفتحة، نزولاً إلى السكة.

نهض عدّة متطوعين فوراً، وتقدموا إلى الأمام، وأمسكوا اللوح الخشبي. نظر ليو إلى تلك المساحة، وعرف أنهما بعد أن ينحشرا عبرها، سيقعان إلى الأسفل، تحت القطار مباشرة. كانت المسافة من أسفل العربة إلى السكة أكثر من متر تقريباً، وربما كانت متراً ونصف المتر. كان القطار يسير ببطء لكنه سريع كفاية حتى يكون السقوط خطراً. على أيّ حال، لم يكن بمقدورهما الانتظار، ويجب أن يرحلا فوراً في أثناء الليل، والقطار يتحرك. فعندما يتوقف القطار عند الفجر، سيكتشف الحراس غيابهما.

أمسكت ريزا يدي ليو:

- سأذهب أولاً.

هز ليو رأسه، فقد رأى مخططات وسائل نقل السجناء تلك. لذا، فهو يدرك أنهما يواجهان عقبة إضافية؛ فخّا أخيراً للسجناء الذين يحاولون ذلك النوع من الهروب تحديداً.

- تحت هذا القطار، في طرف العربة الأخيرة، سلسلة من الخطّافات التي تتدلى إلى الأسفل. إذا سقطنا على السكة الآن وانتظرنا مرور العربة الأخيرة فوق رأسينا فستمزقنا الخطّافات، وتسحبنا مع القطار.

- ألا يمكننا تفاديها؟ ألا يمكننا أن نتدحرج بعيداً عن طريقها؟

- هناك المئات منها وهي تتدلى من أسلاك. ليست هناك طريقة لتجاوزها، وسنعلق بها.

- ماذا يفترض بنا أن نفعل؟ لا يمكننا الانتظار حتى يتوقف القطار.

نظر ليو إلى الجثتين بإمعان. ووقفت ريزا بجانبه، وهي غير واثقة على

ما يبدو من نواياه. شرح:

- عندما تنزلين إلى السكة، سأرمي إحدى هاتين الجثتين بعدك على أمل أن تستقر في مكان ما قربك. يجب أن تزحفي إلى حيث تستقرّ، ثم عندما تصلين إليها، استلقي تحتها، وضعيها فوقك تماماً. عندما تمر العربة الأخيرة فوق رأسك ستلتقط الخطّافاتُ الجثةَ وتسحبها معها، لكنك ستكونين بأمان.

سحب ليو الجثتين قريباً من اللوح الخشبي المخلوع، وأضاف:

- هل تريدين مني أن أذهب أولاً؟ إذا لم ينجح الأمر يجب أن تبقي هنا. ستكون أي ميتة أخرى أفضل من أن يسحبكِ القطار.

هزّت ريزا رأسها.

- إنها خطة جيدة، وستنجح. سأذهب أولاً.

عندما أصبحت جاهزة للنزول، كرّر ليو تعليماته:

- القطار لا يتحرك بسرعة. سيكون السقوط مؤلماً لكنه ليس خطراً جداً. تأكدي من التدحرج مع اتجاه الصدمة. سأرمي إحدى الجثتين، ولن يكون لديك وقت طويل.

- أفهم ذلك.

- يجب أن تذهبي إلى حيث الجثة. وعندما تصلين إليها، ضعي نفسك تحتها، وتأكدي ألاّ يكون أيّ جزء منك مكشوفاً. إذا أصابك خطّاف واحد فقط، فقد يسحبك معه.

- ليو، أعرف ذلك.

قبّلته ريزا، وكانت ترتعش.

دفعت نفسها عبر الثغرة بين ألواح الخشب، وتدلت قدماها فوق السكة، ثم أفلتت اللوح وسقطت، واختفت عن الأنظار. أمسك ليو الجثة الأولى وأنزلها عبر الفجوة، ثم دفعها إلى الأسفل، فسقطت على السكة، بعيدة عن الأبصار.

* * *

كانت ريزا قد ارتطمت بـالأرض، وأصيبت بكدمات في جانبها وتدحرجت، ثم استلقت ساكنة للحظة وهي مذهولة وتشعر بدوار. مرّ زمن طويل، وكانت تضيع الوقت. أصبحت عربة ليو بعيدة آنذاك، ورأت الجثة التي رماها ليو وبدأت تزحف نحوها، في اتجاه سير القطار نفسه. ألقت نظرة إلى الخلف، ولم تكن هناك إلا ثلاث عربات فقط حتى نهاية القطار، لكنها لم ترَ أي خطّافات. ربما كان ليو مخطئاً، ولم تعد ترى آنذاك إلا عربتين فقط. لم تكن ريزا قد وصلت إلى الجثة بعد، وتعثّرت عندما لم تكن تفصلها إلا عربة واحدة فقط عن نهاية القطار. وعندما صارت على بعد أمتار فقط، وقبل أن تصبح العربة الأخيرة فوقها، رأت الخطّافات؛ المئات منها، وكلها متصلة بأسلاك رفيعة على ارتفاعات مختلفة. كانت تغطي عرض العربة برمّتها، وكان تفاديها مستحيلاً.

نهضت ريزا، وزحفت مجدداً بأقصى سرعتها حتى وصلت إلى الجثة، التي كانت تستلقي ووجهها نحو الأسفل، ورأسها أقرب إليها. لم يكن لديها وقت لتديرها ولهذا استدارت، ورفعت الجثة وزحفت تحت ذلك الرجل، ووضعت رأسها تحت رأسه. أصبحت وجهاً لوجه مع الرجل الذي هاجمها، وتحدّق إلى عينيه، وحاولت أن تغطي جسدها بجسده قدر المستطاع.

فجأة، ارتفعت الجثة عنها، ورأت أسلاكاً في كل مكان حولها، مثل صنارات صيد أسماك، كل منها مزوّد بعدّة خطّافات. ارتفعت الجثة؛ وكأنها حية، أو دمية ترتبط بأسلاك، ولم تعد تمس السكة. بقيت ريزا مستلقية على السكة، ساكنة تماماً، واستطاعت رؤية النجوم فوقها. نهضت ببطء، لتجد أن أياً من الخطّافات لم يمسّها. راقبت القطار يتحرك مبتعداً. لقد فعلت ذلك. لكن، لم يكن هناك أثر لليو.

* * *

نظراً إلى كونه أضخم من ريزا، خمّن ليو أنه يحتاج إلى الجثة الكبرى، وسيكون بحاجة إلى جسد أضخم لحمايته من الخطّافات. على أيّ حال،

telegram @ktabpdf مكتبة الرمحي أحمد

كان ذلك الرجل الميت ضخماً جداً، ولا يمكن أن يمر عبر الفجوة في الألواح الخشبية. وبالرغم من قيامهم بتقييده في محاولة للتخفيف من ضخامة جسده، إلا أنه كان عريضاً جداً. لم تكن هناك طريقة لتمريره عبر الفجوة، وبحلول ذلك الوقت كانت ريزا تقف على السكة منذ بضع دقائق.

أنزل ليو رأسه عبر الفتحة يائساً، ورأى جثة عالقة في نهاية القطار. هل كانت ريزا أم الرجل الميت؟ لم يكن من الممكن تحديد ذلك من تلك المسافة، وعليه أن يأمل أن تكون جثة الرجل الميت. عدّل خطته، وافترض أنه إذا وضع نفسه في الموقع الصحيح فبإمكانه أن ينجو باختبائه تحت تلك الجثة المتدلية، التي ستكون كل الخطّافات في ذلك القسم قد التقطتها، وسيتمكن من المرور تحتها. ودّع السجناء الآخرين، وشكرهم، ثم ألقى نفسه على السكة.

تدحرج قريباً من العجلات الفولاذية الضخمة، لكنه أبعد نفسه عنها، وواجه نهاية القطار. كانت الجثة العالقة بالأسلاك تقترب بسرعة، وترتفع على الجانب الأيمن، فعدّل موقعه وفقاً لها. لم يكن في وسعه فعل شيء إلا الانتظار، ولملمة نفسه، والبقاء ساكناً قدر المستطاع. كادت نهاية القطار تمر من فوقه، فرفع رأسه قليلاً عن الأرض ليرى أنها ليست ريزا. لقد نجت، ويجب أن يفعل الشيء نفسه. استلقى ساكناً وأغمض عينيه.

مسّته الجثة في أثناء مرورها فوقه.

ثم شعر بالألم، فقد التقط خطّاف واحد ذراعه اليسرى. فتح عينيه، ورأى أن الخطّاف قد مزق قميصه، واخترق لحمه. وقبل أن يرتفع السلك إلى الأعلى بجزءٍ من الثانية فقط ويشدّه معه، أمسك الخطّافَ ونزعه من ذراعه، لكن قطعة من الجلد واللحم خرجت معه. أمسك ذراعه، وشعر بدوار في حين نزف الدم من جرحه. نهض مترنحاً، ورأى ريزا تسرع نحوه، فتجاهل الألم، ووضع ذراعه حولها.

كانا حرَّين.

telegram @ktabpdf

مكتبة الرمحي أحمد

telegram @ktabpdf مكتبة الرمحي أحمد

موسكو

اليوم نفسه

لم يكن فاسيلي بخير، فقد أقدم على شيء لم يفعله من قبل؛ لقد حصل على إجازة من العمل. لم يكن مثل ذلك السلوك يمثّل خطراً محتملاً فحسب، وإنما ليس من عادته أيضاً. كان يفضّل أن يكون مريضاً في العمل على أن يبقى في المنزل. استطاع تعديل ترتيبات سكنه حيث يستطيع أن يعيش، في معظم الأوقات، وحده. كان متزوجاً بالطبع، لأن بقاء رجل عازباً أمر غير ممكن، وواجبه الاجتماعي يحتّم عليه إنجاب الأطفال، وقد التزم بالقواعد تماماً. فقد تزوج بامرأة لا آراء لها، أو على الأقل لا تعبّر عنها، امرأة أنجبت بدافع الواجب ابنين له؛ وهو أقل عدد ممكن ولا يسبب طرح أسئلة. كانت زوجته وابناه يعيشون في شقة أسرية في ضواحي المدينة، في حين يقيم هو في وسط المدينة للعمل، وقد اختار ذلك ظاهرياً حتى يستطيع لقاء خليلاته. في الواقع، لم يكن ينخرط في علاقات خارج إطار الزوجية إلا أحياناً فقط.

بعد نفي ليو إلى الأورال، التمس فاسيلي الانتقال إلى شقة ليو وريزا؛ الشقة 124، وقد تحققت أمنيته. كانت الأيام الأولى ممتعة، وقد أمر زوجته بالذهاب إلى سبيتز تورغي؛ وهي المتاجر المخصصة للنخبة، لشراء طعام وشراب شهيين. أقام حفل عمل في شقته، لم يسمح للزوجات بحضوره، حيث شرب نوابه الجدد وأكلوا وهنّأوه على نجاحه. وكان بعض الرجال الذين عملوا مع ليو سابقاً يقدمون له تقاريرهم. وبالرغم من كل تلك المفارقات وتبدّل الحظ، إلا أنه لم يستمتع بالحفل. شعر بخواءٍ في داخله؛

telegram @ktabpdf

مكتبة الرمحي أحمد

لأنه لم يعد هناك شخص يكرهه، أو أحد يضع خططاً ضده، ولم يعد ينزعج من ترقية ليو أو كفاءته أو شعبيته. كان هناك رجال آخرون يمكن أن يتنافس معهم، لكن الشعور لم يكن نفسه.

خرج فاسيلي من السرير وقرر أن يشرب شيئاً، فسكب لنفسه كمية كبيرة من الشراب، وحدّق إلى الكأس، وهو يحرك السائل من جانب إلى آخر، غير قادر على رفعه إلى شفتيه. جعلته الرائحة يشعر بالغثيان، فوضع الكأس جانباً. كان ليو ميتاً، وسيتلقى قريباً إشعاراً رسمياً يفيد أن السجينين لم يصلا إلى وجهتهما، وقد ماتا على الطريق مثل كثيرين، بعد شجار على حذاء أو ثياب أو طعام أو شيء آخر. كانت تلك الهزيمة الأخيرة لرجل أذلّه، فقد كان وجود ليو بحدّ ذاته نوعاً من العقوبة الدائمة لفاسيلي. إذاً، لماذا يفتقد إليه؟

سمع قرعاً، وتوقع أن ترسل إ.أ.د. عدداً من الرجال للتأكد من مرضه. مشى إلى الباب وفتحه، فرأى ضابطين يقفان أمامه.

- سيدي، لقد هرب سجينان.

شعر أن الألم الخفيف داخله يختفي حين قال الاسم:

- ليو ؟

أومأ الضابطان، وشعر فاسيلي بأنه أفضل حالاً آنذاك.

مئتا كيلومتر جنوب شرق موسكو

اليوم نفسه

ركضا قليلاً، ومشيا قليلاً، ونظرا باستمرار إلى الخلف. اعتمدت سرعتهما على من له اليد العليا: الخوف أم الإرهـاق. كان الطقس لمصلحتهما؛ فأشعة الشمس ضعيفة، والغيوم غير ملبّدة، والحرارة معتدلة؛ على الأقل مقارنة بداخل العربة. عرف ليو وريزا من موقع الشمس أن النهار قد تجاوز العصر. لكن، لم تكن لديهما طريقة ليعرفا بها الوقت بالتحديد. لم يتذكر ليو أين أو كيف فقد ساعته أو إن كانت قد أُخذت منه، وخمّن أنهما يتقدمان أربع ساعات على الأكثر على حراسهما. قدّر ليو سرعتهما وفقاً لحساب غير دقيق بثمانية كيلومترات في الساعة، في حين أن القطار لا يتحرك بأكثر من ستة عشر كيلومتراً بالمعدل، مما يجعل المسافة بينهم ثمانية كيلومترات أو نحو ذلك. كان ذلك أفضل سيناريو، وهناك احتمال بأن ينتبه الحراس إلى هروبهما في وقت أبكر.

خرجا من الغابة إلى ريف مكشوف، ومن دون الغطاء الذي كانت تؤمنه الأشجار كان من الممكن رؤيتهما من مسافة كيلومترات. لم يكن لديهما خيار إلا متابعة الطريق، ظاهرين للعيان. شاهدا نهراً صغيراً عند أسفل منحدر فعدّلا اتجاههما، وزادا سرعتهما. كان ذلك أول مصدر ماء يجدانه. وعندما وصلا إليه خرّا على ركبهما وشربا حتى ارتويا. كان كل منهما يضم كفّيه ويغرف الماء. عندما لم يجدا ذلك كافياً، غمرا وجهيهما في الماء، وألقى ليو دعابة:

telegram @ktabpdf

مكتبة الرمحي أحمد

- على الأقل سنموت نظيفين.

لم تكن الدعابة تتناسب مع الموقف. لم يكن بذلهما قصارى جهدهما كافياً لإيقاف ذلك الرجل، فلا أحد سيقدّر محاولتهما، وعليهما أن ينجحا في ذلك.

ركّزت ريزا على جرح ليو الذي لم يلتئم أو يتوقف عن النزيف، وقد تمزقت مساحة كبيرة من الجلد واللحم. كانت قطعة القميص التي ربطاها حوله ملطخة آنذاك بالدم. خلع ليو القميص:

- يمكنني أن أتحمّل ذلك.

- إنه يترك رائحة قوية للكلاب.

خرجت ريزا من النهر، واتجهت إلى أقرب شجرة. رأت شبكة عنكبوت تمتد بين غصنين. أزالت الشبكة بأصابعها بحرص شديد، ونقلتها كلها ووضعتها على الجرح أعلى ذراع ليو. بدا أن الدم يتخثّر فوراً حين يمس الخيوط الفضية الرفيعة. عملت لعدّة دقائق، وبحثت عن المزيد من شباك العنكبوت، وحين وجدتها، جمعتها ووضعتها على ذراعه حتى أصبح الجرح مغطى بشبكة من الخيوط الحريرية. بحلول الوقت الذي انتهت فيه من ذلك كان النزيف قد توقف.

علّق ليو:

- يجب أن نتبع هذا النهر أطول مسافة ممكنة. الأشجار هي الغطاء الوحيد، وسيخفي الماء رائحتنا.

كان الماء ضحلاً، ويصل إلى الركبة في أعمق نقطة، وليس سريعاً أو قوياً كفاية حيث يستطيعان أن يطفوَا ويتحركا مع التيار. بدلاً من ذلك، كان ينبغي لهما أن يمشيا. عرف ليو أنهما لن يتابعا على تلك الحال وقتاً طويلاً، فقد كانا جائعين ومرهقين.

بالرغم من عدم اكتراث الحراس بحياة السجناء أو موتهم، إلا أن الهرب بالنسبة إليهم أمرٌ لا يُغتفر، ويعدُّ سخرية ليس من الحراس فحسب، وإنما

telegram @ktabpdf

مكتبة الرمحي أحمد

من النظام برمّته أيضاً. وبغض النظر عن هوية السجناء، أو عدم أهميتهم، كان هروبهم يجعلهم مهمين. وستجعل حقيقة أن ليو وريزا مصنّفان سلفاً بكونهما معاديين بارزين للثورة فرارَهما قضية مهمة على مستوى البلاد. عندما يتوقف القطار، ويرى الحراس الجثة المعلّقة بالأسلاك، سيجري عدُّ كل السجناء، وتحديد عربة الفارين، وطرح أسئلة بشأن ذلك، وإذا لم تُعطَ إجابات صحيحة قد يُقتل سجناء. تمنّى ليو أن يكون أحدهم عقلانياً كفاية ليقول الحقيقة فوراً. كان هؤلاء الرجال والنساء قد فعلوا آنذاك كل ما في وسعهم لمساعدتهما. لكن، حتى إذا اعترفوا، فلن تكون هناك ضمانات بأن الحراس لن يجعلوا أحد الأشخاص عبرةً لكل العربة.

ستبدأ المطاردة على طول السكة، وسيستخدمون كلاباً؛ لأن قطيعاً من الكلاب المدربة يسافر مع كل قطار، في ظروف أفضل بكثير من ظروف من الحمولة البشرية. إذا كانت هناك مسافة كافية بين نقطة هروبهما والمكان الذي سيبدأ منه البحث، فسيكون العثور على بداية أثر الرائحة صعباً، ومع الأخذ في الحسبان حقيقة أنهما هاربان منذ ثلاثة أرباع اليوم من دون أن يشاهدا أحداً يطاردهما، سيفترض ليو أن تلك هي الحال. كان ذلك يعني أنه سيجري إعلام موسكو بالأمر، وتوسيع نطاق البحث. ستُستخدم شاحنات وسيارات، وسيتم تقسيم منطقة الهروب المحتملة إلى مناطق. ستحلق طائرات فوق المناطق الريفية، وسيتم إبلاغ المليشيا ومنظمات الأمن المحلية، لتنسّق جهودها مع المنظمات الوطنية. سيُطاردان بحماسة تتخطى حدود الواجب المهني، وستُعرض مكافآت وعلاوات، ولن تكون هناك حدود للقوى البشرية والآليات التي يمكن إطلاقها خلفهما. كان ليو يدرك ذلك تماماً، فقد اشترك في عمليات بحث مماثلة بنفسه، وتلك هي أفضليتهم الوحيدة؛ لأنه يعرف كيف تُنظّم تلك العمليات، وقد درّبته الشرطة السرية على العمل متخفياً خلف خطوط العدو، وقد أصبحت خطوط العدو آنذاك هي حدود بلاده التي قاتل لحمايتها. كان حجم تلك العمليات يجعل إدارتها

telegram @ktabpdf

مكتبة الرمحي أحمد

والإشراف عليها صعبين. فعمليات البحث ستكون مركزيةً وواسعة النطاق لكنّها غير فاعلة. الأهم أنه تمنّى أن يستهدفوا المنطقة الخطأ، وبدا منطقياً أن يتجه ليو وريزا إلى أقرب حدود، نحو فنلندا على ساحل البلطيق، حيث سيمثّل قاربٌ أفضل فرصة لهما للخروج من البلاد، لكنهما كانا يتجهان جنوباً، عبر وسط روسيا، نحو مدينة روستوف. لم تكن لديهما تقريباً أيّ فرصة بالحصول على الحرية في ذلك الاتجاه، أو وعد بالأمان في النهاية.

خاضا في الماء، وتحركا ببطء شديد، لكنهما تعثرا وسقطا بين الفينة والأخرى، وأصبح النهوض أصعب في كل مرة. لم ينفع حتى الأدرينالين الذي ضخّ في شرايينهما بسبب كونهما مطاردين في جعلهما يتحملان المشقات. توخّى ليو الحرص على ألاّ يفقد الشبكة على ذراعه، وأبقاها مرتفعة. لم يتكلم أي منهما حتى ذلك الوقت عن ورطتهما؛ وكأن تواجدهما قصير جداً حتى بالنسبة إلى وضع أي خطط. خمّن ليو أنهما على بعد نحو مئتي كيلومتر شرق موسكو، وقد بقيا على القطار نحو ثمانٍ وأربعين ساعة، وسيضعهما ذلك على الأرجح قرب بلدة فلاديمير. إذا كان محقاً، فإنهما يتحركان الآن في اتجاه ريازان، وتستغرق الرحلة إلى روستوف على متن قطار أو سيارة من تلك النقطة جنوباً أربعاً وعشرين ساعة على الأقل. على أيّ حال، لم يكن معهما مال أو طعام، وكانا مصابين، ويرتديان ملابس رثّة، ومطلوبين من كل جهاز أمن دولة وطني ومحلي.

توقفا، فقد كان النهر يتدفق بين شطري قرية صغيرة؛ مزرعة جماعية. خرجا من الماء، وابتعدا عن مجموعة المنازل نحو خمسمئة خطوة باتجاه منبع النهر. كان الوقت متأخراً، والضوء يتلاشى. قال ليو:

- لا بد من أن هناك بعض القرويين الذين لا يزالون يعملون، وسيكونون في أرضهم. يمكن أن نتسلل إلى هناك، من غير أن يلاحظنا أحد، ونرى إن كان بمقدورنا العثور على بعض الطعام.

- أتريد أن تسرق؟

telegram @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

- لا يمكننا شراء أي شيء. إذا رأونا، فسيسلّموننا. هناك دائماً مكافأة للقبض على سجناء فارّين، وهي أكثر مما يجنيه هؤلاء الناس في سنة.

- ليو، لقد عملت في لوبيانكا وقتاً طويلاً. هؤلاء الناس لا يحبون الدولة.

- هذا صحيح. لكنهم يحتاجون إلى المال مثل كل شخص آخر، ويحاولون النجاة مثل الجميع.

- أمامنا مئات الكيلومترات لنقطعها، ولا يمكننا فعل ذلك وحدنا. لا نستطيع فعل ذلك فحسب، ويجب أن تدرك ذلك. ليس لدينا أصدقاء، أو مال؛ لا شيء على الإطلاق. يجب أن نقنع غرباء بمساعدتنا. سيكون علينا أن نقنعهم بقضيتنا. تلك هي الطريقة الوحيدة، وفرصتنا الوحيدة.

- نحن منبوذان، وسيؤدي إيواؤهم إيّانا إلى قتلهم، ليس فقط الشخص الذي يساعدنا وإنما القرية كلها. لن يفكر مسؤولو الدولة مرتين بشأن الحكم عليهم جميعاً بالسجن لمدة خمس وعشرين سنة، وترحيل السكان كلهم، ومن بينهم الأطفال، إلى معسكر شمالي.

- ولهذا السبب سيساعدوننا. لقد فقدت الثقة بشعب هذا البلد لأنك كنت محاطاً بأشخاص في السلطة. الدولة لا تمثّل أبناء تلك القرى، أو تفهمهم، أو تُبدي أي اهتمام بهم.

- ريزا، هذا كلام شخص يكره المدينة، ولا علاقة له بالعالم الحقيقي. ستكون مساعدتهم لنا جنوناً منهم.

- ذاكرتك ضعيفة يا ليو. كيف نجونا للتو؟ أخبرنا ركاب تلك العربة بالحقيقة. وساعدونا جميعاً، عدّة مئات، وهم على الأرجح عدد الأشخاص الذين يعيشون في هذه القرية. سيواجه السجناء في عربتنا بكل تأكيد نوعاً من العقوبة الجماعية بسبب عدم تنبيههم الحرّاس. لماذا فعلوا ذلك؟ ماذا قدّمت لهم؟

بقي ليو صامتاً، وشدّدت ريزا على هدفها:

telegram @ktabpdf

مكتبة الرمحي أحمد

- إذا سرقت من هؤلاء الناس، فستكون عدوهم، في حين أننا في الواقع صديقان لهم.

- إذاً، تريدين المشي إلى وسط القرية؛ وكأننا أسرة واحدة، وأن تحييهم ؟!

- هذا ما سنفعله بالضبط.

مشيا جنباً إلى جنب إلى وسط القرية؛ وكأنهما عائدان من العمل، ولديهما الحق بالتواجد هناك. تجمّع رجال ونساء وأطفال حولهما، وأحاطوا بهما. كانت بيوتهم مصنوعة من الطين والخشب، ومعدّاتهم الزراعية تُستخدم منذ أربعين سنة. كل ما كان عليهم فعله هو تسليمهما إلى الدولة وسيحصلون على مكافأة مجزية. كيف لهم أن يرفضوا؟ لم يكن هؤلاء الناس يملكون شيئاً.

تكلمت ريزا، فيما كانت الوجوه العدائية تحيط بهما.

- نحن سجينان، وقد هربنا من القطار الذي كان ينقلنا إلى منطقة كوليما، حيث كنا سنموت. نحن مُطاردان الآن، ونحتاج إلى مساعدتكم. لا نطلب هذا العون من أجل نفسينا فقط؛ لأننا سنُعتقل في النهاية ونُقتل، وقد قبلنا هذا. لكن، قبل أن نموت هناك مهمة واحدة يجب إنجازها. أرجوكم اسمحوا لنا أن نشرح لكم لماذا نحتاج إلى مساعدتكم. وإذا لم يعجبكم ما سنقوله لكم، فعندها يمكن أن تنفضوا أيديكم منا.

تقدم رجل في منتصف العقد الرابع إلى الأمام، وبدا أنه يحتل موقعاً مهماً.

- بصفتي رئيساً لهذا الكولخوز، من واجبي أن أوضّح أنّه من الأفضل لنا تسليمكما.

نظرت ريزا إلى القرويين الآخرين. هل كانت مخطئة؟ هل تسللت الدولة سلفاً إلى تلك القرى، وزرعت جواسيسها ومخبريها في نظامها الإداري؟ صرخ رجل:

- وماذا ستفعل بالمكافأة؟ هل ستسلّمها إلى الدولة أيضاً؟

كانت هناك ضحكات، وتورّد الرئيس محرجاً. شعرت ريزا بالارتياح، وأدركت أن ذلك الرجل شخصية فكاهية؛ دمية، ولا يمثل السلطة الفعلية.

تكلمت امرأة من نهاية الحشد:

- أطعموهما.

انتهى النقاش.

اصطُحبا إلى أكبر المنازل، وجلسا في الغرفة الرئيسة حيث يُحضّر الطعام، وأُعطيا كأسَي ماء. أُذكيت النار، وازداد جمهورهما مع مرور الزمن حتى اكتظ البيت بالناس. ملأ الأطفال المساحات بين سيقان الراشدين، وهم يحدّقون إلى ليو وريزا كما يحدّق الأولاد إلى الحيوانات المعروضة في أقفاص حديقة الحيوانات. أُحضرت أرغفة خبز طازجة، لا تزال دافئة، من منزل آخر. أكلا وتصاعد البخار من ثيابهما الرطبة بسبب جلوسهما قرب النار. عندما اعتذر رجل عن عدم قدرته على تزويدهما بمجموعة جديدة من الثياب، أومأ ليو فحسب، مرتبكاً من كرمهم. لم يكن بمقدوره منحهم إلا قصة، وذلك كل شيء، وعندما انتهى من تناول الخبز والماء، وقف.

راقبت ريزا الرجال والنساء والأطفال وهم يصغون السمع إلى ليو. بدأ قصّته بقضيّة قتل أركادي، الفتى اليافع في موسكو؛ الجريمة التي أُمر بالتعتيم عليها. وتكلم عن خجله من اضطراره إلى إخبار أسرة الفتى أن تلك كانت حادثة، وتابع شرحه عن سبب إقصائه عن إ.أ.د. وإرساله إلى فوالسك. أوضح ذهوله حين عثر على فتًى آخر مقتولاً بالطريقة نفسها تماماً. وشهق الحشد؛ وكأنه يؤدي خدعة سحرية، حين أخبرهم أن تلك الجرائم قد وقعت في كل أنحاء بلدهم. دفع بعض الآباء أولادهم إلى خارج المنزل حين حذّرهم ليو مما يوشك على وصفه.

كان جمهور ليو قد كوّن أفكاراً عن الشخص المسؤول حتى قبل أن ينتهي من سرد قصته. لم يفترض أحد منهم أن من ارتكب تلك الجرائم رجل

telegram @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

لديه وظيفة، أو رجل لديه أسرة. وجد الرجال في الحشد صعوبة في تصديق عدم معرفة هوية ذلك القاتل فوراً، وكانوا جميعاً واثقين أنهم سيعرفون أنه وحش من النظر إلى عينيه فقط. جال ليو ببصره في أنحاء الغرفة، وأدرك أن نظرتهم إلى العالم قد اهتزت، فاعتذر عن إطلاعهم على حقيقة تواجد القاتل. وفي محاولة لطمأنتهم، أوضح أن القاتل يتحرك على طول السكك الحديدية، عبر البلدات الرئيسة، وأن القتل جزءٌ من روتينه، لكنه لن يأتي إلى قرى مثل قريتهم.

تساءلت ريزا إن كان هؤلاء الناس، حتى مع تلك التأكيدات، سيمنحون آخرين ثقتهم ويرحبون بهم بعد ذلك. هل سيطعمون غريباً؟ أم إنهم منذ ذلك الوقت فصاعداً سيخافون من أن يخفي الغرباء شراً لا يمكنهم رؤيته؟ كان ثمن تلك القصة براءة الحشد. لم يكن الأمر يتعلق بعدم رؤيتهم القسوة والموت من قبل، وإنما لأنهم لم يتخيّلوا قط أن قتل ولدٍ صغيرٍ قد يدخل السرور إلى قلب شخص ما.

حلّ الظلام في الخارج، وبقي ليو يتكلم أكثر من ساعة. كان يقترب من نهاية قصته حين اندفع فتًى صغير إلى المنزل.

- رأيت أضواء على التلال الشمالية. إنها شاحنات تتجه نحونا.

وقف الجميع على أقدامهم. وعندما نظر ليو إلى وجوه من حوله، عرف أنه يستحيل أن تكون تلك الشاحنات إلا للدولة، وسأل:

- كم لدينا من وقت؟

كان قد اعتبر نفسه واحداً منهم بطرح ذلك السؤال، وافترض وجود علاقة بينهم، في حين أنها غير متواجدة في الواقع. كان بمقدورهم تسليمهما بسهولة والحصول على المكافأة. لكن، بدا أنه الوحيد في الغرفة الذي يفكّر في مثل تلك الفكرة، وقد التزم حتى الرئيس بالقرار الجماعي بمساعدتهما.

أسرع بعض الراشدين بالخروج من المنزل، ربما ليشاهدوا الشاحنات بأنفسهم، في حين استجوب الباقون الفتى:

- أي تلة؟

- كم عدد الشاحنات؟

- منذ متى؟

كانت هناك ثلاث شاحنات، ثلاث مجموعات من الأضواء الأمامية، وقد رآها الفتى من طرف مزرعة والده، قادمة من الشمال، على بعد عدّة كيلومترات وستصل إلى مكانهم بعد دقائق.

لم يكن هناك مكان يختبئان فيه في تلك البيوت، فالقرويون لا يمتلكون أي مقتنيات، أو أثاث. سيكون التفتيش دقيقاً، وقاسياً أيضاً، وإذا كان هناك مكان للاختباء، فسيجدونه. كان ليو يعرف أن كبرياء الحراس على المحك. أمسكت ريزا ذراعه:

- يمكن أن نهرب. سيتوجب عليهم تفتيش القرية أولاً. إذا تظاهروا بأننا لم نكن هنا قطّ، فبإمكاننا أن نسبقهم، وربما نختبئ في الريف. لقد حلّ الظلام.

هز ليو رأسه، وشعر بمعدته تتقلص، وعادت أفكاره إلى أناتولي برودسكي الذي انتابه الشعور نفسه من دون شك حين استدار إلى الخلف ليرى ليو على قمة التلة، وهو يدرك أن الخناق يضيق عليه. تذكر ليو كيف توقف ذلك الرجل، وحدّق إليه للحظة، وهو غير قادر على فعل شيء باستثناء التفكير في أنه سيُعتقل. لقد هرب اليوم، لكن لم يكن هناك سبيل للفرار من هؤلاء الحراس، فقد كانوا مرتاحين، ومجهّزين لعمليات البحث؛ كانوا مجهّزين ببنادق طويلة المدى، ومناظير، وشُهب نارية لإضاءة السماء وكلاب لاقتفاء الآثار المشبوهة.

استدار ليو إلى الفتى اليافع الذي كان قد رأى الشاحنات قائلاً.

- أحتاج إلى مساعدتك.

telegram @ktabpdf

مكتبة الرمحي أحمد

اليوم نفسه

جثم الفتى، وهو يشعر بالقلق ويداه ترتعشان، في وسط الطريق في ظلام حالك، حاملاً كيس حبوب صغيراً مثقوباً. استطاع سماع الشاحنات وهي تقترب منه، والعجلات وهي تصرُّ على التراب. كانت على بعد نحو مئتي متر، وتقترب بسرعة. أغمض عينيه، وهو يأمل أن يروه. هل يعقل أنها تسير بسرعة كبيرة ولن تتوقف في الوقت المناسب؟ سمع صرير المكابح، ففتح عينيه، وأدار رأسه، ثم غمره شعاع ضوء أمامي قوي. رفع ذراعيه، فتمايلت الشاحنة ثم توقفت، وكاد المصد الأمامي يمس وجه الفتى. فُتح باب المقصورة الأمامية، وصرخ جندي:

- ماذا تفعل ؟

- تمزق كيسي.

- ابتعد عن الطريق!

- سيقتلني والدي إذا لم أجمعها.

- سأقتلك أنا إذا لم تتحرك.

لم يكن الفتى واثقاً بما يجب أن يفعله، وتابع التقاط الحبوب، ثم سمع طقطقة معدنية. هل كان ذلك صوت سلاح؟ لم يكن قد رأى سلاحاً من قبل، ولم تكن لديه فكرة كيف يبدو. ذُعر، لكنه تابع التقاط الحبوب، ووضعها في الكيس. لن يطلقوا النار عليه فقد كان مجرد فتى يجمع حبوب والده. عندها، تذكر قصة الغريب: الأولاد يُقتلون طوال الوقت، وربما كان هؤلاء الرجال من الطينة نفسها. أمسك أكبر كمية ممكنة من الحبوب، والتقط الكيس،

telegram @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

ثم جرى عائداً نحو القرية. تبعته الشاحنات، وهي تطارده، وتطلق أبواقها، وتجعله يركض أسرع. استطاع سماع جنود يضحكون، ولم يكن قد ركض بتلك السرعة في حياته من قبل.

كان ليو وريزا يختبئان في المكان الوحيد الذي يأملان أن الجنود لن يفتّشوه؛ تحت شاحناتهم. عندما كان الصبي يشتت انتباه الجنود، تسلل ليو تحت الشاحنة الثانية، وريزا تحت الثالثة. ونظراً إلى أنهما لم يكونا يعرفان المدة التي سيمضيانها وهما معلّقان هناك، والتي ربما تمتد حتى ساعة، قام ليو بتغطية أيديهما بقطع من القميص في محاولة لتخفيف الألم.

عندما توقفت الشاحنات، لفَّ ليو ساقيه حول محور العجلات، ووجهه قريب من الجانب السفلي الخشبي للشاحنة. انخفضت الألواح الخشبية نحوه حين مشى الجنود عليها، وقفزوا من الجزء الخلفي من الشاحنة. نظر ليو إلى الأسفل من فوق أنامله ورأى أحد الرجال جاثماً ليربط شريط حذائه. كان كل ما يجب على الجندي فعله هو أن يستدير إلى الخلف ليرى ليو ويعتقله. لكنه نهض، وأسرع نحو أحد البيوت، من دون أن يرى ليو الذي غيّر موقعه قليلاً ليستطيع رؤية الشاحنة الثالثة.

كانت ريزا خائفة لكنها غاضبة أيضاً. وبالرغم من أن تلك الخطة ذكية، ولم تستطع استنباط أي شيء أفضل منها، إلا أنها تعتمد تماماً على قدرتهما على التشبّث. لم تكن جندية مدربة، ولم تُمضِ سنوات وهي تزحف عبر الخنادق، أو تتسلق جدراناً، ثم إنها لا تتمتع بالقوة في الجزء الأعلى من جسدها؛ القوة الضرورية للقيام بذلك العمل. كانت ذراعاها تؤلمانها سلفاً، ولم يكن الألم عادياً وإنما مبرّحاً. لم تستطع أن تتخيل كيف ستتحمل دقيقة أخرى؛ فضلاً عن ساعة برمّتها، لكنها رفضت قبول أن تكون هي من يتسبب بإلقاء القبض عليهما فقط لأنها لم تكن قوية بما فيه الكفاية. ورفضت قبول فكرة أنهما فشلا لأنها ضعيفة.

قاومت الألم، وبكت بصمت بسبب الإحباط، وشعرت بأنه لم يعد

بمقدورها أن تصمد وقتاً أطول، وأن عليها أن تُنزل نفسها إلى الأرض وتريح ذراعيها. على أيِّ حال، حتى بعد حصولها على الاستراحة، لن تصمد أكثر من دقيقة أو اثنتين أخريين. كانت المدة التي يمكن أن ترفع فيها نفسها تتناقص بسرعة، ولن تستطيع فعل ذلك على الإطلاق قريباً. كان عليها أن تمعن التفكير في مشكلتهما. ما الحل الذي لا يعتمد على القوة؟ خِرَق القميص. إذا لم تستطع الصمود أكثر، يجب أن تقيد نفسها إلى الشاحنة؛ وتربط معصميها إلى محور العجلات. سيجدي ذلك نفعاً طالما بقيت الشاحنة متوقفة، ومع ذلك يجب أن تخفض نفسها إلى الأرض بضع دقائق حين تقيّد نفسها. لكن، عندما تصبح على الأرض - حتى إذا بقيت أسفل الشاحنة - فستزداد فرص أن يراها الآخرون كثيراً. نظرت إلى الجانبين، تأكدت من اليمين واليسار، وهي تحاول أن تعرف مكان الجنود. كان السائق قد بقي ليحرس المركبة، واستطاعت رؤية نعليه وشمّت دخان لفافة تبغه. في الواقع، كان وجوده يناسبها تماماً، مما يعني أنهم لن يشكّوا على الأرجح أن أحداً قد تسلل إلى أسفل الشاحنة. أنزلت ريزا ساقيها ببطء وحرص على الأرض، وهي تحاول ألاّ تُصدر أي ضوضاء؛ لأن أصغر هفوة ستنبّه ذلك الرجل إلى مكانها. فكّت خُرق القميص ثم ربطت معصمها الأيسر إلى المحور قبل أن تقيّد إليه المعصم الأيمن جزئياً أيضاً. كان عليها إنهاء العقدة بيدها المربوطة آنذاك. فعلت ذلك، وشعرت بالسعادة من نفسها، وكانت على وشك أن ترفع قدميها حين سمعت هريراً، فنظرت إلى الجانب، ووجدت نفسها تحدّق إلى كلب.

رأى ليو قطيع الكلاب يتجمّع بجانب الشاحنة الثالثة. لم يكن الرجل الذي يقودها يدرك مكان تواجد ريزا، ليس آنذاك، لكن الكلاب تعرف ذلك. استطاع سماع الزمجرة. كانت ريزا على مستوى البصر تماماً. لم يكن بمقدور ليو فعل أي شيء، وأدار رأسه فرأى الفتى الذي ساعدهما على الطريق. كانت الأحداث تفتنه من دون شك، وكان يراقب ما يجري من داخل منزله. أنزل

ليو نفسه إلى الأرض، وألقى نظرة أفضل. كان الجندي المسؤول على وشك أن يتحرك مبتعداً، لكن أحد الكلاب على وجه الخصوص أخذ يشد اللجام، وقد رأى ريزا بكل تأكيد. استدار ليو إلى الفتى الصغير، فقد كان بحاجة إلى مساعدته مجدداً، وأشار إلى الكلاب. أسرع الصبي بالخروج من البيت. راقب ليو - معجباً ببرودة أعصاب الفتى - الصبي وهو يتحرّك نحو قطيع الكلاب التي استدارت نحوه فوراً تقريباً، ونبحت عليه. صرخ الجندي:

- ابقَ في بيتك.

مدّ الفتى يده وكأنه يداعب أحد الكلاب، فضحك الجندي:

- سيقضم ذراعك.

سحب الفتى يده، وقاد الجندي الكلابَ بعيداً، مكرراً أوامره للصبي بالعودة إلى بيته. رفع ليو نفسه مجدداً، وألصق نفسه بالجانب السفلي من الشاحنة. كانا يُدينان بحياتهما للفتى.

لم تكن لدى ريزا فكرة عن المدة التي ستبقى فيها مقيدة أسفل الشاحنة. لكن، بدا أنه وقت طويل جداً. كانت قد أصغت إلى الجنود وهم يتابعون بحثهم. ركلوا الأثاث، وقلبوا القدور، وحطموا الأغراض. سمعت الكلاب تنبح، ورأت سطوع الضوء بعد إطلاق الشهب النارية. كان الجنود يعودون، متجهين إلى الشاحنات، وسمعت أوامر تصدر إليهم، والكلاب تصعد إلى شاحنتها. كانوا على وشك أن يغادروا.

شعرت ريزا بالإثارة، وأدركت أن الخطة قد نجحت، ثم اشتغل المحرك، واهتز المحور، وكان سيبدأ بالدوران بعد ثانيتين. كانت لا تزال مقيدة إليه، ويجب عليها أن تحرر نفسها منه، لكن معصميها مربوطان ومن الصعب فكُّ العقد. كانت يداها خدرتين، وأصابعها لا تستجيب لها. كافحت مع قيودها في حين صعد آخر الجنود إلى الشاحنة. تجمّع القرويون حول الشاحنات، لكن ريزا لم تكن قد حرّرت نفسها بعد. كانت الشاحنات على وشك أن تتحرك، فانحنت إلى الأسفل، واستخدمت أسنانها، وشدّت

telegram @ktabpdf

مكتبة الرمحي أحمد

العقدة بقوة فانحلّت ووقعت إلى الأرض، وسقطت على ظهرها، وصدر عنها صوت مكتوم أخفاه ضوضاء المحركات. انطلقت الشاحنات بعيداً، وبقيت في منتصف الطريق. كان الجنود الجالسون في مؤخر الشاحنة سيرونها في ضوء القرية، ولا يسعها فعل شيء بشأن ذلك.

تقدم القرويون إلى الأمام، وتجمعوا حول بعضهم. وعندما ابتعدت الشاحنة مخلّفة ريزا على الطريق، أحاطوا بها. لم يرَ الجنود شيئاً غير معتاد حين نظروا إلى الخلف، فقد كانت ريزا متوارية عن أنظارهم بين أقدام القرويين.

انتظرت ريزا ساكنة على الطريق، ومتكوّرة على نفسها. لكن رجلاً مدَّ يده إليها أخيراً، فقد كانت بأمان. نهضت، لكن ليو لم يكن هناك. لم يكن ليخاطر بإفلات نفسه حتى تصبح الشاحنات في الظلام. خمّنت أنه كان قلقاً من أن يراها سائق الشاحنة الثالثة. ربما كان سينتظر حتى تستدير الشاحنات عند منعطف ما، لكنها لم تكن تشعر بالقلق، فقد كان يعرف ما يفعله. انتظروا جميعاً بصمت، وأمسكت ريزا يد الفتى الصغير الذي ساعدهما، وقبل مُضيّ وقت طويل استطاعوا سماع خطى رجل يجري نحوهم.

موسكو

اليوم نفسه

بالرغم من قيام عدّة مئات من الجنود والعملاء آنذاك بالبحث عن الهاربَين، إلاّ أنّ فاسيلي كان مقتنعاً أن لا أحد سينجح. وبالرغم من أن كفّة الميزان كانت تميل كثيراً لمصلحة الدولة، إلا أنهم كانوا يطاردون رجلاً مدرّباً على تفادي الملاحقة والنجاة في أرضٍ معادية. ساد اعتقاد في بعض الدوائر أن ليو وريزا قد حصلا بالتأكيد على مساعدة، سواء أكانت من حراس خائنين، أو من أشخاص ينتظرون في موقع محدد بجانب السكة الحديدية، الذين نسّقوا عملية الهروب. كان ذلك يناقض اعترافات السجناء الذين سافروا في عربة ليو، والذين أعلنوا تحت التهديد أنهما قد هربا وحدهما. لم يكن ذلك ما يريد الحراس سماعه؛ فلقد أحرجهم الأمر. كان البحث قد ركّز حتى ذلك الوقت على طرقات هروب محتملة نحو الحدود الإسكندنافية، والساحل الشمالي، وبحر البلطيق، واعتُبِر أمراً مسلماً به أن ليو سيحاول عبور حدود البلاد، على الأرجح باستخدام قارب صيد. وعندما يصبح في الغرب سيتصل بمسؤولين بارزين في الحكومة سيكونون مسرورين لمساعدته وحمايته مقابل المعلومات التي سيزوّدهم بها، ولهذا السبب يُعدُّ القبض عليه مسألة ذات أولوية قصوى. كان بمقدور ليو إلحاق ضررٍ بالغٍ بروسيا السوفييتية.

نحّى فاسيلي فكرة أن أحداً قد ساعد ليو على الهروب جانباً؛ لأنه لم تكن هناك ببساطة طريقة يعرف أحد بها القطار الذي سينقل السجناء على متنه. كانت عملية وضعهم على متن وسيلة نقل متجهة إلى غولاغ قد سُرّعت،

telegram @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

وارتُجلت ونُفّذت في اللحظة الأخيرة، وأنجزها من دون أعمال ورقية أو إجراءات متّبعة. كان فاسيلي الشخص الوحيد الذي يستطيع مساعدتهما على الهرب، وذلك يعني أن هناك فرصة - بغض النظر عن سخافة الفكرة - بإلقاء اللوم عليه. بدا أن ليو يستطيع القضاء عليه بالمحصلة.

لم تكن أي من مجموعات البحث قد عثرت حتى ذلك الوقت على أي أثرٍ لهما، ولم يكن لدى ليو أو ريزا أسرة أو أصدقاء في تلك المنطقة من البلادِ. كانا وحيدين، ويرتديان أسمالاً بالية ومفلسين. عندما تكلم مع ليو للمرة الأخيرة لم يعرف الرجل شيئاً حتى اسمه. لكن، تبين أنه قد استعاد دهاءه. كان على فاسيلي أن يكتشف إلى أين يتجه ليو؛ فهذه أفضل طريقة للإيقاع به بدلاً من تفتيش الريف عشوائياً. وبعد أن فشل في اعتقال شقيقه المتهم، يجب أن ينجح في إلقاء القبض على ليو؛ لأنه لن ينجوَ من فشل آخر.

لم يكن فاسيلي يصدّق أن ليو لديه أي اهتمام بالهروب إلى الغرب. هل سيعود إلى موسكو؟ والداه يعيشان هناك، لكنهما لا يستطيعان مساعدته، وسيخسران حياتيهما إذا ظهر عند عتبة بابهما، فقد كانا يخضعان لحراسة مسلحة. ربما كان يريد الانتقام، فهل سيظهر هنا ليقتله؟ أمعن التفكير في ذلك قليلاً، أعجبته الفكرة، لكنه نبذها من ذهنه. لم يشعر قط بأي شيء شخصي في كراهية ليو له، وهو لا يمكن أن يخاطر بحياة زوجته من أجل ثأر. كان لدى ليو برنامج يتجذّر في صفحات ملف قضية اعتقاله.

أمعن فاسيلي النظر إلى كومة الوثائق التي جمعها ليو وضابط مليشيا محلي أقنعه بمساعدته في الشهور الماضية. كانت هناك صور لصغار قتلى، وإفادات شهود، ووثائق محكمة عن مشتبه فيهم أُدينوا بها. كان ليو قد تبرأ من عمله في أثناء استجوابه، ويعرف فاسيلي أن تلك الوثائق كذبة، لكن ليو يصدّق تلك النظرية الخيالية. لكن، ما الذي يصدّقانه فعلاً؟ أيصدقان أنّ قاتلاً واحداً مسؤول عن كل تلك الجرائم التي تفتقر إلى الدافع؛ جرائم انتشرت على مساحة مئات الكيلومترات في أكثر من ثلاثين موقعاً مختلفاً؟

إضافة إلى أن النظرية نفسها بدت غريبة، كانت تعني أنهما يتجهان إلى أي مكان. كان بمقدور فاسيلي أن يختار أحد تلك المواقع وينتظر، وأمعن النظر إلى الخريطة التي حُدِّد عليها مكان كل جريمة مزعومة وهو يشعر بالإحباط. وكانت تلك المواقع مرقّمة زمنياً:

44

ربّتت إصبع فاسيلي على الرقم، ثم رفع سمّاعة الهاتف:

- أرسلوا إلي الضابط فيودور أندريف.

نظراً إلى حصول فاسيلي على ترقية، فقد كوفئ بمكتب خاصٍّ به؛ مساحة صغيرة بالطبع، لكنه فخور جداً بها؛ وكأنه استولى شخصياً على كل متر مربع منها في أثناء حملة عسكرية. سمع قرعاً على الباب، ثم دخل فيودور أندريف، أحد مرؤوسي فاسيلي آنذاك. كان شاباً، ومخلصاً، ومجداً في عمله، وليس لامعاً كثيراً؛ وهي صفات ممتازة في مرؤوس. كان قلقاً. ابتسم فاسيلي، وأشار إلى فيودور ليجلس.

- شكراً لك على مجيئك. أحتاج إلى مساعدتك.

- بالتأكيد يا سيدي.

- هل تعرف أن ليو دميدوف قد هرب؟

- نعم يا سيدي، لقد سمعت ذلك.

- ماذا تعرف عن الأسباب التي أدّت إلى اعتقال ليو؟

- لا شيء.

- كنا نظن أنه يعمل لمصلحة حكومات غربية، ويجمع معلومات؛ أقصد يتجسس. لكن، تبين أن ذلك ليس صحيحاً، وأننا مخطئون. لم يخبرنا ليو أي شيء في أثناء استجوابه. والآن، في وقت متأخر، اكتشفت أنه كان يعمل على هذه.

نهض فيودور، وحدّق إلى ملف القضية على الطاولة. كان قد رأى تلك

الوثائق من قبل مثبتة بشريط لاصق على صدر ليو. بدأ فيودور يتعرّق، وانحنى إلى الأمام؛ وكأنه يتفحّص تلك الأوراق للمرة الأولى، محاولاً إخفاء حقيقة أنه يرتعش. استطاع أن يرى بطرف عينه أن فاسيلي قد تحرك ويقف آنذاك بجانبه، وهو يحدّق إلى الصفحات؛ وكأنهما يعملان معاً كشريكين. مرّت إصبع فاسيلي على الخريطة ببطء، حتى وصلت إلى موسكو فنقر:

44

شعر فيودور بالغثيان، وأدار رأسه ليرى وجه فاسيلي قريباً من وجهه.

- فيودور، نعرف أن ليو قد جاء إلى موسكو منذ وقت قريب. أظن الآن أن تلك الرحلة لم تكن للتجسس وإنما كانت جزءاً من تحقيقه. كما ترى، إنه يظن أن هناك جريمة قد وقعت، وأن ابنك قد قُتل، هل أنا محق؟

- لا يا سيدي. لقد لقي حتفه في حادث. صدمه قطار.

- هل أُرسل ليو للعمل على القضية؟

- نعم، لكن...

- وفي ذلك الوقت ظننت أن الفتى قد قُتل، هل أنا محق؟

- في ذلك الوقت كنت منزعجاً، وكان الوضع صعباً جداً...

- إذاً، عندما عاد ليو إلى موسكو للتحقيق، لم يكن مهتماً بابنك؟

- لا يا سيدي.

- كيف تعرف ذلك؟

- سيدي؟

- كيف تعرف ما كان ليو مهتماً به؟

جلس فاسيلي محدّقاً إلى أظفاره، وهو يتظاهر بأنه يتألم.

- فيودور، من الواضح أنك تقلل كثيراً من شأني.

- ذلك ليس صحيحاً يا سيدي.

- يجب أن تفهم أنه إذا كان ليو محقاً، وهناك قاتل أولاد صغار،

فعلينا أن نقبض عليه. أريد أن أساعد ليو يا فيودور، فأنا لدي أولاد أيضاً، وواجبي بصفتي أباً وضباطاً هو إيقاف تلك الجرائم المريعة. يحلُّ هذا مكان أي عداوة شخصية بيني وبين ليو. لو أنني أردت موت ليو، لوقفت ببساطة مكتوف اليدين. وفي هذه اللحظة، إنّ الجميع يعدّونه وزوجته جاسوسين. سيُرديان لدى القبض عليهما، وأخشى أن تحقيقهما سيتوقف، وسيموت المزيد من الأولاد. على أيّ حال، إذا كانت لدي كل الحقائق، فربما أستطيع إقناع رؤسائي بإلغاء ملاحقة الرجل. لكن، إذا لم يتحقق ذلك، فما هي الفرصة التي يتمتع بها ليو وريزا؟

- لا شيء.

أومأ فاسيلي مسروراً بذلك التأكيد. تبين أن الأمر صحيح. كان ليو مقتنعاً أن هناك رجلاً واحداً مسؤولاً عن كل تلك الوفيات. تابع فاسيلي:

- ذلك ما أقصده بالضبط. ليس لديهما مال، وهما بعيدان مئات الكيلومترات عن مقصدهما.

- إلى أين هربا؟

خطأ فيودور الثاني، فقد كشف أنه يصدّق أيضاً أن ليو ينوي فعلاً إلقاء القبض على ذلك القاتل. كل ما كان فاسيلي بحاجة إليه الآن هو الوجهة نفسها، وأشار إلى شرق موسكو؛ حيث خطوط القطارات، وراقب عيني فيودور وهما تتحركان من ذلك الموقع على الخريطة وتنظران نحو الجنوب. كان ليو يتجه جنوباً، لكن فاسيلي لا يزال بحاجة إلى اسم. علّق في محاولة لاستمالة فيودور:

- أغلبية الجرائم وقعت في الجنوب.

- من النظر فقط إلى الخريطة...

توقف فيودور، وبدا له أنّه من الممكن تزويد فاسيلي بالمعلومة من دون أن يجرّم نفسه. يمكن أن يطلبا معاً بعد ذلك من الضباط المسؤولين عنهما أن يغيروا رأيهم بشأن ليو وريزا. كان فيودور يبحث عن طريقة يساعدهما بها،

وقد عثر عليها: سيحولهما من مجرمين إلى بطلين. عندما التقوا في موسكو، ذكر ليو أن ضابط مليشيا قد سافر إلى روستوف ليؤكد أن المدينة هي على الأرجح مركز القاتل. تظاهر فيودور أنه يدقّق في الأوراق.

- إذا أخذنا في الحسبان المكان الذي تتركز فيه الجرائم، فسأقول إنها مدينة روستوف - أون - دون. وقعت كل الجرائم الأولى في الجنوب. فلا بدّ من أن القاتل يعيش هناك، أو في مكان قريب منها.

- روستوف؟

- ما هي برأيك أفضل طريقة لإقناع رؤسائنا؟

- يجب أن أفهم كل شيء. سنقدم على مجازفة كبيرة، وسنضع المشنقة حول عنقينا. يجب أن نكون واثقين. أخبرني مجدداً، لماذا تظن أن هذا القاتل يعيش في الجنوب؟

عندما انغمس فيودور في التدقيق في الوثائق، وهو يتكلم عن هذا وذاك، نهض فاسيلي، ودار حول طاولته، شهر مسدسه، وسدّده إلى قلب فيودور.

جنوب شرق منطقة روستوف

14 تموز

كان ليو وريزا مختبئين في صندوقٍ ارتفاعه متر وعرضه متران: حمولة بشرية تُهرّب جنوباً. فبعد أن أنهى الجيش تفتيش الكولخوز، اصطحب القرويون ليو وريزا على متن شاحنة إلى أقرب بلدة، ريازان، حيث عرّفوهما إلى أصدقاءَ وأفرادٍ من أسرهم. قام ليو بسرد قصة تحقيقهما في شقة صغيرة حرارتها خانقة، ومليئة بجمهور يبلغ عدده نحو ثلاثين شخصاً، وضباب دخان لفائف تبغ رخيصة. لم يكن أحد منهم بحاجة إلى إقناعٍ بشأن ضرورة إنجاز المهمة، أو يواجه صعوبة في تصديق أن المليشيا لم تكن ذات جدوى في التعامل مع القاتل. فهم لم يلجأوا إلى المليشيا قطّ لمساعدتهم، أو ينقلوا نزاعاتهم إلى السلطات، وقد اعتمدوا دائماً على بعضهم بعضاً. كان الأمر مماثلاً، باستثناء أن حيوات عددٍ غير معروف من الأولاد على المحك.

وضعوا معاً - جماعياً - خططاً لنقلهما جنوباً. كان أحد الأفراد يعمل سائق شاحنة تنقل البضائع بين موسكو وبلدات مثل سمارا وخاركوف التي تبعد مسافة ثلاثمئة كيلومتر تقريباً شمال روستوف، وتقطعها السيارة في نصف يوم. وبالرغم من أن الذهاب إلى روستوف نفسها ينطوي على مخاطرة واضحة؛ لأن السائق ليس لديه عمل هناك، إلا أنه كان مستعداً لأخذهما إلى بلدة شاختي القريبة منها. كان بمقدوره تبرير ذلك بادّعائه أنه يزور أسرته التي ستوافق بكل تأكيد تقريباً بعد الإصغاء إلى قصته على مساعدة ليو وريزا في السفر إلى المدينة.

كانا قد أمضيا يوماً ونصف اليوم على أقل تقدير في ذلك الصندوق،

telegram @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

محتجزين في ظلام دامس. كان السائق ينقل موزاً، وهي سلعة فاخرة معدّة للمتاجر المخصصة للشخصيات رفيعة المستوى في الحزب (سبتز تورغي)، تلك التي اعتاد ليو وريزا سابقاً على شراء بقالتهما منها. وُضع صندوقهما في آخر الشاحنة وثُبّتَ تحت صناديق أخرى مملوءة كلها بالفاكهة. كان الجو حاراً وجافاً، والرحلة مزعجة، لكنهما استراحا كل ثلاث ساعات أو أربع حين كان السائق يتوقف، ويبعد الصناديق عنهما، ويسمح للحمولة البشرية بأن تتمطى وتريح نفسها بجانب الطريق.

سألت ريزا في الظلام الدامس، وسيقانهما متشابكة فوق بعضها بعضاً فيما كانا جالسين في زاويتين متقابلتين:

- هل تثق به؟

- من؟

- السائق.

- ألا تثقين به؟

- لا أعرف.

- لا بد من أن لديك سبباً للسؤال؟

- كان الوحيد من بين كل الأشخاص الذين استمعوا إلى القصة الذي لم يطرح أي أسئلة. لم يبدُ مهتماً بها، ولم تهزّه كما هزّت الآخرين. بدا غير مبالٍ بالنسبة إليّ، ولا تحرّكه العواطف.

- لم يكن مضطراً إلى مساعدتنا، ولن يستطيع خيانتنا والعودة إلى أصدقائه وأسرته.

- يمكن أن يبتدع شيئاً، مثل تواجد نقطة تفتيش حيث ألقي القبض علينا. لقد حاول مساعدتنا لكنه لم يستطع فعل شيء.

- ماذا تقترحين؟

- عندما نتوقف مرة أخرى، يمكن أن تتغلب عليه، وتقيّده ثم تقود الشاحنة بنفسك.

- هل أنتِ جادة؟

- الطريقة الوحيدة لنكون واثقين، وأكيدين تماماً، هي بالاستيلاء على شاحنته. سنحصل على أوراقه، وستصبح حياتانا بين أيدينا، وتحت سيطرتنا. نحن عاجزان على هذا النحو، ولا نعرف إلى أين يأخذنا.

- أنتِ من علّمتني أن أثق بطيبة الغرباء.

- هذا الرجل ليس كالآخرين. يبدو طموحاً، ويمضي يومه كله في نقل موادّ فاخرة. لابد من أنه يفكّر: أريد هذا، أريد تلك الأقمشة الجميلة، وتلك الأطعمة النادرة. إنه يفهم أننا فرصة، ويعرف بكم يمكن أن يبيعنا، ويعرف الثمن الذي سيدفعه إذا اعتُقل معنا.

- ستجدين صعوبة في قبول أنني أنا من يقول هذا يا ريزا، لكنك تتكلمين عن شخص بريء، رجل يبدو أنه يخاطر بحياته لمساعدتنا.

- أنا أتكلم عن ضمان وصولنا إلى روستوف.

- ألم يبدأ الأمر على هذا النحو؟ لديك قضية تصدّقينها، قضية تستحق أن تموتي من أجلها. قريباً ستصبح قضية تستحق القتل من أجلها، قضية تستحق قتل أشخاص أبرياء من أجلها.

- لن يكون عليك أن تقتله.

- بلى، سنفعل ذلك لأننا لا نستطيع تركه مقيداً بجانب الطريق، فذلك سيكون خطراً أكبر بالنسبة إلينا. إما أن نقتله، أو نثق به. ريزا، هذه هي الطريقة التي تنهار بها الأشياء. لقد قدّم لنا هؤلاء الأشخاص الطعام والمأوى ووسيلة النقل، وإذا انقلبنا عليهم، وأعدمنا واحداً من أصدقائهم كتدبير احترازي فقط، فسأكون الشخص نفسه الذي ازدريته في موسكو.

بالرغم من أنه لم يكن يراها، إلاّ أنّه عرف أنها تبتسم.

- هل كنتِ تختبرينني؟

- كنت أُجري حواراً فقط.

- هل نجحت؟

telegram @ktabpdf

مكتبة الرمحي أحمد

- يعتمد ذلك على إمكانية وصولنا إلى شاختي أم لا.

أطبق الصمت قليلاً، ثم سألت ريزا:

- ماذا سيحدث حين ينتهي هذا؟

- لا أعرف.

- سيرغب الغرب في الحصول عليك يا ليو. سيحميك.

- لن أغادر هذا البلد أبداً.

- حتى إذا كان هذا البلد سيقتلك؟

- إذا أردتِ الانشقاق، فسأفعل كل ما في وسعي لأضعك على متن قارب.

- ماذا ستفعل؟ ستختبئ في التلال؟

- عندما يموت ذلك الرجل، وتصبحين بأمان خارج البلاد، سأسلم نفسي. لا أريد العيش في المنفى، بين قوم يريدون الحصول على معلوماتي لكنهم يكرهونني. لا أريد العيش كأجنبي، ولا يمكنني فعل ذلك. سيعني ذلك أن كل ما قاله هؤلاء الناس في موسكو عني صحيح.

- وذلك هو الأهم بالنسبة إليك؟

بدت ريزا متألمة، فمسَّ ليو ذراعها.

- ريزا، لا أفهم.

- هل هذا أمر معقّد؟ أريد أن نبقى معاً.

صمت ليو بضع لحظات ولم يقل شيئاً، لكنه أجاب أخيراً:

- لا يمكنني العيش كخائن. لا أستطيع فعل ذلك.

- هذا يعني أنه لم يعد لدينا إلا أربع وعشرون ساعة تقريباً؟

- آسف.

- يجب أن نستفيد من ذلك الوقت إلى أقصى حدٍّ ممكن.

- وكيف سنفعل ذلك؟

- سنخبر بعضنا الحقيقة.

- الحقيقة؟

- لا بد من أن لدينا أسراراً. أعرف أن لدي بعضها. أليس لديك أشياء لم تقلها لي قط؟

- بلى.

- إذاً، سأتكلم أولاً. كنت أبصق في الشاي الذي تشربه. بعد أن سمعت عن اعتقال زويا، اقتنعت بأنك قد بلّغت عنها، لهذا بصقت في الشاي الذي تشربه نحو أسبوع.

- بصقت في الشاي الذي أشربه!!

- نحو أسبوع.

- لماذا توقفتِ؟

- لم يبدُ لي أنك تهتم بذلك.

- لم ألحظ شيئاً.

- بالضبط. حسناً، إنه دورك.

- بصدق...

- هذا هو المغزى من هذه اللعبة.

- لا أظن أنكِ تزوجتني لأنك كنت خائفة. أعتقد أنك سعيتِ إلى ذلك، وجعلتِ الأمر يبدو وكأنك خائفة. أعطيتني اسماً زائفاً وأنا لاحقتك، لكنني أظن أنك استهدفتني.

- هل أنا عميلة أجنبية؟

- ربما تعرفين أشخاصاً يعملون لمصلحة وكالات غربية، وربما كنت تساعدينهم. ربما كانت تلك الفكرة في قاع ذهنك حين تزوجتني.

- ذلك ليس سراً، وإنّما فكرة. يجب أن تطلعني على أسرارك؛ حقائق ثابتة.

- وجدت قطعة كوبك بين ملابسك، ويمكن شطر القطعة النقدية إلى نصفين. إنها أداة لتهريب فيلم مصغّر. يستخدمها العملاء، ولا يمتلكها أحد

غيرهم.

- لماذا لم تتهمني؟

- لم أستطع فعل ذلك.

- ليو، لم أتزوجك كطريقة للاقتراب من إ.أ.د. أخبرتك الحقيقة من قبل؛ لقد كنت خائفة.

- وقطعة النقود؟

- كانت قطعة النقود لي...

تلاشى صوتها؛ وكأنها تقرّر إن كانت ستتابع أم لا.

- لم أستخدمها لوضع فيلم مصغّر، وإنما لوضع عجينة سيانيد حين كنت لاجئة.

لم تتكلم ريزا قط عن المدة التي أعقبت تدمير منزلها، والشهور التي أمضتها على الطريق؛ لم تتكلم عن العصر المظلم في حياتها. انتظر ليو، وشعر فجأة بالقلق.

- أنا واثقة أنك تعرف نوع الأشياء التي تتعرّض لها النساء اللاجئات. الجنود لديهم حاجات، وكانوا يخاطرون بحياتهم، وكانوا يعتقدون أننا ندين لهم. بعد إحدى المرات - حدث ذلك في عدّة مناسبات - تأذيت كثيراً، وأقسمت إنه إذا حدث ذلك مجدداً، أو إذا بدا أنه سيحدث مرة أخرى، فسأفرك تلك العجينة على لثته. كان بمقدورهم قتلي. لكن، ربما سيجعلهم ذلك يفكرون مرتين قبل فعل الأمر نفسه مع امرأة أخرى. على أيّ حال، أصبحت تلك القطعة النقدية أيقونة حظّي، لأنني عندما بدأت أحملها لم أواجه قط أي مشكلات. ربما يستطيع الرجال معرفة أن امرأة ما تحمل سيانيد في جيبها. بالطبع لم تداوِ الجروح التي أصابتني؛ لأنه ليس لها دواء. ولهذا السبب لا يمكن أن أصبح حاملاً يا ليو.

حدّق ليو في الظلام، إلى مكان تخيّل أن زوجته يجب أن تكون فيه. كانت النساء يُغتصبن في أثناء الحرب من قبل جنود الاحتلال ثم من قبل

telegram @ktabpdf

مكتبة الرمحي أحمد

محرّريهن مجدداً. وبصفته جندياً، كان يعرف أن الدولة قد أقرّت مثل ذلك النشاط، واعتبرته جزءاً من نسيج الحرب، ومكافأة مناسبة لجندي شجاع. كانت بعض النساء يستخدمن السيانيد لينتحرن حين يواجهن فظائع مروّعة. افترض ليو أن معظم الرجال ربما فتّشوا النساء بحثاً عن سكين أو مسدس، لكن قطعة نقود؛ لم يكن ذلك ليخطر على بالهم. فرك راحة كفها. ماذا يمكنه أن يفعل غير ذلك؟ أيعتذر؟ أيقول إنه يفهم؟ كان قد أطّر تلك القصاصة الصحفية، وعلّقها على الجدار، فخوراً بنفسه، وغافلاً عما تعنيه الحرب بالنسبة إليها.

- ليو، لدي سر آخر. لقد وقعت في حبك.
- لقد أحببتك دائماً.
- ذلك ليس سراً يا ليو. لا يزال عليك أن تخبرني ثلاثة أسرار.

قبّلها ليو:

- لديّ شقيق.

telegram @ktabpdf مكتبة الرمحي أحمد

روستوف - أون - دون

15 تموز

كانت ناديا وحدها في المنزل، فقد ذهبت والدتها وشقيقتها لزيارة جدّتها. وبالرغم من أنها رافقتهما في البداية، إلا أنها ادّعت حين اقتربن من المبنى الذي تسكن فيه جدّتها أنها تعاني ألماً في معدتها وتوسّلت أمّها لتسمح لها بالعودة. وافقت والدتها، وأسرعت ناديا بالعودة إلى البيت. كانت خطتها بسيطة: ستفتح باب القبو، وتكتشف لماذا يمضي والدها وقتاً طويلاً في الأسفل في ما يبدو أنها غرفة باردة مظلمة. لم تكن قد نزلت إلى هناك قط من قبل، ولا مرة واحدة. وقد مشت حول المبنى وهي تتحسّس الآجر الرطب، وتتخيل ما ستكون عليه الحال في الداخل. لم تكن هناك نوافذ، وإنما مجرد كوة تهوئة من أجل الموقد، والدخول إلى هناك ممنوع تماماً ومحظور. وهذه قاعدة لا يمكن خرقها في المنزل.

كان والدها في رحلة عمل آنذاك، لكنه سيعود قريباً، ربما غداً. وقد سمعته يتكلم عن تحسين منزلهم، وعن وضع باب جديد للقبو، وليس الباب الأمامي الذي يستخدمه الجميع ويحافظ على دفء المكان. كانت أولويته القصوى باب القبو، ولم تكن تستطيع إنكار أنه من النوع السيئ. لكن، لماذا كان مهماً جداً؟ بعد يومين سيضع باباً جديداً لن تستطيع فتحه، وإذا أرادت أن تدخل عنوة، وأن تحصل على أجوبة عن أسئلتها، فعليها أن تفعل ذلك الآن. كان القفل رتاجاً بسيطاً، وقد فحصته بعناية واختبرته لترى إمكانية إدخال سكين بين الباب والإطار، ورفع الرتاج؛ وتبين لها أن ذلك ممكن.

ارتفع الرتاج، وفتحت ناديا الباب. نزلت خطوة إلى الأسفل وهي تشعر

telegram @ktabpdf

مكتبة الرمحي أحمد

بالإثارة والخوف معاً، ثم تركت الباب الذي ارتد إلى الخلف وأُغلق. تسلل ضوء خافت خلفها، من تحت الباب والجانبين، فالضوء الوحيد الذي يدخل القبو مصدره كوة التهوئة في الأسفل. تلاءمت عيناها مع العتمة ووصلت إلى أسفل الدرج ونظرت إلى غرفة والدها السرية.

سرير، موقد، طاولة صغيرة، صندوق؛ لا شيء غامض. جالت ببصرها في المكان محبطة، ورأت مصباحاً قديماً معلّقاً على الجدار، وقد ثُبّتت بجانبه مجموعة من قصاصات صحفية، فمشت نحوها، واكتشفت أنها كلها متماثلة: صورة جندي روسي يقف بجانب دبابة تحترق. كانت بعض الصور مجتزأة حيث لم يعد من الممكن رؤية شيء إلا الجندي، الذي بدا وسيماً، لكنها لم تتعرّف إليه. استغربت من تلك القصاصات، ورفعت وعاءً معدنيًّا وجدته على الأرض كان مخصصاً من دون شك للقططة. تحول اهتمامها إلى الصندوق، وضعت يديها على الغطاء ورفعته قليلاً فقط، لترى إن كان مقفلاً. كان الغطاء الخشبي ثقيلاً، لكن الصندوق لم يكن مقفلاً. ما الذي في داخله؟ رفعته أكثر قليلاً، وفجأة سمعت صوتاً آخر؛ صوت الباب الأمامي.

سمعت وقع خطوات ثقيلة، لا يمكن أن تكون لوالدتها، وعرفت أن والدها قد عاد باكراً. ظهر ضوء حين فُتح باب القبو. لماذا عاد باكراً جداً؟ ذُعرت ناديا، وأغلقت الغطاء، وهي تحاول ألاّ تصدر عنها أيّ ضوضاء، ثم أصغت إلى وقع خطى والدها وهو ينزل الدرجات. جثت على ركبتيها بعد أن أغلقت الغطاء، وتسللت تحت السرير، وحشرت نفسها في مساحة صغيرة، وهي تراقب الدرجة السفلية. رأتهما؛ نعليه الأسودين الكبيرين، قادمين نحوها مباشرة.

أغمضت ناديا عينيها، وهي تتوقع أن ترى وجهه الغاضب على بعد بوصات منها حين تفتحهما. ولكن، بدلاً من ذلك، صرَّ السرير كله وهبط إلى الأسفل بعد أن جلس عليه. فتحت عينيها ووجدت نفسها مضطرة إلى الابتعاد زحفاً عن مكانها بعد أن أصبحت المسافة بين السرير والأرض أصغر

مما كانت عليه، وشاهدته يفك شريطي حذائه. لم يعرف أنها هناك، ولا بد من أن الرتاج قد سقط مكانه بعد أن أغلقت الباب. لم يكن قد ألقى القبض عليها، ليس بعد. ماذا ستفعل؟ قد يمضي والدها ساعات هنا، وستعود والدتها وستكتشف أن ناديا ليست في المنزل، وربما سيظنان أنها مفقودة ويخرجان للبحث عنها. إذا فعلا ذلك فستتسلل إلى الأعلى وتبتكر كذبة ما بشأن مكان خروجها. كان ذلك أفضل أمل لها، وإلى ذلك الوقت يجب أن تبقى حيث هي وتلتزم الهدوء.

نزع والدها جوربيه، وفرك أصابع قدميه، ثم وقف فارتفع السرير معه، وأشعل المصباح الذي صدر عنه ضوء خافت. مشى نحو الصندوق، واستطاعت ناديا سماع غطاء الصندوق وهو يُفتح، لكنها لم ترَ الشيء الذي أخرجه، ولا بد من أنه قد ترك الغطاء مفتوحاً لأنها لم تسمعه يغلقه. ماذا كان والدها يفعل؟ كان يجلس آنذاك على أحد الكراسي، ويربط شيئاً حول قدمه، تبينٍ أنه شريط مطاطي. استخدم شريطاً وخرقاً بالية، وبدا أنه يصنع نوعاً من خُفٍّ منزلي.

شعرت ناديا أن هناك شيئاً خلفها، فأدارت رأسها ورأت الهر الذي رآها أيضاً، فتقوّس ظهره، وانتصب فروه. لم يكن ذاك مكانها، والهر يعلم ذلك تماماً. خائفةً، استدارت لترى إن كان والدها قد لاحظ شيئاً، وشاهدته يجثو على ركبتيه، ووجهه يظهر في الفراغ تحت السرير. لم تعرف ما تقوله، أو تجرؤ على التحرك. لم يقل شيئاً، بل وقف، ورفع السرير كله إلى الأعلى، وكشفها وهي متكوّرة على نفسها مثل كرة.

- قفي.

لم تستطع تحريك ذراعيها، أو ساقيها؛ وبدا أن جسدها لا يعمل.

- ناديا.

عندما سمعت اسمها، وقفت.

- ابتعدي عن الجدار.

أطاعت، ومشت نحوه مطأطئة رأسها، وهي تحدّق إلى قدم والدها العارية والأخرى التي تلتف خرق بالية حولها. أنزل السرير، وأعاده إلى مكانه.

- لماذا أنت هنا في الأسفل ؟

- أردت أن أعرف ماذا تفعل.

- لماذا؟

- أريد تمضية وقت أطول معك.

شعر أندريه بتلك الرغبة مجدداً. كانا وحدهما في المنزل. ما كان يجب أن تنزل إلى الأسفل، لقد أخبرها ذلك من أجل مصلحتها. كان شخصاً مختلفاً، لم يعد والدها. ابتعد عن ابنته حتى استند ظهره إلى الجدار، بعيداً عنها بقدر ما تسمح به الغرفة.

- أبي ؟

رفع أندريه إصبعاً إلى شفتيه.

سيطر على نفسك.

لكنه لم يستطع. نزع نظارته، وطواها ووضعها في جيبه. وعندما نظر إليها مجدداً لم تكن أكثر من شكل مشوّش. لم تكن ابنته، بل كانت مجرد فتاةٍ صغيرة؛ غامضة، وغير واضحة، وأي فتاةٍ يمكن أن يتخيلها.

- أبي ؟

مشت ناديا إلى والدها مباشرة وأمسكت يده.

- ألا تحب تمضية الوقت معي ؟

كانت قريبة جداً منه آنذاك، ويراها بوضوح حتى من دون أن يضع نظارته. استطاع رؤية شعرها ووجهها. مسح جبينه، ووضع نظارته مجدداً.

- ناديا، لديك شقيقة أصغر منك. لماذا لا تحبين اللعب معها؟ عندما كنت في مثل عمرك، أمضيت كل وقتي مع شقيقي.

- لديك شقيق؟

- نعم.

- أين هو؟

أشار أندريه إلى الجدار، إلى صور الجندي الروسي.

- ما اسمه؟

- بافل.

- لماذا لا يزورنا؟

- سيفعل.

telegram @ktabpdf مكتبة الرمحي أحمد

منطقة روستوف
ثمانية كيلومترات شمال
روستوف - أون - دون

16 تموز

كانا جالسين في إلكتريكا، وهما يسافران نحو ضواحي المدينة، ويقتربان من وجهتهما؛ وسط روستوف - أون - دون. لم يخنهما سائق الشاحنة، بل نقلهما عبر عدّة نقاط تفتيش، وأوصلهما إلى بلدة شاختي حيث أمضيا الليل مع حماته، وهي امرأة تدعى سارا كارلوفنا وتعيش مع أسرتها. كانت سارا، التي تبلغ من العمر خمسين عاماً، تعيش مع بعض أبنائها، ومن بينهم ابنة متزوجة ولديها ثلاثة أولاد. ويعيش والداها في الشقة أيضاً، ما يجعل المجموع أحد عشر شخصاً في ثلاث غرف نوم؛ جيل مختلف في كل غرفة نوم. قام ليو بسرد قصة تحقيقه للمرة الثالثة، وبخلاف البلدات في الشمال، كانوا قد سمعوا سلفاً بتلك الجرائم؛ جرائم قتل الأولاد. ووفقاً لسارا، قلّة فقط من الأشخاص الذين يعيشون في تلك المنطقة لم تسمع بالإشاعات. بالرغم من ذلك، لم يكونوا يعرفون أي حقائق، ولدى مواجهتهم بالعدد التقديري للضحايا أطبق الصمت على الغرفة.

لم تكن المسألة تتعلق قط بموافقتهم على المساعدة أم لا، فقد شرعت تلك الأسرة الكبيرة بوضع الخطط فوراً. كان ليو وريزا قد قرّرا الانتظار حتى الغسق قبل أن ينطلقا إلى المدينة؛ لأنه لن يكون هناك أشخاص كُثر في المصنع في الليل، وستكون فرصة تواجد القاتل في منزله أكبر أيضاً. تقرّر أيضاً ألاّ يسافرا وحدهما، ولهذا السبب سيرافقهما ثلاثة أولادٍ صغار وجدّان

telegram @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

نشيطان. كان ليو وريزا سيؤديان دورَي الأب والأم في حين يبقى الأب والأم الحقيقيان في شاختي، وسيكون شكل الأسرة ذاك إجراءً احترازياً. إذا وصلت حملة البحث عنهما إلى روستوف، وخمّنت الدولة أنهما لا يسعيان إلى الهرب من البلاد، فسيبحثون عندها عن رجل وامرأة يسافران معاً. اتضح أن قيام أي منهما بتغيير مظهره الخارجي إلى حدٍّ كبير أمرٌ مستحيل، فقد قصَّ كل منهما شعره، وحصل على مجموعة جديدة من الثياب. وبالرغم من ذلك، بدا أن اكتشاف أمرهما سهل من دون أسرة تحيط بهما. كانت ريزا قد عبّرت عن قلقها من اصطحاب الأولاد، وخشيت من تعرّضهم للخطر. وفي النهاية، اتفقوا على أنه إذا حصل خطب ما، إذا ألقي القبض عليهم، فعندها سيدّعي الجدّان أن ليو قد هدّدهم وأنهم خافوا على حياتهم إذا لم يساعدوهما.

توقف القطار، وألقى ليو نظرة إلى خارج النافذة. كانت المحطة مكتظة، واستطاع رؤية عدّة ضباط يرتدون بزّاتهم الرسمية ويتجولون على الرصيف. نزل السبعة من القطار، وريزا تحمل أصغر الأولاد بين ذراعيها. أمر الأولاد الثلاثة بأن يتصرفوا بصخب. كان أكبر الصبيان يفهم طبيعة الخدعة وضرورة قيامهم بتأدية أدوارهم، لكن الفتى الأصغر سناً بدا حائراً وحدّق فقط إلى ريزا، وهو يطبق شفتيه على بعضهما، مستشعراً الخطر ومتمنياً من دون شك أن يكون في المنزل. لم يكن أحد ليشك في أن تلك الأسرة زائفة إلا أشد الضباط انتباهاً.

شاهدوا حراساً ينتشرون على الرصيف وفي الساحة الداخلية. كان عددهم كبيراً جداً بالنسبة إلى يوم عادي في محطة عادية، وبدا أنهم يبحثون عن شخص ما. ومع أن ليو حاول طمأنة نفسه بأنهم يطاردون عدداً من الأشخاص بهدف اعتقالهم، إلا أن إحساسه أخبره أنهم يبحثون عنهما. كان المخرج على بعد خمسين خطوة منهم، فركّز عليه، وكادوا يصلون إليه.

فجأة، ظهر ضابطان مسلحان أمامهم.

- من أين جئتم؟ وإلى أين تذهبون؟

لم تستطع ريزا أن تتكلم للحظة، فقد تلاشت الكلمات من ذهنها. وحتّى لا تبدو ساكنة نقلت الصبي اليافع من ذراعٍ إلى أخرى وضحكت.

- إنهم يصبحون ثقلاء جداً!

تقدم ليو إلى الأمام قائلاً:

- لقد كنا في زيارة إلى شقيقتها التي تعيش في شاختي، وقد تزوجت حديثاً.

أضافت الجدّة:

- لم أوافق على رجل سكّير. أخبرتها ألاّ تفعل ذلك.

ابتسم ليو، وخاطب الجدّة:

- هل تريدين منها أن تتزوج رجلاً لا يشرب إلا الماء؟

- سيكون ذلك أفضل.

أومأ الجد قبل أن يضيف:

- يمكنه أن يشرب، لكن، لِمَ هو قبيح جداً؟

ضحك الجدّان، لكن الضّابطين لم يفعلا، وتحول أحدهما إلى الفتى الصغير.

- ما اسمه؟

كان السؤال موجهاً إلى ريزا، وأصبح ذهنها فارغاً مرة أخرى. لم تتذكر أيّ شيء، أو يخطر شيء على بالها. انتزعت اسماً من ذاكرتها:

- ألكسندر.

هزّ الفتى رأسه.

- اسمي إيفان.

ضحكت ريزا.

- أحب أن أضايقه. فأنا أخطئ دائماً في اسمي الشقيقين وهذا يدفعهما إلى الجنون. هذا الشاب الذي أحمله هو إيفان، وذاك ميخائيل.

كان ذلك اسم الفتى الأوسط، وتذكرت ريزا آنذاك أن الأكبر يدعى ألكسي. لكن، حتى يصدّقوا كذبتها سيضطر الولد الأكبر إلى التظاهر بأن اسمه ألكسندر.

- وابني الأكبر يدعى ألكسندر.

فتح الفتى فمه ليعترض لكن الجدَّ تقدم بسرعة إلى الأمام، وفرك رأسه بعطف، فهزّ الفتى رأسه منزعجاً وقال:

- لا تفعل ذلك. لم أعد طفلاً.

كافحت ريزا حتى لا يظهر الارتياح على محياها، وابتعد الضابطان عن طريقهم، وتقدمت الأسرة المزيفة ومشت إلى خارج المحطة.

عندما أصبحوا بعيداً عن أنظار أولئك المتواجدين في المحطة ودّعا الأسرة، وانفصلا عنهم، ثم ركب ليو وريزا سيارة أجرة. كانا قد زوّدا سلفاً أسرة سارا بكل المعلومات المتعلقة بتحقيقهما. وإذا فشل ليو وريزا لأي سبب، واستمرت جرائم القتل، فعندها، سيتولى أفراد الأسرة مهمّة التحقيق، وسيطلبون من آخرين الانضمام إليهم في محاولة العثور على ذلك الرجل، وسيتأكدون من أن هناك مجموعة أخرى جاهزة لتحلّ محلهم إذا فشلوا في ذلك. لم يكن مسموحاً له أن ينجو. قدّر ليو أن ذلك إعدام جماهيري، من دون قضاء أو أدلّة أو محاكمة - فهو إعدام بناءً على دليل ظرفي - وأنهم مضطرون في محاولتهم تحقيق العدالة إلى محاكاة النظام نفسه الذي يعارضونه.

لم يتكلم أي من ليو أو ريزا وهما جالسان على المقعد الخلفي في سيارة الأجرة، فولغا، التي صُنعت بكل تأكيد تقريباً في فوالسك، ولم يكونا بحاجة إلى ذلك. كانت الخطة قد وُضعت، وسيدخل ليو مصنع روستلماش ويتسلل إلى سجلات العاملين. لم يكن يعرف الطريقة تحديداً، وسيكون عليه ارتجال شيء ما، في حين ستبقى ريزا في سيارة الأجرة لتقنع السائق إذا انتابه الشك بأن كل شيء بخير. كان قد حصل على أجره سلفاً وبسخاء

telegram @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

لإبقائه هادئاً ومطيعاً. وعندما يجد ليو اسم القاتل وعنوانه فسيكونان بحاجة إلى السائق ليقلّهما إلى حيث يعيش المجرم. إذا لم يكن القاتل في المنزل، وإذا كان مسافراً إلى مكان ما، فسيحاولان اكتشاف موعد عودته، وسيعودان إلى شاختي ويبقيان مع أسرة سارا وينتظران.

توقفت سيارة الأجرة، ومسّت ريزا يد ليو الذي كان قلقاً، وهمس لها:

- إذا لم أعد بعد ساعة...

- أعرف.

خرج ليو من السيارة، وأغلق الباب.

كان هناك حراس عند البوابات الرئيسة. لكن، لم يبدُ أنهم متأهبون على وجه الخصوص، وقدّر ليو من تقويمه للإجراءات الأمنية أن لا أحد من إ.أ.د. قد خمّن أن مصنع الجرارات ذاك هو الوجهة التي سيقصدها. كان هناك احتمال بأن يكون قد جرى خفض عدد الحراس قرب الباب الأمامي عمداً كطريقة لاستدراجه، لكنه شكّك في ذلك. ربما كانوا قد خمّنوا أنه يتجه إلى روستوف لكنهم لم يعرفوا إلى أين بالضبط. مشى إلى نهاية المصنع، واكتشف مكاناً يحجب فيه جانبُ بناءٍ من الآجر سياج الأسلاك الشائكة عن الأنظار، فتسلقه وتخطّى الأسلاك الشائكة ثم نزل إلى الأرض، وأصبح في الداخل.

كان خط الإنتاج في المصنع يعمل على مدار أربع وعشرين ساعة. وكان عمّال المناوبة هناك، لكن، لم يكن في الأرجاء الكثير من الناس. كانت الأرض شاسعة، وبدا أن عدّة آلاف من الأشخاص يعملون هناك، وقدّر ليو أن عددهم يبلغ نحو عشرة آلاف؛ ما بين إدارة الحسابات، والتنظيف، والشحنات، وخط الإنتاج نفسه. عند الأخذ في الحسبان الفصل بين عمّال الليل والنهار، بدا أن أحداً لن يعرف أنه غريب. مشى بهدوء متعمّد، وكأنه ينتمي إلى ذلك المكان، وشق طريقه نحو أكبر المباني. رأى رجلين يدخّنان، ويتجهان نحو البوابات الأمامية، وخمّن أنهما ربما أنهيا عملهما. شاهداه فتوقفا، ولم يستطع ليو تجاهلهما فلوّح لهما، وتحرك نحوهما.

telegram @ktabpdf

مكتبة الرمحي أحمد

- أنا تولكاش أعمل في مصنع السيارات في فوالسك. كان يجب أن أصل في وقت أبكر بكثير لكن قطاري تأخر. أين مبنى الإدارة؟

- ليس في مبنى منفصل. المكتب الرئيس في الداخل، في أحد الطوابق العلوية. سأصطحبك إلى هناك.

- أنا واثق بأنني سأجده.

- لست على عجلة من أمري للذهاب إلى المنزل. سآخذك إلى هناك.

ابتسم ليو، ولم يستطع أن يرفض. ودّع الرجلان بعضهما، وتبع ليو مرافقه غير المرغوب فيه إلى مصنع التجميع الرئيس.

خطا ليو إلى الداخل ونسي نفسه لوقت قصير؛ فالحجم الضخم، والسقف العالي، وضوضاء الآلات كلها تشعر المرء بالدهشة وهذا شعور يختص عادة بالمؤسسات الدينية. بالطبع كانت تلك دار العبادة الجديدة، كاتدرائية الناس، والإحساس بالدهشة مهم مثل المركبات التي تنتجها. مشى ليو وذلك الرجل جنباً إلى جنب، وهما يجريان حديثاً عادياً. شعر ليو فجأة بالسعادة بسبب وجود مرافقه، فلم يكن أحد ينظر إليهما مرتين؛ ومع ذلك، تساءل: كيف سيتخلص منه؟

وصلا إلى السلالم، وصعدا نحو القسم الإداري. قال الرجل:

- لا أعرف عدد الأشخاص الذين سيكونون هناك، فهم لا يعملون عادة في مناوبات مسائية.

لم تكن لدى ليو فكرة واضحة عمّا سيفعله بعد ذلك. هل يمكنه أن يتسلل خلسة؟ بدا ذلك مستبعداً نظراً إلى حساسية المعلومات التي يريدها؛ فهم لن يزوّدوه بها بغض النظر عن العذر الذي سيبتكره. كان الأمر سيصبح سهلاً لو أن لديه بطاقة هوية أمن الدولة.

استدارا عند الزاوية، وكان الرواق الذي يفضي إلى المكتب مكشوفاً من ساحة المصنع، ومهما كان الشيء الذي قرّر ليو فعله، فسيكون مرئياً للعمال في الأسفل. قرع الرجل الباب، وأصبح كل شيء يعتمد آنذاك على

عدد الأشخاص في الداخل. فتح رجل عجوز جلده شاحب، وتعبير وجهه صارم، ويرتدي بزّة الباب. ربما كان محاسباً.

- ماذا تريدان؟

اختلس ليو النظر من فوق كتف المحاسب، ورأى المكتب خاوياً.

استدار ليو حول نفسه، وضرب مرافقه على بطنه فجعله يتكوّر على نفسه، وقبل أن يتسنّى الوقت للمحاسب كي يفعل شيئاً، وضع ليو يديه بإحكام حول عنق الرجل العجوز.

- افعل ما أقوله وستعيش، هل تفهم؟

أومأ، فترك ليو عنقه ببطء.

- أغلق كل المصاريع، وانزع ربطة عنقك.

شدَّ ليو الشاب الذي كان لا يزال يئنّ، إلى الداخل، ثم أغلق الباب، وأوصده خلفه. نزع المحاسب ربطة عنقه، ورماها إلى ليو قبل أن يتحرك إلى النوافذ، ويحجب رؤية ما يحصل في المكتب عن سائر مَن هم في المصنع. قيّد ليو يدي الشاب خلف ظهره باستخدام ربطة العنق، وراقب في الوقت نفسه المحاسب. شكَّ في وجود سلاح أو جهاز إنذار، فلم يكن هناك شيء يستحق السرقة. استدار الرجل نحو ليو بعد أن أغلق المصاريع:

- ماذا تريد؟

- سجلات العاملين.

احتار الرجل، لكنه أطاع وفتح خزانة الملفات. تقدم ليو إلى الأمام، ووقف بجانبه.

- قف هناك، لا تتحرك، وأبقِ يديك فوق الخزانة.

كانت هناك آلاف الملفات: وثائق شاملة لا تخصّ القوة العاملة آنذاك فقط، إنما أيضاً تخصّ أشخاصاً غادروا المصنع. لم يكن يفترض تسجيل أسماء تولكاش بينها، لأنّ ضرورة تسجيلها تدل على عيب في التوزيع والإنتاج. لم يكن من المحتمل إدراج أسمائهم تحت ذلك العنوان.

telegram @ktabpdf مكتبة الرمحي أحمد

- أين ملفات تولكاش لديكم؟

فتح الرجل العجوز خزانة، وأخرج منها ملفاً سميكاً كتب عليه **بحّاثة.**

ووفقاً لما استطاع ليو رؤيته كان هناك خمسة تولكاش آنذاك على جدول الرواتب. شعر ليو بالتوتر فتحقيقهم كله يعتمد على تلك الوثائق. تأكّد من تاريخ عمل هؤلاء الرجال. إلى أين كانوا يُرسلون؟ ومتى؟ إذا كانت تلك التواريخ تتطابق مع الجرائم فسيكون قد عثر على القاتل، على الأقل في ذهنه، وإذا كان تطابقها كافياً، فسيذهب إلى الرجل ويواجهه. كان واثقاً أنه إذا التقاه وجهاً لوجه، وواجهه بجريمته، فإن القاتل سينهار. مرّر إصبعه على اللائحة، قارنها بالتواريخ والأماكن في ذاكرته. لم تتطابق اللائحة الأولى مع ما يعرفه. توقف ليو لحظة، متسائلاً عن قوة ذاكرته، لكن التواريخ التي لم يستطع نسيانها كانت تلك المتعلقة بالجريمتين في فوالسك والجريمة في موسكو. لم يكن تولكاش ذاك هناك أو في أي مكان على طول مسار السكك الحديدية التي تعبر سيبريا. فتح ليو الملف الثاني، وتجاهل المعلومات الشخصية وانتقل إلى سجل العمل. كان ذلك الشخص قد بدأ العمل في الشهر الماضي فقط، فدفع ليو الملف جانباً. فتح الملف الثالث فلم يكن متطابقاً أيضاً. لم يبقَ أمامه إلا ملفّان: تصفّح الرابع.

فوالسك، مولوتوف، فياتكا، غوركي؛ مجموعة من البلدات تقع على مسار القطار المتجه غرباً نحو موسكو. انتقل ليو جنوباً من موسكو، ووجد بلدتي تولا وأورل؛ ثم إلى أوكرانيا، ورأى بلدات خاركوف وغورلوفسكا، زابوروشي وكراماتورسك. كانت الجرائم قد وقعت في كل تلك البلدات. أغلق الملف، وقرّر أن يتأكد من الملف الخامس قبل أن يمعن النظر إلى التفاصيل الشخصية. استطاع أن يركز بصعوبة، ومرّر إصبعه إلى أسفل الجدول، ووجد بعض التقاطعات لكن من دون توافق تام. عاد ليو إلى الملف الرابع، وقلب الصفحة الأولى، وحدّق إلى الصورة الصغيرة باللونين الأبيض والأسود. كان الرجل يضع نظارة، واسمه أندريه.

telegram @ktabpdf

مكتبة الرمحي أحمد

اليوم نفسه

جلس فاسيلي على سريره في الفندق، وهو يدخّن، ويلقي الرماد على السجاد، ويشرب من القارورة مباشرة. لم تكن لديه أي أوهام. إذا لم يسلم رؤساءَه الهاربَين ليو وريزا، فسينظرون بالتأكيد إلى موت فيودور أندريف بعين غير متعاطفة. كان ذلك هو الاتفاق الذي عقدوه معه قبل أن يغادر موسكو، وسيصدقون أن فيودور يعمل مع ليو، وأنه عندما واجه فيودور بالحقيقة حاول أن يهاجمه، فقط إذا أحضر لهم ليو. كانت إ.أ.د. محرجة من عدم قدرتها على القبض عليهما وهما أعزلان ومفلسان؛ وكأنهما فص ملحٍ قد ذاب. إذا استطاع فاسيلي اعتقالهما، فسيكونون على استعداد للصفح عن أي ذنب ارتكبه. كان المسؤولون يستعدون لحقيقة أن ليو في الخارج سلفاً في قبضة دبلوماسيين غربيين، وقد أبلغوا عملاءَهم الأجانب بذلك، وأُرسلت صور ليو وزوجته إلى السفارات في كل أنحاء العالم، ووُضعت خطط لاغتيالهما. وإذا كان بمقدور فاسيلي أن يوفّر عليهم عناء شنّ حملة بحث دولية واسعة ومعقدة دبلوماسياً، فسيصبح سجله نظيفاً من جديد.

ألقى عقب لفافة تبغه على السجادة، وراقبها وهي تحترق نهائياً قبل أن يسحقها تحت كعبه. اتصل بأمن الدولة في روستوف؛ مجموعة من الرعاع، وزوّدهم بصورٍ، وأخبر الضباط أن عليهم أن يتذكروا دائماً أن ليو ربما يكون قد أطلق لحيته أو قصّ شعره، وأن الزوجين ربما لا ينتقلان معاً، أو أنهما يسافران ضمن مجموعة، بمساعدة آخرين. كان على الضباط أن يولوا أقل اهتمام ممكن بالأوراق الثبوتية التي يعرف ليو كيف يزوّرها كلها، ويجب أن

يحتجزوا أي شخص يعتبرون أنه مشتبه فيه ولو من بعيد. كان فاسيلي سيتخذ القرار الأخير بشأن إطلاق سراحهم أو لا، ومع ثلاثين شخصاً بالمجمل تحت إمرته، أقام سلسلة من نقاط التفتيش، ونظم عمليات بحث عشوائية، وأمر كل الضباط بالإبلاغ عن كل الحوادث، بغض النظر عن أهميتها، ليتأكد منها بنفسه. أُحضرت تلك التقارير إليه، ليلاً ونهاراً.

لم يكن هناك شيء حتى ذلك الوقت. هل ستكون تلك فرصة أخرى يذله ليو فيها؟ ربما كان ذلك الأحمق فيودور مخطئاً، وربما كان ليو يتجه إلى مكان آخر مختلف تماماً. إذا كانت تلك هي الحال، فسيلقى فاسيلي حتفه بالتأكيد.

سمع قرعاً على الباب.

- ادخل.

وقف ضابطٌ شابٌ أحمر الوجه بثبات وهو يحمل ورقة، فطلب منه فاسيلي أن يعطيه إياها.

مصنع روستلماش. القسم الإداري.

تعرض رجلان لاعتداء، وسُرقت ملفات عاملين.

وقف فاسيلي على قدميه.

- إنه هنا.

اليوم نفسه

وقفا جنباً إلى جنب، على بعد خمسين خطوة من الباب الأمامي. نظر ليو إلى زوجته التي بدت غافلة عن الحنق الذي يشعر به. كان مصاباً بالدوار وكأنه قد تناول مخدّراً ما. توقع أن يختفي ذلك الشعور ويعود إلى حالته الطبيعية، وأن هناك تفسيراً آخر، وأن ذلك ليس المنزل الذي يخص شقيقه الأصغر.

أندريه تروفيموفيتش سيدوروف.

لكن ذلك كان اسم شقيقه الأصغر.

بافل تروفيموفيتش سيدوروف.

كان ذلك اسمه، حتى تخلّص من هوية طفولته كما تتخلص الأفعى من جلدها. كانت الصورة الصغيرة المرفقة بملف العمل قد أكّدت أنه أندريه، فالملامح نفسها؛ تعبير تائه. كانت النظارة جديدة، لكن ذلك ما يجعله أخرق، فبصره حسير. شقيقه الأصغر الأخرق والخجول قتل 44 ولداً يافعاً على الأقل. لم يكن ذلك منطقياً لكنه يبدو معقولاً جداً: الحبل، لحاء الأشجار، الصيد. وجد ليو نفسه مضطراً إلى التركيز على الذكريات التي تخلص منها، وتذكر أنه علّم شقيقه الأصغر كيف يصنع فخاً بواسطة الحبل، وقال له أن يمضغ لحاء الأشجار ليخمد الجوع. هل أصبحت تلك الدروس النموذج لنوعٍ من الجنون النفسي؟ لماذا لم ينتبه ليو إلى هذه الصلة من قبل؟ لا، كان من السّخف توقع ذلك؛ فعدد كبير من الصغار يُعلَّمون

الدروس نفسها ويُدرّبون على الصيد. وعندما رأى الضحايا، لم تسبر تلك التفاصيل أغواراً عميقة في ذهن ليو. أم أنها فعلت؟ هل اختار ذلك الدرب أم إن الدرب هو الذي اختاره؟ هل كان ذلك سبب اهتمامه بالتحقيق في حين أن لديه كل سبب آخر ليسلك الطريق الآخر؟

عندما رأى اسم شقيقه مكتوباً بالأسود والأبيض، اضطر ليو إلى الجلوس محدّقاً إلى الملف، وهو يتأكد من التواريخ مراراً وتكراراً. أُصيب بصدمة جعلته يغفل عن الخطر المحدق به، وبقي على تلك الحال حتى لاحظ المحاسب وهو يقترب جانبياً من الهاتف، لكنه انتزعه منه، ثم ثبّت المحاسب إلى كرسي، وعطّل الهاتف، وأوصد الغرفة على الرجلين بداخلها، بعد أن كمّمهما. كان عليه أن يخرج من ذلك المكان، وأن يستعيد رباطة جأشه. لكن، في أثناء نزوله إلى الرواق لم يكن يمشي في خط مستقيم، بل كان يتمايل من جانب إلى آخر، وهو يشعر بالدوار. بعد أن نجح في الخروج من المبنى، وأفكاره لا تزال مشوّشة، وعالمه لا يزال مقلوباً رأساً على عقب، استدار تلقائياً نحو البوابات الرئيسة، وأدرك بعد فوات الأوان أن تسلّق السياج كما فعل من قبل كان أكثر أماناً بالنسبة إليه. لكن، لم يكن بمقدوره تغيير اتجاهه؛ فقد رآه الحراس وهو يقترب منهم. كان عليه أن يتجاوزهم، وبدأ يتعرّق، لكنهم تركوه يمضي في حال سبيله من دون أن يعترضوا طريقه. وعندما أصبح في سيارة الأجرة، زوّد السائق بالعنوان، وأمره أن يسرع. كان يرتعش، ولم يكن قادراً على إيقاف ذلك. جلس يراقب الطريق في حين أمعنت ريزا النظر إلى الملف. كانت تعرف الآن قصة شقيقه، وتعرف اسمه الأول، ولكن ليس بالكامل. راقب رد فعلها حين تفحّصت الأوراق، لكنها لم تربط الأمرين معاً، ولم تخمّن شيئاً. كيف تستطيع ذلك؟ لم يكن بمقدوره إخبارها.

ذلك الرجل شقيقي.

لم تكن هناك طريقة لمعرفة عدد الأشخاص داخل منزل شقيقه. كان

السكان الآخرون يمثّلون مشكلة، فهم لا يدركون بكل تأكيد تقريباً طبيعة ذلك الرجل؛ ذلك القاتل وكانوا غافلين عن جرائمه ويعود السبب في ذلك بالتأكيد إلى أنه يقتل بعيداً عن بيته. كان شقيقه قد أنشأ هويتين منفصلتين: حياته المنزلية وحياته بصفته قاتلاً؛ تماماً كما شطر ليو هويته إلى اثنتين: الفتى الذي كان عليه، والرجل الحاليّ. هز ليو رأسه، يجب أن يحافظ على تركيزه. كان هنا لقتل ذلك الرجل، والسؤال هو كيف سيتخطّى باقي القاطنين معه؟ لم يكن يملك هو أو ريزا أيّ سلاح. شعرت ريزا بتردده فسألته:

- ما الذي يقلقك؟

- الأشخاص الآخرون الذين يقطنون في المنزل.

- رأيت وجه هذا الرجل، وقد رأينا الصورة. يمكنك أن تتسلل إلى الداخل وتقتله في أثناء نومه.

- لا يمكنني فعل ذلك.

- ليو، لا يستحق شيئاً أكثر.

- يجب أن أتأكد، وينبغي لي أن أتكلم معه.

- سينكر ذلك فقط. كلما تكلمت معه وقتاً أطول، كلما أصبح الأمر أصعب.

- قد يكون ذلك صحيحاً، لكنني لن أقتله وهو نائم.

كانت سارا قد منحتهما سكيناً، وأعطاها ليو إلى ريزا.

- لن أستخدم هذه.

رفضت ريزا أن تأخذها.

- ليو، لقد قتل هذا الرجل أكثر من أربعين ولداً.

- وسأقتله لأنّه فعل ذلك.

- وماذا ستفعل إن دافع عن نفسه؟ لا بد من أن لديه سكيناً، وربما حتى مسدساً. وربما يكون قوياً.

- ليس مقاتلاً، وإنما أخرقَ وخجولاً.

- ليو، كيف تعرف هذا؟ خذ السكين. كيف يمكنك أن تقتله بيديك العاريتين؟

أعطاها ليو السكين، وضغط على يدها فوق المقبض.

- هل نسيتِ؟ هذا ما تدربت عليه. ثقي بي.

كانت تلك هي المرة الأولى التي يطلب منها فيها أن تثق به.

- أثق بك.

لم يكن هناك مستقبل لهما، أو أمل في الفرار، أو أمل في البقاء معاً وقتاً أطول بعد أحداث تلك الليلة. أدركت ريزا أن جزءاً منها يريد ألاّ يكون ذلك الرجل في المنزل، أرادت أن يكون بعيداً في رحلة ما، وعندها سيكون لديهما سبب للبقاء معاً، وتفادي اعتقالهما بضعة أيام أخرى على الأقل، قبل العودة لإنهاء العمل. خجلت من تلك الفكرة ونحّتها جانباً. كم عدد الأشخاص الذين خاطروا بحياتهم حتى يكونا هناك؟ قبّلت ليو، وتمنّت له النجاح في قتل ذلك الرجل.

تحرك ليو نحو المنزل، وترك ريزا مختبئة. كانا قد اتفقا على الخطة سلفاً. ستبقى هي بعيدة عن المنزل، تراقب وتنتظر، وإذا حاول الرجل الهرب فستعترض طريقه. إذا وقع خطب ما، وإذا فشل ليو لأي سبب، فستقوم بمحاولة منفصلة للقضاء على حياة ذلك الرجل.

وصل إلى الباب، ورأى ضوءاً خافتاً في الداخل. ألم يكن ذلك يعني أن شخصاً ما مستيقظاً؟ دفع الباب متردداً فانفتح فوراً. كان المطبخ أمامه، وفيه طاولة وموقد وكان الضوء يأتي من مصباح زيت؛ شعلة تتراقص داخل المصباح. دخل المنزل، وتحرك عبر المطبخ إلى المساحة المجاورة. لدهشته لم يكن هناك إلا سريران، على أحدهما فتاتان يافعتان نائمتان جنباً إلى جنب، فيما كانت والدتهما تنام على السرير الثاني. كانت وحدها. لم يكن هناك أثر لأندريه. هل كانت تلك أسرة شقيقه؟ إذا كان الأمر كذلك فهل هي أسرته أيضاً؟ هل كانت تلك زوجة شقيقه؟ هل كانت تانك الفتاتان

ابنتَي شقيقه؟ لا، ربما تكون هناك أسرة أخرى في الأسفل. استدار، ووجد هراً يحدّق إليه بعينين خضراوين باردتين. كان وبره أسود وأبيض، وبالرغم من أنه أكثر بدانة من الهر الذي لاحقه في الغابة؛ الهر الذي طارداه وقتلاه، إلا أنه باللونين نفسيهما، ومن النوع ذاته. شعر ليو أنه في حلم، مع أجزاء من الماضي في كل مكان حوله. اندفع الهر عبر باب ثانٍ، ونزل إلى الأسفل، فتبعه ليو.

كان الدرج الضيق يفضي إلى قبو مُنارٍ بضوء خافت. نزل الهر الدرج وغاب عن البصر. كانت معظم الغرفة محجوبة عن النظر من الدرجة العليا، وكل ما استطاع ليو رؤيته هو حافة سرير آخر فارغ. ألم يكن أندريه في المنزل؟ نزل ليو على الدرجات، محاولاً ألاّ يُصدر أي صوت.

وصل إلى الأسفل، ونظر من خلف الزاوية. رأى رجلاً يجلس إلى طاولة، ويضع نظارة مدوّرة وسميكة، ويرتدي قميصاً أبيض نظيفاً، ويلعب الورق. نظر أندريه إلى الأعلى، ثم وقف من دون أن يبدو مدهوشاً. رأى ليو، من حيث يقف على الجدار خلف شقيقه - وكأنها تنبت من رأسه - مجموعةً من قصاصاتٍ صحفيةٍ مثبّتة هناك، والصورة نفسها تتكرر، صورته وهو واقف بجانب دخان حطام دبابة؛ بطل الاتحاد السوفييتي: ملصق فتى النصر.

- بافل، ما الذي أخّرك؟

أشار شقيقه الأصغر إلى الكرسي الخالي قبالته.

شعر ليو أنه لا يستطيع فعل شيء إلا الطاعة، مدركاً أنه لم يعد يسيطر على الموقف. وبغض النظر عن تأهبه أو أخذه على حين غرّة، وبغض النظر عن تلعثمه في كلماته أو حتى هربه، بدا أندريه مستعداً لتلك المواجهة. بالمقابل، بدا ليو مشتت الذهن، ومرتبكاً. كان صعباً عليه ألاّ يلتزم بتعليمات شقيقه.

جلس ليو، ثم جلس أندريه. شقيق مقابل آخر. اجتمعا مجدداً بعد أكثر

من عشرين سنة. سأل أندريه:

- هل كنت تعرف أنني الفاعل منذ البداية؟

- منذ البداية؟

- من أول جثة وجدتها؟

- لا.

- أي جثة وجدت أولاً؟

- لاريسا بتروفا، فوالسك.

- إنها فتاة يافعة. أتذكرها.

- وأركادي، موسكو؟

- كانت هناك عدّة جثث في موسكو.

عدّة؛ لقد استخدم الكلمة عَرضاً. إذا كانت هناك عدّة جثث، فلا بدّ من أنه جرى التعتيم عليها.

- قُتل أركادي في شباط هذه السنة، على السكة الحديدية.

- هل هو فتى صغير؟

- كان عمره أربع سنوات.

- أتذكره أيضاً. كان من بين الأحدث، وكنت قد أتقنت أسلوبي بحلول ذلك الوقت. ألم تعرف بالرغم من ذلك أنني الفاعل؟ لم تكن الجرائم الأولى واضحة جداً؛ لأنني كنت متوتراً. كما تعرف، لم أستطع أن أكون أكثر وضوحاً. أردت أن يكون ذلك شيئاً لا يفهمه أحد سواك. لم يكن بمقدوري أن أكتب اسمي. كنت أتواصل معك، ومعك فقط.

- ما الذي تتكلم عنه؟

- أنت شقيقي. لم أصدّق قط أنك ميت، وعرفت دائماً أنك حي. ولم تكن لدي إلا رغبة واحدة فقط، طموح واحد... أن أستعيدك.

هل كان ذلك غضباً في صوت أندريه أم حباً، أم كلا الشعورين معاً؟ هل كان طموحه الوحيد هو استعادته أم لفت انتباهه؟ ابتسم أندريه، وبدت

ابتسامته دافئة وعريضة وصادقة، وكأنه قد ربح لعبة ورق آنذاك.

– كان شقيقك الغبي الأخرق محقًّا بشأن شيء واحد هو أنت. حاولت أن أخبر والدتي أنك حي، لكنها لم تعرني أي اهتمام. كانت واثقة أن شخصاً ما قد أمسك بك، وقتلك. أخبرتها أن ذلك ليس صحيحاً، وأنك هربت بعيداً بالصيد الذي حظيت به. وعدت أن أعثر عليك، وأنني عندما أفعل ذلك، فلن أغضب منك بل سأسامحك. لم تصغِ إليّ، وإنما جن جنونها. نسيت من أكون وتظاهرت أنني أنت. دعتني بافَل وطلبت مني مساعدتها، كما كنتَ تساعدها. تظاهرتُ أنني أنت؛ لأن ذلك أسهل، ويجعلها سعيدة. لكن، عندما اقترفت غلطة، أدركت أنني لست أنت. غضبت، وأوسعتني ضرباً حتى هدأ غضبها، ثم ندبتك مجدداً. لم تتوقف قط عن البكاء عليك. كان لدى كل شخص سبب يعيش من أجله، وأنت كنت السبب الذي تعيش من أجله، لكنك كنت السبب الذي أعيش من أجله أنا أيضاً. الفرق الوحيد بيننا هو أنني كنت واثقاً أنك حي.

أصغى ليو السمع مثل طفل يجلس صامتاً تماماً أمام راشد يشرح له ما يجري في العالم. لم يكن بمقدوره رفع يديه، أو النهوض، أو فعل أي شيء، أو مقاطعته. تابع أندريه:

– بينما تركت والدتنا نفسها تنهار، اعتنيت بنفسي. ولحسن حظي كان الشتاء يقترب من نهايته، وبدأت الأوضاع تتحسن ببطء. لم ينجُ إلا عشرة أشخاص من قريتنا، وكنت أنا الحادي عشر. مات كل الناس في القرى الأخرى. عندما حل الربيع وذابت الثلوج، بدأت تفوح من جثثهم روائح كريهة، وأصبحت قرى برمّتها نتنة وموبوءة بالأمراض. لم يكن بمقدور أحد الاقتراب منها، لكنها في الشتاء كانت هادئة ومسالمة وساكنة تماماً. وفي أثناء كل ذلك الوقت، خرجتُ للصيد في الغابة، كل ليلة، وحدي. سرت على الدروب، وبحثت عنك، وناديت اسمك، وصرخت إلى الأشجار، لكنك لم تعد.

telegram @ktabpdf

مكتبة الرمحي أحمد

سأل ليو وكأن دماغه قد بدأ يستوعب الكلمات ببطء، ويحللها. وكان صوته متردداً:

- قتلت أولئك الصغار لأنك ظننت أنني تركتك؟

- قتلتهم حتى تستطيع العثور علي. قتلتهم لأجعلك تعود إلى المنزل. قتلتهم كطريقة للتكلم معك. مَن غيرك كان يستطيع أن يفهم أدلّة تشير إلى طفولتنا؟ عرفت أنك ستتبعها وستصل إليّ، كما تبعت آثار الخطوات في الثلج. أنت صياد يا بافل، أفضل صياد في العالم. لم أعرف إن كنت مليشيا أم لا. عندما رأيت صورتك تلك، تكلمت مع موظفي برافدا، وسألت عن اسمك. شرحت لهم أننا قد انفصلنا وأنني أظن أن اسمك بافل. قالوا إن بافل ليس اسمك، وإن التفاصيل المتعلقة بك سرية. توسلت إليهم ليخبروني عن الفرقة التي تقاتل فيها، لكنهم رفضوا الاستجابة لذلك أيضاً. كنتُ جندياً أيضاً، لست مثلك، لست بطلاً أو من النخبة، لكنني فهمت كفاية لأدرك أنك كنت من دون شك في قوة خاصة. عرفت من السرية التي تحيط باسمك أن هناك فرصة قوية لتكون في الجيش أو أمن الدولة أو الحكومة. عرفت أنك ستصبح شخصاً مهماً؛ لأنك لا يمكن أن تكون غير ذلك، وستكون لديك القدرة على الحصول على المعلومات المتعلقة بتلك الجرائم. بالطبع، لم يكن ذلك مهماً على وجه الخصوص، وإذا قتلت أولاداً كفاية، وفي أماكن كفاية، فستعرف عملي، بغض النظر عن موقعك؛ كنت متأكداً من ذلك. كنت واثقاً أنك ستدرك أنني الفاعل.

انحنى ليو إلى الأمام، وبدا شقيقه لطيفاً جداً، وحجته دامغة. سأله ليو:

- شقيقي، ماذا حدث لك؟

- أتعني بعد القرية؟ الشيء نفسه الذي حدث للجميع: جُنّدت في الجيش. فقدت نظارتي في معركة، وقعت في أيدي الألمان. حوصرت، واستسلمت. وعندما عدت إلى روسيا، ونظراً إلى كوني أسير حرب، اعتُقلت، واستجوبت، وضُربت، وهددوا بإرسالي إلى السجن. أخبرتهم:

كيف يمكن أن أكون خائناً وأنا لا أرى بوضوح؟ لم أحظَ بنظارة لمدّة ستة شهور. بدا العالم الأبعد من أنفي مشوشاً، وكل فتًى يافعاً رأيته كان أنت. كان يجب أن أُعدم، لكن الحراس اعتادوا على السخرية مني لأنني أصطدم بالأشياء. كنت أقع طوال الوقت، تماماً مثلما كان يحصل حين كنت صغيراً. نجوت، فقد كنت أغبى من أن أكون جاسوساً ألمانياً. أطلقوا عليّ أسماء، وضربوني، ومن ثم أطلقوا سراحي. عدت إلى هنا، وبقيت مكروهاً، وبقي الجميع يعتبر أنني خائن. لكنّ أياً من ذلك لم يزعجني. كان لدي أنت، وركّزت حياتي على مهمة واحدة؛ على إعادتك إليّ.

- إذاً، بدأت بالقتل؟

- بدأت في هذه المنطقة أولاً. لكن، بعد ستة شهور اضطررت إلى التفكير في حقيقة أنك ربما تكون في أي مكان في البلاد، ولهذا حصلت على عمل كتولكاش، حتى أستطيع السفر. كنت بحاجة إلى ترك العلامات منتشرة عبر بلادنا كلها؛ لتلحق بها كما لو أنها آثار.

- علامات؟! كان أولئك صغاراً.

- قتلت حيوانات في البداية. اصطدتها كما اصطدنا ذلك الهر، لكن ذلك لم يجدِ نفعاً. لم يعر أحدٌ الأمر أي اهتمام، أو يهتم بذلك، أو يلاحظه. وفي أحد الأيام، وجدني فتًى مصادفة في الغابة، وسأل عمّا كنت أفعله. شرحت له أنني كنت أنصب فخاً، كان الفتى في مثل عمرك حين تركتني، وأدركت أن ذلك الفتى سيكون طُعماً أفضل بكثير؛ لأن الناس سيلاحظون فتًى ميتاً، وستفهم أنت أهمية الأمر. لماذا تظن أنني قتلت عدداً كبيراً من الأولاد في شهور الشتاء؟ حتى تتبع آثاري على الثلج. ألم تتبع آثار حذائي في الغابة، كما تبعت آثار الهر؟

كان ليو يصغي إلى صوت شقيقه الخافت وكأنه يتحدث بلغة أجنبيّة يفهمها بصعوبة.

- أندريه، لديك أسرة. رأيت ابنتيك في الأعلى. إنهما فتاتان صغيرتان؛

تماماً مثل الصغار الذين قتلتهم. لديك فتاتان جميلتان. ألا تفهم أن ما فعلته خطأ؟

- كان ضرورياً.

- لا.

ضرب أندريه الطاولة بقبضتيه غاضباً.

- لا تتكلم معي بتلك النبرة! ليس لديك الحقّ بأن تغضب! لم تزعج نفسك قط بالبحث عني! لم تعد قطّ! كنت تعرف أنني حي ولم تهتم! انسَ أمر أندريه الغبي الأخرق! إنه لا يعني شيئاً لك! تركتني خلفك مع أم مجنونة وقرية مليئة بالجثث المتعفّنة! لا يحق لك أن تحكم عليّ!

حدّق ليو إلى وجه شقيقه الذي كان يستشيط غضباً، وقد ثار فجأة. هل كان ذلك هو الوجه الذي رآه الأولاد؟ ما الذي كان شقيقه يفكر فيه؟ أي فظائع رهيبة؟ لكن وقت الشفقة والفهم قد انقضى منذ أمدٍ بعيد. مسح أندريه العرق عن جبينه.

- كانت تلك هي الطريقة الوحيدة التي أعرفها لأجعلك تجدني؛ الطريقة الوحيدة التي يمكن أن أحظى بها باهتمامك. كان بمقدورك أن تبحث عني، لكنك لم تفعل. حذفتني من حياتك، وأخرجتني من ذهنك. كانت أسعد لحظات حياتي حين أمسكنا ذلك الهر، معاً، كفريق. عندما كنا معاً لم أشعر قط أن العالم غير منصف، حتى حين لم يكن لدينا طعام، أو كان الطقس بارداً جداً، لكنك رحلت.

- أندريه، لم أهجرك. لقد اختُطفت، وضربني رجل على رأسي في الغابة، ووضعني في كيس، وحملني بعيداً. لم يكن من الممكن أن أتركك قطّ.

كان أندريه يهز رأسه.

- هذا ما قالته أمي، لكنها كذبة. أنت خنتني.

- كدت أموت. ذلك الرجل الذي أخذني كان سيقتلني. كانا

سيطعمانني لولدهما. لكن، عندما وصلنا إلى البيت، كان ابنهما قد توفي سلفاً. أُصبت بصدمة، ولم أستطع أن أتذكر حتى اسمي. استغرق الأمر أسابيع حتى تعافيت، لكنني كنت آنذاك في موسكو، وقد غادرنا البلدة. كان عليهما أن يجدا طعاماً. تذكّرتك، وتذكرت والدتنا، وتذكرت حياتنا معاً. فعلت ذلك بالطبع. لكن، ماذا كان يفترض بي أن أفعل؟ لم يكن لديّ خيار. كان يجب أن أمضي قدماً. آسف.

كان ليو يعتذر.

أمسك أندريه الأوراق وخلطها.

- كان بمقدورك أن تبحث عني حين أصبحتَ أكبر سناً، وأن تبذل بعض الجهد. لم أغير اسمي، والعثور علي سهل، خاصة بالنسبة إلى رجل في السلطة.

بدا ذلك صحيحاً، فقد كان بمقدور ليو البحث عن شقيقه والعثور عليه. لقد حاول دفن الماضي، وقد عاد شقيقه إلى حياته على طريق مملوء بالجثث.

- أندريه، أمضيتُ حياتي كلها وأنا أحاول نسيان الماضي. كبرت وأنا أخشى مواجهة والديّ الجديدين، وأخاف من أن أذكّرهما بالماضي؛ لأنني أخاف أن أذكّرهما بالوقت الذي أرادا فيه أن يقتلاني. كنت أستيقظ كل ليلة وأنا أتعرّق، وأشعر بالذعر والقلق والخوف من أنهما ربما غيرا رأيهما، وأنهما يريدان أن يقتلاني مجدداً. فعلت كل ما في وسعي لأجعلهما يحبانني. كان الأمر يتعلق بالنجاة.

- أردتَ دائماً أن تفعل أشياء من دوني يا بافل. أردتَ دائماً أن تتركني خلفك.

- هل تعرف لماذا جئت إلى هنا؟

- لقد جئت لتقتلني. لماذا سيأتي صيّاد إلى هنا إلا من أجل ذلك؟ بعد أن تقتلني، سأصبح مكروهاً وستصبح محبوباً، كما كانت الحال دائماً.

- يا شقيقي، لقد اعتبروا أنني خائن لأنني أحاول إيقافك.

بدا أندريه مدهوشاً جداً.

- لماذا؟

- لقد ألقوا باللوم في جرائمك على أشخاص آخرين. لقد مات الكثير من الأشخاص الأبرياء بطريقة مباشرة أو غير مباشرة بسبب جرائمك. هل تفهم؟ جرائمك محرجة للدولة.

بقي وجه أندريه خالياً من أي تعبير، لكنه قال أخيراً:

- سأكتب اعترافاً.

اعتراف آخر. وماذا سيتضمن؟

أنا - أندريه سيدوروف - قاتل.

لم يفهم شقيقه. لم يكن أحد يريد اعترافه، أو يرغب في أن يكون مذنباً.

- أندريه، لست هنا للحصول على اعترافك. أنا هنا للتأكد من أنك لن تقتل أي أولادٍ آخرين.

- لن أمنعك. لقد حققت كل ما أرغب في إنجازه، وقد ثبت أنني محق. لقد جعلتك تندم على عدم البحث عني في وقت أبكر. لو أنك فعلت ذلك، لكان بإمكانك أن تنقذ الكثير من الحيوات.

- أنت مجنون.

- قبل أن تقتلني، أود أن ألعب معك دورة ورق واحدة. أرجوك يا شقيقي، هذا أقل ما يمكنك أن تفعله لي.

وزّع أندريه الأوراق، ونظر ليو إليها.

- أرجوك يا شقيقي، لعبة واحدة. إذا لعبت، فسأطلب منك أن تقتلني.

أمسك ليو أوراقه، ليس بسبب وعد شقيقه، وإنما لأنه بحاجة إلى وقت ليصفّي ذهنه. كان بحاجة إلى أن يتخيل أن أندريه غريب. بدأا لعبتهما. ركّز أندريه وبدا قانعاً تماماً. سمع ليو صوتاً إلى جانبه، ففزع واستدار ليرى

فتاة صغيرة جميلة تقف عند أسفل الدرجات، وشعرها أشعث. بقيت واقفة على الدرجة السفلية، ومعظم جسدها محجوب عن الأنظار، وهي تراقبهما بتردد. وقف أندريه.

- ناديا، هذا شقيقي بافل.

- الشقيق الذي أخبرتني عنه؟ الشخص الذي قلت إنه قادم لزيارتنا؟

- نعم.

استدارت ناديا إلى ليو.

- هل أنت جائع؟ هل سافرت مسافة طويلة؟

لم يكن ليو يعرف ما ينبغي له أن يقوله. أجاب أندريه بدلاً منه:

- يجب أن تعودي إلى السرير.

- أنا مستيقظة الآن، ولن أستطيع العودة إلى النوم. لقد استلقيت في الأعلى وأنا أستمع إلى كلامكما. ألا يمكنني الجلوس معكما؟ أود لقاء شقيقك أيضاً، فأنا لم ألتقِ قط أياً من أفراد أسرتك. أود ذلك كثيراً. أرجوك يا أبي، أرجوك؟

- لقد قطع بافل مسافة طويلة ليجدني. لدينا الكثير لنتكلم عنه.

كان على ليو أن يتخلص من الفتاة الصغيرة، حتى لا يواجه خطر لمّ شمل أسري، وكؤوس من الشراب، وشرائح من اللحم البارد، وأسئلة عن ماضيه. فهو هنا ليقتل أندريه.

- ربما يمكننا تناول بعض الشاي، إذا كان لديكم بعض منه؟

- نعم، أعرف كيف أحضّر ذلك. هل أوقظ أمي؟

أجاب أندريه:

- لا، دعيها نائمة.

- إذاً، يمكنني تحضيره بنفسي.

- نعم، حضّريه بنفسك.

ابتسمت وعادت إلى الأعلى مسرعة.

شعرت ناديا بالإثارة وأسرعت بالصعود على الدرجات. كان شقيق والدها وسيماً، وخمّنت أن لديه عدداً من القصص المثيرة للاهتمام التي يرويها لها، فهو جندي، وبطل. يمكن أن يخبرها كيف تصبح قائدة مقاتلة، وربما كان متزوجاً من قائدة طائرة. فتحت الباب المؤدي إلى غرفة المعيشة، وشهقت حين رأت امرأة جميلة تقف في مطبخها. كانت تقف ساكنة تماماً، وإحدى يديها خلف ظهرها؛ وكأن يداً عملاقة قد امتدت عبر النافذة ووضعتها هناك؛ دمية في بيتٍ للدمى.

أمسكت ريزا السكين خلف ظهرها، والنصل الفولاذي يضغط على فستانها. كانت قد انتظرت ما بدا أنه وقت طويل على نحو لا يطاق، وفكّرت في أن خطأً ما قد وقع من دون شك في الداخل. كان عليها إنهاء ذلك بنفسها، وعندما دخلت عبر الباب، أدركت أنه ليس هناك عدد كبير من الأشخاص في الداخل مما أثار ارتياحاً في نفسها. رأت سريرين، وابنة ووالدة. من كانت تلك الفتاة أمامها؟ من أين جاءت؟ بدت سعيدة وتشعر بالإثارة. لم يكن هناك أي إحساس بالذعر أو الخوف. لم يمت أحد.

- اسمي ريزا. هل زوجي هنا؟

- هل تعنين بافل؟

بافل؟ لماذا كان يدعو نفسه بافل؟ لماذا كان يدعو نفسه باسمه القديم؟

- نعم...

- اسمي ناديا. تشرفت بلقائك. لم ألتقِ قط أياً من أفراد أسرة والدي.

أبقت ريزا السكين خلف ظهرها. أسرة؟ ما الذي كانت تلك الفتاة تتكلم عنه؟

- أين زوجي؟

- في الأسفل.

- أريده أن يعرف فقط أنني هنا.

تحركت ريزا نحو الدرجات، ووضعت السكين أمامها حتى لا تستطيع

ناديا رؤيتها. ثم دفعت الباب وفتحته.

مشت ريزا ببطء شديد، وهي تصغي إلى أصوات حديثٍ هادئ، ونزلت على الدرجات. أمسكت السكين أمامها، ومدّت يدها مرتعشة. ذكّرت نفسها أنه كلما انقضى وقت أطول قبل قتل ذلك الرجل، كلما أصبح الأمر أصعب. وصلت إلى أسفل الدرجات ورأت زوجها يلعب الورق.

* * *

أمر فاسيلي رجاله أن يطوقوا المنزل. لم يكن من الممكن أن يهرب أحد من هناك. كان يرافقه خمسة عشر رجلاً بالمجمل، معظمهم محليون ولا تربطه بهم أي صلة، وقد شعر بالخوف من أن ينفذوا القوانين بحذافيرها، ويعتقلوا ليو وزوجته، ولهذا قرّر أن يتولى الأمور بنفسه. كان سينهي هذا الأمر هنا، ويتأكد من تدمير أي دليل ربما يُفسّر لمصلحتهما. تقدم إلى الأمام وهو يحمل مسدسه، وتحرك رجلان معه، فأشار إليهما أن يبقيا في مكانيهما.

- امنحوني خمس دقائق، ولا تدخلوا إذا لم أنادكم. هل هذا واضح؟ إذا لم أخرج بعد خمس دقائق، فاقتحموا المنزل، واقتلوا الجميع.

* * *

كانت يد ريزا ترتعش، وهي تحمل السكين أمامها. لم يكن بمقدورها فعل ذلك؛ لم يكن بمقدورها أن تقتل ذلك الرجل الذي يلعب الورق مع زوجها. تقدم ليو نحوها.

- سأفعل ذلك.

- لماذا تلعب الورق معه؟

- لأنه شقيقي.

سمعوا صراخاً في الأعلى. كانت الفتاة الصغيرة تصرخ، ثم سمعوا صوت صياح؛ صوت رجل. وقبل أن يستطيع أحد فعل شيء ظهر فاسيلي عند أسفل الدرجات شاهراً مسدسه. جال ببصره في أرجاء المكان، وبدا محتاراً أيضاً، وهو يحدّق إلى الورق على الطاولة.

telegram @ktabpdf

مكتبة الرمحي أحمد

- لقد اجتزت مسافة طويلة من أجل لعبة ورق! كنت أظن أنك تطارد القاتل المزعوم، أم أن هذا جزء من عملية الاستجواب الجديدة؟

شعر ليو أن الأوان قد فات، وأنه لم يعد يستطيع قتل أندريه. فإذا قام بأي حركة مفاجئة فسيُقتل، وسيبقى أندريه حياً. وبالرغم من أن شقيقه قد أوضح له أن سبب القتل هو لمّ شملهما، وأنه لن يقتل مجدّداً، إلا أن ليو لم يصدّق أن أندريه يستطيع التوقف عن القتل. لقد فشل ليو، وقد تكلم حين كان يجب أن يتصرف. لقد غفل عن حقيقة أن أشخاصاً كثيرين يريدونه ميتاً أكثر من شقيقه.

- فاسيلي، أريدك أن تصغي إليّ.

- على ركبتيك.

- أرجوك...

أرجع فاسيلي زناد مسدسه إلى الخلف، فجثا ليو على ركبتيه. كان كل ما يستطيع فعله هو أن يطيع، ويتوسل، ويلتمس، متوقعاً أن ذلك الرجل تحديداً لن يستمع إليه، ولن يهتم بشيء إلا بثأره الشخصي.

- فاسيلي، هذا مهم...

ضغط فاسيلي المسدس على رأسه.

- ريزا، اجثي بجانب زوجك، افعلي ذلك الآن!

انضمت ريزا إلى زوجها، جنباً إلى جنب، في محاكاة للإعدام الذي حصل خارج مخزن الحبوب. تحرك المسدس خلف رأسها. أمسكت ريزا يده، وأغمضت عينيها، فصرخ ليو:

- لا!

رداً على ذلك نقر فاسيلي المسدس على رأسه، وهو يضايقه.

- ليو...

تلاشى صوت فاسيلي، واشتدت قبضة ريزا حول يد ليو. انقضت ثوانٍ أطبق فيها الصمت على المكان. لم يحدث شيء، فاستدار ليو إلى الخلف

telegram @ktabpdf مكتبة الرمحي أحمد

ببطء شديد.

كانت السكين المسننة قد دخلت ظهر فاسيلي وخرجت عبر بطنه، فيما كان أندريه ممسكاً بها. لقد أنقذ شقيقه. حمل السكين بهدوء - لم يتعثر أو يسقط - وطعن ذلك الرجل بقوة ومهارة. كان أندريه مسروراً، مثل الوقت الذي قتلا فيه الهر معاً.

نهض ليو، وأخذ المسدس من يد فاسيلي الذي كان الدم يسيل من طرف فمه. كان فاسيلي لا يزال حياً لكن عينيه لم تعودا ماكرتين، والخطط لم تعد تتكوّن في ذهنه. رفع يده، ووضعها على كتف ليو؛ وكأنه يودّع صديقاً، قبل أن ينهار. كان ذلك الرجل، الذي ركّز حياته كلها على اضطهاد ليو، ميتاً؛ لكن ليو لم يشعر بالارتياح أو الرضا، وكل ما استطاع التفكير فيه هو المهمة التي لم ينفّذها.

نهضت ريزا، ووقفت بجانب ليو، وبقي أندريه في مكانه. لم يفعل أحد شيئاً، ثم رفع ليو المسدس ببطء، وسدّد فوق نظارة شقيقه. وفي الغرفة الصغيرة، لم تكن المسافة التي تفصل بين فوهة المسدس ورأس شقيقه تزيد على قدم.

صرخ صوت:

- ماذا تفعل؟

استدار ليو، ورأى ناديا عند أسفل الدرجات. همست ريزا:

- ليو، ليس لدينا وقت طويل.

لكن ليو لم يستطع فعل ذلك. قال أندريه:

- شقيقي، أريدك أن تفعل ذلك.

مدّت ريزا يدها ووضعتها حول يد ليو، وضغطا الزناد معاً. أطلق المسدس رصاصة وارتدّ إلى الخلف. تراجع رأس أندريه إلى الخلف وسقط على الأرض.

عندما سمعوا صوت العيار الناري، اقتحم الرجال المسلحون المنزل،

telegram @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

ونزلوا مسرعين على الدرجات. ألقت ريزا وليو المسدس، وحدّق الضابط القائد إلى جثة فاسيلي. تكلم ليو أولاً، ويده ترتعش. أشار إلى أندريه؛ شقيقه الأصغر.

- هذا الرجل قاتل، وقد مات قائدكم وهو يحاول اعتقاله.

حمل ليو الصندوق الأسود، وفتحه من دون أن يعرف إن كان تخمينه صحيحاً، ووجد داخله مرطباناً زجاجياً مغلّفاً بورقة. فتح الغطاء، وأفرغ المحتويات على الطاولة، على أوراق اللعب. كانت معدة آخر ضحايا شقيقه، ملفوفة بنسخة من البرافدا. أضاف ليو، بصوت غير مسموع تقريباً:

- توفي فاسيلي بطلاً.

عندما تحرك الرجال نحو الطاولة، وهم يفحصون اكتشافه الرهيب، تراجع ليو إلى الخلف. كانت ناديا تحدّق إليه، وغضب والدها في عينيها.

موسكو

18 تموز

وقف ليو أمام الرائد غراتشيف في المكتب الذي رفض فيه إدانة زوجته. لم يتعرف ليو إلى الرائد، أو يسمع به من قبل، لكنه لم يُدهش من وجود شخص جديد في سدّة القيادة؛ لأن أحداً لم يكن يبقى وقتاً طويلاً في الدوائر العليا لجهاز أمن الدولة، وقد انقضت أربعة شهور منذ وقف هناك للمرة الأخيرة. لم تكن هناك فرصة هذه المرة بمعاقبتها بالنفي القسري أو بإرسالهما إلى غولاغ. ولا بدّ من أنه سيتم تنفيذ إعدامهما اليوم.

قال الرائد غراتشيف:

- كان قائدك السابق هو الرائد كوزمن الذي عيّنه بريا، وكلاهما معتقلان الآن. قضيتك الآن بين يديّ.

كان أمامه ملف القضية البالي الذي صودر في فوالسك. قلّب غراتشيف الصفحات، والصور، والإفادات، ووثائق المحكمة.

- وجدنا في ذلك القبو بقايا ثلاث معدات، قُلِيَت اثنتان منها. لقد استؤصلت من أولاد يافعين، ونحن نحاول أن نعرف هوية أولئك الضحايا. كنت محقاً. أندريه سيدوروف مجرم، وقد توثقت من خلفيته. يبدو أنه كان متعاوناً مع ألمانيا النازية وأُطلق سراحه خطأً ليعود إلى المجتمع بعد الحرب، بدلاً من التعامل معه على نحو صحيح. كانت تلك غلطة لا تُغتفر من جانبنا، فهو عميل نازي. لقد أعادوه مزوداً بتعليمات للانتقام منا بسبب انتصارنا على الفاشيين، وقد اتخذ ذلك الثأر شكل تلك الهجمات المروّعة على أولادنا الصغار؛ لقد استهدفوا مستقبل الشيوعية. الأكثر من ذلك، كانت

تلك حملة دعائية. أرادوا أن يظن شعبنا أن مجتمعنا يمكن أن يفرز مثل ذلك الوحش، في حين أن الغرب في الواقع أفسده وعلّمه، وغيّره في الوقت الذي أمضاه بعيداً عن وطنه، ثم أعاده بقلب أجنبي مسموم. لاحظت أن أياً من تلك الجرائم لم تقع قبل الحرب الوطنية العظمى.

توقف عن الكلام، وهو ينظر إلى ليو:

- أليست تلك فكرتك؟

- تلك هي فكرتي بالضبط يا سيدي.

مدّ غراتشيف يده.

- لقد أسديت وطنك خدمة جليلة، وقد أُمرتُ بأن أعرض عليك ترقية؛ منصباً أعلى في جهاز أمن الدولة، وهناك طريق واضح نحو دور سياسي إذا أردت ذلك. نحن في عهد جديد يا ليو. يعتبر قائدنا خروتشوف المشكلات التي واجهتها في أثناء تحقيقك جزءاً من أمورٍ لا تغتفر للحكم الستاليني. لقد أُطلِق سراح زوجتك. فلأنها ساعدتك على مطاردة ذلك العميل الأجنبي فقد أُجيب عن أي سؤال يتعلق بإخلاصها للدولة. لقد أصبح سجل كليكما نظيفاً، وسيستعيد والداك شقتهما القديمة، وإذا تعذر ذلك، فسيحصلان على شقة أفضل.

بقي ليو صامتاً.

- أليس لديك شيء تقوله؟

- هذا عرض سخي جداً، وقد تشرّفت به. تفهم أنني قد تصرفت من دون أي تفكير في ترقية أو سلطة. كل ما كنت أعرفه هو أنه يجب إيقاف ذلك الرجل.

- أفهم.

- لكنني أود السماح لي برفض عرضك، وتقديم طلبي الخاص بدلاً من ذلك.

- تابع.

- أود تولّي إدارة قسم جرائم القتل في موسكو. وإذا لم يكن مثل هذا القسم متواجداً، فأنا أود إنشاءه.

- ما الحاجة إلى مثل هذا القسم؟

- كما قلت بنفسك منذ قليل، ستصبح الجريمة سلاحاً ضد مجتمعنا. إذا لم يستطيعوا نشر دعايتهم عبر الوسائل التقليدية، فسيستخدمون طرائق غير معروفة. أظن أن الجريمة ستصبح جبهة جديدة في صراعنا مع الغرب، وأنهم سيستخدمونها لتقويض الطبيعة المتجانسة لمجتمعنا. وعندما يفعلون ذلك، فأنا أريد أن أكون متواجداً لأمنعهم.

- تابع.

- أود أن ينقل الجنرال نستروف إلى موسكو، وأن يعمل معي في هذا القسم الجديد.

فكّر غراتشيف في الطلب، وأومأ بمهابة.

* * *

كانت ريزا تنتظر في الخارج، وهي تحدق إلى تمثال دزرزينسكي. خرج ليو من المبنى، وأمسك يدها في عرض صفيق للحب أثار من دون شك اهتمام أولئك الذين يحدّقون إلى خارج لوبيانكا. لم يهتم بذلك. كانا بأمان، على الأقل في ذلك الوقت. كانت تلك المدة كافية وطويلة كما قد يأمل أي شخص. ألقى نظرة على تمثال دزرزينسكي، وأدرك أنه لا يتذكر شيئاً واحداً مما قاله ذلك الرجل.

telegram @ktabpdf مكتبة الرمحي أحمد

بعد أسبوع

telegram @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

موسكو

25 تموز

كان ليو وريزا جالسين في مكتب مدير الميتم 12، المجاور لحديقة الحيوانات. ألقى ليو نظرة على زوجته وسأل:

- ما الذي يؤخرهم؟

- لا أعرف.

- هناك خطب ما.

هزّت ريزا رأسها.

- لا أظن ذلك.

- لم يحبنا المدير كثيراً.

- بدا لي لطيفاً.

- لكن، ماذا يظن بنا؟

- لا أدري.

- هل تظنين أنه أحبنا؟

- لا يهم ما يفكر هو فيه، وإنما ما تفكران هما فيه.

نهض ليو، وهو يشعر بالقلق، وقال:

- يجب أن يوقّع على هذه.

- سيوقع على الأوراق. ليست تلك هي القضية.

جلس ليو مجدداً وهو يومئ:

- أنتِ محقة. أنا متوتر.

telegram @ktabpdf

مكتبة الرمحي أحمد

- وكذلك أنا.

- كيف أبدو؟

- على أحسن ما يرام.

- هل أبدو رسمياً جداً؟

- استرخِ يا ليو.

فُتح البَاب، ودخل المدير الغرفةَ، وهو رجل في العقد الرابع من عمره.

- لقد وجدتهما.

تساءل ليو إن كانت تلك عبارة مجازية أم إن كان قد فتّش المبنى فعلاً. تنحّى الرجل جانباً، فظهرت خلفه فتاتان يافعتان، زويا وإيلينا، ابنتا ميخائيل زينوفيف. كانت قد انقضت عدّة شهور منذ شهدتا إعدام والديهما فوق الثلج خارج منزلهما. وبدا التغيير الذي طال جسديهما في ذلك الوقت كبيراً، فقد نقص وزناهما، وأصبح لون جلدهما شاحباً. كان رأس الفتاة الصغرى، إيلينا - التي تبلغ من العمر أربع سنوات فقط - حليقاً، فيما كان شعر الفتاة الكبرى، زويا، قصيراً جداً. بدا أنهما قد أُصيبتا بالقمل بالتأكيد.

نهض ليو، ووقفت ريزا بجانبه، ثم استدار إلى المدير.

- هل يمكن أن نحظى بفرصة التحدث إليهما على انفراد؟

لم يحب المدير الطلب، لكنه امتثل وخرج من الغرفة وأغلق الباب خلفه. وقفت كلتا الفتاتين وهما تسندان ظهريهما إلى الباب بعيدتين عنهما قدر المستطاع.

- زويا، إيلينا، اسمي ليو. هل تتذكرانني؟

لم يلقَ جواباً، أو يظهر تغيير على وجهيهما. كانت عيونهما حذرة وتتوقع شيئاً خطراً. أمسكت زويا يد شقيقتها الصغرى.

- هذه زوجتي ريزا. إنها معلّمة.

- مرحباً زويا، مرحباً إيلينا. لِمَ لا تجلسان؟ الجلوس أكثر راحة.

حمل ليو الكرسيين ووضعهما قرب الفتاتين. وبالرغم من ترددهما، وخوفهما من التحرك بعيداً عن الباب، إلا أنهما جلستا، وهما لا تزالان تمسكان يدي بعضهما، ولا تقولان شيئاً.

جثم ليو وريزا على الأرض حتى يكونا أدنى من مستوى نظر الفتاتين، وبقيا بعيدين عنهما. كانت أظفار الفتاتين سوداء - بدت مثل خطوط كاملة من السخام - لكن أيديهما نظيفة. كان من الواضح أنهما قد رُتّبتا على عجل قبل اللقاء. بدأ ليو:

- أريد وزوجتي أن نعرض عليكما منزلاً؛ منزلنا.

- لقد شرح لي ليو سبب وجودكما هنا. أنا آسفة إن كان الكلام عن هذا الأمر يزعجكما، لكن من المهم أن نقول هذه الأشياء الآن.

- بالرغم من أنني حاولت منع قتل والدتكما ووالدكما، إلا أنني فشلت. ربما لا تريان فرقاً بيني وبين الضابط الذي اقترف تلك الجريمة البشعة، لكنني أعدكما بأنني مختلف.

تردد ليو، وصمت مجدّداً، وهو يستعيد رباطة جأشه:

- قد تشعران أن العيش معنا يعني عدم الوفاء لوالديكما، لكنني أظن أنهما كانا سيرغبان في الأفضل لكما، ولن تقدم الحياة في دار الأيتام هذه شيئاً لكما. أنا واثق أنكما تفهمان ذلك أكثر من أي شخص آخر بعد مرور أربعة شهور.

تابعت ريزا:

- ندرك أن هذا قرار صعب نطلب منكما اتخاذه. كلتاكما يافعتان جداً. لسوء الحظ نعيش في وقت يُرغم فيه الصغار على اتخاذ قرارات تتعلّق بالراشدين. إذا بقيتما هنا، فستكون حياتاكما صعبتين، ولن تصبحا أسهل على الأرجح.

- أريد وزوجتي أن نعرض عليكما استعادة طفولتكما، فرصة للاستمتاع بشبابكما. لن نأخذ مكان والديكما، فلا أحد يستطيع أن يحل محلهما. سنكون حارسيكما، وسنعتني بكما، ونطعمكما ونمنحكما منزلاً.

ابتسمت ريزا وأضافت:

- لا نتوقع شيئاً بالمقابل. لا ينبغي لكما أن تحبانا، وليس عليكما حتى أن تُعجبا بنا، بالرغم من أننا نأمل أن تفعلا ذلك في نهاية المطاف. يمكنكما الاستفادة منا للخروج من هنا.

أضاف ليو حين أحس أن الفتاتين تريدان أن ترفضا:

- إذا رفضتما، فسنحاول العثور على أسرة أخرى تأخذكما، أسرة لا علاقة لها بماضيكما. إذا كان ذلك أسهل لكما، يمكن أن تخبرانا. الحقيقة هي أنني لا أستطيع إصلاح ما حدث. على أيّ حال، يمكن أن نقدم لكما مستقبلاً أفضل، ولا نتوقع شيئاً بالمقابل. سيكون لديكما بعضكما بعضاً، وغرفتكما الخاصة، لكن ستنظران إليّ دائماً بصفتي الرجل الذي جاء إلى مزرعتكما، الرجل الذي أتى لاعتقال والدكما. ربما ستتضاءل تلك الذكرى مع مرور الوقت، لكنكما لن تنسياها أبداً. سيجعل ذلك علاقتنا معقدة، لكنني أظن، من وجهة نظر شخصية، أنها ستكون ناجحة.

جلست الفتاتان صامتتين، وهما تحدّقان إلى ليو، وإلى ريزا. لم يصدر عنهما أي رد فعل أو تغيِّرا موقعيهما، وبقيتا جالستين على الكرسيين وهما تمسكان يدي بعضهما. علّقت ريزا:

- أنتما حرّتان في قبول العرض أو رفضه. يمكنكما أن تطلبا منا العثور على أسرة مختلفة. الأمر كله يعود إليكما.

وقف ليو.

- سأذهب وزوجتي في نزهة، وسنتركما لتتكلما عن الأمر، وحدكما.

ستكونان في هذه الغرفة بمفردكما. اتخذا القرار الذي ترغبان فيه، ولا سبب يدعوكما إلى الشعور بالخوف.

مشى ليو حول الفتاتين وفتح الباب. وقفت ريزا وخرجت إلى الردهة، وتبعها ليو، ثم مشيا معاً على طول الرواق، وهما يشعران بتوتر لم يشعرا به من قبل في حياتهما.

* * *

في المكتب، عانقت زويا شقيقتها الصغرى.

telegram @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

44 إحصائية ستالينية

1. عام 1919 كان هناك 21 معسكر اعتقال رسميًّا في روسيا.
2. عام 1920 أصبح العدد 107.
3. عام 1930 كان هناك 179,000 سجين في غولاغ.
4. عام 1953، السنة التي توفي فيها ستالين، كان هناك 2,468,524 سجيناً.
5. عدد السجينات اللواتي كن حوامل هو 6,286.
6. العدد الإجمالي للأشخاص الذين يعملون قسراً في اتحاد الجمهوريات السوفييتية هو 28.7 مليوناً.
7. في 12 تشرين الثاني عام 1938 كان عدد أوامر الإعدام التي وقعها ستالين هو 3,167.
8. عدد عمليات الإعدام السياسية بين عامي 1930 و1953 هو 786,098.
9. عدد السجناء الذين نقلتهم سفينة غولاغ إنديغير كا 1500.
10. عدد قوارب النجاة على السفينة إنديغيريكا هو 0.
11. عدد السجناء الذين ماتوا حين غرقت السفينة 1000.
12. عدد رسائل الاستغاثة التي أرسلها أفراد الفريق هو 0.
13. وزن حصّة الخبز الممنوحة لعامل في غولاغ عام 1940 هو 550 غراماً في اليوم.
14. وزن كمية الفحم التي يتوقع أن يستخرجها العامل في اليوم للحصول على تلك الحصة من الخبز هو 5.5 أطنان.
15. كمية الخبز المسروق في الأشهر الستة الأخيرة من عام 1946 من 34 معسكراً هي 70,000 كيلوغرام.
16. الارتفاع المحدد لدلو مرحاض - باراشا - في زنزانة احتجاز مخصصة

telegram @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

للذكور هو 55 سنتيمتراً.

17. الارتفاع المحدد لدلو مرحاض في زنزانة للإناث هو 30 سنتميتراً.
18. عدد الأطفال في ميتم ستاليني عام 1940 هو 212.
19. عدد الملاعق في الميتم نفسه هو 12.
20. عدد الأطباق في الميتم نفسه هو 20.
21. عدد الأولاد المشردين عام 1943 هو 45-842,144.
22. عدد أولئك الأولاد الذين أرسلوا إلى معسكرات العمل هو 52,830.
23. عدد دور العبادة في موسكو قبل الثورة هو 460.
24. عدد دور العبادة في موسكو بحلول 1 كانون الثاني عام 1933 هو 100.
25. العدد الإجمالي للكتّاب في أوكرانيا عام 1935 هو 240.
26. عدد الكتّاب الذين اختفوا من أوكرانيا هو 200.
27. عدد القرويين الذين ماتوا في أثناء المجاعة الرهيبة والتأميم بين عامي 1930 و1933 هو 14.5 مليوناً.
28. في أثناء ترحيل كولاك (مزارعين روس أثرياء) عام 1933، كان عدد الوفيات الإجمالي في مقاطعة واحدة في إقليم بولتافا هو 7,113.
29. عدد الصغار تحت سن 18 من بين الوفيات 7,113 المذكورة سابقاً هو 3,549.
30. عدد الصغار السوفييت الذين يقدر أنهم توفوا بين عامي 1932 و1934 بسبب المجاعة والإعدام هو 3 إلى 4 ملايين.
31. عدد الدقائق التي إذا تأخرها العامل يتعرض لعقوبة هو 20.
32. عدد الأشخاص الذين كانوا يصطفون خارج أحد المتاجر في لينينغراد للحصول على البقالة هو 6000.
33. معدل مساحة العيش في موسكو عام 1940 للشخص الواحد هو 4 أمتار مربعة.
34. عام 1938 كانت المسافة الإجمالية لأنابيب الصرف الصحي في

telegram @ktabpdf مكتبة الرمحي أحمد

ستالينغراد هي 0.

35. عدد سكان نوفوسيبيرسك عام 1929 هو 150,000.
36. عدد الحمّامات لكل سكان نوفوسيبيرسك هو 3.
37. عام 1937، كانت نسبة كل الرجال المتزوجين بين أعمار 30 و39 هي 91 بالمئة.
38. عام 1937، كانت نسبة كل النساء المتزوجات بين أعمار 30 و39 هي 82 بالمئة.
39. المبلغ الذي يُدفع للأمهات اللواتي ينجبن سبعة أطفال أو أكثر هو 2000 روبل سنوياً.
40. ثمن زوج من الأحذية هو 12 روبل.
41. في منطقةً موسكو، كان عدد الأسر المسجل لديها 8 أولاد هو 2,730.
42. في منطقة موسكو، كان عدد الأسر المسجل لديها 9 أو 10 أولاد هو 1,032.
43. في شاخوفسكوي، كان عدد الأولاد في أسرة واحدة هو 15.
44. العمر الذي يمكن إعدام ولدٍ فيه هو 12 سنة.

مكتبة الرمحي أحمد

telegram @ktabpdf

مكتبة الرمحي أحمد

دخلت اللائحة الطويلة لترشيحات «جائزة مان بوكر» 2008.

موضوعة على لائحة الإنتاج لتتحول إلى فيلم سينمائي من إخراج ريدلي سكوتّ.

في الاتحاد السوفييتي في الحقبة الستالينية، ليست هناك جريمة، لكن، بالرغم من ذلك، يعيش الملايين خائفين. فمجرّد الاشتباه في عدم الولاء للدولة، وقول الكلمة الخطأ في الوقت الخطأ، يمكن أن يرسلا شخصاً بريئاً إلى حتفه.

يظن الضابط ليو دميدوف، بطل الحرب المثالي، أنه يبني مجتمعاً نموذجياً. لكن، وبعد أن يشهد استجواب رجل بريء، يبدأ ولاؤه بالتذبذب، وعندما يؤمر بالتحقيق في أمرٍ يخصّ بزوجته، يضطر ليو إلى اختيار الجهة التي يميل إليها قلبه حقاً.

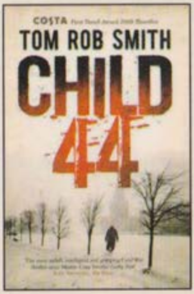

ثم يحدث المستحيل. هناك مجرم طليق، يقتل كما يشاء، فتتحطم كل معتقدات ليو، الذي يدينه أعداؤه ويُنفى من وطنه، ولا يقف أحد إلى جانبه سوى زوجته ريزا، فيخاطر بكل شيء للعثور على المجرم الذي لا يعترف النظام حتى بوجوده.

في أثناء هروبه وبحثه، سرعان ما يكتشف ليو أن الخطر الذي يواجهه ليس من القاتل الذي يحاول اعتقاله، وإنما النظام البوليسي الذي يحاول حمايته.

وُلد **توم روب سميث** عام 1979 لأم سويدية وأب إنكليزي، وترعرع في لندن حيث لا يزال يعيش. «رجل النظام البوليسي» هي باكورة أعماله، وهي الجزء الأول من ثلاثية يحمل الجزء الثاني منها عنوان «الحديث السري» ويتضمن أيضاً شخصية ليو ديميدوف وزوجته ريزا. أما الجزء الثالث، «العميل 6»، فمن المقرر أن يصدر لاحقاً هذا العام.